طبع بأمر من صاحب الجلالة أمير المومنين الحسن الثاني نصره الله

المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية



للفقيه أبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي

(627-708هـ/1230-1308م)

دراسة وتحقيق
الأستاذ محمد شعباني

1410هـ - 1990م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

تقـــديــم

وبعد، فإنه لم ينل كتاب من الكتب عبر أجيال هذه الأمة الاسلامية من دقيق العناية وكبير الاهتمام، وبالغ التقديس والاحترام ما ناله القرآن الكريم حفظاً وقراءة، تعليماً ودراسة، تبييناً وتفسيراً.

وإذا كان جيل الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين قد بادر بتلقي القرآن المبين فحفظوه لنا حرفاً حرفاً، وكلمة كلمة، وآية آية، وسورة سورة، منذ بداية نزوله على خاتم الأنبياء والمرسلين، وإلى حين جمعه في المصحف في عهدي أبي بكر وعثمان، رضي الله عنهما، تحقيقاً لوعد الله تعالى : «**إنا نحن نزلنا الذكر، وإنا له لحافظون**»، فإن ما تعاقب من أجيال هذه الأمة قد تابع مسيرتهم ونهجهم في حفظ كتاب الله وتعليمه، ومدارسته وتفسيره، مما أثمر لنا مكتبة قرآنية تنوعت علومها وفنونها، وتشعبت جوانبها وفروعها، وأصبحت تعز عن الحصر، وتجل عن الوصف، وبقي القرآن بفضل ذلك خالدا خلود الاسلام، يتحدى بإعجازه مختلف الأزمان والأعصار، ويظل مقروءاً على تعاقب الأجيال، تتوارد عليه جيلا بعد جيل، ويبقى أبداً ثري المورود، سخي العطاء، كلما حسب جيل أنه بلغ منه الغاية امتد أمامه الافق بعيداً عاليا، يفوق طاقة الدارسين والمفسرين.

وقد تبلورت في هذا المجال دراسات وأبحاث، وألفت كتب ومجلدات، ودارت حول إعجازه مذاكرات ومناقشات، ومحاورات ومساجلات، وحسبك من ذلك، الكتب الشهيرة عبر تلك الأجيال، مثل كتاب نظم القرآن للسجستاني، وإعجاز القرآن لأبي عبد الله الواسطي، وبيان إعجاز القرآن للخطابي، وإعجاز القرآن للباقلاني، ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، ونهاية الإيجاز في دراية

الإعجاز للإمام فخر الدين الرازي، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبُقاعي، والإتقان في علوم القرآن، ومعترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي، وإعجاز القرآن لمصطفى صادق الرافعي، وغيرها من المؤلفات القيمة في هذا المجال.

وياتي كتاب : «البرهان في ترتيب سور القرآن» لأبي جعفر بن الزبير الغرناطي، من علماء القرن السابع الهجري في صدارة تلك المؤلفات ومقدمتها، بل يعتبر أول كتاب فريد في بابه، كشف فيه مؤلفه عن نوع من إعجاز القرآن، القائم على ترابط أجزائه وتلاحم آياته وتناسق سوره.

وبالنظر إلى نزوله منجماً ومفرقاً حسب الوقائع والأحداث، والدواعي والأسباب المتجددة على نيف وعشرين سنة، وإلى ترتيبه في القراءة والمصحف لا على حسب النزول، ولا على حسب المعهود في تأليف الكتب، وإنما على حساب نظام غير مألوف، وأسلوب ونهج جديد غير معروف، بالنظر إلى ذلك كله، وإلى أحوال صاحب هذه الرسالة الإسلامية عليه الصلاة والسلام، من كونه أمياً لا يقرأ ولا يكتب، يتبين لكل عاقل منصف أن القرآن الكريم بخصائصه المتميزة يستحيل صدوره من اي بشر مهما بلغ من العلم والعبقرية والنبوغ، فضلا عن أن يصدر عمن لا يقرأ ولا يكتب، وصدق الله العظيم القائل في محكم كتابه الحكيم : «**قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن ياتوا بمثل هذا القرآن لا ياتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا**».

وهذا الكتاب في دراسته وتحقيقه أعده الأستاذ محمد الشعباني وقدمه رسالة جامعية نال بها دبلوم الدراسات الاسلامية العليا من دار الحديث الحسنية، تلك المؤسسة الخالدة التي أسسها أمير المؤمنين جلالة الحسن الثاني على تقوى من الله ورضوان لتكون منهلاً للعلوم الإسلامية، ومركزاً لإشعاعها الديني والحضاري داخل المغرب وخارجه، فأخذت تعطي باستمرار نتائجها الحسنة وتوتي ثمارها الطيبة في تخريج العلماء، وإسهامهم بالبحوث والدراسات القيمة في النهضة العلمية والحضارية التي يشهدها العهد الحسني الزاهر الميمون. والكتاب من خلال الاشارة

الى موضوعه ومحتواه، تبدو أهميته العلمية ومكانته بين مكتبة الدراسات القرآنية والمؤلفات فيها.

وإن وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية التي دأبت على العناية بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، وفي إطار رسالتها الدينية والحضارية التي تضطلع بها في مجال إحياء التراث الإسلامي ودعم الثقافة الإسلامية وطبع مؤلفاتها المخطوطة القيمة، وغيرها من الدراسات الإسلامية الجادة، تواصل سعيها في هذا المضمار، وتتابع مسيرتها بخطى حثيثة وعزيمة ثابتة، تهدف الى خدمة العلم والدين، ونفع الاسلام والمسلمين.

وتتوجه إلى الله العلي القدير أن يجعل طبع هذا الكتاب في صحيفة مولانا أمير المومنين، وحسنة من حسناته الخالدة، وأن يبارك في عمره وحياته، ويبقيه ذخراً وملاذاً للبلاد والعباد، ويقر عينه بولي عهده المحبوب سمو الأمير الجليل سيدي محمد، وصنوه المجيد سمو الأمير مولاي رشيد، وأن يحفظه في كافة أفراد أسرته الملكية الشريفة، إنه سميع مجيب.

وزير الأوقاف والشؤون الاسلامية
الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهــــداء

إلى من كانا سبباً في وجودي : أبي وأمي،
وإلى من عمل وساهم في تربيتي وتعليمي :
معلمي وأساتذتي وشيوخي

أقدم باكورة عملي

مقدمة

الحمد لله الذي جعل القرآن آية باهرة، وحجة ظاهرة، تتحدى الإنس والجن أن ياتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، والصلاة والسلام على سيدنا محمد مبلغ الرسالة الأمين، والمبعوث رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً.

وبعد :

فإن القرآن الكريم كان ولا يزال عبر تاريخ هذه الأمة كتابها الخالد ودستورها الفريد، منه تستمد أخلاقها وتشريعها، وفيه تجد طمأنينتها وملاذها، وبفضله ازدهرت علومها ومعارفها، فتكونت علوم اللغة العربية بكافة فروعها، وقامت على أساسه علوم القرآن بكل فنونها، ونما في أحضانه علم الأصول والفقه وغيرها.

إن عظمة القرآن وخلوده، تتجلى أساساً في بيانه المعجز وإعجازه البين، وإن جمعه بين البيان والإعجاز لأعظم حجة على خلوده واستعصائه على الجاحدين والمنكرين، ذلك أن الله عز وجل اقتضت حكمته أن يكون هذا الكتاب المنزل على سيدنا محمد حجة على قومه وعلى سائر الأقوام من بعده إلى يوم الدين، ولذلك فإن ما اشتمل عليه من الإعجاز، ليقوم حجة قاطعة، ومعجزة ساطعة على بني الانسان، وكلما تقدم الانسان في العلم المادي وتعمق في البحث العلمي، الا وانكشف له من وجوده اعجازه ما يخرس الممترين، ومن ساطع براهينه ما يثمر الطمأنينة ويرد اليقين.

ولئن قامت على أساس إعجاز القرآن دراسات من السابقين واللاحقين، فإن مما تداركه ابن الزبير الغرناطي المتوفى سنة 708هـ على سابقيه، هو دراسة العلاقة بين سور القرآن الكريم التي تتفاوت طولا وقصراً،في كتابه : «البرهان في ترتيب سور القرآن»، علماً بأن بعض قصيرها نزل قبل طويلها، وأن بعض ما نزل منها

أولا وضع في الترتيب آخراً، مما جعل ابن الزبير ومن أتى بعده وحذا حذوه يتساءل عن كيفية ترتيب القرآن الكريم هل كان بتوقيف من الشارع تحقيقا لقوله تعالى : «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» أم أنه كان عملاً من أعمال الصحابة ليس إلا ؟

وإذا كانت المكتبة القرآنية تعز على الحصر، فإننا لم نجد كتاباً يجلي هذه القضية الهامة قبل ابن الزبير إلا في نثرات هنا وهناك ضمن تفاسير القرآن والدراسات القرآنية، حيث نجده وقد فتح هذا الباب بفن مستقل، وتأليف قائم بذاته يجلي فيه العلاقة بين سور القرآن الكريم جميعها، ولجه من بعده آخرون كثيرون، بل قل ما تجد من درس التفسير وعانى في تفسير القرآن الكريم بعد هذا الإمام إلا واقتبس منه أو حاول أن يسلك مسلكه...

ولا تخفى أهمية هذه الدراسة التي تاتي بنوع جديد من الإعجاز القرآني وتبين مدى ما في ترتيب سور القرآن من ترابط وتناسب، ذلك أن القرآن الكريم الذي يراه الغِرُّ المبتدىء مقسماً إلى سور، يظن لأول وهلة أنه لا رابط بينها ولا انسجام، وهذا ما ينفيه هذا الإمام العظيم في كتابه هذا، وسيتأكد القارىء للقرآن الكريم من خلال هذا البحث أنه مترابط السور، محكم الآيات، وكلما تعمق القارىء أو الدارس في تأمله ودراسته، ازدادت هذه الحقيقة رسوخاً عنده حتى يصل في النهاية إلى ما وصل إليه الكثير ممن انقطعوا للقرآن ودراسته، من أن القرآن كله كالكلمة الواحدة التي لا تدل على كمال المعنى الا بتأليف حروفها.

وإذا كان تحقيق هذا المخطوط، يعد عملاً تبرز من خلاله قيمة علمائنا الأعلام، ونفائس مخطوطاتهم التي ما تزال في طي المجهول، فإن تراث هذه الأمة العظيمة، ما يزال في معظمه مغموراً في بطون المخطوطات التي تزخر بعطاء علمائنا الافذاذ، وإنتاجاتهم القيمة، وأعمالهم الجليلة.

وإنه ليسعدني أن أساهم بجهدي المتواضع في القيام بدراسة وتحقيق كتاب «البرهان» استشعاراً مني بضرورة إحياء روح هذه الامة لمعاودة نهضتها، واستئناف

دورها الحضاري المتمثل في الشهادة على الانسانية، وإنقاذ البشرية من شقوتها الجاهلية.

هذا، ولقد وجدت نفسي بعد اختياري لهذا الموضوع أمام محورين اثنين يشكلان أساس هذه الدراسة ومدخلها الرئيسي.

الموضوع الأول يتعلق بدراسة جمع القرآن وترتيبه، والتناسب المراعي في ذلك، والموضوع الثاني يتعلق بدراسة شخصية ابن الزبير والوضع السياسي والعلمي في عصره.

فبالنسبة للموضوع الأول : قمت بدراسة سلطت فيها الضوء على مراحل جمع القرآن وتدوينه في عهد نزوله وحرص الصحابة على جمعه وحفظه، ودواعي هذا الجمع في عهد الخليفتين أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما، وإجماع الصحابة بعد ذلك على الجمع العثماني وإقرار عثمان على عمله بإنفاذ نسخ من المصحف الإمام إلى مختلف الأقطار الإسلامية وتحريق ما عداه من المصاحف الفردية.

ثم انتقلت بعد ذلك إلى موضوع ترتيب الآيات مبرزاً النصوص الوفيرة الدالة على توقيفية ترتيبها، وأعقبتها بالحديث عن ترتيب السور، فأوردت آراء العلماء في ذلك، حيث رجحت ما ذهب إليه جملة من العلماء من أن ترتيب السور توقيفي كترتيب الآيات سواء بسواء، مستعرضاً الحجج والبراهين المعتمدة في ذلك.

ثم تعرضت إلى ترتيب القرآن حسب نزوله، وبينت مدى ما في ترتيب القرآن كما هو في المصحف من إعجاز، وكان الأولى أن يرتب إما بحسب تجانس الموضوعات، وإما بحسب ترتيب نزوله الأول فالأول، إلا أن كل ذلك لم يقع، ووقع الإجماع ممن شاهدوا نزول الوحي على الترتيب المعهود، مما يدل على وجود أحكامه بهذا الوضع في وقت سابق لنزول القرآن على قلب سيدنا محمد ﷺ.

ثم فندت دعوى القائلين بإعادة ترتيب القرآن على حسب نزوله، وما يمكن أن تثيره هذه الدعوى من شكوك حول سلامة النص القرآني إذا ما سلمنا بفتح

باب إعادة ترتيب القرآن، دون أن أغفل موقف بعض المستشرقين من اختلاف بعض المصاحف الفردية التي كانت لدى الصحابة، واستثمار ذلك لخدمة أغراضهم بالتشكيك في المصدر الرباني للقرآن الكريم، وتنزيله منزلة الكتب البشرية التي تخضع للتبديل والتغيير والزيادة والنقصان، مجانبين في ذلك ــ غالباً ــ الموضوعية في البحث والدقة في النقل، يدفع الكثيرين منهم ركام من الخلفيات الفكرية للصراع الحضاري بين المسيحية والإسلام.

أما بالنسبة للموضوع الثاني وهو ما يتعلق بشخصية ابن الزبير وعصره، فقد قمت بدراسة عنه، تناولت مختلف الجوانب التي اكتنفت حياته وعصره، فبدأت بترجمته مستقرئاً كل من ترجم له حيث استخرجت من تلك التراجم ــ التي تكررت في كثير من الأحيان، واختلفت في أحيان أخرى ــ اسمه ونسبه، ومولده ونشأته، ومكانته العلمية، مبرزاً مساهماته وعطاءاته العلمية في مختلف العلوم والفنون التي كانت سائدة في عصره، كعلوم القرآن والتفسير وعلوم الحديث والرواية، وعلم العربية والنحو وعلم الأصول والفقه... الخ.

ثم بعد ذلك تتبعت في كتب التاريخ والتراجم شيوخ ابن الزبير الذين تتلمذ عليهم في مختلف الفنون فأحصيت منهم أربعة وتسعين شيخاً ممن تلقى عنهم قراءة أو مكاتبة، مما يعكس حبه في طلب العلم وولوعه بالرحلة الى العلماء.

كما تتبعت أيضاً تلامذته الذين كانوا يقصدونه من مختلف الأمصار للرواية وطلب العلم، فأحصيت عدداً منهم، كان من بينهم القضاة، والكتاب، واللغويون، والمفسرون وغيرهم.

ثم تعرضت إثر ذلك الى مؤلفاته المتنوعة والتي برزت من خلالها شخصيته العلمية التي تفاعلت مع بيئته والظروف المحيطة به أخذاً وعطاء.

ثم انتقلت للحديث عن عصره فسلطت الأضواء على نهاية عصر الموحدين، وسقوط المدن والقواعد الكبرى في يد النصارى، وظهور زعامة ابن هود، ثم ابن الأحمر الذي حاول لمَّ الشمل وصد هجمات الصليبيين على الثغور

والحصون المتبقية في يد المسلمين الذين عصفت بهم رياح التفرقة، ومزقتهم مطامع الـزعـامــة.

في ذلك الوضع المتأزم سياسياً واجتماعياً، قمت برصد الحياة العلمية، في عصر ابن الزبير، حيث اشتهرت عدد من البيوتات والأسر في الأندلس بتعلم العلم ونشره وتوريثه، ومنها أسرة ابن الزبير، وأسرة بني منظور القيسي المالقي، وأسرة عبد الرحمن اللخمي، وغيرها من الأسر التي كانت نجوماً في سماء العلم والمعرفة.

ثم تتبعت مراكز الإشعاع العلمي في هذا العصر والمبثوثة في مختلف حواضر الأندلس التي كان يتحلق فيها طلاب العلم حول الشيوخ في مساجدها الكبرى، مثل جيان والجزيرة الخضراء، ومرسية ورندة، ووادي آشي، وغرناطة، وقرطبة، ومالقة، وغيرها من المراكز التي كانت ــ ويا حسرتاه ــ محط رحال كثير من طلاب العلم الذين كانوا يفدون عليها من مختلف مدن الأندلس بل وحتى من المغرب والمشرق.

كل هذا ساهم وبشكل رئيسي في استمرار جذوة العلم مشتعلة، وساهم في حفظ ما تبقى للأندلس من روح ووجود رغم ما كانت تُفجأ به من أعاصير الحقد الصليبي، والتناحر الطائفي اللذان كانا يعصفان باستقرارها وتماسك أطــرافـهــا.

كما تتبعت في هذا السياق أيضاً حركة التأليف في هذا العصر التي تأثرت إلى حد ما بالوضع السياسي وانحسار الوجود الإسلامي، وذلك حتى ترتسم الصورة واضحة لمختلف العوامل التي عاصرها ابن الزبير وأثرت فيه، فجاءت شخصيته انعكاساً لما تميز به عصره من علوم لغوية وشرعية، وليس الإنسان ــ كما يقال ــ إلا ابن بيئته وعصره.

وبعد أن فرغت من دراسة الموضوعين المذكورين، ألقيت أضواء على المخطوط، فقمت بتحقيق عنوان الكتاب ونسبته إلى صاحبه، وعرفت بنسخ المخطوطة التي اعتمدتها في التحقيق مبرزاً قيمة كل نسخة على حدة، ثم أوضحت منهج التحقيق الذي سرت عليه في تقديم النص على الوجه المطلوب، دون أن

أغفل بيان الإشارات والرموز التي اعتمدتها في التحقيق، ثم خلصت أخيراً إلى تحقيق نص الكتاب.

وقد كان لعدد من أساتذتي فضل كبير علي في تشجيعي ومساعدتي من اجل إنجاز هذا العمل اذكر من بينهم أستاذي الجليل الدكتور عبد السلام الهراس، وأستاذي العلامة محمد المنوني ومدير دار الحديث الحسنية الدكتور محمد فاروق النبهان وغيرهم ممن مدوا لي يد المساعدة دون جزاء أو شكور محتسبين عملهم لوجه الله تعالى.

فإلى هؤلاء وإلى كل الاخوة والأصدقاء الذين ساعدوني وإلى إدارة دار الحديث الحسنية، وقيمي الخزانة الملكية والخزانة العامة بالرباط، أتقدم بخالص الثناء والتقدير. سائلا الله تعالى الصدق في القول والاخلاص في العمل.

«ربنا لا تواخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به، واعف عنا، واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين».

محمد شعباني

الرباط في يوم الجمعة

26 رجب 1410 هـ / 22 فبراير 1990

تصميم البحث

القسم الأول

المبحث الأول : جمع القرآن وتدوينه

المبحث الثاني : ترتيب سور القرآن

المبحث الثالث : التناسب وجه من وجوه الإعجاز

* * *

القسم الثاني

عصر ابن الزبير وترجمته ومؤلفاته

المبحث الأول : عصر ابن الزبير

ـ الحالة السياسية

الحياة العلمية

المبحث الثاني : ترجمة ابن الزبير ومؤلفاته

المبحث الثالث : كتاب «البرهان في ترتيب سور القرآن»

القســم الأول

المبحث الأول : جمع القرآن وتدوينه

المبحث الثاني : ترتيب سور القرآن

المبحث الثالث : التناسب وجه من وجوه الإعجاز

المبحث الأول

جمع القرآن و تدوينه

جمع القرآن وتدوينه

إن القرآن الكريم الذي يتداوله المسلمون اليوم بين دفتي المصحف[1] ويتكون من 114 سورة، تبتدىء بسورة الفاتحة وتنتهي بسورة الناس، وتتفاوت سوره في الطول والقصر، وتتدرج سوره في ترتيبها بوجه عام حسب طولها، تتقدمها السور الطويلة ثم المتوسطة ثم القصيرة.

إن هذا القرآن لم يكن على هذا الترتيب في حياة الرسول ﷺ، فقد قبض عليه السلام ولم يكن القرآن جمع في شيء كما قال الخطابي : «إنما لم يَجمع ﷺ القرآن في المصحف، لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته».[2]

لقد كان نزول القرآن مفرقاً منجماً على مدى حوالي عشرين سنة[3] بحسب الأسباب[4] المقتضية لذلك، ومع ذلك فقد أمكن جمع هذا المصحف وتصنيفه في سلسلة ذهبية مترابطة الحلقات متآخية الفقرات، منسجمة العبارات متناسقة المعاني والإشارات، لا تنبو كلمة عن كلمة، ولا تنفر آية من آية، بل جاء كله ــ رغم تباعد الزمن ــ في غاية الفصاحة والبلاغة وروعة الاحكام والانسجام، ودقة التناسب والالتحام.

لقد كان الرسول ﷺ يتلو كل جزء ينزل عليه ويعلمه للسامعين ليصل عن طريقهم إلى من لم يسمعه من فم الرسول مباشرة، وكان الناس جميعاً ينتظرون

---

(1) قال السيوطي : «أخرج ابن أبي أشتة في كتاب المصاحف عن ابن بريدة قال : أول من جمع القرآن في مصحف سالم مولى أبي حذيفة أقسم لا يرتدي برداء حتى يجمعه فجمعه ثم ائتمروا ما يسمونه ؟ فقال بعضهم سموه السفر، قال : ذلك اسم تسمية اليهود فكرهوه، فقال رأيت مثله في الحبشة يسمى المصحف فاجتمع رأيهم على أن يسموه المصحف» الاتقان : 1ـــ166.

(2) الاتقان : 1 /124.

(3) أخرج النسائي عن ابن عباس قال : «نزل القرآن في رمضان ليلة القدر، فكان في السماء الدنيا، فكان اذا أراد الله أن يحدث شيئا نزل فكان بين أوله وآخره عشرون سنة». انظر فضائل القرآن للنسائي تحقيق د. فاروق حمادة ص : 59 ط، 1 دار الثقافة.

(4) سبب النزول هو الحادث الذي نزلت الآيات القرآنية متحدثة عنه أو مبينة لحكمه أو موضحة لأمره.

الوحي بشغف، ويتمنون أن يتلقوه فور نزوله، كما أن أعداء الرسول أنفسهم الذين لم يكونوا يهملون شأن القرآن، كانوا يحرصون على سماعه إما للبحث في نقط ضعف فيه تعينهم على مغالبته أو مهاجمته، وإما لإشباع حاجتهم الملحة في التذوق الأدبي.(5)

أما بالنسبة للصحابة، فقد كان اهتمامهم بالقرآن يفوق كل شيء، فهو بالنسبة إليهم غذاء الروح وقاعدة السلوك ومادة العبادة، وأداة الدعوة إلى الإسلام وقانونهم الجوهري ودستورهم في كل شؤون الحياة، ولذلك لم يقتصروا على اعتبار النص المنزل قرآناً يتلى ويقرأ، بل تجاوزوا ذلك إلى حفظه في الصدور، وكتابته بالمداد. ولهذا كان الرسول ﷺ كلما جاءه الوحي وتلاه على الحاضرين أملاه من فوره على كتبة الوحي ليدونوه على أي شيء كان في متناول أيديهم، وكانوا على ما اعتاده العرب يكتبونه في اللخاف، والعسب، والاكتاف، والرقاع، والاقتاب وقطع الأديم(6).

كتـاب الوحـــي :

لقد كان لرسول الله ﷺ كتاب يكتبون له، فمنهم من يكتب بشكل عام ومنهم من كان يكتب له بشكل خاص، ويذكر العلماء الثقاة أن عدد كتاب الوحي بلغ تسعة وعشرين كاتباً(7)، أشهرهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وعبد الله بن سعيد بن ابي سرح، وهؤلاء من كتبة الوحي المكي، وقد زاد عليهم من انضم إليهم من الأنصار وهم : أُبَيّ بن كعب وهو أول من كتب له عليه الصلاة

---

(5) مدخل إلى القرآن الكريم عرض تاريخي وتحليل مقارن لعبد الله دراز ص : 34.

(6) اللخاف جمع لخفة ــ بضم اللام وسكون الخاء ــ هي الحجارة الرقاق، وقال الخطابي : صفائح الحجارة. والعسب : جمع عسيب وهو جريد النخل، كانوا يكشطون الخوص ويكتبون في الطرف العريض. والاكتاف جمع كتف وهو العظم الذي للبعير أو الشاة كانوا إذا جف كتبوا عليه. والرقاع : جمع رقعة، وقد تكون من جلد أو ورق أو كاغد. والاقتاب : جمع قتب وهو الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليركب عليه، وقطع الاديم وهو الجلد المدبوغ. انظر الاتقان : 1 /168، ط، 1، 1967 المشهد الحسيني بمصر. تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، والجمع الصوتي الأول للقرآن أو المصحف المرتل للدكتور لبيب السعيد ص : 32 ــ 33. ط، 2، 1978، دار المعارف، بيروت.

(7) مدخل إلى القرآن الكريم لعبد الله دراز ص : 3. ط، دار القلم، ودار القرآن الكريم، الكويت.

والسلام بالمدينة، وزيد بن ثابت وهو أكثرهم كتابة للوحي المدني ثم انضم اليهم : الزبير بن العوام،وخالد وابان ابنا سعيد بن العاص بن أمية، وعبد الله بن رواحة، وعمرو بن العاص، وخالد بن الوليد،والأرقم بن الأرقم[8].

وقد كان رسول الله ﷺ وهو يتلو ما تنزل عليه من الوحي على أصحابه حريصاً على أن يكون تلقيهم للوحي كما أنزل بألفاظه وترتيبه كما تؤكد ذلك الروايات المتعددة، ففي الحديث الذي رواه الطبراني بسند رجاله ثقاة أن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : كنت أكتب الوحي عند رسول الله ﷺ وهو يملي، فإذا فرغت قال : اقرأ، فأقرأه، فإذا كان فيه سقط أقامه ثم أخرج به إلى الناس[9].

وأخرج أحمد وأبو داوود والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كانت تنزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول : «ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا» الحديث[10].

حفظ الصحابة للقرآن :

كان ﷺ يستحفظ أصحابه القرآن كما جاء في البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال، سمعت النبي ﷺ يقول : «خذوا القرآن من أربعة : من عبد الله بن مسعود، وسالم بن معقل مولى أبي حذيفة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب». وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يتبادرون إلى النبي ﷺ وإلى من سماهم من الحفظة يأخذون منهم القرآن ويحفظونه كل على قدر طاقته، ويتسابقون إلى مدارسته وتفهمه، ويتفاضلون فيما بينهم على مقدار ما يحفظون منه، وكانوا يهجرون لذة النوم وراحة الهجود إيثاراً للذة القيام في الليل، والتلاوة له في الأسحار، والصلاة به والناس نيام حتى لقد كان الذي يمر ببيوت

(8) انظر فتح الباري 9 /18. ط، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

(9) انظر تاريخ توثيق نص القرآن الكريم لخالد عبد الرحمان العك ص : 47. دار القلم، دمشق.

(10) الاتقان 1 /172 وتاريخ توثيق نص القرآن الكريم ص : 48 وانظر الحديث بتمامه في فضائل القرآن للنسائي ص : 70، 71.

الصحابة في غسق الدجى يسمع فيها دوياً كدوي النحل بالقران، وكان الرسول ﷺ يذكي فيهم روح هذه العناية بالتنزيل، ويبلغهم ما أنزل إليه من ربه، ويبعث إلى من كان بعيد الدار منهم من يعلمهم ويقرئهم، كما بعث مصعب بن عمير وابن أم مكتوم إلى أهل المدينة قبل هجرته يعلمانهم الاسلام ويقرئانهم القرآن، وأرسل معاذ بن جبل إلى مكة بعد هجرته للتحفيظ والاقراء(11). وقد استطاع استجماع القرآن كله ــ حفظاً ــ غير هؤلاء الأربعة : أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبو زيد عم أنس بن مالك، وأبو الدرداء، وأبو أيوب الأنصاري، وعبادة ابن الصامت، وطلحة، وحذيفة، وأبو هريرة، وسعد بن عبيد، ومن النساء الصحابيات :عائشة، وحفصة، وأم سلمة أزواج النبي ﷺ، وأم ورقة بنت عبد الله بن الحارث. وغيرهم كثير، فقد ثبت في الصحيح ان يوم بئر معونة قتل فيه من الأنصار سبعون كانوا يسمون القراء(12).

تدوين الصحابة للقرآن الكريم :

وإذا كانت كتابة الوحي في عهده ﷺ لم تأخذ طابعها الرسمي، فإن هناك واقعة أكيدة وهي أن المؤمنين لم يتوانوا منذ البداية ــ بل وخلال صنوف الاضطهاد التي تعرضوا لها ــ في تسجيل الآيات القرآنية التي وصلتهم في مخطوطات شخصية لاستعمالهم الخاص، وقصة إسلام عمر رضي الله عنه بعد دخوله على أخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد وعندهما خباب بن الارث ومعه صحيفة فيها سورة «طه» لأوضح دليل على ذلك(13).

ومن الجلِيّ أن هذه المخطوطات على هيئتها الأولى لم تكن تمثل مجموعة متجانسة ومنظمة ومرقمة، وكما أن الرسول ﷺ لم يكن عنده شيء مكتوب، فلم

(11) انظر : مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني : 241/1 (ط : دار الفكر).
(12) تاريخ توثيق نص القرآن الكريم ص : 49.
(13) قصة اسلامه مشهورة انظر سيرة ابن هشام 365/1 ــ 368 بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. ط دار الفكر.

يكن كذلك عند الأفراد في هذه الحقبة نسخة واحدة كاملة من القرآن، وإنما كانت المخطوطات متفرقة ومبعثرة بين المؤمنين، ولم تأخذ شكلها النهائي في صدورهم إلا قرب نهاية حياته ﷺ، ولم تكن مجموعات الآيات المنزلة ــ منذ وقت مبكر ــ لتبقى منعزلة بعضها عن بعض، ولا أن تتوالى في ترتيب زمني بعضها تلو الاخرى حسب نزول الوحي. فقد كانت مجموعات كثيرة منها تتزايد بمعزل عن مجموعات أخرى وتكون تدريجياً وحدات مستقلة بعد أن تنضم إليها آيات أخرى نزلت بعدها. وإن بعضها كانت تضاف هنا والأخرى تتداخل مع غيرها هناك بحسب أمر الرسول الصريح الذي كان يتلقاه بدوره من الروح القدس(14).

وحتى تتاح الفرصة لسور القرآن الكريم كي يتم بناؤها تدريجياً، كان ينبغي الانتظار إلى أن يكتمل الوحي كله لإخراج القرآن في شكل وحدة كاملة، فقد أخرج الحاكم في مستدركه بسند على شرط الشيخين عن زيد بن ثابت قال : «كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع»(15). قال البيهقي يشبه أن يكون المراد به تأليف ما نزل من الآيات المتفرقة في سورها وجمعها فيها بإشارة النبي ﷺ(16).

ورغم غياب تتابع نزول الآيات المكتوبة في هذه المرحلة، فإن ذلك لم يحل بين المؤمنين وبين المعرفة الشفوية لموضع كل آية جديدة من كل سورة على وجه التحديد، وفي كل مرحلة من مراحل نزول الوحي، وكذلك كان الأمر بالنسبة للصلاة والتعاليم والوعظ والقراءات، وهكذا نرى أنه كان في حياة الرسول مئات من الصحابة يطلق عليهم حفظة القرآن قد تخصصوا في تلاوة القرآن وفي حفظه عن ظهر قلب ــ كما أسلفت الإشارة إلى ذلك ــ وفي معرفة كل سورة في هيئتها المؤقتة(17) أو النهائية.

(14) مدخل إلى القرآن الكريم ص 35.
(15) المستدرك : 611/2. ط، دار المعرفة بيروت.
(16) الاتقان 164/1.
(17) مدخل إلى القرآن الكريم ص 35.

وقد كان كل ما يكتب من القرآن على عهد النبي ﷺ يحفظ في بيته، والشيعة يروون في هذا أن رسول الله ﷺ قال لعلي كرم الله وجهه : «ياعلي؛ إن القرآن خلف فراشي في الصحف والحرير والقراطيس فخذوه واجمعوه ولا تضيعوه»(18).

ولئن قيل : «إن الثابت هو أن النبي ﷺ لحق بالرفيق الأعلى والقرآن غير مجموع في موضع واحد ولا مرتب السور، فقد علمنا بأن ذلك كان من حيث الكتابة فقط لا من حيث الحفظ في الصدور، فقد كان ﷺ يقوم بعرض ما تنزل عليه من القرآن على جبريل في شهر رمضان من كل عام، وإنه في العام الأخير عارضه بالقرآن مرتين(19). روى البخاري في صحيحه والنسائي في فضائله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : «كان يعرض على النبي ﷺ القرآن كل عام مرة، فعرض عليه مرتين في العام الذي قبض فيه»(20).

وهكذا تنتهي المرحلة الأولى والقرآن الكريم مدون في الصحف المتفرقة، ومحفوظ في صدور المئات من الصحابة الذين تلقوه من رسول الله مباشرة أو من الصحابة الحفاظ الذين شهد لهم رسول الله بالحفظ، وأمر بأخذ القرآن منهم، وهؤلاء بدورهم أخذوه من رسول الله ﷺ على وفق ما كان يتلقاه من جبريل ويؤكده له بعرضه عليه كل سنة، وفي هذا المنهج من التحقيق والتثبت والتوثيق ما يطمئن قلوب المومنين، ويدحض حجج المتشككين والمعاندين.

جمع القرآن في عهد الخليفتين أبي بكر وعثمان

أولا : جمع القرآن في عهد أبي بكر :

لم يمض عام واحد بعد أن قبض رسول الله ﷺ إلا وبدت الحاجة ملحة لجمع وثائق القرآن المبعثرة في مجموعة مدونة سهلة الاستعمال، حيث تتتابع آيات

(18) الجمع الصوتي الأول للقرآن ص 33.

(19) الاتقان 1 /164.

(20) انظر فتح الباري 1 /42 وفضائل القرآن للنسائي ص 61.

كل سورة كما هو ثابت من قبل في حافظة عدد كبير من المؤمنين، وكان الدافع الرئيسي والمباشر لهذا الجمع في عهد إبي بكر الصديق، ارتداد بعض العرب عن الإسلام وظهور مسيلمة في عدد من أتباعه مدعياً النبوة، فتصدى أبو بكر لقتالهم جميعاً في غزوة اليمامة(21)، وقتل من الصحابة يومئذ عدد كبير(22)، فأثار ذلك الخوف على القرآن.

روى البخاري في صحيحه قصة هذا الجمع فقال(23) :

«... عن زيد بن ثابت قال : أرسل إلي أبو بكر ــ مقتل أهل اليمامة ــ فإذا عمر بن الخطاب عنده.

ــ قال أبو بكر رضي الله عنه :

إن عمر أتاني فقال : إن القتل استحر يوم اليمامة بقراء القرآن وإني أخشى أن يستمر القتل في المواطن(24)، فيذهب كثير من القرآن(25)، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن.

ــ قلت لعمر :

كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟

---

(21) ذكر الحافظ ابن كثير في كتابه فضائل القرآن ط 4، 1979 دار الاندلس ص : 15 قصة هذا القتال وفيه ان مسيلمة الكذاب التف معه من المرتدين قريب من مائة ألف، فجهز أبو بكر لقتاله خالد بن الوليد في قريب من ثلاثة عشر ألفا، فالتقوا معهم فانكشف الجيش الاسلامي لكثرة من فيه من الاعراب، فنادى القراء من كبار الصحابة : يا خالد خلصنا، يقولون : ميزنا من هؤلاء الاعراب فتميزوا منهم وانفردوا، فكانوا قريبا من ثلاثة آلاف، ثم صدقوا الحملة وقاتلوا قتالا شديدا وجعلوا يتنادون : يا أصحاب سورة البقرة. فلم يزل ذلك دأبهم حتى فتح الله عليهم، وولى جيش الكفر فارا، واتبعتهم السيوف المسلمة في اقفيتهم قتلا وأسرا، وقتل الله مسيلمة وفرق شمل اصحابه، ثم رجعوا إلى الاسلام، وقد قتل من القراء يومئذ قريب من خمسمائة رضي الله عنهم، مما دفع عمر رضي الله عنه ليشير على ابي بكر الصديق بان يجمع القرآن.

(22) روى الطبري في تاريخ الامم والملوك : 3 /252 في حوادث السنة الحادية عشرة من الهجرة انه استشهد في هذه الغزوة من الصحابة 450 وقيل 700 وقيل أكثر، وجملة القتلى من المسلمين 960 أو يزيدون. ط، ذخائر العرب، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم.

(23) انظر فتح الباري لابن حجر 9 /8 ــ 13.

(24) اي الاماكن التي يقع فيها القتال.

(25) اي بذهاب حفاظه فينقصون عن عدد التواتر مما يجعله ظنيا لا يؤمن الغلط فيه.

ـــ فقال عمر : هذا والله خير.

فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك رأي عمر.

ـــ قال زيد : وقال أبو بكر.

ـــ إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ : فتتبع القرآن واجمعه.

ـــ قال زيد : فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان بأثقل علي مما أمروني به من جمع القرآن.

ـــ قلت : كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ.

ـــ فقال : هو والله خير.

فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر ابي بكر وعمر، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف، وصدور الرجال، حتى وجدت آخر التوبة «لقد جاءكم...[26]» مع أبي خزيمة الانصاري الذي جعل النبي ﷺ شهادته بشهادة رجلين، لم أجدها مع غيره فألحقتها في سورتها»[27].

ومن خلال هذا الحوار الذي دار بين عمر وأبي بكر رضي الله عنهما حول جمع القرآن تجلت المصلحة لأبي بكر واقتنع بصواب الفكرة وشرح الله لها صدره، وعلم أن ذلك الجمع الذي يشير به عمر ما هو إلا وسيلة من أعظم الوسائل النافعة الى حفظ كتاب الله عز وجل والمحافظة عليه من التحريف والضياع، وإنه ليس من محدثات الأمور، وضلالات البدع، بل هو مستمد من القواعد التي

(26) سورة التوبة /129 ـــ 130.

(27) ليس معنى ذلك اثبات الآية بخبر الواحد، لأن زيدا كان قد سمع الآيتين وحفظهما عن ظهر قلب وعلم موضعهما في سورة التوبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان ذلك زيادة في التوثيق لأنه لو لم يكن يعرفهما فكيف افتقدهما ؟ ويقول ابن حجر ـــ معتضدا بعدة روايات موثقة ـــ ان أبا خزيمة لم ينفرد بها، بل كان معه عمر، وزيد بن ثابت وعثمان وابي بن كعب. انظر فتح الباري 9 /12، 13.

وضعها الرسول ﷺ بتشريع كتابة القرآن، واتخاذ كتاب للوحي وجمع ما كتبوه عنده حتى مات صلوات الله وسلامه عليه.

قال الإمام أبو عبد الله الحارث المحاسبي في كتاب فهم السنن : «كتابة القرآن ليست بمحدثة) فإنه ﷺ كان يأمر بكتابته، ولكنه كان مفرقاً في الرقاع والأكتاف والعسب، فإنما أمر الصديق بنسخها من مكان إلى مكان مجتمعاً، وكان ذلك بمنزلة أوراق وجدت في بيت رسول الله ﷺ فيها القرآن منتشراً، فجمعها جامع وربطها بخيط حتى لا يضيع منها شيء[28]».

تنفيذ أبي بكر للفكرة :

لما كان الصحابة قد شاهدوا الوحي والتنزيل، ومنهم من حفظ القرآن عن ظهر قلب، ومنهم من كان يكتب الوحي ويدونه، وكان تزوير ما ليس منه مأموناً، وإنما كان الخوف من ذهاب شيء من صحفه[29]. فقد اهتم أبو بكر بتحقيق هذه الرغبة، فانتدب لتحقيقها رجلا من خيرة رجال الصحابة هو زيد بن ثابت رضي الله عنه، لأنه اجتمع فيه من المواهب ذات الأثر في القرآن ما لم يجتمع في غيره من الرجال، إذ كان من حفاظ القرآن ومن كتبة الوحي لرسول الله ﷺ، وشهد العرضة الأخيرة للقرآن في ختام حياته ﷺ، وكان فوق ذلك معروفاً بخصوبة عقله وشدة ورعه، وعظم أمانته، وكمال خلقه، واستقامة دينه، إلا أن زيداً رضي الله عنه تردد في بداية الامر، لكنه سرعان ما اقتنع بصواب ما ندب إليه[30].

وقد اتبع في هذا الجمع منهج دقيق حريص متحرج أعان على وقاية القرآن من كل ما لحق النصوص الأخرى من مَظنة الوضع والانتحال وعوامل النسيان والضياع، وقد حدد الدكتور لبيب السعيد هذا المنهج في العناصر التالية :

(28) الاتقان 168/1.

(29) نفس المرجع.

(30) مناهل العرفان 250/1.

1 ـــ كان كل من تلقى من رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن يأتي به، ومعلوم أن ذلك كان بكل الأحرف السبعة التي نزل بها.

2 ـــ وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعسب(31)

3 ـــ وكان لا يكتب إلا :

أ ـــ من عين ما كتب بين يدي النبي ﷺ لا من مجرد الحفظ، مع المبالغة في الاستظهار والوقوف عند هذا.

ب ـــ وما ثبت أنه عرض على النبي ﷺ عام وفاته دون ما كان مأذوناً فيه ما قبلها.

ج ـــ وما ثبت أنه من الوجوه التي نزل بها القرآن.

4 ـــ وكانت كتابة الآيات والسور على الترتيب والضبط اللذين تلقاهما المسلمون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

5 ـــ وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شهيدان(32)، أي أنه لم يكن يكتفي بمجرد وجود الشيء مكتوباً حتى يشهد به من تلقاه سماعاً.

6 ـــ وبأمر أبي بكر كان عمر وزيد يقعدان على باب المسجد ـــ وهو وقتئذ مقر لجنة الجمع ـــ ليكتبا ما يشهد عليه الشاهدان(33).

---

(31) الظاهر أن جمع القرآن على يد زيد بن ثابت كان في الصحف لا في الألواح والعسب، ففي مغازى ابن عقبة عن ابن شهاب قال لما أصيب المسلمون باليمامة فزع أبو بكر وخاف ان يذهب من القرآن طائفة فأقبل الناس بما كان معهم وعندهم حتى جمع في عهد أبي بكر في الورق فكان أبو بكر أول من جمع القرآن في الصحف. قال ابن حجر ووقع في رواية عمارة بن غزية أن زيد بن ثابت قال : فأمرني أبو بكر فكتبته في قطع الأديم والعسب، فلما هلك أبو بكر وكان عمر كتبت ذلك في صحيفة واحدة فكانت عنده. ثم قال والأول اصح، انما كان في الاديم والعسب أولا قبل أن يجمع في عهد أبي بكر ثم جمع في الصحف في عهد أبي بكر كما دلت عليه الأخبار الصحيحة المترادفة. الاتقان 169/1.

(32) قال ابن حجر : وكأن المراد بالشاهدين الحفظ والكتاب أو المراد انهما يشهدان على أن ذلك من الوجوه التي نزل بها القرآن. فتح الباري 12/9.

(33) الجمع الصوتي الأول للقرآن ص 37، 38.

وكان في هذا المنهج ضمان لحياطة كتاب الله بما يليق به من تثبت بالغ وحذر دقيق وتحريات شاملة، وقد التزمت اللجنة بهذه القواعد التزاماً كاملًا حتى أن عمر نفسه رضي الله عنه أتى بآية الرجم فلم يكتبها لأنه كان وحده[34].

وعلى هذا المنهج تم جمع القرآن بإشراف أبي بكر وعمر وأكابر الصحابة وإجماع الأمة عليه دون نكير، وكان ذلك منقبة خالدة لا يزال التاريخ يذكرها بالجميل لأبي بكر في الإشراف ولعمر في الاقتراح ولزيد في التنفيذ وللصحابة في المعاونة والإقرار.

وبعد جمع القرآن بكل هذه الاحتياطات، سلمه زيد الى أبي بكر الذي احتفظ به طوال خلافته وعهد به قبل موته إلى عمر المرشح للخلافة من بعده، ثم قام عمر بتسليمه إلى ابنته حفصة أم المؤمنين في آخر لحظة من حياته لأن الخليفة الثالث لم يكن قد بويع في ذلك الوقت.

ثانيـاً : جمع القرآن
في عهد الخليفة عثمان بن عفان

1 ـــ دواعي هذا الجمع :

لما امتدت الفتوحات الإسلامية في عهد الخليفة عثمان بن عفان واتسعت رقعة الاسلام وتفرق المسلمون في الأقطار والأمصار بعيداً عن منزل الوحي يلقنون الناس القرآن على النحو الذي تلقوه من النبي ﷺ وقعت بينهم اختلافات يسيرة في حروف الأداء ووجوه القراءة، وفتحت باب الشقاق والنزاع في قراءة القرآن، فكان أهل كل إقليم من أقاليم الاسلام يقرأون بقراءة من اشتهر بينهم من الصحابة، فأهل الشام يأخذون بقراءة أبي بن كعب، وأهل الكوفة يقرأون بقراءة عبد الله بن مسعود، وهناك من يقرأ بقراءة أبي موسى الأشعري.

---

(34) الاتقان 168/1

وفي سنة 25 من الهجرة، أي في السنة الثانية أو الثالثة من خلافة عثمان، وبعد أن قبض رسول ﷺ بخمس عشرة سنة ــ فتحت أرمينية، وكان عثمان أمر أهل الشام وأهل العراق أن يجتمعوا على ذلك، وكان حذيفة من جملة من غزا معهم، وكان هو على أهل المدائن وهي من جملة أعمال العراق(35)، فرأى حذيفة اختلاف أهل الشام والعراق وتنازعهم في القراءة حتى كادت تكون بينهم فتنة، ففزع لذلك، فقدم على عثمان فقال : ياأمير المؤمنين أدرك الناس، قال : وما ذاك ؟ قال غزوت أرمينية فإذا أهل الشام يقرأون بقراءة أبي بن كعب فياتون بما لم يسمع أهل العراق وإذا أهل العراق يقرأون بقراءة عبد الله بن مسعود فيأتون بما لم يسمع أهل الشام فيكفر بعضهم بعضاً(36).

وكان هذا الاختلاف قد وقع مثله في المدينة فوصل إلى عثمان أيضاً « حتى اقتتل الغلمان والمعلمون، فقال عثمان رضي الله عنه : لَدَيَّ تُكذبون به وتلحنون فيه، فمن نأى عني كان أشد تكذيباً وأكثر لحناً، يا أصحاب محمد اجتمعوا فاكتبوا للناس إماماً(37).

يضاف إلى هذا أن الأحرف السبعة(38) التي نزل بها القرآن لم تكن معروفة لأهل تلك الأمصار، ولم يكن من السهل عليهم أن يعرفوها كلها، حتى يتحاكموا إليها فيما يختلفون، إنما كان كل صحابي في إقليم يقرئهم بما يعرف فقط من الحروف التي نزل عليها القرآن، ولم يكن بين أيديهم مصحف جامع يرجعون إليه فيما شجر بينهم من هذا الشقاق والخلاف. فكانت هذه جملة من الدواعي

---

(35) فتح الباري 14/9.

(36) فتح الباري 15/9. وفي رواية أخرى ــ في نفس المرجع ــ ان يزيد بن معاوية النخعي قال : إني لفي المسجد زمن الوليد بن عقبة في حلقة فيها حذيفة فسمع رجلا يقول قراءة عبد الله بن مسعود، وسمع آخر يقول قراءة أبي موسى الأشعري فغضب ثم قام فحمد الله واثنى عليه ثم قال هكذا كان من قبلكم اختلفوا، والله لأركبن إلى أمير المومنين.

(37) الاتقان 170/1 وفتح الباري 15/9، 16. ومن هنا جاءت تسمية المصحف العثماني بالامام. لاعتماده دون سواه، ومعلوم ان المصاحف التي كانت سائدة في عهد عثمان حرقت بعد جمع القرآن في المصحف العثماني.

(38) نزول القرآن على سبعة أحرف ورد في عدة نصوص رواها البخاري ومسلم في صحيحيهما ورواها غيرهما مما جعل الامام أبا عبيد بن سلام يقول بتواتر حديث «أنزل القرآن على سبعة أحرف كلها كاف شاف». انظر هذه الاحاديث والكلام عنها في : مناهل العرفان في علوم القرآن 139/1 وما بعدها.

والأسباب التي دعت سيدنا عثمان رضي الله عنه إلى تدارك الخرق قبل أن يتسع على الراقع، فجمع أعلام الصحابة وذوي الرأي منهم، وأجال الرأي بينه وبينهم في علاج هذه الفتنة ووضع حدا لهذا الاختلاف، فقال لهم : «أرى أن نجمع الناس على مصحف واحد فلا تكون فرقة ولا اختلاف، فقال الصحابة : فنعم ما رأيت[39]».

2 ــ تشكيل لجنة الجمع :

أرسل عثمان رضي الله عنه الى أم المؤمنين حفصة بنت عمر أن أرسلي إلينا[40] بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف[41].

وفي رواية مصعب بن سعد بن أبي وقاص أن عثمان قال : من أكتب الناس ؟

قالوا : كاتب رسول الله ﷺ زيد بن ثابت.

قال : فأي الناس أعرب ؟ وفي رواية أفصح ؟

قالوا : سعيد بن العاص.

قال عثمان : فليملل سعيد وليكتب[42] زيد.

وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل[43] بلسانهم.

ولما احتاجوا إلى من يساعد في الإملاء أو الكتابة بحسب الحاجة إلى عدد المصاحف التي ترسل إلى الآفاق أضافوا إلى زيد جماعة منهم مالك بن أبي عامر

---

(39) فتح الباري : 16/9.

(40) أي تلك التي جمعت في عهد أبي بكر الصديق.

(41) (42) فتح الباري 16/9.

(43) نفس المرجع ص : 17.

جد مالك بن أنس، وكثير بن أفلح، وأبي بن كعب وأنس بن مالك، وعبد الله بن عباس[44]. وقد جاء من طريق محمد بن سيرين أن عثمان جمع اثني عشر رجلاً من قريش والأنصار لجمع القرآن[45].

وتفيد بعض الروايات أن هذه اللجنة ضمت أيضاً عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاص، وابان بن سعيد. وربما كان القصد من كل هذه الجماعة المساعدة المشتهر أعضاؤها بالضبط والمعرفة أن ينضم العدد إلى العدالة، وإلا فقد كان زيد قادراً بذاته على هذه المهمة[46].

وقد أثار تشكيل هذه اللجنة الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وشق عليه صرفه عن كتابة المصحف وإسنادها إلى زيد بن ثابت حتى قال : «يامعشر المسلمين، أعزل عن نسخ كتابة المصاحف ويتولاها رجل. والله أسلمت وإنه لفي صلب رجل كافر، يريد زيد بن ثابت[47].

وإذا كان ابن مسعود يرى في نفسه الأهلية والكفاءة للقيام بهذا العمل لعدة اعتبارات منها :

1 ــ أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ أيام شدة المسلمين وضعفهم[48].

2 ــ أعطي حظّاً عظيماً في تجويد القرآن وتحقيقه وترتيله، حتى لقد كان النبي ﷺ يقول : «من أحب أن يقرأ القرآن غضاً كما أنزل فليقرأه قراءة ابن أم عبد»[49] يعني عبد الله بن مسعود.

---

(44) نفس المرجع ص : 16، 17.

(45) نفس المرجع ص : 16.

(46) انظر الجمع الصوتي الأول للقرآن ص 48، 49 نقلا عن الكواكب الدرية للحداد خلف الحسيني ص 21، 22.

(47) فتح الباري 17/9

(48) انظر قصة جهره بالقرآن في سيرة ابن هشام 336/1.

(49) مسند الامام أحمد باب فضل-القراءة على قراءة عد الله بن مسعود.

3 ـــ ان النبي ﷺ أمر بتعلم القرآن من أربعة، أولهم عبد الله بن مسعود. فقد روى البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت النبي ﷺ يقول : استقرئوا القرآن من أربعة : عبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، وأُبَي بن كعب، ومعاذ بن جبل(50).

4 ـــ كان ابن مسعود يقول : «أخذت من في رسول الله ﷺ سبعين سورة وإن زيد بن ثابت لصبي من الصبيان(51)». وكان يقول : «والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن أنزلت، ولو أعلم أحدا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه»(52).

إلا أن عثمان رضي الله عنه قد يكون اختار زيد بن ثابت لعدة أسباب وجيهة :

1 ـــ لقد جمع القرآن بالمدينة وعبد الله بن مسعود بالكوفة وقتئذ، ولم يؤخر ما عزم عليه من ذلك إلى أن يرسل إليه ويحضر(53).

2 ـــ إن عثمان رضي الله عنه إنما أراد نسخ الصحف التي كانت جمعت في عهد أبي بكر وأن يجعلها مصحفاً واحداً، وكان الذي نسخ ذلك في عهد أبي بكر هو زيد بن ثابت لكونه كان كاتب الوحي فكانت له في ذلك أولية ليست لغيره(54).

---

(50) اخرجه البخاري في : فتح الباري 7/80 ـــ 95.

(51) فتح الباري 9/17 وفي رواية بضع وسبعون سورة. نفس المرجع 9/43.

(52) فتح الباري 9/46.

(53) فتح الباري 9/17.

(54) نفس المرجع.

3 ـــ ان زيد بن ثابت قرأ القرآن على رسول الله ﷺ في العام الذي توفاه الله فيه مرتين، وسميت هذه القراءة بقراءة زيد بن ثابت لأنه كتبها لرسول الله ﷺ وقرأها عليه، وشهد العرضة الأخيرة، وكان يقرىء الناس بها حتى مات[55].

4 ـــ وكان زيد بن ثابت ـــ مثل ابن مسعود ـــ من الستة الصحابة أصحاب الفتوى وهم : عمر، وعلي، وابن مسعود، وأُبَي بن كعب، وأبو موسى الأشعري، وزيد بن ثابت[56].

5 ـــ إن قول ابي بكر لزيد يوم طلب منه الجمع الاول للقرآن : «إنك رجل شاب عاقل، لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي» تفيد أن لزيد ـــ كما يقول ابن حجر ـــ أربع صفات مقتضية خصوصيته بذلك :

* كونه شاباً فيكون أنشط لما يطلب منه.
* وكونه عاقلا فيكون أوعى له.
* وكونه لا يتهم فتركن النفس إليه.
* وكونه كان يكتب الوحي فيكون أكثر ممارسة.

(55) تاريخ توثيق نص القرآن الكريم ص 78 نقلا عن المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز لأبي شامة ص 69.

(56) الاصابة لابن حجر 23/3. نسخة مصورة عن الطبعة الاولى 1328 هـ

ثم يقول ابن حجر : وهذه الصفات التي اجتمعت له قد توجد في غيره ولكن مفرقة(57).

3 ــ منهج الجمع العثماني :

لقد كان عمل اللجنة التي تولت جمع القرآن بأمر سيدنا عثمان رضي الله

[illegible]

الله ﷺ آية كذا وكذا ؟ فيقول : كذا وكذا، فيكتبونها وقد تركوا لذلك مكاناً(61).

5 ــ الاقتصار على لغة قريش عند الاختلاف، لأنه نزل بلغتهم، وإن كان قد وسع قراءته بلغة غيرهم رفعاً للحرج والمشقة في ابتداء الأمر، فقد رأى عثمان أن الحاجة إلى ذلك قد انتهت فاقتصر على لغة واحدة(62).

6 ــ جمع القرآن على القراءات الثابتة المعروفة عن النبي ﷺ وإلغاء ما ليس كذلك، والأخذ بمصحف لا تقديم فيه ولا تأخير،ولا تأويل أثبت مع تنزيل، ولا منسوخ تلاوته كتب مع مثبت رسمه ومفروض قراءته وحفظه خشية دخول الفساد والشبهة على من ياتي بعد(63).

7 ــ عدم كتابة ما لم يكن في العرضة الأخيرة، وما نسخت تلاوته، وما لم يثبت من القراءات، وما كانت روايته آحاداً، وما لم تعلم قرآنيته، أو ما ليس بقرآن كالذي كان يكتبه بعض الصحابة في مصاحفهم الخاصة شرحاً لمعنى أو بياناً لناسخ أو منسوخ أو غير ذلك(64).

8 ــ عند كتابة لفظ تواتر النطق به على اكثر من وجه، تبقي اللجنة هذا اللفظ خالياً من أية علامة تقصر النطق به على وجه واحد لتكون دلالة اللفظ الواحد على كلا اللفظين المنقولين المسموعين المتلوين شبيهة بدلالة اللفظ الواحد على كلا المعنيين المنقولين المفهومين(65). ومن أمثلة ذلك قوله تعالى :

---

(61) الاتقان 170/1.
(62) الاتقان 171/1.
(63) نفس المرجع.
(64) نفس المرجع 170، 171 والبرهان للزركشي : 235/1، 236. ط 1957/1 تحقيق أبو الفضل إبراهيم
(65) النشر في القراءات العشر لابن الجزرى : 33/1، المكتبة التجارية الكبرى تصحيح محمد على الضباع ومعلوم أن الكتابة وقتئذ كانت خالية من النقط والشكل.

* «فتبينوا» التي قرئت أيضاً «فتثبتوا»(66).
* «ننشزها» التي قرئت أيضاً «ننشرها»(67).
* «أف»(68) التي قرئت بثلاث قراءات.

وأما الكلمات التي لا تدل على أكثر من قراءة عند خلوها من النقط والشكل مع أنها واردة بقراءة أخرى أيضاً فإنهم كانوا يرسمونها في بعض المصاحف برسم يدل على قراءة، وفي بعض آخر برسم آخر يدل على القراءة الثانية كقراءة «وصى» بالتضعيف، و«أوصى» بالهمز، وهما قراءتان في قوله تعالى : «ووصى بها ابراهيم بنيه»(69).

وكقراءة «جنت تجري تحتها الانهر»(70) ترسم بأحد المصاحف بزيادة «من» قبل تحتها.

وكقراءة «فإن الله هو الغني الحميد»(71) تثبت في أحد المصاحف بحذف «هو»(72).

9 ـــ التزام اللجنة ما كان النبي ﷺ قد اتبعه في العرضة الأخيرة ـــ في السنة التي توفي فيها ـــ في شأن ترتيب آيات كل سورة، واعتبار هذا الترتيب توقيفياً من الله بالإجماع(73). والتزامها كذلك في ترتيب السور ما كان في عهد النبي ﷺ وما روعي في جمع أبي بكر أيضاً(74).

---

(66) سورة الحجرات : 6.
(67) سورة البقرة : 259.
(68) سورة الاسراء : 23.
(69) سورة البقرة : 132.
(70) سورة التوبة : 100.
(71) سورة الحديد : 24.
(72) انظر مناهل العرفان 258/1 والجمع الصوتي الأول للقرآن : 62.
(73) الاتقان 172/1.
(74) الجمع الصوتي الأول للقرآن ص : 62.

4 ـــ تحريق عثمان للمصاحف المخالفة :

بعد أن تم جمع القرآن على المنهج المبين أعلاه، عمل عثمان رضي الله عنه على إرسال نسخ منها إلى الأقطار(75)، وأمر أن يحرق كل ما عداها مما يخالفها، سواءا كانت صحفاً أم مصاحف، وإذا كان إعدام هذه المخطوطات الفردية يبدو فيه شيء من القسوة في الوقت الذي لم يوجد بالفعل أي تحريف على الاطلاق، فإنه يدل مع ذلك على أن عثمان كان بعيد النظر، وعميقاً في إدراك حقيقة الأمور.

ويرجع فضل تمتع المسلمين اليوم ـــ كما يقول الدكتور دراز ـــ بوحدة كتابهم واستقراره، إلى هذا العمل المجيد من جانب عثمان، ومهما أضيف إلى المصحف العثماني من علامات خارجية (ابتكرها أبو الأسود الدؤلي وأتباعه، ونصر ابن عاصم، ويحيى بن يعمر، وحسن البصري، وخليل بن أحمد)، فإن النص باق كما هو على الدوام يتحدى فعل الزمن.ووجود بعض الحروف الزائدة أو الكلمات المدغمة أو الكتابات القديمة التي اقتصرت على كتابة المصاحف وحدها في جميع نسخ القرآن اليوم المطبوع منها والمخطوط، يعد شهادة بليغة على الأمانة التي انتقل بها البناء القرآني من جيل إلى جيل حتى وصل إلينا بهذا الكمال المنقطع النظير(76)، وتكفينا شهادة سيدنا علي كرم الله وجهه على جليل هذا العمل الذي قام به سيدنا عثمان رداً على من شكك أو شك في عمله بحجة أن ذلك لم يعمله رسول الله ﷺ فقال : لا تقولوا في عثمان إلا خيراً فوالله ما فعل الذي فعل إلا عن ملأ منا(77).

شبهة تعارض المصحف العثماني مع مصاحف بعض الصحابة

من الأمور التي يثيرها بعض المعنيين بالدراسات القرآنية ـــ جهلاً أو كيداً ـــ ما يقال من أن المصحف العثماني الذي أجمع عليه المسلمون يخالف خطًا أو

(75) اختلف في عدد المصاحف التي ارسل بها عثمان إلى الاقطار الاسلامية فقيل : انها خمسة وقيل سبعة ارسل بها إلى : مكة، والشام، واليمن، والبحرين، والبصرة، والكوفة، وحبس بالمدينة واحدا (انظر الاتقان 172/1).

(76) مدخل إلى القرآن الكريم ص : 50، 51.

(77) الاتقان 170/1.

زيادة أو نقصاً أو ترتيباً مصاحف عدد من صحابة النبي ﷺ، الذين عاصروه وشهدوا الوحي :

وقد تعددت المصاحف التي قيل انهم كتبوها، فهناك مصاحف منسوبة إلى عبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن عباس، وأبي موسى الأشعري، وأنس بن مالك، وعمر بن الخطاب، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسالم مولى أبي حذيفة، وعبيد بن عمير، وأمهات المؤمنين : عائشة، وحفصة، وأم سلمة(78)

ومع أن هذه المصاحف على فرض وجودها ومخالفتها للمصحف العثماني فردية وخاصة، ومع أن من أصحابها من قيل انه اشترك في الجمع العثماني مثل أبي بن كعب، ومنهم أيضاً من كان أحد المجمعين على فعل عثمان مثل علي بن أبي طالب، فقد روي الكثير عن اختلاف هذه المصاحف عن مصحف عثمان،(79) وكأنما وجد بعض المستشرقين في ذلك ميداناً مناسباً يشفي رغبة في صدورهم في زلزلة العقيدة الاسلامية، وفتح أبواب الشكوك والزيغ حول نص القرآن المتواتر، وفصم العروة الوثقى والرابطة المحكمة بين المسلمين، مما جعلهم يلحون في طلب روايات الاختلاف ويوسعون البحث فيها، وينقلونها في غير تحرز، ولا يمتحنون أسانيدها، ولا يلتفتون الى آراء علماء المسلمين فيها(80).

ومهما يكن من أمر، فإن المصاحف المقول بمخالفتها لمصحف عثمان — على فرض أنها بقيت بعد الجمع العثماني — لم تظفر بما ظفر به هذا الأخير من إجماع الصحابة وثقتهم وأخذهم بما تضمنه من الأوجه والقراءات، وقد تنبه المسلمون منذ قديم إلى أن هذه المصاحف كانت فردية كتبها أصحابها لأنفسهم،

---

(78) انظر الجمع الصوتي ص : 319، 320.

(79) قام عدد من العلماء بالتأليف في موضوع «اختلاف المصاحف وذلك لبيان القراءات التي لا يحتملها رسم واحد، كما سبقت الاشارة إلى ذلك في الجمع العثماني : من بينهم : أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني، ت 248 هـ، وابن أبي داود السجستاني تـ هـ 316 هـ، وابن الانباري ت : 328، وابن اشتة الاصبهاني ت : 360 هـ، انظر تاريخ القرآن لابراهيم الابياري ص : 99، 100 . ط، دار الشروق.

(80) انظر الجمع الصوتي الأول للقرآن ص : 323.

وإنها ربما تضمنت ما كانت روايته آحاداً وما نسخت تلاوته وما لم يكن في العرضة الأخيرة، وإنه اختلطت فيها أحياناً الألفاظ القرآنية بالشرح وبيان التأويل : مما دفع بعثمان رضي الله عنه بعد أن جمع المصحف الى أن يأمر بحرقها على ملأ من الصحابة وبموافقتهم ولم ينكر عليه ذلك أحد .

وقد تتبع الدكتور لبيب سعيد أشهر التحريفات المدعاة على مصحف عثمان مفنداً تلك الدعاوى بما يشفي الغليل مع عرض آراء علماء السلف من الفقهاء والمفسرين، والمعنيين بعلوم القرآن عامة(81)، مما يدل على أن المسلمين في جميع عصورهم، قد أولوا القرآن أصدق عناية، وضبطوه أشد ضبط، وحفظوه أتم حفظ(82). وصدق الله العظيم إذ يقول : «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»(83).

(81) انظر المصدر السابق ص 325 وما بعدها، وأيضا مناهل العرفان 236/1 وما بعدها.
(82) انظر البرهان في علوم القرآن للزركشي 240/1.
(83) الحجر : 9.

المبحث الثاني

ترتيب القرآن الكريم

ترتيب الآيـــات

تتضافر النصوص النبوية على أن ترتيب الآيات في السور توقيفي، فقد كان الرسول ﷺ يأمر صحابته من كتبة الوحي أن يضعوا الآية أو مجموعة من الآيات في موضعها المعين من السورة، وذلك بناء على توجيه من ملك الوحي جبريل، الذي كان يتلقى عنه النبي ﷺ كلمات ربه وتوجيهه. ولم يكن للصحابة الكرام أي شأن في ترتيب آيات القرآن في السور، والحجة في ذلك النصوص المترادفة وإجماع الامة على ذلك.

فمن النصوص الواردة في ذلك:

ـــ ما أخرجه الإمام النسائي في «فضائل القرآن» عن يوسف بن ماهك قال: إني لعند عائشة أم المؤمنين إذ جاءها عراقي فقال: أي ام المؤمنين أرني مصحفك قالت: لم؟ قال: أريد أن أؤلف عليه القرآن، فإنا نقرؤه غير مؤلف، قالت: ويحك، وما يضرك أيته قرأت قبل، انما نزل اول ما نزل سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى اذا ثاب الناس للاسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع شرب الخمر، ولو نزل اول شيء لا تزنوا لقالوا: لا ندع الزنا، وإنه أنزلت «والساعة أدهى وأمر» بمكة وإني لجارية ألعب على محمد، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده: قال: فأخرجت اليه المصحف، فأملت عليه آي السور[84].

ـــ وما أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس قال: قلت لعثمان ما حملكم ان عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينها، ولم تكتبوا بينهما سطر «بسم الله الرحمن الرحيم» ووضعتموها في السبع الطول؟ فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ تنزل عليه

---

(84) أنظر فتح الباري 38/9، وفضائل القرآن للنسائي. ص 56. وفضائل القرآن لابن كثير: 39، 40 (دار الاندلس). وفي هذا الحديث دليل على توقيفية الآيات في سورها ووجوب قراءتها على ترتيبها التوقيفي الذي جاء عن الشارع.

السور ذوات العدد فكان اذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا... الحديث.(85).

ــ وما أخرجه أحمد بإسناد حسن عن عثمان بن ابي العاص قال: كنت جالساً عند رسول الله ﷺ اذ شخص ببصره ثم صوبه، ثم قال: «أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة: «ان الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى»(86) الى آخرها.

ــ وما أخرجه البخاري عن ابن الزبير قال: قلت لعثمان «والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً» :(87) قد نسختها الآية الأخرى فلِم تكتُبُها أو تَدعُها؟ قال: يا ابن أخي لا أغير شيئا منه من مكانه.(88)

ــ وما أخرجه مسلم عن عمر قال: ما سألت النبي ﷺ عن شيء أكثر مما سألته عن الكلالة، حتى طعن بأصبعه في صدري وقال: «تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء».(89)

ــ وما أخرجه مسلم أيضاً عن أبي الدرداء مرفوعاً «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال» وفي لفظ عنده: «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف» :(90)

ومن النصوص الدالة على ذلك اجمالا ما ثبت من قراءته ﷺ لسور عديدة كسورة البقرة وآل عمران والنساء.(91) وأنه قرأ سورة الاعراف في صلاة

(85) انظر الاتقان 1 / 172 وفضائل القرآن للنسائي ص : 70، 71.

(86) سورة النحل : 90.

(87) سورة البقرة : 234.

(88) البخاري 9 / 259 (فتح الباري).

(89) مسلم 3 / 126 حديث 1617. ضبط محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي بيروت وآية الصيف هي الآية 176 من سورة النساء.

(90) صحيح مسلم حديث رقم 555 من المجلد 1.

(91) سنن أبي داود 1 / 216. ضبط وتعليق محيي الدين عبد الحميد، نشر دار إحياء السنة النبوية.

المغرب[92] و«سورة قد أفلح» في صلاة الصبح، وسورة الروم في الصبح أيضاً، و«الم تنزيل» و هل «أتى» في صبح الجمعة،[93] و «ق» في الخطبة، وغير ذلك من السور[94] التي كان يقرأها ﷺ في الصلاة وفي غيرها من المناسبات، وبمحضر من الصحابة مما يدل على «ان ترتيب آيها توقيفي، وما كان الصحابة ليرتبوا ترتيبا سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ على خلافه، فبلغ ذلك مبلغ التواتر».[95] قال ابن الحصار: وضع الآيات مواضعها انما كان بالوحي... وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من تلاوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومما أجمع الصحابة على وضعه هكذا في المصحف ؟.[96]. وأما الاجماع فقد حكاه الزركشي وابن الزبير.

وقال الزركشي : «فأما الآيات في كل سورة ووضع البسملة اوائلها فترتيبها توقيفي بلاشك ولا خلاف فيه».[97].

وقال ابن الزبير : «ان ترتيب الايات في سورها وقع بتوقيفه ﷺ وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين»[98]

واما اقوال العلماء الدالة على توقيفية الآيات في سورها فقد أورد السيوطي طائفة منها[99] نذكر من بينها بما يلي :

قال مكي وغيره : ترتيب الايات في السور بأمر من النبي ﷺ، ولما لم يأمر بذلك في أول براءة تركت بلا بسملة.

---

(92) سنن أبي داود 129/1.
(93) سنن أبي داود 169/1.
(94) انظر الاتقان 174/1 وسنن أبي داود 180/1.
(95) انظر الاتقان 174/1.
(96) نفس المرجع 176/1.
(97) انظر البرهان 256/1.
(98) انظر البرهان في ترتيب سور القرآن الجزء الثاني من هذا الكتاب ص : 182.
(99) انظر الاتقان 175/1 — 176.

ـــ وقال القاضي ابو بكر في الانتصار: «ترتيب الآيات أمر واجب وحكم لازم فقد كان جبريل يقول : ضعوا آية كذا في موضع كذا»

وقال أيضا : «الذي نذهب اليه ان جميع القرآن الذي أنزله الله وأمر باثبات رسمه ولم ينسخه ولا رفع تلاوته بعد نزوله هو هذا الذي بين الدفتين الذي حواه مصحف عثمان وأنه لم ينقص منه شيء ولا زيد فيه، وأن ترتيبه ونظمه ثابت على ما نظمه الله تعالى، ورتبه عليه رسوله من آي السور، لم يقدم من ذلك مُؤخَّر ولا أخر منه مُقدَّم، وان الامة ضبطت عن النبي صلى الله عليه وسلم ترتيب آى كل سورة ومواضعها وعرفت مواقعها كما ضبطت عنه نفس القراءات وذات التلاوة».

ـــ وقال البغوي في شرح السنة : «الصحابة رضي الله عنهم جمعوا بين الدفتين القرآن الذي أنزله الله على رسوله... ووضعوا له ترتيبا لم يأخذوه من رسول الله ﷺ،(100) وكان رسول الله ﷺ يلقن أصحابه ويعلمهم ما نزل عليه من القرآن على الترتيب الذي هو الآن في مصاحفنا، بتوقيف جبريل اياه على ذلك، واعلامه عند نزول كل آية، أن هذه الآية تكتب عقب آية كذا في سورة كذا فثبت أن سعي الصحابة كان في جمعه في موضع واحد لا في ترتيبه فان القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ على هذا الترتيب، أنزله الله جملة الى السماء الدنيا ثم كان ينزله مفرقا عند الحاجة وترتيب النزول غير ترتيب التلاوة».

ترتيب السور

إذا كان الامر بالنسبة لترتيب الآيات في المصحف موضوع اتفاق بين العلماء في كونه من الشارع وبتوقيف منه ﷺ، فان الامر يختلف في مسألة ترتيب السور، حيث تعددت آراء العلماء في ذلك واختلفت اقوالهم وبتتبعها واستقرائها يمكننا ان نحصرها فيما يلي :

(100) يقصد بذلك ترتيب الصحابة لمصاحفهم الخاصة التي خالفت في ترتيبها المصحف العثماني.

1 ـــ ترتيب السور اجتهادي :

استند أصحاب هذا الرأى الى اختلاف الصحابة في ترتيب مصاحفهم، فمنهم من كتب السور في المصحف على تاريخ النزول وقدم المكي على المدني، ومنهم من جعل أوله سورة «اقرأ» وهو أول مصحف علي- وأما مصحف ابن مسعود فأوله «مالك يوم الدين» ثم البقرة، ثم النساء على ترتيب مختلف، وفي مصحف أبي كان اوله «الحمد» ثم النساء ثم آل عمران، ثم الانعام، ثم الاعراف، ثم المائدة، على اختلاف شديد.(101)

وقد صادف هذا المذهب هوى في نفس بروكلمان فذهب في حديثه عن جمع عثمان الى «ان زيدا رتب السور حسب طولها، وابتدأ باطولها، بعد الفاتحة التي وضعها على راس السور كلها، وعلى هذا المنوال جمع القرآن أيضا ابي بن كعب، والمقداد بن عمرو وعبد الله بن مسعود، وأبو موسى الاشعري».(102)

وقد ذهبت طائفة من العلماء الى أن ترتيب سور القرآن او بعضها انما كان باجتهاد من الصحابة، وان النبي ﷺ فوض ذلك الى أمته من بعده. فقد حكى السيوطي والزركشي بان القائلين بهذا الرأي هم جمهور العلماء منهم : مالك، والقاضي ابو بكر في احد قوليه فيما اعتمده واستقر عليه رأيه.(103)

واخرج ابن اشتة في المصاحف من طريق اسماعيل بن عياش عن حبان بن يحيى عن أبي محمد القرشي : امرهم عثمان ان يتابعوا الطوال فجعلت سورة الانفال وسورة التوبة في السبع ولم يفصل بينهما ببسم الله الرحمن الرحيم.(104).

---

(101) البرهان 260،259/1 وانظر أيضا الفهرست لابن النديم ص : 39 ـــ 42. ط، المطبعة الرحمانية بمصر.

(102) تاريخ الأدب العربي ترجمة عبد الحليم النجار 140/1.

(103) البرهان 257/1 والاتقان 176/1.

(104) الاتقان 176/1.

وقد مال ابن عطية الى أن كثيرا من السور كان قد علم ترتيبها في حياته ﷺ كالسبع الطوال، والحواميم والمفصل، وان ما سوى ذلك يمكن ان يكون قد فوض فيه الامر الى الامة بعده.(105)

إلا أن ابن الزبير الغرناطي يذهب أبعد من ابن عطية فيما يمكن ان يكون قد فوض فيه الامر الى الامة فيقول : «الاثار تشهد بصحة ما ذهب اليه في أكثر مما نص عليه ابن عطية ويبقى منها قليل يمكن أن يجري فيه الخلاف(106).

2 ــ ترتيب السور توقيفي إلا الأنفال وبراءة:

وهو ما ذهب اليه البيهقي ووافقه عليه الإمام السيوطي، فقد قال البيهقي في المدخل «كان القرآن على عهد النبي ﷺ مرتبا سوره وآياته على هذا الترتيب إلا الأنفال وبراءة لحديث عثمان السابق».(107)

وقال السيوطي: «والذي ينشرح له الصدر ما ذهب اليه البيهقي، وهو أن جميع السور توقيفي إلا براءة والأنفال ولا ينبغي ان يستدل بقراءته ﷺ سورا ولاء على أن ترتيبها كذلك، وحينئذ فلا يرد حديث قراءته النساء قبل آل عمران(108) لان ترتيب السور في القراءة ليس بواجب، فلعله فعل ذلك لبيان الجواز»(109)

وقد رد الشيخ محمد عبده على مذهب السيوطي والبيهقي قبله بقوله: «انه لا يعقل ان يرتب النبي ﷺ جميع السور إلا الأنفال وبراءة، وقد صح أنه ﷺ

---

(105) البرهان في ترتيب سور القرآن ج 2 من هذا الكتاب ص : 185.

(106) البرهان في ترتيب سور القرآن ص : 7، 8.

(107) الاتقان 177/1. والحديث أخرجه أحمد وابو داود والترمذي وغيرهم عن ابن عباس قال : قلت لعثمان : ما حملكم على أن عمدتم إلى الانفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين، فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر : «بسم الله الرحمن الرحيم» ووضعتموها في السبع الطوال، فقال عثمان.... كانت الانفال من أوائل ما نزل في المدينة، وكانت براءة من آخر القرآن نزولا وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا انها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب سطر «بسم الله الرحمن الرحيم».

(108) الحديث رواه مسلم في صحيحه عن حذيفة بن اليمان قال : «صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فافتتح سورة البقرة فقلت يركع عند المائة، ثم مضى فقلت : يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران...» الحديث.

(109) الاتقان 1 / 179.

كان يتلو القرآن كله في رمضان على جبريل عليه السلام واحدة من كل عام؛ فلما كان العام الذي توفي فيه عارضه بالقرآن مرتين، فأين كان يضع هاتين السورتين في قراءته ؟ التحقيق ان وضعهما في موضعهما توقيفي وان فات عثمان أو نسيه، ولولا ذلك لعارضه الجمهور او ناقشوه فيه عند كتابة القرآن كما روي عن ابن عباس بعد سنين من جمعه ونشره في الأقطار».(110)

كما رد الحديث الذي استند عليه كل من البيهقي والسيوطي بان في سنده يزيد الفارسي الذي سئل عنه يحي بن معين فلم يعرفه ثم قال: «فمثل هذا الرجل لا يصح أن تكون روايته التي انفرد بها مما يؤخذ به في ترتيب القرآن المتواتر».(111)

3 ــ الخلاف في ترتيب السور لفظي:

وهو ماقرره كل من أبي جعفر ابن الزبير في مناسباته، والزركشي في برهانه.

قال ابن الزبير: «ان الأمر في ذلك كيفما قدر، فلابد من رعي التناسب، والتفات التواصل والتجاذب، فان كان بتوقيف منه ﷺ ، فلا مجال للخصم بعد ذلك التحديد الجليل والرسم،وان كان مما فوض فيه الأمر إلى الأمة بعده، فقد اعمل الكل من الصحابة في ذلك جهده، وهم الأعلياء بعلمه، والمسلم لهم في وعيه وفهمه، والعارفون باسباب نزول الآيات، ومواقع الكلمات، وانما ألفوا القرآن على ما كانوا يسمعونه من رسول الله ﷺ، وهذا قول مالك رضي الله عنه في حكاية بعضهم عنه، ومالك أحد القائلين بان ترتيب السور اجتهاد من المسلمين كما تقدم عنه، فكيفما دار الأمر فمنه ﷺ عرف ترتيب السور، وعلى ما سمعوه منه بنواجليل ذلك النظر، فاذا انما الخلاف هل ذلك بتوقيف قولي او بمجرد استناد فعلي بحيث يبقى لهم فيه مجال للنظر؟ فهذا موضع الخلاف».(112)

---

(110) انظر تفسير المنار للشيخ محمد عبده 539/9 ــ 540 (ط، 1773/4هـ مكتبة القاهرة).
(111) نفس المرجع 540/9.
(112) انظر البرهان في ترتيب سور القرآن ص : 183 من الجزء 2 من هذا الكتاب.

وقال الزركشي : «والخلاف يرجع إلى اللفظ، لأن القائل بالثاني ـــ أي بالاجتهاد ـــ يقول: انه رمز اليهم بذلك لعلمهم باسباب نزوله ومواقع كلماته، ولهذا قال الإمام مالك: انما الّفوا القرآن على ما كانوا يسمعون من النبي ﷺ مع قوله بان ترتيب السور اجتهاد منهم، فآل الخلاف إلى أنه: هل ذلك بتوقيف قولي ام بمجرد استناد فعلي؟»(113).

4 ـــ ترتيب السور توقيفي:

ذهب جمع من العلماء إلى أن ترتيب السور كما هو في المصحف انما كان من الشارع وبتوقيف منه لا فرق في ذلك بين ترتيب الآيات والسور، لانه لم ينقل عن الصحابة ـــ زمن الجمع العثماني ـــ اي اعتراض على ترتيب السور، مما يدل على أن الأمر لا دخل للاجتهاد فيه.

ويعتضد أصحاب هذا الرأي بعدة نصوص وحجج من بينها:

ـــ ما أخرجه أحمد أبو داود عن أوس بن حذيفة الثقفي، وكان في وفد ثقيف الذين وفدوا على رسول الله ﷺ، وفيه : سألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف يحزبون القرآن؟ قالوا : ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل وحده(114).

ـــ ومنها ما رواه ابن ابي شيبة في مصنفه عن سعيد بن خالد : صلى رسول ﷺ بالسبع الطوال في ركعة(115).

ـــ ومنها ما أخرجه البخاري في صحيحه عن واثلة بن الأسقع ان رسول الله ﷺ قال: «اعطيت مكان التوارة السبع الطوال، واعطيت مكان الزبور المئين، واعطيت مكان الإنجيل المثاني، وفضلت بالمفصل»(116)

---

(113) البرهان 257/1.

(114) سنن أبي داود. حديث رقم 1393.

(115) مصنف ابن أبي شيبة 368/1. (تحقيق عبد الخالق الافغاني، ط، 2 سنة 1979 الهند).

(116) قال أبو جعفر النحاس هذا الحديث يدل على أن تأليف القرآن مأخوذ عن النبي صلى الله عليه وسلم وأنه مؤلف من ذلك الوقت، وانما جمع في المصحف على شيء واحد، لأنه قد جاء هذا الحديث بلفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم على تأليف القرآن، وفيه أيضا دليل على أن سورة الانفال سورة على حدة وليس من براءة (البرهان في علوم القرآن 258/1).

ــ ومنها ما أخرجه البخاري في صحيحه ايضا عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «في بني اسرائيل، والكهف، وطه، والأنبياء، انهن من العتاق الأول وهن من تلادي». (117) فذكرها نسقا كما استقر ترتيبها في المصحف.

واستنادا إلى هذه النصوص فقد ذهب جلة من العلماء إلى أن تأليف القرآن وترتيب آياته وسوره انما كان بالوحي.

قال أبو جعفر النحاس : «المختار أن تأليف السور على هذا الترتيب من رسول الله ﷺ.» (118) واستدل على ذلك بحديث واثلة المذكور.

وقال أبو بكر الأنباري : «أنزل الله القرآن كله إلى سماء الدنيا ثم فرق في بضع وعشرين، فكانت السورة تنزل لأمر يحدث والآية جواباً لمستخبر ويوقف جبريل النبي ﷺ على موضع السورة والآية، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف كله عن النبي ﷺ، فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن». (119)

وقال الطيبي : «أنزل القرآن أولاً جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ثم نزل مفرقاً على حسب المصالح، ثم أثبت في المصاحف على التأليف والنظم المثبت في اللوح المحفوظ». (120)

وقال ابن الحصار : «ترتيب السور ووضع الآيات مواضعها إنما كان بالوحي، كان رسول الله ﷺ يقول : «ضعوا آية كذا في موضع كذا» وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من تلاوة رسول الله ﷺ، ومما أجمع الصحابة على وضعه هكذا في المصحف». (121)

---

(117) فضائل القرآن لابن كثير (ط دار الاندلس) ص : 42. وقوله : «من العتاق الأول أي من قديم ما نزل، وقوله «من تلادي أي من قديم ما قنيت وحفظت.

(118) البرهان 258/1.

(119) البرهان 260/1.

(120) الاتقان 177/1.

(121) الاتقان 176/1.

وقال السيوطي : «ومما يدل على أنه توقيفي كون الحواميم رتبت ولاء وكذا الطواسين ولم ترتب المسبحات ولاء، بل فصل بين سورها، وفصل بين طسم الشعراء، وطسم القصص بطس مع أنها أقصر منها، ولو كان الترتيب اجتهادياً لذكرت المسبحات ولاء وأخرت طس عن القصص.[122]

ويرد صاحب المباني على من يرى أن ترتيب السور والآيات اجتهادي فيقول : «فأي عقل كان يوجب تأخير «سورة إقرأ» إلى اخريات الكتاب وهي من أوله نزولاً، وتقديم قوله تعالى «واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله»[123] إلى أول الكتاب وهي من آخره نزولاً ؟ وكيف كان يوجب تأخير السور المكية وهي من اوائلها نزولاً، وتقديم السور المدنية وهي من أواخرها نزولاً ؟ فعلمتَ بهذا أن هذا أمر لا يهتدى إليه بعقل دون أن يكون له توقيف من سمع»[124].

الرأي المختار :

إذا كانت مسألة ترتيب سور القرآن قد اختلفت فيها الآراء، فذهب بعضهم إلى أنه اجتهادي من الصحابة مستندين في ذلك إلى اختلاف ترتيب مصاحف بعض الصحابة، وإلى حديث ابن عباس المذكور أعلاه، وذهب آخرون إلى أن دائرة الخلاف ضيقة وأن ما يمكن أن يجرى فيه الخلاف سور معدودة، بل هناك من حصره في الأنفال وبراءة، بينما ذهب فريق ثالث إلى أن الخلاف لفظي، وأن الترتيب الذي هو في المصحف كان من فعل الصحابة كما تعلموه من رسول الله ﷺ .

فإن الذي نختاره في المسألة هو أن جميع سور القرآن كان ترتيبها توقيفياً للأسباب التالية :

---

(122) الاتقان 179/1.
(123) البقرة 280.
(124) مقدمتان في علوم القرآن ص : 61. نشر آرثر جيفري.

1 ــ النصوص الوفيرة التي يشد بعضها بعضاً، والتي تثبت أن الأكثر والأغلب من سور القرآن كان معلوم الترتيب، وهذا لا يعني أن باقي السور لم تكن معلومة الترتيب.

2 ــ ان جبريل كان يعرض القرآن على النبي ﷺ في العام مرة، وفي العام الذي توفاه الله مرتين[125] فكيف كان يعرض عليه ويعارضه بالقرآن ؟ هل على ترتيب نزوله ! ام على الترتيب الذي هو عليه في المصحف ؟ ولو كان عرض القرآن على ترتيب النزول، أو على ترتيب آخر، فهل كان زيد بن ثابت يخالف ذلك الترتيب وهو بيقين ــ شهد العرضة الأخيرة وكان يقرىء بها الناس حتى مات، مما شرفه أن يختار مشرفا على لجنة الجمع العثماني ؟ إنه مما لاشك فيه ان عرض القرآن على النبي ﷺ كان على حسب ما رُتب عليه بعد في المصحف العثماني واقرته لجنة الجمع بدون خلاف.

3 ــ أجمعت الأمة منذ الصدر الأول ــ والحمد الله ــ على هذا الترتيب وارتضته جيلاً بعد جيل، فأصبح التزامه أمراً لا محيد عنه إلى قيام الساعة.

4 ــ ان القرآن كما هو معجز بسبب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهو معجز أيضاً بسبب ترتيبه ونظم آياته، وأن ما يقوم بين جمل القرآن وآيه وسوره من التناسب البارع والارتباط المحكم والائتلاف البديع ينتهي إلى حد الإعجاز لأكبر دليل على أنه نزل من اللوح المحفوظ كذلك.

ترتيب القرآن حسب النزول

من الثابت المشهور أن القرآن الكريم نزل إلى سماء الدنيا جملة واحدة ثم نزل بعد ذلك منجماً في عشرين سنة أو ثلاث وعشرين سنة حسب الخلاف في مدة إقامته بمكة بعد البعثة.[126]

(125) قال ابن كثير والمراد من معارضته له بالقرآن كل سنة مقابلته على ما أوحاه إليه عن الله تعالى ليبقى ما بقي، ويذهب ما نسخ توكيدا واستثباتا، وحفظا لهذا عرضه عليه السلام في السنة الأخيرة من عمره على جبريل مرتين، وعارضه به جبريل كذلك، ولهذا فهم عليه السلام اقتراب أجله (فضائل القرآن لابن كثير ص : 44).

(126) الاتقان 116/1.

أخرج أبو عبيد والنسائي والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : انزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر، ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنة، وقرأ : «لا ياتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا» وقرأ : «وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مُكث ونزلناه تنزيلا»(126م)

ولقد اهتم العلماء بضوابط القرآن المكي والمدني، وتتبعوا مواقع نزوله وترتيب ما نزل بمكة والمدينة، وما نزل بمكة وحكمه مدني وعكسه، وما نزل بمكة في أهل المدينة وعكسه، وما يشبه نزول المكي في المدني، وعكسه، وما نزل بالجحفة، وما نزل ببيت المقدس، وما نزل بالطائف، وما نزل بالحديبية، وما نزل ليلا، وما نزل نهارا، وما نزل مشيعا،(127) وما نزل مفردا، ثم الآيات المدنيات في السور المكية، والآيات المكية في السور المدنية، ثم ما حمل من مكة إلى المدينة وعكسه، وما حمل من المدينة إلى أرض الحبشة، ثم ما نزل مجملاً، وما نزل مفسراً، وما نزل مزمورا، ثم ما اختلفوا فيه فقال بعضهم مدني وبعضهم مكي.(128)

وقد أورد كل من الزركشي، والسيوطي سور القرآن المكي والمدني حسب ترتيب نزولها وكان أول ما أنزل من القرآن : اقرأ، ثم ن، ثم يا أيها المزمل، ثم يا أيها المدثر، ثم تبت يدا أبي لهب، ثم إذا الشمس كورت، ثم سبح، ثم والليل، ثم والفجر، ثم والضحى، ثم ألم نشرح، ثم والعصر، ثم والعاديات، ثم إنا أعطيناك، ثم الهاكم التكاثر، ثم أرايت الذي يكذب، ثم قل يا أيها الكافرون، ثم سورة الفيل، ثم الفلق، ثم الناس، ثم قل هو الله أحد، ثم والنجم إذا هوى، ثم عبس، ثم انا أنزلناه، ثم والشمس وضحاها، ثم والسماء ذات البروج، ثم والتين، ثم لايلاف قريش، ثم القارعة، ثم لا أقسم بيوم القيامة، ثم الهمزة، ثم المرسلات، ثم ق، ثم لا أقسم، ثم الطارق، ثم اقتربت الساعة، ثم ص والقرآن، ثم الأعراف، ثم الجن، ثم يس، ثم

(126م) قال الحاكم صحيح الاسناد ولم يخرجاه، انظر المستدرك على الصحيحين 368/2 (ط، دار المعرفة بيروت).

(127) ورد في الحديث ان سورة الانعام شيعها سبعون ألف ملك ما بين السماوات والأرض لهم زجل بالتسبيح البرهان 199/1.

(128) البرهان 192/1 والاتقان 22/1.

الفرقان، ثم الملائكة، ثم مريم، ثم طه، ثم الواقعة، ثم الشعراء، ثم النمل، ثم القصص، ثم بني اسرائيل، ثم يونس، ثم هود، ثم يوسف، ثم الحجر، ثم الأنعام، ثم الصافات، ثم لقمان، ثم سبأ، ثم الزمر، ثم حم المؤمن، ثم حم السجدة، ثم حمعسق، ثم حم الزخرف، ثم الدخان، ثم الجاثية، ثم الأحقاف، ثم الذاريات، ثم الغاشية، ثم الكهف، ثم النحل، ثم انا ارسلنا نوحا، ثم ابراهيم، ثم الأنبياء، ثم المؤمنين، ثم تنزيل السجدة، ثم الطور، ثم تبارك الملك، ثم الحاقة، ثم سأل، ثم عم، ثم النازعات، ثم اذا السماء انفطرت، ثم اذا السماء انشقت، ثم الروم، ثم العنكبوت، ثم ويل للمطففين.

فهذا ما أنزل الله بمكة، ثم أنزل بالمدينة : البقرة، ثم الأنفال، ثم آل عمران، ثم الأحزاب، ثم الممتحنة، ثم النساء، ثم اذا زلزلت، ثم الحديد، ثم القتال، ثم الرعد، ثم الرحمن، ثم الإنسان، ثم الطلاق، ثم لم يكن، ثم الحشر، ثم اذا جاء نصر الله، ثم النور، ثم الحج، ثم المنافقون، ثم المجادلة، ثم الحجرات، ثم التحريم، ثم الجمعة، ثم التغابن، ثم الصف، ثم الفتح، ثم المائدة، ثم براءة.(129)

قال الزركشي : «وأما ما اختلفوا فيه ففاتحة الكتاب، قال ابن عباس والضحاك ومقاتل وعطاء : انها مكية، وقال مجاهد : مدنية، واختلفوا في «ويل للمطففين» فقال ابن عباس مدنية، وقال عطاء هي آخر ما نزل بمكة، فجميع ما نزل بمكة خمس وثمانون سورة، وجميع ما نزل بالمدينة تسع وعشرون سورة على اختلاف الروايات».(130)

ويرجع سبب الاختلاف في المكي والمدني، إلى أن المرجع في ذلك إلى حفظ الصحابة والتابعين، لأنه لم يرد عن النبي ﷺ في ذلك قول، لأنه لم يؤمر به ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة، وإن وجب في بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ فقد يعرف ذلك بغير نص الرسول ﷺ.(131)

---

(129) البرهان 193/1، 194، والاتقان 26/1، 27 والفهرست لابن النديم ص : 37 — 39.

(130) الزركشي : 194/1.

(131) الاتقان 23/1.

الإعجــاز في ترتيب القـرآن :

والذي يهمنا من ذلك هو اختلاف ترتيب المصحف العثماني عن اختلاف بعض مصاحف الصحابة الخاصة التي كانت مرتبة ــ على العموم ــ حسب ترتيب السور نزولاً(132) ويمكننا أن نتساءل عن الأساس الذي رتب عليه المصحف العثماني مع قولنا بتوقيفية ترتيب السور ؟ الم يكن من الطبيعي والبديهي أن يرتب القرآن كما نزل بالتتابع الأول فالأول ؟.

يقول الدكتور عبد الله دراز : «كان ينبغي أن يتبع إما الترتيب التاريخي للنزول ،واما الترتيب المنطقي البسيط المبني على تجانس الموضوعات، إلا أن السور القرآنية تتنوع موضوعاتها ولا تخضع لأي من الفرضين أو الترتيبين السابقين مما يدعونا إلى ترجيح وجود تصميم معقد يكون قد وضع في وقت سابق لنزول القرآن على قلب الرسول، ولكن سرعان ما نميل إلى الانصراف عن هذا الافتراض بسرعة لاننا نرى مدى الجرأة والاستحالة التي ينطوي عليها القاؤه أو اظهاره على مدى عشرين عاما، وبما يتناسب مع عديد من الملابسات والظروف التي تستدعي هذا الحديث، والتي لا يمكن توقعها أو التنبؤ بها، غير أن السنة تؤكد لنا هذا الافتراض الغريب وتؤيده».(133)

فالواقع أنه فور نزول الوحي على الرسول ﷺ كان كل جزء منه صغيراً أو كبيراً يوضع في السور التي لم تكن قد اكتملت بعد، وفي مكان محدد من السورة، وفي موضع رقمي من آياتها، وفي ترتيب لم يكن دائماً هو الترتيب التاريخي، وبمجرد وضع الآية أو الآيات في موضع ما، بقيت فيه إلى الأبد دون أن يطرأ عليها تحويل او تصحيح، وهذا يدل على أنه كان هناك تصميم لكل سورة، فضلاً عن تصميم أو خطة عامة للقرآن في جملته بمقتضى كل منهما كان كل وحي

(132) انظر ترتيب السور من هذا البحث ص : 48 وما بعدها.
(133) مدخل إلى القرآن الكريم ص : 120.

جديد يوضع في مكانه توّاً بين آيات هذه السورة أو تلك من السور المفتوحة.(134)

وطريقة تأليف القرآن الكريم بهذا الشكل لا مثيل لها على الإطلاق، فلا يوجد كتاب من الكتب الدينية او الأدبية او غير ذلك ألـف بهذا الشكل وفي مثل هذه الظروف، يقول الدكتور دراز: «وكأن القرآن كان قطعاً متفرقة ومرقمة من بناء قديم كان يراد إعادة بنائه في مكان آخر على نفس هيئته السابقة، وإلا فكيف يمكن تفسير هذا الترتيب الفوري والمنهجي في آن واحد فيما يتعلق بكثير من السور، إذا لم تكن الصحائف الخالية والصحائف التامة تمثل وحدة كاملة في نظر المؤلف ؟(135).

ويضيف متسائلا: «أي ضمان تاريخي يستطيع ان يتحصل عليه الإنسان عند وضع مثل هذه الخطة إزاء الأحداث المستقبلة ومتطلباتها التشريعية والحلول المنشودة لها، فضلاً عن الشكل اللغوي الذي يجب أن تقدم به هذه الحلول وتوافقها الأسلوبي مع هذه السورة بدلاً من تلك ؟ وكيف يمكن مجرد تجميع وتقريب هذه القطع المبعثرة بعضها من بعض بدون تعديل أو لحام أو وصلات ــ رغم تنوعها الطبيعي وتفرقها التاريخي ــ أن يجعل منها وحدة عضوية متجانسة يتوافر فيها ما نرجوه من التماسك والجمال ؟ الا يصدر مثل هذا المشروع، وقد بلغ هذا المبلغ من الطموح الا عن حلم خيالي او عن قوة فوق قدرة البشر، تتوفر فيها القدرة على إقامة مثل هذا التنسيق المنشود ؟ وإلا فمن هو المخلوق الذي يستطيع أن يوجه الأحداث بما يتوافق تماما مع هذا التصميم المرسوم، او كيف يمكن أن نخرج من مجموعة مصادفات بمثل هذا البناء الأدبي الرفيع وهو القرآن ؟»(136)

(134) مدخل إلى القرآن الكريم ص : 120.

(135) نفس المصدر ص : 21.

(136) نفس المصدر ص : 120.

أليس ذلك وحده آية بينة على أن هذا النظم القرآني ليس من وضع بشر، وإنما هو من صنع العليم الخبير ؟ بلى «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً»(137).

إعادة ترتيب النص القرآني:

إذا كان النص القرآني قد رتب وفق نمط فريد، وعلى مدى عشرين سنة، فقد دل ذلك على وجود تصميم معقد يكون قد وضع في وقت سابق لنزول القرآن على قلب الرسول ﷺ ، لا دخل لأحد فيه، مما جعل المسلمين يدركون — منذ الصدر الأول أن ترتيب القرآن هو فوق الطاقة، فقد قال محمد بن سيرين لعكرمة أيام الجمع الأول للقرآن: ألفوه — أي القرآن — كما أنزل الأول فالأول، فأجاب عكرمة: لو اجتمعت الإنس والجن على أن يؤلفوه ذلك التأليف ما استطاعوا :(138)

وإذا كان عمل الصحابة في تدوين القرآن الكريم في مصاحف خاصة بهم، قد ألغي بتدوين المصحف العثماني، وبالترتيب الذي أجمع عليه الصحابة، واعتمدته الأمة دون أي اعتراض، فإن هناك دعوات تنبعث من حين لآخر لإعادة ترتيب القرآن الكريم، إما عن سوء نية وخبث طوية، وإما بدافع معرفة تتابع أحداث الدعوة الإسلامية في عهد المبعث أولاً بأول وحادثة بحادثة، بل إن أفراداً — قدماء ومحدثين رتبوا القرآن ترتيبا خاصا كما اشرت الى ذلك من قبل.

وكيفما كان الحال فان هذه الدعوة تنطوي على أمر خطير وهو فتح باب للاشتباه في سلامة النص القرآني، وزعزعة الثقة امام الاجيال المقبلة التي قد يقول قائل منها: انه في عصر ما غير ترتيب سور القرآن فلعله وقعت تغييرات أخرى لم نطلع عليها.

---

(137) النساء : 81.

(138) الاتقان 166/1.

موقف بعض المستشرقين من ترتيب القرآن :

لقد جهد كثير من المستشرقين وتحمسوا لدراسة النص القرآني باعتباره مصدر التحدي للعالم الغربي، وأساس الاختلاف بين الحضارة العربية الاسلامية والحضارة الغربية، ولذلك كان تركيزهم على القرآن قويا، وقد وجدوا في اختلاف ترتيب المصاحف الخاصة بالصحابة والتابعين وغيرهم مجالا للتشكيك في سلامة النص القرآني، ومن بين هؤلاء المستشرقين في العصر الحديث : «نولدكه» صاحب كتاب «المصاحف» الذي أخذ ترتيبه عن كتاب أبي القاسم عمر بن محمد بن عبد الكافي من رجال القرن الخامس، و«بلاشير» الفرنسي صاحب كتاب القرآن : نزوله تدوينه، ترجمته، تأثيره.

يقول بلاشير في سياق تقويمه لعمل المستشرقين في هذا المضمار : «اهتم بعض المؤرخين من علماء الاسلاميات امثال : «هوير، ونولدكي»، بالاهتداء الى التعاقب التاريخي في هذا المصحف للمنزلات التي نقلها محمد[139]... لكن نولدكي، ونخبة من علماء الاسلاميات الالمان قد نجحوا في تحديد طريقة أخرى للبحث بفضل معالجتهم الجديدة للمسألة بكاملها في «تاريخ القرآن» الذي ظهر من سنة 1919 الى 1938، لقد تنازل هؤلاء العلماء عن مطمحهم للاهتداء الى تسلسل للنصوص القرآنية لا لبس فيه، فنجحوا في اعادة جمع هذه النصوص وفقا لمراحل متعاقبة حددوها بحسب الاسلوب من جهة، وبحسب الموضوعات السياسية والدينية الموسعة في القرآن من جهة أخرى، وقد أبقى الجمع الجديد للنصوص على التقسيم العام الذي كرسه المؤلفون الاسلاميون العرب الى آيات مكية وآيات مدنية»[140]

وكعادة المستشرقين ــ غالبا ــ فان بلاشير ينظر الى القرآن وكانه كتاب من الكتب البشرية خالف بتنظيمه الغير المعهود الترتيب التاريخي للنصوص التي

---

(139) الجمع الصوتي الأول للقرآن ص : 358، 359.

(140) لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم ينقل الوحي، وانما كان يامر كتبته بوضع كل جزء أو قطعة نزلت من القرآن في مكانها المرسوم لها في السورة بتوجيهه من امين الوحي جبريل.

نزلت على محمد ﷺ واحدث بذلك خللا لا دواء له، وكأن ذلك من النقص أو الغلط الذي أوقعه سيدنا عثمان رضي الله عنه في القرآن وهو يجاري في تأليفه له عادات الساميين، وفقهاء اللغة العراقيين في تقديم القصائد الشعرية الطويلة في مقدمة دواوينهم.

يقول بلاشير: «إن المائة والاربعة عشرة سورة التي يتألف منها هذا النص ترد اجمالا وفقا لتدرج هبوطي في الطول، هذا الترتيب يبدو مطابقا لبعض العادات الخاصة بالساميين، هكذا أيضا ــ في القرنين الثامن والتاسع ــ كان فقهاء اللغة العراقيون يضعون القصائد في مقدمة دواوينهم التي تضم آثار الشعر العربي القديم، هذا التنظيم في مصحف عثمان كانت نتيجته احداث خلل لا دواء له في الترتيب التاريخي للنصوص التي نزلت على محمد، فان السور الطويلة موافقة للدعوة في المدينة بين سنة 622 ــ 632م، أما السور القصيرة والمتوسطة، وهي نصوص من الفترة المكية على العموم، فانها ترد في نهاية المصحف فقط... فيمكننا القول بأننا نقرأ القرآن بتاريخ معكوس».(142)

ومثل بلاشير فان المبشر الانجليزي «ارثر جفري» مؤلف كتاب المصاحف.(143) قد وقع تحت تأثير التاريخ الكنسي المسيحي الذي ألف دراسته الى درجة أنه يكاد يكون قد نقله بأحداثه الكاملة أثناء بحثه في المجال الاسلامي،

---

(141) القرآن : نزوله تدوينه ترجمته تاثيره لبلاشير، ترجمة رضا سعادة ص : 26. (ط، 1974/1م دار الكتاب اللبناني ــ بيروت).

(142) القرآن نزوله تدوينه ص : 37، 38.

(143) جمع فيه الاختلافات المنسوبة إلى المصحف الفردي لكل من : ابن مسعود، وأبي بن كعب، وعلي بن أبي طالب، وابن عباس، وابي موسى الاشعري، وحفصة، وانس بن مالك، وعمر بن الخطاب، وزيد بن ثابت، وابن الزبير، وعائشة، وسالم مولى أبي حذيفة، وام سلمة، وعبيد بن عمير، كما جمع الاختلافات المنسوبة إلى مصاحف التالين للصحابة وهم الاسود بن يزيد، وعلقمة، وحطان، وسعيد بن جبير، وطلحة وعكرمة، وعطاء بن رباح، والربيع بن الخيثم، والاعمش، وجعفر الصادق، وصالح بن كيسان، والحارث بن سويد. كما جمع الاختلافات المنسوبة إلى المصاحف المجهولة الاتباع (انظر : الجمع الصوتي الأول للقرآن ص : 322، 323).

فهو يحاول أن يثبت ان النص القرآني قد مر بأطوار تشبه من جوانب كثيرة ما مر به الانجيل(144).

وإذا كان المستشرقون ــ عموما وبدافع من الخلفيات الفكرية للصراع الحضاري بين المسيحية والاسلام ــ كانوا ينساقون الى مجانبة الموضوعية في دراساتهم للاسلام وكتابه العزيز فان كتابا ومفكرين من أبناء جلدتنا اما بدافع التأثر بالدراسات الاستشراقية، واما بدافع الاجتهاد في البحث والدراسة قد أخطاوا في الاتجاه الى القول باعادة ترتيب سور القرآن حسب نزولها من سورة العلق ثم المزمل ثم المدثر ثم الفاتحة حتى يختم بسورة النصر، بدعوى «ان ترتيب القرآن ــ في وضعه الحالي ــ يبلبل الافكار، ويضيع الفائدة المطلوبة من نزول القرآن، لأنه يخالف منهج التدريج التشريعي الذي روعي في النزول ويفسد نظام التسلسل الطبيعي للفكرة، لان القارىء اذا انتقل من سورة مكية الى سورة مدنية، اصطدم صدمة عنيفة وانتقل ــ بدون تمهيد ــ الى جو غريب عن الجو الذي كان فيه... الخ»(145).

رفض تفسير القرآن حسب ترتيب نزوله

اذا كان بعض العلماء ــ قدماء ومحدثين ــ قد سوغوا لأنفسهم تفسير وحدات او سور قرآنية مستقلة عن مجموع آيات وسور القرآن(146) خدمة

(144) مدخل إلى القران الكريم ص : 45.

(145) صاحب هذه الدعوى هو «يوسف راشد» الذي تقدم برسالة «تحت عنوان : «رتبوا القرآن كما انزله الله» وقد كتب المرحوم الدكتور عبد الله دراز تقريرا عن هذه الرسالة رفعه إلى ادارة الازهر، نص التقرير نشر في مجلة : كنوز القرآن. عدد اكتوبر ونوفمبر 1951 (الجمع الصوتي الأول القرآن ص : 359، وهامش رقم 1) ولا يخفي ما في هذا القول من جرأة وتطاول على ترتيب القرآن ونظمه.

(146) من القدماء : هشام الكلبي، روى ابن النديم في فهرسته (ص 51) أن له كتاب تفسير الايات التي نزلت في أقوام بأعيانهم، ومنهم شيخ الاسلام ابن تيمية الذي كتب تفسيرا لسورة الاخلاص وكتب تفسيرا لسور : الأعلى، والشمس، والليل، والعلق، والتين، والبينة، والكافرون.
ومن المحدثين عدد كبير منهم : الامام الشيخ محمد عبده الذي نشر له تفسير سورة العصر، وتفسير جزء عم.

لكتاب ربهم، وتبسيطا لقضايا دينهم بطريقة تكون اكثر نفعا، واقرب منالا ودون أن تثير أي اعتراض أو نقد،فان أحد العلماء المحدثين في الشام، وهو الدكتور محمد عزة دروزة رحمه الله(147) قد توسع في المسألة كثيرا، متخذا مما ذكرنا مستندا، فقام بانجاز تفسير للقرآن الكريم، مرتِّبا سوره على ترتيبها في النزول، معززا رأيه بان التفسير ليس مصحفا للتلاوة من جهة وهو عمل فني او علمي من جهة ثانية، ولان تفسير كل سورة يصح أن يكون عملا مستقلا بذاته لا صلة له بترتيب المصحف وليس من شأنه ان يمس قدسية ترتيبه من جهة ثالثة،(148)

وقد اعتضد هذا العالم فيما ذهب اليه الى فتويين :

ــ احداهما صدرت عن مفتي سورية الشيخ أبو اليسر عابدين جاء فيها : ليس التفسير بقرآن يتلى حتى يراعى فيه ترتيب الايات والسور، فقد يعن للمفسرأن يفسر آية ثم يترك ما بجانبها لظهور معناها، وقد يفسر سورة ثم يترك ما بعدها اعتمادا على فهم التالي، ولا مانع من تأليف تفسير على الشكل المذكور، والله أعلم».

ــ والثانية صدرت عن الشيخ عبد الفتاح أبي غدة جاء فيها : «ان شبهة المنع لهذه الطريقة آتية من جهة أنها طريقة تخالف ما عليه المصحف الشريف، ودفع هذه الشبهة ان المنع يثبت فيما لو كان هذا الصنيع مسلوكا من أجل ان

= والامام الشيخ المراغي الذي نشر له تفسير ميسر لاي خاصة من القرآن الكريم، والدكتورة بنت الشاطىء نشر لها التفسير البياني للقرآن الكريم في جزئين يتناول (ج 1) سور : الضحى، والزلزلة، والنازعات، والعاديات، والبلد، والتكافر ــ ويتناول (ج 2) سور : العلق، والقلم، والعصر، والليل، والفجر، والهمزة، والماعون، والشهيد حسن البنا نشر له تفسير الفاتحة، والداعية المرحوم أبو الأعلى المودودي نشر له تفسير سورة النور.
الا أن هذه التفسيرات رغم قيمتها العلمية فانها لا تنهض ــ من وجهة نظرنا ــ دليلا على جواز تفسير القرآن وفق ترتيب مخالف لترتيب المصحف العثماني لاختلاف القصد بين هؤلاء واولئك.

(147) وهو عالم جليل، اصله من فلسطين قاوم الاستعمار وتعرض للسجن بسبب الثورة الفلسطينية من سنة 1937 ــ مارس 1945 وفي السجن كتب مسودة تفسيره : «التفسير : الحديث» حسب ترتيب النزول، وله عدة مؤلفات قيمة منها : عصر النبي ﷺ، وسيرة الرسول ﷺ من القرآن، والدستور القرآني في شؤون الحياة، والقرآن المجيد، جعله بمثابة مقدمة مستقلة لتفسيره، والمبشرون والقرآن... أنظر مقدمة تفسيره ص : 5،6، ط 1 دار إحياء الكتب العربية 1962م لباني الحلبي.

(148) انظر مقدمة تفسيره ص : 9

يكون هذا الترتيب مصحفا للتلاوة... ويستأنس لسواغية هذه الطريقة بما سلكه اجلة من علماء الامة المشهود لهم بالامامة والقدوة من المتقدمين في تأليفهم، ولم يُعلم أن أحدا انكر عليهم ما صنعوا(149)

وقد اعتمد في تفسيره على الترتيب الذي جاء في مصحف الخطاط قَدْرُوغَلي، لأنه ذكر فيه أنه طبع تحت إشراف لجنة خاصة من ذوي العلم والوقوف، حيث يتبادر الى الذهن ان يكون قد اشير الى ترتيب النزول فيه (السورة كذا نزلت بعد السورة كذا) بعد اطلاع اللجنة على مختلف الروايات والترجيح بينها.(150)

ولا يخفى ما يمكن ان تواجه ترتيب القرآن وفق النزول من صعوبات، وقد اعترف المؤلف بذلك حين اضطر الى مخالفة الترتيب الذي اختاره حيث قال: «ولقد رأينا مع ذلك ان نخالف هذا المصحف(151) بعض الشيء. فسور العلق، والقلم، والمزمل، والمدثر، التي وردت فيه كالسور الاولى والثانية والثالثة والرابعة بالتوالي ليست كذلك الا بالنسبة لمطالعها فقط على أحسن تقدير، حيث إن ما يأتي بعد هذه المطالع لا يمكن ان يكون نزل الا بعد نـزول سور وفصول غيرها»(152)

كما لم يفت المؤلف أن يشير الى أن ترتيب سور القرآن على حسب النزول فيه شيء من التجوز فنص على أنه ليس في الامكان تعيين ترتيب صحيح لنزول السور القرآنية جميعها، كما أنه ليس هناك ترتيب يثبت بكامله على النقد او يستند الى أسانيد قوية ووثيقة، وزيادة على هذا فان في القول بترتيب السور حسب نزولها شيئا من التجوز».(153)

---

(149) انظر نص الفتويين في مقدمة تفسيره ص : 9 — 11.

(150) المصدر السابق ص 12، 13، وانظر جدول ترتيب نزول السور على حسب ما ورد في مطالع سور هذا المصحف ص : 14—15.

(151) يقصد مصحف الخطاط قدر وغلي الذي اختاره لأن ترتيبه اكثر ضبطا لطبعه تحت اشراف لجنة من ذوى العلم والوقوف (مقدمة تفسيره ص : 12)

(152) مقدمة التفسير الحديث ص : 16

(153) نفس المصدر.

وقد سلك هذا المسلك في تفسير القرآن ايضا الدكتور أسعد أحمد علي، فأصدر تفسيرا(154) جاء اكتشافا لمنهج في اليسر التربوي قوامه ستة مستويات في كل منها تفسير تسع عشرة سورة(155)، وقد تتبع فيه «تفاصيل السيرة النبوية، وتدرج نزول آيات القرآن على النبي بدءا بالايات الاولى من سورة العلق، وانتهاء بسورة النصر، مرورا بما بينهما من السور وفق تاريخ نزولها»(156)

واذا كان مستند هؤلاء القائلين بترتيب سور القرآن حسب نزولها متقاربا ومتشابها يضع في الاعتبار التدرج التشريعي الذي روعي في النزول لئلا تتبلبل الافكار وتضيع الفائدة المطلوبة من نزول القرآن(157). او اظهار حكمة التنزيل ومبادىء القرآن ومتناولاته عامة باسلوب وترتيب حديثين متجاوبين مع الرغبة الشديدة الملموسة عند كثير من شبابنا الذين يتذمرون من الاسلوب التقليدي ويعرضون عنه(158). ووضع منهج لليسر التربوي(159). وهي كلها اعتبارات متداخلة وتبريرات ضعيفة لتغيير الترتيب المجمع عليه والمنقول الينا بالتواتر جيلا بعد جيل، ونحن مع ابي بكر الانباري في ان «اتساق السور كاتساق الآيات والحروف كله عن النبي ﷺ ، وان من قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن»(160)

ولذلك فاننا لا نملك الا التمسك بالقول بتوقيفة، ترتيب السور، وان دعوى اعادة ترتيب القرآن مردودة ــ في نظرنا ــ للاسباب التالية :

أ ــ ان ترتيب السور توقيفي على ما يقرره جمهور العلماء، ولم يخالف سني ولا شيعي في التزام هذا الوضع الذي كان عليه المصحف من أول يوم.

---

(154) عنوانه : تفسير القرآن المرتب منهج اليسر التربوي، طبع بدار السوال للطباعة والنشر بدمشق سنة 1979 (ط 1).

(155) تفسير القرآن المرتب ص : 10.

(156) نفس المصدر ص : 29.

(157) وهو ما قال به «يوسف راشد» الآنف الذكر.

(158) مقدمة التفسير الحديث ص : 5.

(159) وهو مستند د : اسعد احمد علي.

(160) البرهان 1 /260

ب ــ وان احترام قدسية الوضع المأثور يقضي بالمحافظة على النسق القائم الآن في الآيات والسور جميعا، وان فكرة ترتيب المصحف ــ على حسب النزول ــ كانت تقضي بتغيير الوضع في السور والآيات جميعا بل هي ــ في الآيات ــ كانت اشد اقتضاء ومع ذلك فقد خولفت.

ج ــ وان تغيير الترتيب يفتح مجال الشبهة امام العصور المقبلة فيقول قائل منهم : إنه لم يبق لنا ثقة بأن هذا الكتاب بقي في كل العصور بعيدا عن كل تبديل، لانه في عصر ما غيرت اوضاع السور فيه، فلعله قد اصابته ــ قبل ذلك تعديلات أخرى لم تصل الينا انباؤها.

د ــ وان هذه الدعوة خارقة لاجماع المسلمين، ويُحرف بها الكلم عن مواضعه التي وضعها الله فيها، ولن يكون من ورائها الا افساد النسق وتشويه جماله.(161)

هـ ــ ان فتح اعادة ترتيب السور حسب نزولها ــ قد يؤدي الى فتح باب آخر أشد خطرا على كتاب الله العزيز، فيغري بعض المتطفلين على القرآن فيطالبون باعاداة ترتيب الآيات حسب نزولها، وفي ذلك من التحريف والتشويه لنظم القرآن، وافساد لحسن ترتيبه ورصف آياته وكلماته، مالا يقول به الا جاهل ببيان القرآن واعجازه، او ماكر يريد ان يأتي على بنيان الاسلام من اركانه.

(161) رد الدكتور عبد الله دراز على رسالة «يوسف راشد» المذكورة والتي طالب فيها بترتيب القرآن حسب النزول بهذه الحجج ورفعها ضمن تقريره الى ادارة الازهر (الجمع الصوتي الاول للقرآن هامش 1،2 من ص : 359).

المبحث الثالث

التناسب وجه من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم

التناسب وجه من وجوه الاعجاز

تعريف التناسب :

المناسبة في اللغة المشاكلة والمقاربة، ومرجعها في الآيات ونحوها الى معنى رابط بينهما عام أو خاص عقلي أو حسي أو خيالي أو غير ذلك من أنواع علاقات التلازم الذهني كالسبب والمسبب، والعلة والمعلول والنظيرين والضدين، ونحو ذلك.(1)

ومناسبة الآيات والسور، وارتباط بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني، مرتبطة المباني وجه من وجوه اعجاز القرآن الكريم «فكما أنه معجز بحسب فصاحة الفاظه وشرف معانيه، فهو أيضا بسبب ترتيبه ونظم آياته»(2).

علم المناسبات وأهميته :

علم مناسبات القرآن هو «علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة، لأدائه الى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال، وتتوقف الاجازة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها، فلذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة، وكانت نسبته من علم التفسير كنسبة علم البيان من النحو»(3)

قال السيوطي : «علم المناسبة علم شريف قل اعتناء المفسرين به لدقته، وممن أكثر منه الإمام فخر الدين، قال في تفسيره : أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط»(4) وأول من سبق إلى هذا العلم الشيخ أبو بكر النيسابورى،

---

(1) معترك الاقران في اعجاز القرآن للامام السيوطي 1 /57. تحقيق محمد علي البجاوي، ط، دار الفكر العربي.
(2) نفس المرجع 1 /56.
(3) نظم الدرر في تناسب الآي والسور لبرهان الدين البقاعي (مخطوط) رقم 181 في الخزانة العامة بالرباط : 1/3.
(4) معترك الاقران 1 /55.



وكان كثير العلم في الشريعة والأدب، وكان يقول على الكرسي إذا قرئت عليه الآية : «لم جعلت هذه الآية جنب هذه ؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة في جنب هذه السورة؟ وكان يزرى على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة»(5).

وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام : «المناسبة علم حسن لكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط، ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك يصان عن مثله حسن الحديث فضلاً عن أحسنه، فإن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة شرعت لأسباب مختلفة وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض»(6)

وقد وَهَّم الشيخ ولي الدين الملوي من قال لا يُطلب للآية الكريمة مناسبة لأنها على حسب الوقائع المتفرقة فقال : «وفصل الخطاب إنها ــ أي الآية ــ على حسب الوقائع تنزيلاً وعلى حسب الحكمة ترتيباً وتأصيلاً، فالمصحف على وفق اللوح المحفوظ مرتبة سوره وآياته بالتوقيف، كما أنزل جملة إلى بيت العزة»(7).

أنواع التناسب :

لقد تنبه المفسرون والباحثون في البلاغة وإعجاز القرآن إلى ألوان ودرجات من التناسب تبلغ الذروة في تصوير القرآن وإعجازه ذكر منها سيد قطب ما يلي :

1 ــ التنسيق او التناسب في تأليف العبارات بتخير الألفاظ، ثم نظمها في نسق خاص يبلغ في الفصاحة أرقى درجاتها، وقد أكثروا من القول في هذا اللون وبلغوا غاية مداه.

2 ــ الإيقاع الموسيقي الناشيء من تخير الألفاظ ونظمها في نسق خاص، ومع أن هذه الظاهرة واضحة جد الوضوح في القرآن، وعميقة كل العمق في بنائه

---

(5) هو محمد بن عبدوس بن أحمد بن الجنيد أبو بكر المقرئ المفسر الواعظ النيسابورى. إمام فاضل عالم بمعاني القرآن توفي سنة 338 هـ (طبقات المفسرين للداودي: 2 /191). تحقيق علي محمد عمر ط، 1 مطبعة الاستقلال الكبرى نشر مكتبة وهبة.

(6) معترك الاقران 1 /55.

(7) المصدر السابق 1 /55،56.

الفني، فإن حديثهم عنها لم يتجاوز ذلك الإيقاع الظاهري، ولم يرتق إلى إدراك التعدد في الأساليب الموسيقية، وتناسق ذلك كله مع الجو الذي تطلق فيه هذه الموسيقى، ووظيفتها التي تؤديها في كل سياق.

3 ـــ تلك التنبيهات البلاغية التي تنبه لها الكثيرون من التعقيبات المتفقة مع السياق، كأن تجيء الفاصلة «وهو على كل شيء قدير» بعد كلام يثبت القدرة، والفاصلة «ان الله عليم بذات الصدور»[8] بعد كلام في وادي العلم المستور، وكأن يعبر بالإسم الموصول لتكون جملة الصلة بياناً لعلة الجزاء مثل : «إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط»[9]، وكأن يعبر بلفظ «الرب» في مواضع التربية والتعليم مثل «إقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الانسٰن من علق، إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الانسٰن ما لم يعلم»[10] بينما يعبر بلفظ «الله» في مواضع التأليه والتعظيم مثل : «ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام»[11].

4 ـــ ذلك التسلسل المعنوي بين الأغراض في سياق الآيات، والتناسب في الانتقال من غرض إلى غرض وبعضهم يتمحل لهذا التناسق ـــ يقول سيد قطب ـــ تمحلا لا ضرورة له حتى ليصل إلى حد من التكلف ليس القرآن في حاجة إلى شيء منه.

5 ـــ التناسق النفسي بين الخطوات المتدرجة في بعض النصوص، والخطوات النفسية التي تصاحبها كقول الزمخشري عند تفسيره لسورة الفاتحة : «إن العبد إذا افتتح حمد مولاه الحقيق بالحمد عن قلب حاضر ونفس ذاكرة لما هو فيه بقوله : «الحمد لله» الدال على اختصاصه بالحمد، وإنه حقيق به، وجد من

---

(8) لقمان : 23.
(9) الاعراف : 39.
(10) العلق : 1
(11) لقمان : 33.

نفسه لا محالة محركا للإقبال عليه، فإذا انتقل على نحو الافتتاح إلى قوله : «رب العالمين» الدال على أنه مالك للعالمين، لا يخرج منهم شيء عن ملكوته وربوبيته قوى ذلك المحرك، ثم إذا انتقل إلى قوله : «الرحمن الرحيم» الدال على أنه منعم بأنواع النعم جلائلها ودقائقها، تضاعفت قوة ذلك المحرك، ثم إذا انتقل إلى خاتمة هذه الصفات العظام وهي قوله : «مالك يوم الدين» الدال على أنه مالك للأمر كله يوم الجزاء، تناهت قوته، وأوجب الإقبال عليه، وخطابه بتخصيصه بغاية الخضوع والاستعانة في المهمات : «إياك نعبد واياك نستعين».(12)

ثم عقب رحمه الله ــ على هذه الأنواع من التناسب بقوله : «ومع أن الخصائص التي طرقوها حقيقية وقيِّمة، فإنها لا تزال أولى مظاهر التناسق التي يلمحها الباحث في القرآن، ووراءها آفاق أخرى لم يتعرضوا لها أصلاً»(13).

ثم قال «ولما كان التصوير في القرآن مسألة لم يعرضوا لها قط بوصفها أساسا للتعبير القرآني جملة فقد بقي التناسق الفني في هذا «التصوير» بعيدا عن آفاق بحثهم بطبيعة الحال».(14)

6) ــ التصوير الفني : ويمكن اعتبار «التصوير الفني في القرآن» نوعا سادسا من أنواع التناسق، وهي مسألة لم يسبق إليها ــ سيد قطب رحمه الله، وبقي التناسق الفني في هذا «التصوير» بعيداً عن آفاق بحثهم كما يقول هو نفسه(15)

والتصوير الفني عند سيد قطب «هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، فهو ــ أي القرآن ــ يعبر بالصورة المحَسة المتخيَّلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة

(12) التصوير الفني في القرآن ص : 74، 75، 27. للشهيد السيد قطب ط، 1971/7 دار إحياء التراث العربي بيروت.

(13) نفس المصدر ص : 75.

(14) نفس المصدر ص : 76.

(15) نفس المصدر.

البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها، فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة فإذا المعنى الذهني هيئة او حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة او مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية».

فأما الحوادث والمشاهد، والقصص والمناظر، فيردها شاخصة حاضرة، فيها الحياة، وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار، فقد استوت لها كل عناصر التخيل، فما يكاد يبدأ العرض حتى يُحيل المستمعين نظارة، وحتى ينقلهم نقلا إلى مسرح الحوادث الأول، الذي وقعت فيه او ستقع، حيث تتوالى المناظر وتتجدد الحركات، وينسى المستمع أن هذا الكلام يتلى ومثل يضرب، ويتخيل أنه منظر يعرض وحادث يقع، فهذه شخوص تروح على المسرح وتغدو، وهذه سمات الإنفعال بشتى الوجدانيات المنبعثة من الموقف، المتساوقة مع الحوادث، وهذه كلمات تتحرك بها الألسنة، فتنم عن الأحاسيس المضمرة.[16]

التناسب في نظم القــرآن :

وإذا كان التناسب في القرآن هو منبع السحر فيه، فإن بعض الباحثين في مزايا القرآن قد تلمسوا جوانب أخرى لتأثير القرآن واعجازه كتشريعه العادل، واخباره عن المغيبات التي تحققت بعد سنوات، ومطابقته للحقائق العلمية في خلق الكون والانسان.

وإذا كان البحث في هذه المجالات إنما يثبت المزية للقرآن مكتملا، فما القول في السور القلائل التي لا تشريع فيها ولا غيب ولا علوم، ولا تجمع ــ بطبيعة الحال ــ كل المزايا المتفرقة في القرآن ؟ ان هذه السور القلائل ــ ومنذ نزولها ــ قد سُحر العرب بها مما يدل على أنها كانت تحتوي على العنصر الذي يأخذ بألباب المستمعين ويستحوذ على المومنين والكافرين، حتى قال قائلهم فيه «إنْ هذا الاَّ سحر يوثر»[17].

---

(16) التصوير الفني في القرآن : 34.

(17) المدثر : 24.

وقصة تولي الوليد بن المغيرة[18] الواردة في سورة «المدثر» وهي من أوائل السور نزولا ترينا أي سحر كان في هذه السور حتى اضطرب له الوليد بن المغيرة ذلك الاضطراب مع أنا لا نجد فيها تشريعا محكما، ولا علوما كونية ولا إخبارا بالغيب يقع بعد سنين كالذي ورد في سورة الروم وهي السورة الرابعة والثمانون نزولا.

لابد إذن ـــ يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله ـــ أن السحر الذي عناه المغيرة كان كامنا في مظهر آخر غير التشريع والغيبيات والعلوم الكونية، لابد أنه كامن في صميم النسق القرآني[19] ذاته

ويقول الرافعي : «لما ورد عليهم أسلوب القرآن رأوا ألفاظه بأعيانها متساوقة فيما ألفوه من طرق الخطاب وألوان المنطق، ليس في ذلك إعنات ولا معاياة، غير أنهم ورد عليهم من طرق نظمه ووجوه تركيبه ونسق حروفه في كلماتها وكلماته في جملها ونسق هذه الجمل في جملته...»[20]

وإذا كان منبع السحر والاعجاز في القرآن الكريم هو في نظمه، وان جهات النظم ثلاث : في الحروف، والكلمات، والجمل، كان لابد لنا من افراد كل جهة بالكلام لنبين من خلال تناسب حروفه في كلماته، وكلماته في جمله، وجمله في سوره ما يطلعنا على النقص في كلام البلغاء، وانحطاطه عن مرتبة القرآن، وظهوره على سائر الكلام.

1 ـــ تناسب الحروف في الكلمات :

لما كان الأصل في نظم القرآن أن تُعتبر الحروف بأصواتها وحركاتها ومواقعها من الدلالة المعنوية، استحال أن يقع في تركيبه ما يسوغ الحكم في كلمة زائدة أو

(18) انظر في سيرة ابن هشام 1 /283 وما بعدها قصة القرار الذي اتخذه المغيرة مع قريش في حق سيدنا محمد ﷺ وهو انه ساحر للحيولة دون سماع الوفود القادمة للموسم للقرآن الكريم. ط، دار الفكر، ضبط وتعليق محمد محيي الدين عبد الحميد.

(19) التصوير الفني في القرآن ص : 19.

(20) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي ط، 9 سنة 1973 دار الكتاب العربي ص : 189.

حرف مضطرب أو ما يجري مجرى الحشو والاعتراض. يقول الدكتور عبد الله دراز : «دع القارىء المجوِّد يقرأ القرآن ويرتله حق ترتيله نازلا بنفسه على هوى القرآن، وليس نازلا بالقرآن على هوى نفسه، ثم انتبذ منه مكانا قصيا لا تسمع فيه جرس حروفه، ولكن تسمع حركاتها وسكناتها، ثم ألق سمعك إلى هذه المجموعة الصوتية، وقد جردت تجريدا وارسلت ساذجة في الهواء، فستجد نفسك منها بإزاء لحن غريب عجيب لا تجده في كلام آخر لو جرد هذا التجريد، وجود هذا التجويد، ستجد اتساقا وائتلافا يسترعي من سمعك ما تسترعيه الموسيقى والشعر، على أنه ليس بأنغام الموسيقى ولا بأوزان الشعر.... فإذا ما اقتربت بأذنك قليلا قليلا فطرقت سمعك جواهر حروفه خارجة من مخارجها الصحيحة فاجأتك منه لذة أخرى في نظم تلك الحروف ورصفها وترتيب أوضاعها فيما بينها».(21)

ويقول الرافعي : «فلو تدبرت ألفاظ القرآن في نظمها لرأيت حركاتها الصرفية واللغوية تجرى في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة،فيهيء بعضها لبعض، ويساند بعضها بعضا، ولن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف مساوقة لها في النظم الموسيقي، حتى ان الحركة ربما كانت ثقيلة في نفسها لسبب من أسباب الثقل ــ أيها كان ــ فلا تعذب ولا تساغ وربما كانت أوكس النصيبين في حظ الكلام من الحرف والحركة، فإذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأنا عجيبا، ورأيت أصوات الأحرف والحركات التي قبلها قد امتهدت لها طريقاً في اللسان واكتنفتها بضروب من النغم الموسيقي حتى إذا خرجت فيه كانت أعذب شيء وأرقه»(22).

من ذلك لفظة «النذر» فإن الضمة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معاً فضلا عن جُسْأة(23) هذا الحرف ونَبْوِهِ في اللسان، وخاصة إذا جاء فاصلة للكلام. فكل ذلك مما يكشف عنه ويفصح عن موضع الثقل فيه، ولكنه جاء في القرآن

---

(21) النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن د. عبد الله دراز ص : 101 ــ 103 باختصار. ط، 2 سنة 1970 دار القلم الكويت.

(22) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي ص : 227.

(23) الجسأة : الخشونة (اللسان لابن منظور : جسأ).

على العكس وانتفى من طبيعته في قوله تعالى : «ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر»(24) فتأمل هذا التركيب وأنعم ثم أنعم على تأمله وتذوق مواقع الحروف وأجر حركاتها في حس السمع، وتأمل مواضع القلقلة(25) في دال «لقد» وفي الطاء من «بطشتنا»، وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى واو «تماروا» مع الفصل بالمد، كأنها تثقيل لخفة التتابع في الفتحات إذا هي جرت على اللسان ليكون ثقل الضمة عليه مستخَفا بعد، ولكون هذه الضمة قد أصابت موضعها كما تكون الاحماض في الأطعمة، ثم ردد نظرك في الراء من «تماروا» فانها ما جاءت الا مساندة لراء «النذر» حتى اذا انتهى اللسان إلى هذه انتهى إليها من مثلها، فلا تجف عليه ولا تغلظ ولا تنبو فيه، ثم أعجب لهذه الغنة(26) التي سبقت الطاء في نون انذرهم وفي ميمها، وللغنة الأخرى التي سبقت الذال في «النذر»(27).

وإذا كان نظم القرآن قد اشتمل على ما مر من التناسب والجمال، الم يكن أجدر بمعارضيه أن يغريهم بمحاكاته، وان يُخضعوا أسلوبه لألسنتهم وأقلامهم بباعث الجبلة كما يصنع الكتاب والخطباء في اقتداء بعضهم ببعض ؟

ان الذي منعهم من ذلك ولا شك — ما فيه من منعة طبيعية في غريب بنيته، ورصف حروفه وكلماته وجمله وآياته فلا جرم — يقول الدكتور دراز — انهم «لم يجدوا له مثالا يحاذونه به، ولا سبيلا يسلكونه إلى تذليل منهجه، وآية ذلك ان أحدا لو حاول ان يُدخل عليه شيئا من كلام الناس من السابقين منهم أو اللاحقين، من الحكماء أو البلغاء أو النبيين والمرسلين، لأفسد بذلك مزاجه في

---

(24) القمر : 36.

(25) حروف القلقلة خمسة وقد رمزوا اليها ب : «قطب جد» وسميت بذلك لظهور صوت يشبه النبرة عند الوقف عليهن وارادة اتمام النطق بهن، فذلك الصوت في الوقف عليهن ابين منه في الوصل بهن. (انظر الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة لمكي بن أبي طالب : ص : 100. تحقيق د. أحمد حسن فرحات ط، دار المعارف للطباعة دمشق 1973م.

(26) الغنة صوت يخرج من الأنف لا عمل للسان فيه، ومقدارها حركتين، وتكون الغنة على الميم المشددة مثل : «أما» و «عم» وعلى النون المشددة نحو : ان «الجنة» و «الناس». انظر الرعاية لتجويد القراءة ولفظ التلاوة ص : 214 وما بعدها، وحق التلاوة لحسني شيخ عثمان ص : 69. ط، 2 سنة 1977 مؤسسة الرسالة المكتبة السلفية.

(27) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي ص : 227، 228.

فم كل قارىء، ولجعل نظامه يضطرب في أذن كل سامع، وإذاً لنادى الداخل على نفسه بأنه واغل دخيل، ولنفاه القرآن عن نفسه كما ينفي الكير خبث الحديد «وانه لكتـٰب عزيز لا ياتيه البـٰطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد»(30).
حميد».(28)

واذا كان نظم القرآن قد أعيى العرب وهم أهل الفصاحة والبيان فقد وجد من المفسرين والنحاة من قال في بعض الكلمات القرآنية : انها مقحمة، وفي بعض حروفه انها زائدة زيادة معنوية(29)، «الا ان الحكم بهذا الضرب من الزيادة أو شبهها انما هو ضرب من الجهل ــ مستورا أو مكشوفا ــ بدقة الميزان الذي وضع عليه أسلوب القرآن»(30).

ولنأخذ على سبيل المثال : قوله تعالى : «فبما رحمة من الله لنت لهم»(31) وقوله : «فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا»(32) فان النحاة يقولون ان «ما» في الآية الأولى و«أن» في الثانية زائدتان في الاعراب. فيظن من لا بصر له انهما كذلك في النظم ويقيس عليه، مع ان في هذه الزيادة لونا من التصوير لو حذف من الكلام لذهب بكثير من حسنه وروعته، فان المراد بالآية الأولى تصوير لين النبي ﷺ لقومه وان ذلك رحمة من الله فجاء هذا المد في : «ما» وصفا لفظيا يؤكد معنى اللين ويفخمه، وفوق ذلك فإن لهجة النطق به تشعر بانعطاف وعناية لا يبتدأ هذا المعنى بأحسن منهما في بلاغة السياق، ثم كان الفصل بين الباء الجارة ومجرورها ــ وهو لفظ رحمة ــ مما يلفت النفس إلى تدبر المعنى وينبه الفكر على قيمة الرحمة فيه وذلك كله طبيعي في بلاغة الآية كما ترى.

---

(28) فصلت : 41.

(29) النبأ العظيم : ص : 105ــ106. للدكتور محمد عبد الله دراز ط، 2 1970 دار القلم الكويت.

(30) نفس المصدر ص : 130ــ131. تقول الدكتورة بنت الشاطىء في كتابها «الاعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق» ص : 168 حاول اللغويون والبلاغيون في تأويلها ــ أي الحروف ــ ان يعدلوا بها على وجه التقدير عن الوجه الذي جاء به، لكي تلبي مقتضيات الصنعة الاعرابية وتخضع لقواعد المنطق البلاغي المدرسي، فبقيت هذه الحروف تتحدى كل محاولة بتغيير أو تقدير لحذف أو زيادة. «انظر لمزيد من التوسع الكتاب المذكور من ص : 168ــ191ط، دار المعارف بمصر 1971م.

(31) آل عمران : 159.

(32) يوسف : 96.

والمراد بالثانية : تصوير الفصل الذي كان بين قيام البشير بقميص يوسف وبين مجيئه لبعد ما كان بين يوسف وأبيه عليهما السلام، وان ذلك كأنه كان منتظرا بقلق واضطراب، تؤكدهما وتصف الطرب لمقدمه واستقراره غنة هذه النون في الكلمة الفاصلة وهي «أن» في قوله : «أن جاء»[33].

وعلى هذا يقول الرافعي ــ : «يجرى كل ما ظن انه في القرآن مزيد، فان اعتبار الزيادة فيه واقرارها بمعناها، إنما هو نقص يجل القرآن عنه، وليس يقول بذلك الا رجل يعتسف الكلام ويقضي فيه بغير علمه أو بعلم غيره... فما في القرآن حرف واحد إلا ومعه رأي يسنح في البلاغة من جهة نظمه، أو دلالته أو وجه اختياره، بحيث يستحيل البتة أن يكون فيه موضع قلق، أو حرف نافر، أو جهة غير محكمة، أو شيء مما تنفذ في نقده الصنعة الانسانية من أي أبواب الكلام ان وسعها منه باب»[34].

2 ــ تناسب الكلمات في الجمل :

الجملة هي مظهر الكلام، وهي الصورة النفسية للتأليف الطبيعي، اذ يحيل بها الانسان هذه المادة المخلوقة في الطبيعة إلى معان تصورها في نفسه أو تصفها، ترى النفس هذه المادة المصورة وتحسها، على حين قد لا يراها المتكلم الذي أهدفها لكلامه غرضا، ولكنه بالكلام كأنه يراها، ولذا كانت المعاني في كلماتها التي تؤدي إليها كأنها في الاعتبار بقية الشعاع النظري الذي اتصل بالمادة الموصوفة أو بقية حس آخر من الحواس التي هي في الحقيقة جملة آلات الانسان في صنع اللغة.[35]

فإذا ركب الكلام على أصل من التركيب لا يتأدى بالمعاني إلى أبعد من مظاهر الحس، فهذا هو الكلام الطبيعي الذي لا يزيد من فضيلة المتكلم أكثر مما

(33) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية : ص : 231.
(34) المصدر السابق ص : 232.
(35) المصدر السابق ص : 236.

تزيد الحواس نفسها في هذا المتكلم من فضيلة الانسانية، فإذا ارتفع الكلام إلى أن يصير في تقليبه ومداورته كان طرق ما بين الحواس في أنواع اداركها وبين النفس، فلا يخطىء التأثير ولا ينافر جهة من جهاته، ولا يعدو أن يبلغ من الفؤاد مبلغه الذي قسم له، فهذا هو الكلام الذي يبين البليغ ويفرده من قومه ويجعله مهوى قلوبهم، فإذا بعد الكلام وأمعْن حتى يكون بدقائق تركيبه وطرق تصويره كأنما يُفيض النفس على الحواس إفاضة، ويترك هذا الانسان من الاحساس به كأنه قلب كله، ثم يبلغ من ذلك إلى أن يكون روح لغة كاملة وبيان أمة برمتها، لا يحيله الزمن عن موضعه، ولا يقلبه عن جهته، وإلى أن يجعل البلغاء على تفاوتهم فيما بينهم وكأنهم معه طبقة واحدة،وفي طوق واحد من العجز، فذلك هو الكلام المعجز، بل هو معجزة الطبيعة الكلامية التي لم يُعرف أن بلغاء أمة من الأمم قد أقروا وأجمعوا عليها إجماعاً يتوارثونه علماً ونظراً على تعاقب الأجيال إلا ما كان من ذلك في القرآن، وما لا يزال الاجماع منعقد عليه ما بقي في الأرض لفظ من العرب(36).

فألفاظ القرآن الكريم «كيفما أدرتها وكيفما تأملتها وأين اعترضتها من مصادرها أو مواردها، ومن أية جهة وافقتها، فانك لا تصيب لها في نفسك ما دون اللذة الحاضرة، والحلاوة البادية، والانسجام العذب، وتراها تتساير إلى غاية واحدة، وتسنح في معرض واحد، ولا يمنعها لاختلاف حروفها تباين معانيها، وتعدد مواقعها من أن تكون جوهرا واحدا في الطبع والصقل، وفي الماء والرونق، كأنما تتلامح بروح حية ما هو الا أن تتصل بها حتى تمتزج بروحك وتخالط احساسك فلن تكون معها الا على حالة واحدة»(37).

ان طريقة نظم القرآن تجرى على استواء واحد في تركيب الحروف باعتبار من أصواتها ومخارجها، وفي التمكين للمعنى بحس الكلمة وصفتها، ثم الافتنان فيه بوضعها من الكلام، وباستقصاء أجزاء البيان وترتيب طبقاته على حسب مواقع

(36) المصدر السابق ص : 236، 237.

(37) المصدر السابق ص : 240،241.

الكلمات، لا يتفاوت ذلك ولا يختل، فلا جرم ان كان في نظمه وتركيبه نمطا واحدا في القوة والابداع لا تقع منه على لفظ واحد يخل بطريقته، ما دامت تنعطف على جوانب هذا الكلام الالهي، وما دام في موضعه من النظم والسياق، فإذا أنت حرفت ألفاظه من موضعها أو أخرجتها من أماكنها وأزلتها عن روابطها حصلت معك ألفاظ كغيرها بما يدور في الألسنة ويجرى في الاستعمال، ورأيتها ـــ وهي في الحالين لغة واحدة ـــ كأنما خرجت من لغة إلى لغة لبعد ما كانت فيه مما صارت إليه.[38]

ولتجلية الأمر في ذلك وتوضيحه نسوق الأمثلة التاليـة :

1 ـــ قوله تعالى : «ليس كمثله شيء»[39]

ذهب أكثر أهل العلم الى القول بزيادة الكاف في قوله : «كمثله» بل على وجوب زيادتها في هذه الجملة فرارا من المحال العقلي الذي يفضي اليه بقاؤها على معناه الأصلي من التشبيه، اذ رأوا أنها حينئذ تكون نافية الشبيه عن مثل الله، فتكون تسليما بثبوت المثل له سبحانه، أو على الأقل محتملة لثبوته وانتفائه، وقليل منهم من ذهب الى أنه لا بأس ببقائها على أصلها، اذ رأى أنها لا تؤدى الى ذلك المحال لا نصا ولا احتمالا لان نفي مثل المثل يتبعه في العقل نفي المثل أيضا.[40]

«وقصارى هذا التوجيه ـــ لو تأملته ـــ يقول الدكتور دراز ـــ أنه مصحح لا مرجح، أي أنه ينفي الضرر عن هذا الحرف، ولكنه لا يثبت فائدته ولا يبين مسيس الحاجة اليه، ألست ترى أن مؤدى الكلام معه كمؤداه بدونه سواء».

ثم يقول «ولو رجعت الى نفسك قليلا لرأيت هذا الحرف في موقعه محتفظا بقوة دلالته قائما بقسط جليل من المعنى المقصود في جملته، وأنه لو سقط منها لسقطت معه دعامة المعنى أو لتهدم ركن من أركانه... لأنه لو قيل : «ليس مثله شيء» لكان ذلك نفيا للمثل المكافىء، وهو المثل التام المماثلة فحسب، اذ أن

(38) المصدر السابق ص : 245،242 بتصرف.

(39) الشورى : 11.

(40) النبأ العظيم : ص : 132.

هذا المعنى هو الذي ينساق اليه الفهم من لفظ «المثل» عند اطلاقه، واذا دب الى النفس دبيب الوساوس والأوهام : أن لعل هنالك رتبة لا تضارع رتبة الألوهية، ولكنها تليها، وان عسى أن تكون هذه المنزلة للملائكة والأنبياء، أو للكواكب وقوى الطبيعة، أو للجن والكهان والأوثان، فيكون لهم بالاله الحق شبه ما في قدرته أو علمه، وشرك ما في خلقه أو أمره... فكان وضع هذا الحرف في الكلام إقصاء العالم كله عن المماثلة وعما يشبه المماثلة وما يدنو منها، كأنه قيل : «ليس هناك شيء يشبه أن يكون مثلا لله، فضلا عن أن يكون مثلا له على الحقيقة».(41)

2 ــ قوله تعالى : «يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فإنا خلقنــكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء الى أجل مسمى، ثم نخرجكم طفلا، ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى ارذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئا، وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج»(42)

وقوله تعالى : «ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن ان كنتم اياه تعبدون، فان استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون، ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت»(43).

فقد عبر القرآن عن الأرض قبل نزول المطر، وقبل تفتحها بالنبات مرة بأنها هامدة، ومرة بأنها خاشعة وقد يفهم البعض أن هذا مجرد تنوع في التعبير.

الا أننا «عند التأمل السريع في هذين السياقين ــ يقول سيد قطب رحمه الله ــ يتبين وجه التناسق في «هامدة» و «خاشعة»، ان الجو في السياق الأول جو بعث واحياء واخراج، فمما يتسق معه تصوير الأرض بأنها «هامدة»، ثم تهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج، وأن الجو في السياق الثاني هو جو عبادة وخشوع

(41) النبأ العظيم : ص : 133.
(42) الحج : 5.
(43) فصلت : ص : 35ــ38.

وسجود يتسق معه تصوير بأنها خاشعة فاذا انزل عليها الماء اهتزت وربت».[44]

فلو أنك حاولت وضع كلمة «هامدة» بدل «خاشعة» أو العكس، فإنك تكون كمن يريد زرع عضو في جسم هو يرفضه، ولو أنك حاولت استبدال الكلمتين بغيرهما فانك ــ ولاشك ــ عاجز عن ايجاد ما يقوم مقامهما ويؤدي معناهما، ولو كان المقصود هو مجرد اداء المعنى الذهني لما كانت هناك ضرورة لهذا التنويع، ولكن التعبير القرآني لا يرمي الى مجرد المعنى الذهني، انما يريد الصورة كذلك، والصورة تقتضي هذا التنويع ليتم التناسق مع الاجزاء الاخرى في اللوحة أو المشهد المعروض».[45]

3 ــ قوله تعالى : «آنتم أشد خلقاً أم السماء بنـٰها رفع سمكها فسويـٰها وأغطش ليلها وأخرج ضحيـٰها» أفلا تبصر وأنت تقرأ كلمة «اغطش» متنبها الى طبيعة حروفها ووقعها في اذنك، انها تقدم لك المعنى في تلافيف حروفها قبل ان تقدمها لك في معناها المحفوظ ؟.

«ومن طبيعة الانسان ــ يقول د. : محمد سعيد رمضان اليوطي ــ انه لا يستطيع أن يطوع الفاظ اللغة لكل ما يتصوره من دقائق المعاني والأخيلة، فهو كثيرا ما يضطر ان ينزل عن بساط خياله المحلق لحاقا بكلمة هي دون خياله الحالم، ولكنه لا يجد من حوله سواها، فيضطر ان يهبط الى مستواها، وبذلك يفسد سير فكره وتصوراته»[47]

4 ــ قوله تعالى : «فلما سمعت بمكرهن ارسلت اليهن واعتدت لهن متكأ»[48].

وانظر حينما يصف القرآن الكريم دعوة امرأة العزيز للنسوة اللاتي تحدثن منتقدات عن مراودتها لفتاها يوسف عن نفسه، الى جلسة لطيفة رائقة في بيتها

(44) التصوير الفني في القرآن ص : 98ــ99.

(45) نفس المصدر : ص : 100.

(46) النازعات 27،29. وسمك كل شيء قامته وارتفاعه، وأغطش ليلها : أي أظلمه. (في ظلال القرآن 8 /446).

(47) من روائع القرآن تأملات علمية وادبية في كتاب الله عز وجل د. محمد سعيد رمضان البوطي ط، 5 سنة 1977، مكتبة الفارابي ص 177، وقارن بظلال القرآن 8 /446.

(48) يوسف : 31.

لتطلعهن على يوسف وجماله حتى يعذرنها فيما اقدمت عليه... لقد قدمت لهن في ذلك المجلس طعاما ولاشك، ولقد أوضح القرآن هذا، ولكنه لم يعبر عن ذلك في الطعام، فهذه الكلمة انما تتصور شهوة الجوع وتنتقل بالفكر الى «المطبخ» بكل ما فيه من الوان الطعام ورائحته واسبابه، وهي سورة لا تتفق مع ما تريد الاية ان تضعه امام خيالك من مظهر المجلس الانيق الذي يضم نسوة بينهن امرأة العزيز يطلع عليهن فيه على حين غرة يوسف.

فانظر الى الكلمة التي عبر بها البيان القرآني عن الطعام في هذه الحال «متكأ» كلمة تصور لك ذلك النوع من الطعام الذي انما يقدم الى المجلس تفكها وتبسطا وتجميلا للمجلس وتوفيرا لاسباب المتعة فيه، ولذلك فالشأن فيه ان يكون الاقبال عليه في حالة من الراحة والاتكاء. فأي تعبير هذا الذي تمتد به الدقة في تصوير المعنى الى هذا الحد غير تعبير القرآن.

وبعد ما وضح من الأمثلة المذكورة ما تمتاز به الكلمة القرآنية من جمال توقيعها في السمع، وجميل اتساقها مع المعنى لا يسعنا إلا أن نقول بقول ابن عطية من أنك «لو نزعت من القرآن لفظة ثم أدير لسان العرب لفظة أحسن منها لم توجد»(49).

3 ـــ تناسب نظم الآيات في السور :

لقد اقتضت مشيئة الله عز وجل أن ينزل القرآن الكريم منجما بحسب الحاجة : خمس آيات وعشر آيات وأكثر وأقل(50)، وقد صح نزول العشر آيات في قصة الإفك جملة، وصح نزول «غير اولى الضرر»(51) وحدها، وهي بعض آية، وكذا قوله «وان خفتم عيلة»(52) الى آخر الآية نزلت بعد نزول أول الآية(53).

---

(49) وانظر أمثلة أخرى عن تناسب الكلمات في النظم القرآني في كتاب : «روائع القرآن للبوطي» من ص : 178 الى 186.

(50) النبأ العظيم : ص : 112.

(51) النساء : 94

(52) التوبة : 28

(53) الاتقان : 1 /124

وعلى هذا المنوال ظل القرآن ينزل نجوما ليقرأه النبي ﷺ على مكث ويتلقاه الصحابة شيئا بعد شيء يتدرج مع الأحداث والوقائع والمناسبات الفردية والاجتماعية التي تعاقبت في حياة الرسول خلال ثلاثة وعشرين سنة.

ولعل هذا الانفصال الزماني في نزول الآيات، واختلاف دواعيها وتناولها لكثير من الاغراض من وصف الى قصص الى تشريع الى جدل الى ضروب شتى، لعل ذلك كان يستتبع لانفصال الحديث عنها عن ضرب من الاستقلال والاستئناف أن لا يدع بينها منزعا للتواصل والترابط، ويكون سببا في تفكيك وحدة الكلام وتقطيع أوصاله اذا أريد نظم طائفة من تلك الآيات في سلك واحد تحت اسم سورة واحدة.

وسبب آخر كان أجدر أن يزيد نظم السور تفكيكا ووحدتها تمزيقا وآياتها تنافرا وتناكرا هو الطريقة التي اتبعت في ضم نجوم القرآن بعضها الى بعض، فقد كان رسول الله ﷺ «لا يتربص بترتيب نجومه حتى كملت نزولا، بل لم يتريث بتأليف سورة واحدة منه حتى تمت فصولا، بل كان كلما ألقيت اليه آية أو آيات أمر بوضعها من فوره في مكان مرتب من سورة معينة، على حين أن هذه الآيات والسور لم تتخذ في ورودها التنزيلي سبيلها الذي اتبعته في وضعها الترتيبي، فكم من سورة نزلت جميعا أو اشتاتا في الفترات بين النجوم من سورة أخرى، وكم من آية في السورة الواحدة تقدمت فيها نزولا وتأخرت ترتيبا وكم من آية على عكس ذلك»(54).

أخرج ابن اشتة في كتاب المصاحف من طريق ابن وهب عن سليمان بن بلال قال : سمعت ربيعة يسأل : لم قدمت البقرة وآل عمران وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة بمكة، وانما أنزلتا بالمدينة ؟ فقال : قدمتا والف القرآن على علم ممن الفه به ومن كان معه فيه واجتماعهم على علمهم بذلك، فهذا مما ينتهي اليه ولا يسأل عنه»(55).

---

(54) النبأ العظيم : ص : 149، 150.
(55) الاتقان : 1 /179.

فلو أنك أقبلت على اية سورة في التنزيل ـــ ولتكن تلك التي تتناول مختلف الأغراض وما أكثرها في القرآن ـــ وتنقلت بفكرتك معها مرحلة مرحلة، ملاحظا، مطلعها ومقطعها، وتقابل أوضاعها وتعادلها، وتلاقي أركانها وتعانقها وازدواج مقدماتها بنتائجها، فإنك كما يقول الدكتور دراز : «لن تجد البتة في نظام معانيها أو مبانيها ما تعرف به أكانت هذه السورة قد نزلت في نجم واحد أم في نجوم شتى، ولسوف تحسب أن السبع الطوال من سور القرآن قد نزلت كل واحدة منها دفعة حتى يحدثك التاريخ أنها كلها أو جلها قد نزلت نجوما، أو لتقولن ان كانت بعد تنزيلها قد جمعت عن تفريق فلقد كانت في تنزيلها مفرقة عن جمع، كمثل بنيان كان قائما على قواعده، فلما أريد نقله بصورته الى غير مكانه قدرت ابعاده ورقمت لبناته ثم فرق أنقاضا، فلم تلبث كل لبنة منه أن عرفت مكانها المرقوم، واذا البنيان قد عاد مرصوصا يشد بعضه بعضا كهيئته أول مرة»(56)

امثلة عن وحدة السورة وترابطها :

اذا أردنا اقامة شاهد من العيان على صحة ما ذكر من وحدة السورة وترابطها فلنأخذ مثلا سورة البقـرة التـي جمعت بضعاً وثمانين ومائتي آية، وحوت ـــ فيما وصل إلينا ـــ نيفا وثمانين نجما، وكانت الفترات بين نجومها تسع سنين عددا.(57)

يقول الدكتور عبد الله دراز : «اعلم ان هذه السورة ـــ البقرة ـــ على طولها تتألف من مقدمة وأربعة مقاصد وخاتمة على هذا الترتيب» :

المقدمة في عشرين آية (1 ـــ 20) وهي في التعريف بشأن هذا القرآن وبيان أن ما فيه من الهداية قد بلغ حدا من الوضوح لا يتردد فيه ذو قلب سليم،

---

(56) النبأ العظيم ص : 154، 155.

(57) لقد عمد الدكتور عبد الله دراز الى دراسة سورة البقرة دراسة تحليلية لاجزائها ومقاطعها واغراضها أبرز فيها ما يثير الدهشة والعجب من بديع ائتلافها وتأليفها ولطيف الانتقال بين معانيها واغراضها وحسن المقابلة بين أوائلها وأواخرها، وقد أجاد رحمه الله وأفاد، وسوف نقتبس أضواء من تحليله للسورة المذكورة التي استغرقت دراسته لها

وانما يعرض عنه من لا قلب له، أو من كان في قلبه مرض، المقصد الأول في خمس (آيات 1ــ5) وهـو في دعوة الناس كافة الى اعتناق الاسلام.

المقصد الثاني في ثلاث وعشرين ومائة آية (40ــ162) وهو في دعوة اهل الكتاب دعوة خاصة الى ترك باطلهم والدخول في هذا الدين الحق.

المقصد الثالث في ست ومائة آية (178ــ283) وهي في عرض شرائع هذا الدين تفصيلا.

المقصد الرابع في آية واحدة (284) وهي في ذكر الوازع والنازع الديني الذي يبعث على ملازمة تلك الشرائع ويعصم من مخالفتها.

الخاتمة في آيتين اثنتين (285ــ286) وهي في التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة لتلك المقاصد وبيان ما يرجى لهم في آجلهم وعاجلهم[58]

وبعد عرضه لاسرار ترتيب هذه السورة وتناسق أجزائها وائتلاف اطرافها، وجمال أسلوبها علق عليها قائلا : «تلك هي سورة البقرة. أرأيت وحدتها في كثرتها، أعرفت اتجاه خطوطها في لوحتها ؟ أرأيت كيف التحمت لبناتها من غير ملاط يمسكها، وارتفعت سماؤها بغير عمد تسندها ؟ أرأيت كيف انتظم من رأسها وصدرها واحشائها واطرافها، لا أقول احسن دمية، بل اجمل صورة حية. كل ذرة في خليتها، وكل خلية في عضوها، وكل عضو في جهازه، وكل جهاز في جسمه، ينادي بأنه قد أخذ مكانه المقصود وفقا لخط جامع مرسوم، رسمه مربي النفوس ومزكيها، ومنور العقول وهاديها، ومرشد الارواح وحاديها، فتـالله لو أن هذه السورة رتبت بعد تمام نزولها لكان جمع اشتاتها على هذه السورة معجزة فكيف وكل نجم منها كسائر النجوم في سائر السور كان يوضع في رتبته من فور نزوله وكان يحفظ لغيره مكانه انتظاراً لحلوله، وهكذا كان ما لم ينزل منها معروف الرتبة محدد الموقع قبل أن ينزل[59]. ثم كيف وقد اختصت من بين السور المنجمة بأنها حددت مواقع نجومها لا قبل نزولها بعام أو بعض عام بل بتسعة أعوام؟[60].

(68 صفحة) أي من ص 163 الى 211 من كتابه القيم النبأ العظيم فلتراجع هناك لمن أراد التفصيل.

(58) النبأ العظيم ص : 158.

(59) نفس المصدر ص : 163.

(60) نفس المصدر 210 ــ 211..

ومثال آخر على تأكيد ما ذهبنا اليه مما يجلي الامر اجلى بيان، ويقطع الشك بأسطع برهان، هو سورة «ق».

. تبدأ هذه السورة بمقدمة وثلاث مقاصد وخاتمة.

ــ المقدمة في آية واحدة وفيها القسم ب«ق» والقرآن المجيد.

ــ المقصد الأول في ثلاث آيات (2ــ4) وهي في تعجب الكافرين من بعثة منذر منهم.

ــ المقصد الثاني في عشر آيات (5ــ15) وهي في تصورات الكافرين وتكذيبهم للحق لما جاءهم والرد عليهم بلفت نظرهم الى الكون من حولهم ليتعرفوا فيه على قدرة الله في إحياء الارض بعد مواتها بالمطر، وذلك مثل بعث الاجساد بعد موتها ثم يذكر تكذيب الاقوام السابقين، وان تكذيب هؤلاء مثل تكذيب اولائك وكما أنه خلقهم فانه لا يعجزه بعثهم مرة ثانية.

المقصد الثالث في ثلاث وعشرين آية (15ــ38) وهي استطراد في قضية البعث التي عالجها المقصد الثاني بلمسات جديدة ولكنها رهيبة مخيفة، تذكر بخلق الإنسان، وعلم الله بما توسوس به النفوس ورقابة الملائكة على الإنسان، وتذكيره بالموت وبالمصير الفظيع المعد للكافرين وبالمصير المشرق المعد للمومن التقي وفي ذلك ما يكفي لمن له قلب فأصغى وتدبر، ثم بخلق الله للسماوات والأرض وما فيهما دون لغوب وهو أهون عليه من البعث والنشور.

ــ الخاتمة : في سبع آيات (39ــ45) وهي في الحث على الصبر على ما يقولون من انكار للبعث، وجحود بقدرة الله على الإحياء والإعادة في جو جديد من التسبيح والتحميد والسجود، وانتظار وتوقع للامر الهائل الجلل المتوقع في كل لحظة من لحظات الليل والنهار يوم تشقق عنهم الأرض سراعا، ويكون حشر الله لهم يسيرا، وفيه أخيرا تثبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم تجاه جدلهم الذي لا سلطان له عليهم، وانما مهمته أن يذكرهم.[61]

---

(61) انظر أمثلة أخرى في تناسق الآيات في سورها في الجزء (2) من كتاب الرسول للشيخ سعيد حوى (فصل المعجزات) ص : 15ــ30. ط، 3 سنة 1973.

وبعد وضوح التناسق والترتيب، والوحدة والتكامل في المثالين السابقين — وسور القرآن كلها لا تشذ عن ذلك — فاننا مع الدكتور عبد الله دراز في قوله : بأنه اذا «كانت للقرآن في بلاغة تعبيره معجزات، وفي أساليب ترتيبه معجزات، وفي نبوءاته الصادقة معجزات، وفي تشريعاته الخالدة معجزات، وفي كل ما استخدمه من حقائق العلوم النفسية والكونية معجزات ومعجزات، لعمري إنه في ترتيب آيه على هذا الوجه لهو معجزة المعجزات».(62).

التناسب بين كتب التفسير، والتأليف المستقل

اهميـة المناسبة في التفسير :

اذا كان القرآن الكريم نزل منجما تبعا لما تفرق من الأسباب والوقائع، فان هذه الأسباب والوقائع لا يمكن فصلها عن النص الذي كانت سببا في نزوله لانها تعين على فهمه، وتفيد في استلهام أرجح التأويل وأصح التفسير، ولذلك لا نعجب اذا حرّم العلماء المحققون الإقدام على تفسير كتاب الله لمن كان جاهلا باسباب النزول، حتى قال الواحدي «لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها».(63).

إلا أن ترتيب القرآن في المصحف على غير سبب النزول لم يكن ليتعارض مع تلمس سبب نزول الآيات، بل كانوا يجمعون بين السبب التاريخي والسياق الأدبي، فما اغفلوا حقائق التاريخ في اشتراط الزمان لمعرفة سبب النزول، ولا أغفلوا التناسق الفني حين اقصوا فكرة الزمان لمراعاة السياق.

وعليه فقد قال الزركشي(64) : «إن الزمان انما يشترط في سبب النزول ولا يشترط في المناسبة لان المقصود منها وضع آية في موضع يناسبها، والآيات كانت

(62) النبأ العظيم : 211.
(63) الاتقان 1—82.
(64) البرهان للزركشي 1—26

تنزل على أسبابها ويأمر النبي ﷺ بوضعها في المواضع التي علم من الله تعالى أنها مواضعها».

فما أكثر الآيات التي وضعت في السطور على حسب الحكمة ترتيبا، وحفظت في الصدور على حسب الوقائع تنزيلا.

ألا ترى قوله تعالى : «ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يومنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا»(65) قد نزل في كعب بن الأشرف كان قدم إلى مكة وشاهد قتلى بدر وحرض الكفار على الأخذ بثأرهم وغزو النبى ﷺ فسألوه : من أهدى سبيلا ؟ المومنون ام هم ! فقال أنتم قالها كذبا منه وضلالة.(66) فهذه الآية نزلت في حقه وحق من شاركه في تلك المقالة، وهم أهل كتاب يجدون عندهم في كتابهم بعث النبي ﷺ وصفته، وقد أخذت عليه المواثيق ألا يكتموا ذلك وأن ينصروه، وكان ذلك أمانة لازمة فلم يؤدوها وخانوا فيها، فذلك مناسب لقوله تعالى : «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها» التي نزلت في شأن عثمان بن طلحة بن أبي طلحة العبدري حاجب الكعبة لما أخذ منه رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة ثم رده عليه(67).

وما دامت هذه الآية نزلت في الفتح وتلك نزلت في قصة كعب بن الأشرف عقب بدر وبينهما ست سنين فان الرابط بين هذين المقطعين يكاد يكون منهما موضوعا واحدا محكم البناء متلاحم الأجزاء آخذا بعضه بأعناق بعض.

قال ابن العربي : «وجه النظم أنه أخبر عن كتمان أهل الكتاب صفة محمد ﷺ ، وقولهم : أن المشركين أهدى سبيلا، فكان ذلك خيانة منهم، فانجر الكلام إلى ذكر جميع الأمانات.(68)

---

(65) النساء 51 —

(66) انظر أسباب النزول للواحدى ص : 114. ط، عالم الكتب ببيروت، وبهامشه الناسخ والمنسوخ لهبة الله ابن سلامة.

(67) نفس المرجع ص 116.

(68) البرهان 1—26.

ولذلك، فقد اهتم كثير من المفسرين بالمناسبة اهتمامهم، بسبب النزول بل، لم يبالغ المفسرون ــ كما يقول د. صبحي الصالح ــ «حين قدموا أحياناً ذكر المناسبة بين الآيات على معرفة سبب نزولها كلما رأوا هذه المناسبة هي المصححة لنظم الكلام، ولعلهم بلغوا ذروة التحقيق العلمي حين أوجبوا البداءة بذكر سبب النزول حين يكون وجه المناسبة متوقفا على معرفة الأسباب»(69)

وقد توسع بعض المفسرين في التماس أوجه التناسب لا فيما بين الآيات بعضها ببعض ولكن أيضاً بين السور فيما بينهما استناداً إلى توقيفية الترتيب القرآني آيات وسورا وهو ما عولنا عليه وانتصرنا له(70)

وسنحاول بإذن الله ــ بما يتناسب وهذا البحث ــ بسط القول في وجوه التناسب عند المفسرين والباحثين في تناسب السور والآيات، أو في تناسب السور، لا على سبيل التفصيل والاستقصاء ــ فذلك له شأن آخر قد ييسر الله العودة اليه والتفرغ له ــ ولكن على سبيل الإيجاز والتمثيل.

أولاً ــ تناسب الآيات عند المفسرين :

لم يحفل المفسرون بإبراز أوجه التناسب بين وحدات وآيات السور، إلا قليلا، وذلك راجع إلى دقتها وخفائها، علما بأن «أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط»(71).

مما دفع الإمام الرازي إلى القول : «إني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير منتبهين لهذه الأسرار وليس الأمر في هذا الباب إلا كما قيل :

والنجم تستصغر الأبصار صورته   والذنب للطرف لا للنجم في الصغر(72)

(69) مباحث في علوم القرآن ص : 150ــ151. (ط، 10 سنة 1977 دار العلم للملايين، بيروت.

(70) ارجع إلى ما فصلناه في ص : 71 وما بعدها.

(71) وهو قول الامام فخر الدين الرازي. (معترك الاقران 1 / 55).

(72) معترك الاقران 1 / 56.

ولعل أول من سبق إلى هذا العلم الشيخ ابو بكر النيسابورى، «وكان يقول على الكرسي اذا قرئت عليه الآية لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه ؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة ؟ وكان يزري على علماء بغداد بعدم علمهم بالمناسبة»(73)

واذا كان الإمام الفخر الرازي قد امتاز من المفسرين الأقدمين بإكثاره من التماس المناسبات في تفسيره، فان سيد قطب من المحدثين قد [illegible]

ب ــ وقال رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى : «يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون(76)» : اعلم أن في هذه الآيات مسائل :

المسألة الأولى : إن الله تعالى لما قدم احكام الفرق الثلاثة اعني المومنين والكفار والمنافقين : اقبل عليهم بالخطاب وهو من باب الالتفات المذكور في قوله تعالى : اياك نعبك واياك نستعين... وثانيها : كأنه سبحانه وتعالى يقول : جعلت الرسول واسطة بيني وبينك اولا، ثم الآن ازيد في اكرامك وتقريبك فأخاطبك من غير واسطة ليحصل لك مع التنبيه على الأدلة شرف المخاطبة والمكالمة، وثالثها : مشعر بأن العبد إذا كان مشتغلا بالعبودية فإنه يكون أبداً في الترقي بدليل انه في هذه الآية إنتقل من الغيبة الى الحضور، ورابعها : إن الآيات المتقدمة كانت في حكاية احوالهم، واما هذه الآيات فإنها أمر وتكليف، ففيه كلفة ومشقة فلا بد من راحة تقابل هذه الكلفة، وتلك الراحة هي أن يرفع ملك الملوك الواسطة من البين ويخاطبهم بذاته، كما ان العبد اذا الزم تكليفا شاقا، فلو شاقه المولى وقال : اريد منك أن تفعل كذا فإنه يصير ذلك الشاق لذيذا لأجل ذلك الخطاب».(77)

ج ــ وقال عند تفسيره لقوله تعالى : «هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم» :(78) اعلم أن هذا هو النعمة الثانية التي عمت المكلفين بأسرهم وما أحسن ما راعى الله سبحانه وتعالى هذا الترتيب فإن الانتفاع بالأرض والسماء إنما يكون بعد حصول الحياة، فلهذا ذكر الله امر الحياة اولا : «كيف تكفرون بالله وكنتم امواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون»(79) : ثم اتبعه بذكر السماء والأرض(80).

(76) البقرة 22
(77) التفسير الكبير 82/2
(78) البقرة 28
(79) البقرة 27
(80) التفسير الكبير 153/2.

2 ــ أمثلة من تفسير الشيخ محمد عبده :

أ ــ قال عند تفسيره لقوله تعالى : «وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم»(81) : نطقت الآيات السابقة بأن الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى ملعونون لا ترجى لهم رحمة الله تعالى إلا أن يتوبوا، فإن هم ماتوا على كتمانهم وما يستلزمه كفرهم من الأعمال كانوا خالدين في اللعنة لا يخفف عنهم من عذابها شيء... فناسب بعد هذا أن يبين الله تعالى ان شارع الدين ومحق الحق هو واحد لا يعبد غيره ولا تكتم هدايته ولا يجعل كلام البشر معيارا على كلامه وهو مفيض الرحمة والإحسان... ثم قال الشيخ محمد عبده بعد كلامه عن توحيد الله وأنواع الشرك : أرأيت هذا الاتصال المحكم بين الآية وما قبلها، ان بعض المفسرين قد قطع عراه وفصمها وجعل الآية جواباً لقوم قالوا للنبي ﷺ أنسب لنا ربك، قاله الجلال... وسبب النزول إنما يحتاج اليه في آيات الاحكام لان معرفة الوقائع والحوادث التي نزل فيها الحكم تعين على فهمه وفقه حكمته وسره، ومثلها ما فيه اشارة الى بعض الوقائع كغزوة بدر والنصر فيها، ومصيبة المومنين في أحد، واما الآيات المقررة للتوحيد، وهو المقصود الأول من الدين فلا حاجة الى التماس اسباب لنزولها بل هي لا تتوقف على انتظار السؤال، وإنما كان يبين عند كل مناسبة، وما عساه يكون قد قارن نزولها من حادثة أو سؤال مثل هذا الذي ذكر آنفا، فهو إن صح رواية لا يزيدنا بيانا في فهم الآية ولا يصح أن يجعل سببا لنزولها لاسيما بعد الذي علم من اتصالها بما قبلها كما يليق ببلاغة القرآن. ومثل هذا السبب يجعل القرآن مبددا متفرقا لا ترتبط أجزاؤه ولا تتصل انحاؤه.(82)

ب ــ وقال عند تفسيره لقوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون، إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه إن الله غفور رحيم»(83) ظهر بهذا التقرير أن الآية متصلة بما قبلها ومتممة له، وقال بعض

(81) البقرة 163

(82) تفسير القرآن الحكيم (المنار) 54/1 ــ 56

(83) البقرة 171 ــ 172.

المفسرين ــ وله وجه فيما قال ــ : إن ما تقدم من أول السورة الى ما قبل هذه الآية كله في القرآن والرسالة واحوال المنكرين للداعي، وما جاء فيها من الاحكام فإنما جاء بطريق العرض والاستطراد، وهذه الآية ابتداء قسم جديد من الكلام وهو سرد الاحكام، فإنه يذكر بعدها احكام محرمات الطعام واحكام الصوم والحج والقصاص والوصية والنكاح والطلاق والرجعة والعدة والإيلاء والرضاع وغير ذلك، وينتهي هذا القسم بما قبل قوله تعالى : «الم تر الى الذين خرجوا من ديارهم[*]... الآية» ولا غرو فإن بين كل قسم وآخر في القرآن من التناسب مثل ما بين كل آية وأخرى في القسم الواحد «كتاب احكمت آيـٰته ثم فصلت من لدن حكيم خبير»[84].

ج ــ وقال عند تفسيره لقوله تعالى «واتمو الحج والعمرة لله[85]...» اتصال هذه الآيات بما قبلها جلي جدا لا سيما لمن قرأ ما تقدم من التفسير، فإن آيات القتال السابقة نزلت في بيان أحكام الأشهر الحرم والإحرام والمسجد الحرام، فكان الغرض الأول من السياق بيان أحكام الحج بعد بيان احكام الصيام، لان شهوره بعد شهره الذى هو رمضان».[86]

3 ــ أمثلة من تفسير سيد قطب :

أ ــ قال عند تفسيره لسورة الفجر : «هذه السورة في عمومها حلقة من حلقات هذا الجزء في الهتاف بالقلب البشرى إلى الايمان والتقوى واليقظة والتدبر.. ولكنها تتضمن ألوانا شتى من الجولات والايقاعات والظلال، ألوانا متنوعة تؤلف من تفرقها وتناسقها لحنا واحدا متعدد النغمات موحّد الايقاع.

في بعض مشاهدها جمال هادىء رقيق، ندي السمات والايقاعات، كهذا المطلع الندي بمشاهده الكونية الرقيقة، وبظل العبادة والصلاة في ثنايا تلك المشاهد.. «والفجر وليال عشر والشفع والوتر والليل إذا يسري».[87]

(*) البقرة 243
(84) هود 1 وانظر تفسير المنار 1 / 97
(85) البقرة 196.
(86) تفسير المنار 217/1.
(87) الفجر 1 ــ 4

وفي بعض مشاهدها شد وقصف، سواء مناظرها أو موسيقاها كهذا المشهد العنيف المخيف : «كلا إذا دكت الارض دكا دكا، وجاء ربك والملك صفا صفا وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الانسان وأنى له الذكرى يقول ياليتني قدمت لحياتي فيومئذ لا يعذب عذابه احد ولا يوثق وثاقه أحد».(88)

وفي بعض مشاهدها نداوة ورقة ورضى يفيض وطمأنينة. تتناسق فيها المناظر والانغام كهذا الختام : «يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي».(89)

وفيها إشارات سريعة لمصارع الغابرين المتجبرين، وإيقاعها بين بين، بين ايقاع القصص الرخى وايقاع المصرع القوي : «الم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذي الاوتاد الذين طغوا في البلاد فاكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب ان ربك لبالمرصاد»(90)

وفيها بيان لتصورات الانسان وقيمه غير الايمانية، وهي ذات لون خاص في السورة تعبيرا وايقاعا : «فاما الانسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن. واما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن..»(91)

ثم الرد على هذه التصورات ببيان حقيقة حالهم التي تنبع منها هذه التصورات وهي تشمل لونين من ألوان العبارة والتنغيم : «كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحضون على طعام المسكين وتاكلون التراث أكلا لما وتحبون المال حبا جما».(92)

---

(88) الفجر 23 — 29.
(89) الفجر 30 — 32.
(90) الفجر 6 — 14.
(91) الفجر 15 — 18.
(92) الفجر 19 — 22.

ويلاحظ أن هذا اللون الأخير هو قنطرة بين تقرير حالهم وما ينتظرهم في مآلهم، فقد جاء بعده : «كلا اذا دكت الارض دكا دكا... الخ»(93) فهو وسط في شدة التنغيم بين التقرير الأول والتهديد الأخير.

ومن هذا الاستعراض السريع تبدو الألوان المتعددة في مشاهد السورة وايقاعاتها في تعبيرها وفي تنغيمها. كما يبدو نظام تعدد الفواصل وتغير حروف القوافي بحسب تنوع المعاني والمشاهد فالسورة من هذا الجانب نموذج واف لهذا الافق من التناسق الجمالي في التعبير القرآني، فوق ما فيها من جمال ملحوظ مأنوس».(94)

ب ــ وقال عند تفسيره لسورة الليل : «في اطار من مشاهد الكون وطبيعة الانسان تقرر السورة حقيقة العمل والجزاء. ولما كانت هذه الحقيقة منوعة المظاهر : «ان سعيكم لشتى. فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى. وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى»(95) وكانت العاقبة كذلك في الآخرة مختلفة وفق العمل والوجهة : «فانذرتكم نارا تلظى لا يصلاها الا الاشقى الذي كذب وتولى وسيجنبها الاتقى الذي يوتي ماله يتزكى».(96)

لما كانت مظاهر هذه الحقيقة ذات لونين وذات اتجاهين، كذلك كان الاطار المختار لها في مطلع السورة ذات لونين في الكون وفي النفس سواء : «والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى» «وما خلق الذكر والانثى»(97) وهذا من بدائع التناسق في التعبير القرآني.(98)

---

(93) الفجر 23 ــ 32.
(94) في ظلال القرآن 568/8 ــ 569
(95) الليل 4 ــ 10.
(96) الليل 14 ــ 18.
(97) الليل 1 ــ 3
(98) في ظلال القرآن 594/8 ــ 595.

ج ــ وقال عند تفسيره لسورة المسد : «وفي الاداء التعبيري للسورة تناسق دقيق ملحوظ مع موضوعها وجوها، نقتطف في بيانه سطورا من كتاب : «مشاهد القيامة في القرآن» نمهد بها لوقع هذه السورة في نفس أم جميل التي ذعرت لها وجن جنونها :

أبو لهب، «سيصلى ناراً ذات لهب. وامرأته حمالة الحطب»، ستصلاها وفي عنقها «حبل من مسد».

هـ ــ «تناسق في اللفظ وتناسق في الصورة، فجهنم هنا نار ذات لهب، يصلاها أبو لهب وامرأته تحمل الحطب وتلقيه في طريق محمد لايذائه (بمعناه الحقيقي أو المجازي» : والحطب مما يوقد به اللهب. وهي تحزم الحطب بحبل. فعذابها في النار ذات لهب ان تغل بحبل من مسد، ليتم الجزاء من جنس العمل، وتتم الصورة بمحتوياتها الساذجة : الحطب والحبل، والنار واللهب، يصلى به ابو لهب وامرأته حمالة الحطب.

وتناسق من لون آخر. في جرس الكلمات، مع الصوت الذي يحدثه شد أحمال الحطب وجذب العنق بحبل من مسد، اقرأ : «تبت يدا أبي لهب وتب»(99) تجد فيها عنف الحزم والشد الشبيه بحزم الحطب وشده، والشبيه كذلك بغل العنق وجذبه، والشبيه بجو الخنق والتهديد الشائع في السورة.

«وهكذا يلتقي تناسق الجرس الموسيقي، مع حركة العمل الصوتية، بتناسق الصور في جزئياتها المتناسبة بتناسق الجناس اللفظي ومراعاة النظير في التعبير، ويتسق مع جو السورة وسبب النزول، ويتم هذا كله في خمس فقرات قصار، وفي سورة من أقصر سور القرآن».(100)

---

(99) المسد : 1.

(100) في ظلال القرآن 699/8 ــ 700

ثانيا : تناسب الآيات والسور :

لقد سبق القول بان اول من سبق الى علم المناسبة هو الإمام الشيخ ابو بكر النيسابوري وأنه كان يقول على الكرسي اذا قرأت عليه الآية : لم جعلت هذه الآية الى جنب هذه، وما الحكمة في جعل هذه السورة الى جنب تلك.

وممن تعرض لمناسبة الآيات والسور من الأقدمين العالم الجليل أبو حيان(101) صاحب تفسير : «البحر المحيط» تلميذ ابن الزبير.

ثم اتى من بعده الشيخ برهان الدين البقاعي(102) فألف كتابه : «نظم الدرر في تناسب الآي والسور»(103) وجعل المناسبة أساس تفسيره، وعليها يدور جل كلامه.

كما ألف الإمام السيوطي الذي عاصر البقاعي في تعلقات القرآن كتاب أسرار التنزيل «اشتمل على بضع عشرة نوعا من انواع الإعجاز منها.

ـــ بيان مناسبات ترتيب سوره وحكمة وضع كل سورة منها

ـــ بيان أن كل سورة شارحة لما أجمل في السورة التي قبلها.

ـــ مناسبة مطلع السورة للمقصد الذي سيقت له

ـــ مناسبة أوائل السور لأواخرها

ـــ مناسبات ترتيب آياته واعتلاق بعضها ببعض وارتباطها وتلاحمها وتناسقها.

---

(101) هو محمد بن يوسف بن علي بن حيان الامام ابن حيان الاندلسي الغرناطي تـ 745هـ، لغوي نحوي مفسر ومقرىء ومحدث وأديب (طبقات المفسرين 286/2).

(102) هو ابراهيم بن عمر برهان الدين البقاعي منسوب إلى البقاع من بلاد سورية، مفسر مؤرخ أديب توفي سنة 885هـ وكان رحمه الله من أجل تلامذة الحافظ بن حجر (البدر الطالع : 1 / 19).ط، 1 سنة 1948 مطبعة السعادة

(103) وهو تفسير كامل للقرآن الكريم توجد مخطوطة منه في الخزانة الملكية تحت رقم : 2596 وتقع في ثماني مجلدات، وتوجد نسخة أخرى بالخزانة العامة ـــ قسم المخطوطات بالرباط تحت رقم : ق 181، ويقوم بتحقيقه في الهند السيد محمد عمران الاعظمي، (انظر مجلة الأمة عدد 32/شعبان 1403) وقد بلغني أن أجزاء منه قد طبعت بالمشرق.

ـــ بيان فواصل الآي ومناسبتها للآي التي ختمت بها.

ـــ مناسبة اسماء السور لها.

إلى غير ذلك من وجوه التناسب والبلاغة في القرآن الكريم،(104) وهو كتاب على غاية من الأهمية في بابه كما ترى من محتوياته، ولعلنا نجد فيه ـــ لو وقع بين أيدينا(105) من اسرار التناسب وحكمة الترتيب ما لا نجده في غيره من كتب التفسير والمناسبات.

اما من تعرض لمناسبات الآيات والسور من المحدثين فأهمهم الشيخ محمد عبده في تفسيره المنار وسيد قطب رحمه الله الذي سار على منوال جديد، ومنهج فريد في ابراز الوان التناسق في القرآن الكريم(106)

وفي الأمثلة السابقة التي ضربتها من تفاسير : الإمام الرازي، والشيخ محمد عبده والشهيد سيد قطب ما يكفي، ولمن أراد المزيد فليرجع إلى هذه التفاسير ففيها ما يغني :

ثالثا : تناسب السور :

اذا كان بعض المفسرين قد تعرض لمناسبات الآيات كالفخر الرازي والزمخشري وبعضهم الآخر قد تعرض لمناسبة الآيات والسور كابن حيان الغرناطي، وبرهان الدين البقاعي والإمام السيوطي، والشيخ الإمام محمد عبده، والشيخ مصطفى المراغي، فان صنفا ثالثا من المفسرين والباحثين في علوم القرآن واعجازه

---

(104) انظر تناسق الدرر في تناسب السور (أسرار ترتيب القرآن) تحقيق عبد القادر أحمد ط، سنة 1978 دار الاعتصام ص : 65،66.

(105) قام السيد أحمد الشرقاوي اقبال بجمع وتصنيف آثار الامام السيوطي في كتاب سماه، «مكتبة حلال السيوطي» احصى له 725 كتابا في مختلف الفنون، ولم يشر إلى هذا الكتاب الذى ذكره السيوطي في كتابه معترك الاقران 55/1 وتناسق الدرر المذكور اعلاه. (ط، دار المغرب للتأليف والنشر 1977).

(106) لا يحفل سيد قطب رحمه الله في تفسيره «في ظلال القرآن» بتجلية أوجه التناسب بين السورة والسورة بقدر ما يحفل بابراز الوحدة الموضوعية للسورة وأوجه التناسق بين مواضعها من جهة، وبين التصوير الفني كأفضل اداة للتعبير القرآني من جهة ثانية، وذلك واضح من الأمثلة التي أوردناها سابقا من تفسيره في تناسب الآيات. انظر ص : 61 ـــ 63.

قد تعرض لمناسبة السور واعتلاق بعضها ببعض خاصة، بدءا من سورة الفاتحة وانتهاء بسورة الناس.

وقد اتفقت كلمتهم على أن أول من صنف تصنيفا مستقلا في تناسب السور هو ابو جعفر بن الزبير الغرناطي والذي يقول : «اقتصرت بحكم الاضطرار في هذا الاختصار على وجوه ترتيب السور، وان لم أر في هذا الضرب الخاص شيئا لمن تقدم وغبر...»(107)

ثم تلاه الإمام السيوطي الذي الف كتابه. «تناسق الدرر في تناسب السور» لخصه من كتابه : «اسرار التنزيل» ليكون ــ كما وصفه ــ عجالة لمريده وبغية لمستفيده، كما نص على أنه : «من نتاج فكره، وولاد نظره، لقلة من تكلم في ذلك.(108)

وقد ألف في هذا الموضوع من علماء العصر الشيخ عبد الله بن الصديق أمد الله في عمره كتابا لطيفا يعتبر ثالث تصنيف في ذلك سماه : «جواهر البيان في تناسب سور القرآن» وفي ذلك يقول :

«وأول من أفرد هذا النوع بالتأليف ــ فيما اعلم ــ العلامة ابو جعفر بن الزبير الأندلسي شيخ العلامة أبي حيان الف كتابا سماه : «البرهان في مناسبة سور القرآن» ثم كتب الحافظ السيوطي كتابه «تناسق الدرر في تناسب السور»، وكتابي هذا ثالث كتاب في هذا العلم الشريف».(109).

---

(107) البرهان في ترتيب سور القرآن ص : 181.

(108) تناسق الدرر في تناسب السور ص : 67.

(109) جواهر البيان في تناسب سور القرآن ص : 16. للشيخ عبد الله بن الصديق (ط، محمد عاطف وسيد طه بمصر، بدون تاريخ)

القسـم الثـانـي

عصر ابن الزبير وترجمته ومؤلفاته

المبحث الاول : عصر ابن الزبير

ـــ الحالة السياسية في عصره

ـــ الحياة العلمية في عصره

المبحث الثاني : ترجمة ابن الزبير

ـــ اسمه ونسبه

ـــ مولده ونشأته

ـــ وفاتـه

ـــ مكانته العلمية

ـــ تلاميذه

ـــ شيوخـه

ـــ مؤلفاتـه

المبحث الثالث : البرهان في ترتيب سور القرآن

ـــ نسبته الى صاحبه

ـــ منهج التحقيق

ـــ الاشارات والرموز

المبحث الاول

عصر ابن الزبير

ــ الحالة السياسية في عصره

ــ الحياة العلمية في عصره

عصـر ابـن الزبيـر

ـــ الحالة السياسية في عصره :

وافق ميلاد ابن الزبير سنة 627 هـ بداية انهيار الحكم الموحدي الذي لحقه الضعف والهزال، وعاصر سقوط عدد كبير من حواضر الأندلس وثغورها وانحسار الوجود الاسلامي في مملكة بني الاحمر بغرناطة على يد النصارى الصليبيين، مع ما رافق ذلك من قتل وتشريد ارواء لغليل الحقد الصليبي واشباعا لغريزة الانتقام والتنكيل بأهلها، كما شاهد انبعاث روح الطوائف القديمة سواء من احفاد ملوك الطوائف القدامى او من المتطلعين الجدد.

أ ـــ نهايـة الموحديـن :

لقد كانت بداية الضعف الموحدي في الاندلس قبل هذا التاريخ(1) الا ان الانهيار بدأ فعلا قريبا من هذا التاريخ، فبعد موت المستنصر الموحدي الشاب فجأة سنة 620 هـ وتولى ابي محمد (المخلوع) عبد الواحد بن الخليفة ابي يعقوب يوسف عم بن الخليفة المستنصر الخلافة بعده والذي تم خلعه سريعا بعد بضعة اشهر اي سنة 621هـ حيث تمت مبايعة أبي محمد عبد الله الملقب بالعادل ابن الخليفة ابي يوسف يعقوب المنصور، تلته بيعة اخيه أبي العلاء (العلى) الملقب بالمأمون سنة 629 هـ ثم بيعة ابنه ابي محمد الملقب بالرشيد سنة 640 هـ ثم انتهى امر الموحدين بالمغرب نفسه على يد المرينيين(2) سنة 668هـ وهذا التتابع في عزل وتولى الخلفاء وفي مدة وجيزة لم يكن يسمح لأيهم بتقوية نفوذه وسلطانه في المغرب بله في الاندلس المتزامن مع ضعف السيطرة الموحدية فيها من جهة، وتحين

---

(1) ظهر المرينيون في المغرب الأقصى بزعامة عبد الحق بن محيو المتوفى سنة 614هـ واستقل بنو زيان من بني عبد الواد بالمغرب الاوسط وأعلنوا استقلالهم نهائيا سنة 633 هـ واستقل أبو حفص بالمغرب الأدنى (تونس) بزعامة عبد الله بن عبد الواحد بن أبي حفص حوالي سنة 623هـ.

(2) الاحاطة في أخبار غرناطة، (1/141) تحقيق محمد عبد الله عنان (ط، 2 الشركة المصرية للطباعة والنشر 73) والمعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي، تحقيق محمد سعيد العريان (ط، القاهرة 1960 ص : 413).

النصارى الفرصة لابتلاع الاندلس من جهة ثانية، كان كل ذلك،المؤشر الذي دفع باحداث الاندلس سريعا نحو انهاء الوجود الموحدي في الاندلس سواء كان ذلك على يد ابناء الاندلس الثائرين على سلطان الموحدين كابن هود وابن الاحمر او على يد النصارى الذين وجدوا الفرصة مواتية لتفكيك نظم عقد ثغور الاندلس ونظمها من جديد لتزين جيد مملكاتهم المتحدة ضد الاسلام.

ب ــ سقوط المدن والقواعد الكبرى في يد النصارى :

ضعف نفوذ الموحدين وتضاءل سلطانهم فطمح العدو لهضم الاندلس مستغلا الفرصة السانحة فوحد صفوفه ونشط الرهبان والقساوسة لحصد بذور الحقد التي كرسوا جهودهم من أجل شحن القلوب بها ازمانا متطاولة فوجه ملوك النصارى ضرباتهم المتوالية السريعة الى كبرى حواضر الاندلس وقواعدها المهمة وقلاعها الحصينـة فسقطت تباعا رغم المقاومة المستميتة التي ابداها سكان كل من تلك المدن، ومنها :

1 ــ الجزائر الشرقية حيث سقطت كبراها ميورقة بيد جيوش متحدة من مملكة أرغون وملكها «الطاغية جاميش بن بطرة بن جايمش» ومن فرنسا وإيطاليا يوم الاثنين 14 صفر سنة 627هـ (1 /1 /1230م)(3) فكان الحادث التي هز الاركان بالاندلس وكانت نكبة كبرى على السكان المسلمين.

2 ــ قرطبة حاضرة الاندلس الكبرى وعاصمة الغرب الاسلامي سقطت بيد ملك قشتالة فرناندو بن الفونس التاسع(4) يوم الاحد 23 شوال سنة 633 هـ فكانت المصيبة التي قرحت القلوب.

3 ــ بلنسية احدى المدن المجاهدة وكبرى قواعد شرقي الاندلس وثغر من ثغوره العظيمة حيث اكتست عملية اسقاطها الطابع الصليبي المتطرف وذلك

---

(3) التكملة 155/1 والذيل والتكملة 12/5 ونفح الطيب 469/4 والاحاطة 383/1 وعصر المرابطين والموحدين 402/2 ـــ 406.

(4) هكذا ورد اسمه في المراجع الاوروبية أما في المراجع العربية فاسمه في الاحاطة 383/1 هراندة بن الهنشة وورد في غيرها فراندة بن الفنش. انظر التاريخ الاندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة لعبد الرحمن الحجي ص : 472 (ط 1 سنة 1976 دار القلم الكويت).

باصدار البابا جريجوري التاسع مرسومه باسباغ الصفة الصليبية على حروب اسقاط بلنسية التي بدأت سنة 631هـ /1233م. وسقطت في صفر 636هـ /1238م بعد حصار شديد وطويل ذهبت فيه الاقوات والمؤن. تجاوز السنة والنصف بيد جيوش النصارى المتحالفة وبعد معارك كثيرة وضارية منها معركة انيشة(5) التي هزم فيها البلنسيون امام ملك أرغون جايمش(6) ومحاولة أمير بلنسية(7) واهلها استرداد انيشة بعد ذلك. فلم يفلح،وقهرت بلنسية السليبة بقيادة الملك الارغوني وكثير من الجند الوافدين منهم حشود المتطوعة الفرنسيين بقيادة مطران مدينة أربونة واخرون من جنوه(8) وبعد سقوط بلنسية تساقطت المدن التي تجاورها واحدة بعد الاخرى.

4 ــ فشقر أواخر سنة 639هـ. ودانية في ذي الحجة سنة 641 هـ وجيان في 643هـ. وشاطبة في صفر 644هـ(9)

5 ــ ثم سقطت اشبيلية في يد النصارى بمساعدة ابن الاحمر في يد القشتاليين سنة 646هـ.(10).

6 ــ وسقطت مرسية سنة 664 هـ. استسلمت صلحا لجايمش ملك أرغون فدخلها بجيشه وخرج منها أهلها بالأمان فغدروهم في الطريق وقتلوا جميع الرجال وسبوا النساء والاطفال...»(11)

وكان يستتبع سقوط كل مدينة او حصن أو قلعة اخلاؤها من أهلها المسلمين إما قتلا أو إجلاء أو سبياً أو بها مجتمعة.

---

(5) انيشة حصن يقع شمال مدينة بلنسية على بعد سبعة أميال،

(6) وقعت معركة «انيشة» يوم الخميس الموافق عشرين من ذي الحجة عام 634هـ انظر المصدرين السابقين.

(7) أميرها يومئذ هو أبو جميل زيان بن أبي الحملات مدافع بن أبي الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش الجذامي استنجد بحواضر الأندلس، وبني حفص التونسيين، إلا أن النجدات لم تصل في الوقت المناسب وفشلت نجدة الحفصيين في الوصول إلى المدينة المحاصرة المنكوبة (التاريخ الاسلامي من الفتح إلى سقوط غرناطة ص : 477 وما بعدها).

(8) العبر لابن خلدون 601/6. (ط، بيروت 1958،1959)

(9) نفح الطيب لابي العباس أحمد المقري، تحقيق إحسان عباس (ط، بيروت 1968).

(10) نهاية الأندلس لمحمد عبد الله عنان (ط، القاهرة 1966).

(11) البيان المغرب (طبعة تطوان) 438/3.

ج ـ الزعامات الأندلسية وانبعاث روح الطوائف :

وتمثل ذلك في ابن هود وابن الاحمر :

1 ـ ابـن هـود :

هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود الجذامي أحد أحفاد أسرة بني هود أصحاب سرقسطة أيام ملوك الطوائف لقب نفسه بأمير المسلمين سيف الدولة والمتوكل على الله[12] كان يسكن مرسية ومن أجنادها ومنها بدأ حركته حوالي سنة 625 هـ ودخلت معها قرطبة وإشبيلية وغرناطة ومالقة وألَمِرية في طاعته لتعطش النفوس إلى القيادة الحكيمة، إلا أن ابن هود لم يكن بذاك إذ كان فيه من الخفة والاستعجال ما ادخله في معارك عديدة دون إعداد كامل، نازل فيها فرناندو الثالث ملك قشتالة ووالده الفونس التاسع فخسرها وإن كان صد بعض الهجمات النصرانية أو أوقف بعضها على أرض الاندلس وإن لم يصمد في ذلك طويلاً إذ سرعان ما تساقطت المدن الأندلسية في يد الصليبية الحاقدة وتوالت عليه الهزائم، ثم انتهى أمره سريعا بموته سنة 635هـ. وإن كان من جهة أخرى عجل بنهاية الوجود الموحدي في الأندلس بظهوره والتفاف الناس حوله أول أمره[13].

2 ـ إبـن الاحمـر :

وهو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر الملقب بالشيخ والغالب بالله وهو يرجع بنسبه إلى الصحابي الجليل سعد بن عبادة الأنصارى من مواليد أرجونة من حصون شرق قرطبة سنة 591 هـ، ظهر ابن الأحمر بعد قليل من ظهور ابن هـود وكأنه كان ينتظر النموذج الذي سيحذو حذوه في نقض بقية الوجود الموحدي بالأندلس وكان جندياً وافر العزم والجرأة دعا لِلَمِّ الشمل فاستقام له الأمر في عدة مدن ثم كانت بيعته في رمضان سنة

---

(12) العبر 364/4 ونفح الطيب 215/1 والاحاطة 130/25 والمغرب في أخبار المغرب 320/1.

(13) البيان المغرب (تطوان) 335 ونفح الطيب 446/1.

635هـ، وانفرد بالزعامة بعد موت ابن هود-في نفس الشهر-المنافس اللدود له، فانضم له ما كان تحت يد الهالك وأصبحت غرناطة عاصمة له. حاول في مبدأ الأمر صد هجمات الصليبيين تارة، ومحالفتهم تارة أخرى على إخلاء بعض الثغور أو مساعدتهم على احتلال مناطق أخرى[14] إلى أن قويت شوكة المرينيين في المغرب الذين هبوا لنجدته أكثر من مرة وإن كان تصرفه شاذاً في بعض الأحيان، حيث كان يتحالف مع النصارى كدخوله في طاعة فرناندو سنة 643هـ، مقابل تضحيات جسام تحمل بها، منها جزية سنوية ذات بال وإعانة النصارى في حروبهم ضد المماليك الإسلامية الأخرى[15] والتنازل عن بعض القلاع أو الحصون كعربون ولاء[16] ومقابل هذا السخاء من بني الأحمر يسمح له بحضور مجلس قشتالة النيابي كأمير تابع للعرش ويهادنه النصارى لمدة عشرين سنة ويقرونه على ما بقي في يده من القواعد والحصون[17] إلا أن النصارى سرعان ما نقضوا اتفاقهم معه رغم التزام ابن الأحمر بكل ما ورد فيه عندما وجدوا الفرصة سانحة بخلافه مع أصهاره بني إشقيلولة وتدهور علاقته بهم فهجم ملك قشتالة على الجزيرة الخضراء وعاث فيها فساداً فاضطر ابن الأحمر إلى الاستعانة بالمرينيين الذين هبوا لنجدته إلا أن منيته كانت أسرع إليه منهم فلم يشهد النصر الكبير الذي حققه المرينيون على النصارى مع بداية خلفه محمد الفقيه تباعاً من سنة 673هـ إلى سنة 674 هـ حيث وقعت الواقعة الكبرى حول استجة[18] التي قتل فيها «دون نينوي ديلارا» صهر ملك قشتالة وقائد النصارى ثم افتك المرينيون في نفس السنة «شريش» من يد النصارى ثم عاد ملك المغرب بعد خمسة أشهر قضاها في الجهاد والنصر على النصارى إلا أن محمد الفقيه ساءت نيته في المرينيين وارتاب في علاقتهم مع بني اشقيلولة اصحاب مالقة أصهار بني الأحمر وخاصة بعد تنازل ابن محمد ابن اشقيلولة عنها بعد موت ابيه لجند المرينيين حتى يتخذوها قاعدة لحماية الاندلس

---

(14) الاحاطة 99/2 ــ 100 ــ ونفح الطيب 216/1 ونهاية الأندلس 38 ــ 40.

(15) كاشبيلية التي سقطت في يد ملك قشتالة بمساعدته سنة : 646 هـ (نهاية الأندلس ص 33).

(16) تنازل له عن الحصون والقلاع التالية : حصن «بيع» وقلعة «جابر» «وارجونة» و«جيان» و«بركونة». والحجاز»، وارض «الفرنتيرة».

(17) انظر مقدمة ملاك التاويل لابن الزبير، تحقيق سعيد الفلاح (ط، دار الغرب الاسلامي 1983 ج).

(18) وهي مدينة تقع جنوب غرب قرطبة انظر اخبار هذه المعركة وقادتها في الاحاطة 565/1 ونهاية الاندلس : 100.

فرد محمد الفقيه بالتحالف مع ملك قشتالة والاستيلاء على مالقة بعد ذلك، ونزلت جيوش النصارى بالجزيرة لمنع المنصور المريني من العبور كما راسل يغمراسن بتلمسان يسأله التحالف والعون إلا أن المرينيين أسرعوا إلى الأندلس فحالفهم النصر على النصارى الذين غدروا بمحمد الفقيه حيث هجموا مع بني اشقيلولة على غرناطة عاصمة ملكه إلا أنه استطاع صدهم عنها ولم يجد في غير المرينيين وفاء فعاد إلى مصالحتهم والركون اليهم وتنازل بنفسه عن مالقة للمرينيين ليتخذوها قاعدة للدفاع عن الأندلس.(19)

وبعد موت سلطان المرينيين أبو يوسف يعقوب المريني في طريق العودة إلى المغرب، تولى ولده أبو يعقوب، إلا أن النصارى عاذوا إلى الإغارة على ثغور الأندلس سنة 690 هـ بقيادة ملك قشتالة سانشو، فرد عليه المرينيون كيده، فالتجأ الى الحيلة والخدعة، فأغرى ابن الأحمر وأوغر صدره على المرينيين، وتحالف معه لصدهم فاستجاب له ابن الأحمر واحتل واياه مدينة طريف طريق العبور من يد المرينيين ثم ظهر غدر النصارى ومكرهم إذ رفضوا تسليم طريف لابن الأحمر بعد ذلك فتبين له حقيقة تحالفهم معه وعاد إلى طلب نجدة المرينيين وعادوا هم إلى نجدته(20) إلا أن خلفه محمد المخلوع(21) سرعان ما اتجه فجأة إلى النصارى وحالفهم ضد المرينيين بل تجاوز ذلك الى إثارة الفتن والقلاقل في وجوههم بالتحريض على الخروج عليهم، ليس فقط في الاندلس ولكن أيضا في المغرب واضطرب الحال في المغرب بموت ابي يعقوب المنصور واختلاف ولديه من بعده على الخلافة. وتوالت الاحداث بعد ذلك على المغرب والاندلس سراعا نحو التأزم بسبب ذلك وان استقام الحال قليلا لابي ثابت المريني قبل موته، وثار على محمد المخلوع أخوه أبو الجيوش نصر بن محمد ومن رفضوا معه تناقضات أخيه وطغيان وزيره ابن الحكيم وكان ذلك يوم عيد الفطر من سنة 708هـ حيث قتل الوزير واعتقل الأمير وأجبر على التنازل لأخيه ثم أرغم نصر نفسه عن التنازل عن الحكم

(19) التاريخ الاسلامي من الفتح إلى سقوط غرناطة 538 وما بعدها.

(20) المرجع السابق.

(21) تولى بعد موت أبيه سنة 701 هـ وخلع سنة 708 هـ المصدر السابق : 541.

سنة 713هـ ليتولى الحكم أبو الوليد إسماعيل ابن أخ محمد الأول المؤسس لهذه الدولة الذي أعاد نوعاً ما الاستقرار في غرناطة مع حياة الجهاد والمرابطة(22).

الحياة العلمية في عصر ابن الزبير

رغم الوضع السياسي المتأزم في الاندلس في عصر ابن الزبير، فقد خلفت العصور السابقة التي تميزت بنوع من الاستقرار المؤدي الى ازدهار الثقافة واشراقة المعرفة خلفت استمرارا في العطاء وتقدما نسبيا نحو مزيد من النماء الثقافي والتأليف العلمي.

ولا شك أن ذلك راجع لعوامل منها :

1) أن المسجد كان مركزاً للإشعاع الفكري والحضاري في المجتمعات المسلمة.

2) أن المجتمع الأندلسي بلغ الذروة في الحضارة مما كان يجعل الاتجاه نحو التعليم اتجاها مطلوباً ومنسجماً مع هذا الوسط المتحضر الذي توارثت أجياله المركز والجاه العلمي وخاصة في الأسر ذات الماضي العريق في المشيخة في الاندلس ومنها بيت ابن الزبير.

3) المنافسة الحاصلة بسبب تعدد المراكز العلمية التي اشتهرت بها الاندلس وكذلك بسبب تعدد البيوت العلمية ونفس الامر بالنسبة لحكام الاندلس الذين توارثوا المنافسة بينهم في احاطة أنفسهم بالعلماء وتشجيعهم لتلك المراكز.

4) ما اشتهر به الاندلسيون من حب الرحلة لطلب العلم، كما كانت تشد اليهم الرحال لنفس الغاية أو لغيرها من الغايات.

ومن ثم يمكن أن نجمل عناصر ازدهار الحياة العلمية في عصر ابن الزبير في النقط التالية :

---

(22) المصدر السابق.

أولا ــ البيوت العلمية :

من البيوت العلمية نذكر على سبيل المثال أفرادا ينتسبون لتلك البيوت ممن كان لهم مركز مرموق وهم أمثلة فقط لما نريد التدليل عليه من توارث الأجيال وتواصل العطاء بين أفرادها العلماء، في الاندلس المسلمة :

1) فمن بيت ابن منظور القيسي المالقي اشتهر عالمان هما :

ــ أبو عمر عثمان بن منظور القيسي المالقي الذي قال عن عراقة أصله ومكانته العلمية أبو الحسن النباهي : «... أحد بيوت النباهة بالاندلس كان صدرا في علماء بلده ممتعا من أهل النظر والتحقيق ثاقب الذهن أصيل البحث مضطلعا بالمشكلات، مشاركا في الفقه والعربية الى أصول وقراءات وطب ومنطق»[23].

ــ وأبو بكر بن عبيد الله بن منظور القيسي المالقي، وقال عنه النباهي أيضا : «أصله من اشبيلية من البيت الاثيل المشهور ويكفي في التعريف بقدم أصالته الكتاب المسمى «بالروض المنظور في أوصاف بني منظور».[24]

2) ومن بيت عبد الرحمان اللخمي اشتهر عدد منهم :

ــ أبو القاسم محمد بن محمد بن عبد الرحمن اللخمي المتوفى في وقيعة الطاعون سنة 750هـ. قال عنه ابن الخطيب «فرع الدوحة والاصالة والخصوصية والعلم والدين والمكانة والجلالة مجلى بيته ومجدد مآثره برا ومجاملة وخيرية.[25].

ــ وأبو بكر محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن اللخمي وهو أيضا توفى سنة 750 هـ وقال عنه ابن الخطيب أيضا : كان صدر ابناء أصحاب النعم وبقية أعلام البيوت ترفَ نشأةٍ وعزَّ تربيةٍ وكرمِ نفسٍ وطيب مجالسة، يقرض الشعر

(23) المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا(تاريخ قضاة الاندلس)لابي الحسن النباهي نشر المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ص : 147.

(24) المرقبة العليا 154.

(25) الاحاطة : 266/2.

ويقوم على الكتاب العزيز حفظا وتجويدا واتقانا، ويسرد نتف التاريخ وعيون الاخبار الى حسن الخلق وكمال الأبهة»[26].

3) واشتهر أفراد من بيوتات أخرى منهم :

— أبو بكر محمد بن أحمد بن علي بن حسن بن علي بن الزيات الكلاعي ولد الشيخ الخطيب ابن جعفر الزيات من أهل «بلش» بقية أبناء المشايخ ظرفا وأدبا ومروءة وحشمة... ورواية عالية ومشاركة في فنون.[27]

— وأبو عبد الله محمد بن أحمد الاستجى الحميرى المتوفى سنة 639 هـ من أهل مالقة وأصله من استجه،كان من جملة حملة العلم، وكان من أهل الجلالة ومن بيت علم ودين، أقرأ ببلده وقعد بالجامع الكبير منه يتكلم على صحيح البخاري وانتقل آخر عمره الى غرناطة[28] وقال عنه ابن الزبير : كان من أبرع أهل زمانه في الادب»[29].

— وأبو جعفر احمد بن عبد الوالي الرعينى المتوفى سنة 750 هـ. قرأ على ابن الزبير وهو من بيت تصاون وعفاف ودين، كانوا في غرناطة في الأشعار وتجويد القرآن بحمله وعكوفهم عليه نظراء بني عظيمة باشبيلية وبني البادش بغرناطة.[30]

ثانيا ـــ المراكز العلمية :

تعددت المراكز العلمية في الاندلس عصر ابن الزبير بتعدد حواضر الاندلس التي كان يتحلق فيها طلاب العلم حول الشيوخ بمساجدها الكبرى.

وبتقليص رقعة الاندلس في عصر ابن الزبير ازداد التركيز على الحواضر الاندلسية التي لم تكن قد وقعت في يد العدو (النصارى).

(26) الاحاطة 272/2.

(27) نفس المصدر 138/2 ـــ 139.

(28) نفس المصدر 316/2.

(29) نفس المصدر 316/2

(30) نفس المصدر 193/1.

ومن هذه وتلك نذكر المراكز التالية :

1) **جيان** : قبل سقوطها والتجاء أهلها الى الحواضر الاخرى وخاصة غرناطة. وهي بلد ابن الزبير وبها ولد ورحل عنها لما تغلب عليها العدو سنة 643هـ. وممن كان يؤخذ عنهم العلم فيها ـــ المقرىء الاديب أبو عبد الله محمد بن احمد بن يربوع وممن اخذ عنه عبد الحق يوسف بن تونارت الصنهاجي الجياني المتوفى سنة 640هـ[31]

2) **الجزيرة الخضراء** : من علمائها الخطيب أبو العباس بن خميس وأخذ عنه من العلماء أبو بكر محمد بن عبيد الله بن منظور القيسي المالقي.[32]

3) **مرسية** : ومن شيوخها الاعلام الاستاذ أبو بكر محمد بن محمد المعروف بالقريشي ومن أخذ عنه محمد بن عبد الله بن خطاب الغافقي المرسي[33].

4) **رندة** : ومن شيوخها الشيخ النحوى أبو الحسن علي بن يوسف العبدري وابن القاسم ابن الايسر الخطيب وممن أخذ عنهم وعن والد أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم اللخمي الرندي النشأة الاشبيلي الأصل المكنى بذي الوزارتين المقتول سنة 708هـ.[34]

5) **وادى آش** : ومن علمائها أبو يحيى محمد بن رضوان بن محمد النصري المتوفى سنة 757 هـ.[35]

6) **بلنسية** : ومن شيوخها الكبار ابن خيرة وأخذ عنه جماعة منهم أبو علي بن الناظر بن أبي الاحوص القريشي الفهري الغرناطي المتوفى سنة 699 هـ.[36].

---

(31) صلة الصلة لابن الزبير ص 12 القسم الاخير من الكتاب تصحيح وتعليق أ. بروفنسال المطبعة الاقتصادية الرباط 1930.

(32) الاحاطة : 171/2 ـــ كذلك 228/2.

(33) الاحاطة 427/2.

(34) الاحاطة 444/2ـــ451.

(35) الاحاطة : 142/2.

(36) الاحاطة 464/1.

7) — **أريولة** : ومن شيوخها أبو الحسن بن بقي وممن أخذ عنه ابن أبي الاحوص السابق.(37)

8) — **ألمرية** : ومن علمائها أبو اسحاق البلقيني وممن أخذوا عنه أبو بكر محمد بن مفضل بن مهيب اللخمي وهو الذي تزوج ابنته وانتقل بها إلى سبتة إلى وفاته سنة 645 هـ.(38) ومن علمائها أيضا أبو عبد الله الميورقي وممن أخذ عنه أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن لب الامي المعروف بابن الصائغ وهو من أهلها(39) توفي سنة 720 هـ.

9) — **اشبيلية** : ومن علمائها الحسن بن زرقون والاستاذان أبو الحسن بن جابر الدباج وأبو علي الشلبوبين.(40)

10) — **قرطبة** : ومن علمائها الخطيب أبو جعفر أحمد بن يحيى بن ابراهيم الحميرى وممن أخذ عنه أبو عبد الله محمد بن أحمد الاستجي الحميري وهو من أهل مالقة.(41)

11) — **مالقة** : وكانت حاضره بني اشقيلولة أصهار بني الأحمر بغرناطة وكانت بينهما ما كان من المنافسة واستقطاب العلماء. وقد استقر بها ابن الزبير نفسه فترة عند الطلب وأخرى قضاها في التدريس إلى أن كانت فتنة الفزاري فخرج بنفسه منها لا يلوي على شيء وانتهبت داره بها. وقد اشتهر فيها اعلام كثيرون نذكر منهم :

— أبو عبد الله محمد بن أحمد الاستجى وهو من أهلها(42) كان حيا سنة 641 هـ ومن غير أهلها المقيمين بها : أبو علي ابن الناظر ابن الاحوص القريشي الفهري

(37) الاحاطة : 464/1.
(38) المصدر السابق : 145/2.
(39) المصدر السابق : 2 — 434.
(40) صلة الصلة : 12.
(41) الاحاطة : 326/2 — 327.
(42) الاحاطة : 326/2 — 327.

الغرناطي استقر بمالقة يقرىء ويحدث،وولي خطبتها بقصبتها سبعة وعشرين سنة(43)

ـــ ومحمد بن علي الجزولي المعروف بابن الحاج أحد اعلام المغرب دخل الاندلس وأقام بمالقة زمانا.(44)

ـــ وأبو البركات محمد بن خلف السلمي المعروف بابن الحاج البلفيقي المتوفى سنة 773 تلميذ ابن الزبير. قعد بمجلس الاقراء بمالقة للكلام على صحيح مسلم ثم رحل إلى فاس ثم آب إلى الأندلس واستقر بالمرية للاقراء(45).

ـــ وأبو إسحاق ابراهيم بن أبي بكر الانصاري المعروف بالتلمساني المتوفى سنة 690هـ بسبتة كان فقيها أديباً شاعراً محسناً انتقل به أبوه إلى الأندلس وهو طفل فاستوطن غرناطة ثم رحل إلى مالقة فسكن بها مدة وبها قرأ معظم قراءته(46).

12) ـــ **غرناطة** : وهي عاصمة بني هود ثم بني الاحمر بعد سنة 635 هـ وكانت ملتقى العلماء النازحين من المراكز الأخرى بعد سقوطها أو طلبا للعيش في كنف حكامها. واشتهر من علمائها في هذه الفترة عدد جم نذكر منهم صاحبنا ابن الزبير وابن أبي الاحوص القرشي المذكور سابقا والخطيب أبي الحسن القيجاطي(47) وابراهيم بن أبي العاصي تلميذ ابن الزبير(48) وأبو يحيى محمد بن رضوان النميري(49) وغيرهم.

ثالثا ـــ الرحلات العلمية :

عرفت الاندلس منذ الفتح الاسلامي وإلى سقوط مملكة غرناطة الرحلة من المشرق والمغرب إليها،ومنها إليهما، وقد توزعت الراحلين إليها والمرتحلين منها نوازع ودوافع مختلفة الا أن الغالب عليها من طرف الاندلسيين كان الحج وطلب العلم

(43) المرقبة العليا : 127 والاحاطة : 664/1.
(44) المرقبة العليا : 135.
(45) الاحاطة : 145/2.
(46) الاحاطة : 328/1.
(47) الاحاطة : 434/2.
(48) المصدر السابق : 374/1 ـــ 375.
(49) المصدر السابق : 142/2.

ولقاء الشيوخ والرواية العالية في الاسناد، وفي نهاية أمر المسلمين بالاندلس الفرار من ظلم وعذاب النصارى المتسلطين الغالبين على الاندلس.

في عصر ابن الزبير كان الغالب على الرحلات العلمية الاتجاه نحو حواضر أقطار المغرب وخاصة : فاس ومراكش وسلا وسبتة، وتونس، وتلمسان وبجاية. أو الاتجاه نحو الحجاز مرورا ببعض الحواضر السابقة الذكر وبمصر وربما بعد أو قبل موسم الحج يعرج الحاج أو الطالب على بعض مراكز العلم في سوريا أو العراق وغيرهما وفي مقدمة الراحلين من الاندلس إلى حواضر المغرب نجد أستاذنا ابن الزبير الذي كانت له رحلة إلى سبتة(50) وأخرى إلى سلا(51). وقد صرح هو نفسه بذلك، كما كان له تجول بين حواضر الاندلس الأخرى طلبا للعلم والرواية(52).

واشتهر أيضا بالرحلة إلى نفس المراكز السابقة أبو جعفر أحمد بن عبد النور بن راشد المتوفى سنة 702 هـ. من أهل مالقة كان قيما على العربية إذ كانت جل بضاعته. رحل من بلده مالقة إلى سبتة، ثم انتقل إلى الاندلس وأقرأ بواد آش مدة وتردد بين ألمرية، وبرجة... ناب عن الكثير من القضاة ودخل غرناطة...(53)

وأبو البركات محمد بن خلف السلمي المعروف بابن الحاج البلفيقي المتوفى سنة 773 هـ اجتهد في طلب العلم صغيرا وكبيرا، عبر البحر إلى بجاية فأدرك بها المدرس المشهور أبا علي منصور المشدالي وحضر مجالسه العلمية، وأخذ عن غيره من أهلها، ثم أتى مراكش، وآثر السكنى بسبتة على طريقة جده ابراهيم، ثم عاد إلى الاندلس فأقام منها بمالقة واختص بخطيبها الشيخ الولي : أبي عبد الله الطنجالي وروى عنه وعن غيره، وقيد الكثير بخطه، ورام في ابتداء طلبه التشبه بالقاضي أبي

---

(50) قال ابن عبد الملك المراكشي عن ابن الزبير «متسع الرواية عنى بها كثيرا ورحل بسببها إلى سبتة وإلى كثير من بلاد الاندلس» الذيل والتكملة س 1 ق 1 ص 44.

(51) قال ابن الزبير في صلة الصلة في ترجمة علي بن عبد الله بن قطرال الانصاري «وكنت بمدينة سلا أيام كونه بفاس» ص : 139

(52) انظر الذيل والتكملة ص 1 ق 1 ص 44.

(53) الاحاطة : 197/1.

بكر بن العربي في لقاء العلماء ومصاحبة الادباء والأخذ في المعارف كلها، والتكلم في أنواعها، وممن أخذ عنهم الاستاذ ابن الزبير.[54]

ـــ أبو بكر محمد بن أحمد بن شبرين المتوفى سنة 747 الذي كانت له رحلة إلى تونس لقي فيها قاضي الجماعة الشيخ الامام أبا اسحاق ابراهيم بن عبد الرفيع وغيره فاتسع بذلك نطاق روايته.[55]

ـــ ومحمد بن يحيى بن بكر الاشعري المالقي المتوفى سنة 241 هـ رحل إلى مدينة سبتة وأخذ بها عن عميد الشرفاء ابن علي بن أبي التقي طاهر بن ربيع، وأبي فارس عبد العزيز الهواري.

كما أخذ عن أبي إسحاق التلمساني، وأبي عبد الله بن الخضار، والمقرىء ابن القاسم بن عبد الرحيم والاستاذ أبي بكر بن عبيدة، واجازه من المشرق الامام شرف الدين عبد المومن الدمياطي، والراوية المحدث أبو المعالي أحمد بن اسحاق القوصي إلى جماعة من المصريين والشاميين وغيرهم، وعاد إلى بلده مالقة وقد صار سباق الحلبات معرفة بالاصول والفروع والعربية والتفسير والقراءات[56] ورحل إلى المشرق عدد جم من طلاب العلم بالاندلس نذكر منهم :

ـــ أبا أحمد جعفر بن سيد بونة المتوفى سنة 624 هـ الصوفي الشهير الذي أدى فريضة الحج ولقى جلة من الفضلاء، اشهرهم في باب الزهد ورفيع المقامات الشيخ الصالح أبو مدين شعيب بن الحسين مقيم بجابة.[57]

ـــ وأبا عبد الله محمد عبد الله بن لب الامي المعروف بابن الصائغ من أهل ألمرية المتوفى سنة 720 هـ سار إلى غرناطة وقرأ بها العربية وغيرها ثم رحل إلى المشرق فلم يتجاوز القاهرة وأخذ في اقراء العربية بها وعرف بها إلى أن صار يدعى

(54) المرقبة العليا : 164 والاحاطة : 144/2 ـــ 154.
(55) المرقبة العليا 153 والاحاطة 240/2.
(56) المرقبة العليا ص : 141.
(57) المرقبة العليا ص : 137.

بابن عبد الله النحوي، وكان بمدرستها الصالحية نبيه المكانة معدودا في أهل العلم والديانة.(58)

ــ وأبا عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم اللخمي الملقب بذي الوزارتين رندي النشأة اشبيلي الأصل رحل إلى الحجاز على سنة 683 هـ فحج وزار وتجول في بلاد المشرق منتجعا عوالي الرواية في مظانها، ومنقرا عنها عند مسني شيوخها وقيد الاسانيد الغريبة، وأقام بمكة شرفها الله من شهر رمضان إلى انقضاء الموسم فأخذ بها عن جماعة وانصرف إلى المدينة المشرفة ثم قفل مع الركب الشامي إلى دمشق ثم كر إلى المغرب لا يمر بمجلس علم أو تعلم إلا روي أو روى واحتل رندة عام 685 هـ ومات مقتولا سنة 708 وهو أحد تلاميذ ابن الزبير.(59)

ــ وأبا جعفر أحمد بن محمد مفرج المعروف بالعشاب وابن الرومية كان اماما في الحديث وعلم النبات، رحل إلى المشرق فاستوعب المشهور من افريقيا ومصره وشامه وعراقه وحجازه، وعاين الكثير مما ليس بالمغرب.(60)

ــ وابراهيم بن محمد الانصاري الساحلي المعروف بالطويجن من غرناطة كان حيا سنة 739 هـ. كان نسيج وحده في الادب نظما ونثرا لا يشق له فيهما غبار رحل بعد أن اشتهر فضله فشرق وحج وجال في الشام والعراق واليمن ومصر ثم دخل بلاد السودان حيث استقر بها.(61)

ومن قصد الاندلس للأخذ عن علمائها نذكر :

ــ أبا عبد الله محمد بن عمر المليكشي التونسي، كان فاضلا أديبا شاعرا صوفيا جميل العشرة كتب عن الأمراء بافريقية ونال حظوة ثم شرق وحج ولقي جلة ووصل الاندلس عام 718 هـ فلقي بغرناطة حفاوة وانسحبت بها عليه جراية. وقد

(58) الاحاطة : 434/2.
(59) المصدر السابق : 446/2.
(60) الاحاطة : 208/1.
(61) المصدر السابق : 329/1.

اسمع بها وارتسم في جملة الكتاب بها ولقي من كان بها من الاعلام، ثم انصرف عن غرناطة فاتصل بسبتة فأكرم رئيسها قدومه ثم اتصل ببلده[62] وبها توفي سنة 740 هـ.

ـ وأبا القاسم محمد بن أحمد الحسني الشريف الغرناطي الذي ارتحل عن بلده سبتة وقد تملأ من العلوم وبرع في طريقتي المنثور والمنظوم فطلع على الاندلس طلوع الصباح بعد السرى وخلص فيها خلوص الخيال مع سنة الكرى فانتظم في الحين في سلك كتابها.[63]

وغير هؤلاء وأولائك كثير.

رابعا ـ حركة التأليف في هذا العصر :

من مظاهر النشاط العلمي في هذا العصر رغم انحصار رقعة الاندلس المسلمة ظهور عدد من المؤلفات التي تعبر عن نوع الثقافة السائدة في ذلك العصر والمعبرة عن اهتمامات الناس وقضاياهم ومحط اهتمام الفئة المثقفة في المجتمع.

ومن بين تلك المؤلفات التي ظهرت إلى جانب مؤلفات ابن الزبير التي كانت تدور محتوياتها حول الذب عن الاسلام في مواجهة الانحرافات والتيارات الجارفة لعقائد الناس : كملاك التأويل، والبرهان في ترتيب سور القرآن، وايضاح السبيل من حديث سؤال جبريل، وسبيل الرشاد في فضل الجهاد، وردع الجاهل عن اعتساف المجاهل الخ..... إلى جانب ذلك برزت إلى الوجود المؤلفات التالية :

«التكميل والاتمام لكتاب التعريف والاعلام» «والمختصر في السلوك عن ذهاب البصر».[64]

(62) المصدر السابق : 563/2 و570 و571.

(63) المرقبة العليا : 171.

(64) المرقبة العليا : ص 123.

«ومطلع الانوار ونزهة الابصار» فيما احتوت عليه مالقة من الرؤساء والاعلام الأخيار وتقيد من المناقب والآثار، «والمشرع الروى»[65] وكلها لابن عبد الله بن عسكر المتوفى سنة 636هـ.

وظهر أيضا «تنظيم الدر في علماء الدهر لابي عامر يحيى بن ربيع بن قاضي الجماعة[66] المتوفى سنة 639 هـ.

وكتاب «الاكتفاء بما تضمنه من مغازي الرسول صلى الله عليه وسلم ومغازي الثلاثة الخلفاء» في أربع مجلدات «والمسلسلات من الأحاديث والاثار والانشاءات» وكتاب نكتة الامثال ونفثة السحر الحلال» وكلها لأبي الربيع سليمان الكلاعي[67] المتوفى سنة 634 هـ.

وكتاب «ظهور الاعجاز بين الصدور والاعجاز» في شرح شعر المتنبي، وكتاب «شمس البيان في لمس البنان» وكتاب «الزهرة الفائحة في الزهرة اللائحة» و«نفح الكمامات في شرح المقامات» و«اقتراح المتعلمين في اصطلاح المتكلمين» و«التصور والتصديق في التوطية لعلم التحقيق» و«رقم الحلل في نظم الجمل» و«مفتاح الاحسان في اصلاح اللسان» وكلها لأبي عبد الله محمد بن أحمد الاستجى الحميري المالقي[68] كان حيا سنة 645 هـ.

كما ألفت الكتب التالية : «رجال المعلم بزوائد البخاري على مسلم» و«اختصار غريب حديث مالك للدارقطني»، و«نظم الدراري فيما تفرد به مسلم عن البخاري» و«توهين الطرق في حديث الأربعين» و«حكم الدعاء في ادبار الصلوات» و«كيفية الآذان يوم الجمعة» و«اختصار الكامل في الضعفاء والمتروكين لابن عدي»، و«الحافل في تذييل الكامل» و«اخبار محمد بن

(65) الاحاطة : 174/2. والمرقبة العليا ص : 123.

(66) المرقبة العليا : ص : 129.

(67) المرقبة العليا : ص : 119.

(68) الاحاطة : 325/2 و326.

اسحاق» و«شرح حشائش دياسقوريدوس وأدوية جالينوس والتنبيه على أوهام ترجمتها» و«التنبيه على أوهام الغافقي»، و«الرحلة النباتية» و«المستدركة» وكلها لأبي جعفر أحمد بن محمد بن مفرج الأموي المعروف بالعشاب وابن الرومية(69) المتوفى سنة 637 هـ.

وكتاب «الحلية في ذكر البسملة والتصلية» و«رصف المباني في حروف المعاني» و«كتاب في شرح الكوامل لأبي موسى الجزولي نحو الموطأ في الجرم»، وكتاب «شرح مغرب أبي عبد الله بن هشام الفهري المعروف بابن (الشواش)» ولم يتم، وغيرها وكلها لأبي جعفر أحمد بن عبد النور بن راشد المالقي المتوفى سنة 702هـ(*).

وألف أبو جعفر أحمد بن الحسن الزيات الكلاعي من أهل بلش مالقة المتوفى سنة 728هـ تصانيف كثيرة منها : «نظم السلوك في شيم الملوك» و«المجتبى النظير والمقتنى الخطير» و«العبارة الوجيزة عن الاشارة» و«اللطائف الروحانية والعوارف الربانية» و«وأس مبنى العلم وأس معنى الحلم» في علم الكلام و«لذات السمع من القراءات السبع» نظما و«قاعدة البيان وضابطة اللسان» في العربية، و«النفحة الوسمية والمنحة الجسمية» وتشتمل على أربع قواعد اعتقادية وأصولية وفروعية وتحقيقية»، و«تلخيص الدلالة في تخليص الرسالة» وغيرها.(70)

وألف أبو بكر محمد بن عبيد الله بن منظور القيسي المتوفى سنة 750هـ «نفحات النسوك وعيون التبرك المسبوك في اشعار الخلفاء والملوك» وكتاب «السحب الواكفة والظلال الوارفة في الرد على ما تضمنه المضنون به من اعتقادات الفلاسفة» وكتاب «البرهان والدليل في خواص سور التنزيل»،(71) و«الصيب الهتان الواكف بعناية الاحسان» والمشتمل على أدعية مستخرجة من الأحاديث الصحيحة النبوية وسور القرآن وكتاب يشتمل على «أربعين حديثا في الرقائق

(69) المصدر السابق : 211/1. (*) الاحاطة 198/1.
(70) المصدر السابق : 289/1 — 290.
(71) المرقبة العليا : ص : 155.

موصولة الاسانيد» وكتاب «تحفة الأبرار في مسألة النبوة والرسالة وما اشتملت عليه من الأسرار» وكتاب «الفعل المبرور والسعي المشكور فيما وصل اليه أو تحصل لديه من نوازل القاضي ابن عمر بن منظور»(72).

وألف أبو البركات ابن الحاج البلفيقي مفخرة تلاميذ ابن الزبير المتوفى سنة 773هـ: «المؤتمن في أنباء من لقيه من أبناء الزمن» و«الافصاح عمن عرف بالاندلس بالصلاح» وكتاب «خطر فبطر ونظر فخطر على تنبيهات وثائق ابن فتوح»، و«سلوة الخاطر فيما أشكل من نسبة الرتيب الى الذاكر». و«حركة الدخولية في المسألة المالقية» و«خطرة المجلس في كلمة وقعت في شعر استنصر به أهل الاندلس» و«تاريخ ألمرية» غير تام. و«المرجع بالدرك على من أنكر وقوع الشرك» و«مشبهات اصطلاح العلوم» و«ما كثر وروده في مجلس القضاء» و«الغلسيات» و«الفصول والأبواب فيمن أخذ عني من الشيوخ والأتباع والأصحاب»(73) وغيرها كثير.

وألف أبو يحيى محمد بن رضوان بن محمد بن أرقم الوادي آشي كتابا سماه «الاحتفال في استيفاء ما للخيل من الأحوال».(74)

وألف أبو القاسم محمد الحسني الشريف الغرناطي جملة تصانيف منها: «رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة»، ومنها «رياضة الآن في شرح الخزرجي»(75) وغيرها كثير، وفيما ذكرنا أمثلة لما لم نذكر.

(72) الاحاطة 171/2 — 172.
(73) المرقبة العليا : 165. والاحاطة 148/2 — 149.
(74) الاحاطة 141/2.
(75) المرقبة العليا : 167.

المبحث الثاني

ترجمة ابن الزبير

- اسمه ونسبه
- مولده ونشأته ووفاته
- شيوخه
- مكانته العلمية
- تلاميذه
- مؤلفاته

ترجمة ابن الزبير[1]

1 ـ اسمه ونسبه :

هو أحمد بن ابراهيم بن الزبير بن محمد بن ابراهيم[2] (بن الزبير)[3] (بن الحسن بن الحسين»[4] بن الزبير بن عاصم بن مسلم بن كعب[6] بن مالك بن علقمة بن خباب[7] بن مسلم بن عدي بن مرة بن عوف بن ثقيف.[8].

يكنى أبا جعفر، وابن الزبير نسبة الى أحد أجداده الثلاثة الذين سموا بهذا الاسم وهم الجد الأول والرابع والسابع.

---

(1) اعتمدت في ترجمته على الذيل والتكملة 39/1 ـ 45 تذكرة الحفاظ 1484/4، الوافي بالوفيات 222/6 ـ 223، الاحاطة 188/1 ـ 193 الديباج المذهب 188/1، غاية النهاية في طبقات القراء 32/1، الدرر الكامنة 84/1-86 بغية الوعاة 291/1 طبقات المفسرين 26/1، فهرس الفهارس 340/1 ـ 341 لعبد الحي الكتاني (ط، المطبعة الجديدة بالطالعة فاس سنة 1946). كما استعنت في ترجمته على المصادر التالية : طبقات الحفاظ ص 513، نفح الطيب 98/6، شذرات الذهب 16/6، درة الحجال 11/1، البدر الطالع 33/1، كشف الظنون 241/1، هدية العارفين 103/1 شجرة النور الزكية ص 212 طبقات المالكية ص 372 (مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم 3928 د)، بروكلمان 376/2 ـ 377، معجم المؤلفين 138/1، الاعلام 29/1 الموسوعة المغربية للاعلام البشرية 110/1 للاستاذ عبد العزيز بن عبد الله (ط، وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية المغرب 1975).

(2) تتفق اغلب التراجم الى هذا الحد.

(3) سقط من : الاحاطة، الدرر الكامنة، غاية النهاية.

(4) كذا ورد في : غاية النهاية، بغية الوعاة، طبقات المفسرين، الاحاطة، الذيل والتكملة، وفي معجم المؤلفين : هو احمد بن ابراهيم بن الزبير بن الحسن بن الحسين وهو خلاف ما اتفقت عليه معظم كتب التراجم.

(5) كذا ورد في الذيل والتكملة والاحاطة، وغاية النهاية.

(6) في الذيل والتكملة : كذا نقلت نسبه من خطه.

(7) في الاحاطة : حباب.

(8) في الذيل والتكملة، والاحاطة وردت هذه الترجمة بتمامها دون خلاف بين المصدرين باستثناء سقوط «ابن الزبير» الجد الرابع للمؤلف من الاحاطة، ويلاحظ أن أغلب من ترجم له من بعدهما قد اعتمد عليهما.

وهو من أبناء العرب الداخلين الى الاندلس،(9) ولذلك عرف بالثقفي نسبة الى بني ثقيف(10) والعاصمي(11) نسبة الى جده الثامن، والجياني(12) نسبة الى مسقط رأسه جيان، والغرناطي(13) نسبة الى غرناطة التي استقر بها، وفيها عاش وترعرع حتى صار علما من أعلامها، والاندلسي(14) نسبة الى موطنه الاندلس.

واشتهر بالاستاذ(15)، وكثيرا ما نجد في تراجم تلامذته أنهم قرأوا على الاستاذ، أو أستاذ الجماعة، أو شيخ الجماعة، أو الاستاذ الكبير،(16) فهو كما وصفه عبد الحي الكتاني أستاذ القراء.(17)

مولده ونشأته

ولد ابن الزبير ببلدة جيان(18) دون خلاف في ذلك وكان مولده في ذي

---

(9) الاعلام لخير الدين الزركلي 29/1 (ط، 2 دار العلم للملايين بيروت).

(10) نسبة إلى بني ثقيف، وهو بطن من هوازن من العدنانية، واشتهروا باسم أبيهم فيقال لهم ثقيف واسمه قسي بن منبه ابن بكر بن هوازن، ومنها عبد الله بن أبي اوفي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم. نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب للقلقشندي 1959/16 تحقيق ابراهيم الابياري 199، 442، الاحاطة 135/1.

(11) وردت في:الذيل والتكملة، طبقات الحفاظ، تذكرة الحفاظ، هدية العارفين، درة الحجال، فهرس الفهارس وغيرها.

(12) وردت في : طبقات المفسرين، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ط، 1 القاهرة 1964.

(13) وردت في : طبقات الحفاظ، تذكرة الحفاظ، درة الحجال، شجرة النور الزكية، وغيرها.

(14) وردت في : درة الحجال، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني ط، دار الجبل.

(15) كلمة أعجمية الأصل، ومعناها الماهر بالشيء أو العظيم، وهي على ما يراه أبو منصور الجواليقي تطلق على المعلم الذي يربي الصبيان، فكأنه أصبح مثالا لهم في حسن الادب، كما انها كانت تطلق على المجبوب (الخصي)، ثم أصبحت تطلق على كل ماهر في فنه العلمي مبرز فيه. المصباح المنير 18/1، تاج العروس 564/2 للزبيدي ط، 1 المطبعة الخيرية بجمالية مصر 1306هـ.

(16) الاحاطة : 28/3، 77، 230، 412 وغيرها من الصفحات.

(17) فهرس الفهارس والاثبات 340/1 لعبد الحي الكتاني ط، المطبعة الجديدة بالطالعة فاس 1946.

(18) جيان بالفتح والتشديد وآخره نون مدينة لها كورة واسعة بالاندلس تتصل بكورة البيرة مائلة عن البيرة إلى ناحية الجوف في شرقي قرطبة، بينها وبين قرطبة 17 فرسخا وهي كورة كبيرة تجمع قرى كثيرة وبلدانا. (انظر معجم البلدان لياقوت الحموي : 195/2 ط، دار صادر بيروت 1957).
كانت اسبانيا مقسمة في عهد الفتح الاسلامي إلى خمس ولايات، وكانت جيان تقع في الولاية الأولى (اقليم الاندلس) وأشهر مدنها بالاضافة إلى جيان، قرطبة، اشبيلية، مالقة، واستجة، وكانت جيان من القواعد الاندلسية الهامة أيام الدولة الاسلامية وهي اليوم قاعدة الولاية الاسبانية المسماة باسمها، انظر الاحاطة 188/1 الهامش رقم 5 ودولة الاسلام في الاندلس لمحمد عبد الله عنان ص : 69 ط، القاهرة 1969.

القعدة[19] سنة سبع وعشرين وستمائة،[20] وقيل ثمان وعشرين وستمائة للهجرة[21] (627 أو 628هـ) الموافق ثلاثين ومائتين وألف للميلاد[22] (1230م).

ولئن كان ابن الزبير قد ولد بجيان وامضى بها طفولته فانه سرعان ما غادرها صحبة أبيه سنة 643 هـ عند ما تغلب عليها العدو وهو لم يتجاوز بعد الخامسة أو السادسة عشرة من عمره، وهو ينحدر من أسرة ذات حسب أصيل وجاه ومال أعانته على تكوين شخصيته العلمية.

يقول ابن الخطيب عن ابن الزبير : «أصله من مدينة جيان منزل قنسرين من العرب الداخلين الى الاندلس، ونسبه بها كبير وحسبه أصيل، وثروته معروفة، خرج به أبوه عند تغلب العدو عليها عام 643 هـ. ولابيه إذ ذاك ثراء وجدة أعانته على طلب العلم وارفاد من احوجته الازمة في ذلك الزمان من جالية العلماء[23].

وان المصادر التي بين ايدينا لا تسعفنا بتاريخ محدد لانتقال ابن الزبير الى غرناطة، هل كان في نفس السنة التي خرج فيها صحبة ابيه سنة 643 هـ ام كان بعد ذلك.

الا اننا نرجح نزوله بها واستقراره فيها بعد خروجه من جيان مباشرة لعدم توفرنا على ما يرد ذلك.

ففي مدينة غرناطة عاش ابن الزبير وترعرع، وفيها اشتهر وبرز، تلك المدينة التي خلبت لب لسان الدين بن الخطيب ففضلها على اهم بلاد الشرق قائلا :

---

(19) الدرر الكامنة 84/1 وفي الاحاطة 192/1 في أواخر عام 627 هـ، وكذا في غاية النهاية لابن الاثير الجزري 32/1 نشر ج. بروجستراس ط، دار الكتاب، بيروت 1980.

(20) الاحاطة 192/1 والوافي بالوفيات 222/6، غاية النهاية 32/1، طبقات الحفاظ للسيوطي ص 513، تحقيق علي محمد عمر ط، 1973/1 بغية الوعاة 291/1، البدر الطالع للشوكاني ص 33، 1/سنة 1948، مطبعة السعادة، درة الحجال لابن القاضي 11/1، تحقيق محمد الاحمدي أبو النور 1970، الديباج المذهب لابن فرحون 188/1، تحقيق محمد الاحمدي أبو النور ط، مكتبة دار التراث القاهرة. طبقات المفسرين 26/1، شجرة النور الزكية لابن مخلوف ص 212، ط، مصورة عن ط، 1 بالمطبعة السلفية بمصر 1349هـ طبقات المالكية مخطوط مجهول المؤلف رقم 3929 د، ص 372، الاعلام 29/1.

(21) الذيل والتكملة 35/1، الدرر الكامنة 84/1، تذكرة الحفاظ للذهبي 1484/4، نسخة مصورة بيروت،فهرس الفهارس 340/1، معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة 138/1. ط، دار احياء التراث العربي بيروت.

(22) الاعلام 29/1، معجم المؤلفين 138/1.

(23) الاحاطة 188/1 — 189.

غرناطة ما لها نظير ما مصر ما الشام ما العراق
ما هي الا العروس تجلى وتلك من جملة الصداق[24]

وقال ايضا في وصفها وقد حفت بالبساتين العريضة والادواح الملتفة :

بلد يحف به الرياض كأنه وجه جميل والرياض عذاره
وكأنما واديه معصم غادة ومن الجسور المحكمات سواره[25]

وفاته :

توفي ابن الزبير بغرناطة عن احدى وثمانين سنة[26] على حال جميل، يوم الثلاثاء ثامن ربيع الاول[27] سنة ثمان وسبعمائة للهجرة (708هـ) الموافق لثمان وثلاثمائة والف للميلاد (1308).[28]

شيوخ ابن الزبير :

ولد ونشأ ابن الزبير في أسرة ميسورة أصيلة في العلم والمشيخة مما أتاح له وسطا مناسبا ليس فقط لطلب العلم وملاقاة الشيوخ بل لما يستلزمه ذلك من تفرغ وجدة، لذا نجده يحرص حرصاً خاصاً على ملاقاة الشيوخ وملازمتهم ويعتني بالرواية ويحفل بالسماع من شيوخها منتقلا الى أماكنهم راحلا من أجلها[29] كما

(24) نفح الطيب 142/1.
(25) الاحاطة 115/1.
(26) في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي 16/6 عن ثمانين سنة. نسخة مصورة عن ط، 1 المكتب التجاري بيروت (دون تاريخ).
(27) البدر الطالع ص 33.
(28) في الديباج المذهب 188/1 توفي عام ثمان وسبعمائة ، وفي معجم المؤلفين 38/1 توفي سنة 708 هـ أو 707هـ.
(29) ذكر ابن الزبير نفسه رحلته إلى حواضر الاندلس وإلى حواضر المغرب ومنها سلا إذ أشار إلى ذلك بقوله عند حديثه عن علي بن عبد الله بن قطرال الانصاري أحد شيوخ عصره : وكنت بسلا أيام كونه بفاس وكنت اتحدث بلقائه والأخذ عنه (صلة الصلة : 139) . وقال عند حديثه عن شيخه أبي الحسن الشاري انه دخل سبتة (صلة الصلة 151) كما أشار الى انتقاله اليه عند إقامته بمالقة في نفس المصدر ص : 153 وقال عنه ابن عبد الملك المراكشي في الذيل والتكملة متسع الرواية عني بها كثيرا ورحل بسببها الى سبتة وإلى كثير من بلاد الاندلس، س 1 ق 1 ص 43،44.

كان يحرص على نيل الاجازات من اصحابها فيعمد إلى مكاتبة العلماء مستجلباً لها لنفسه ولأبنائه من بعده(30) ومن ثم ندرك وتزول الغرابة من كثرة شيوخه الذين بلغوا حوالي الأربعمائة(31). قد وقع التعرف على جملة منهم اذكرهم فيها يلي مرتبين على حروف المعجم :

1 ــ ابراهيم بن محمد بن ابراهيم بن عبيدس النفري(32)

2 ــ ابراهيم بن محمد الكاد ابو اسحاق الحافظ(33) اخذ عنه ابن الزبير كثيرا.

3 ــ أحمد بن ابي محمد القرطبي ابو بكر(34) حميّه،سمع منه وشاركه في بعض شيوخه.

4 ــ أحمد بن الحسن المرادي أبو المجد الحضري(35) اخذ منه الحديث.

5 ــ أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسن بن عميرة المخزومي ابو المطرف اخذ عنه الحديث(36)

6 ــ أحمد بن محمد بن السراح ابو الحسن(37) اخذ عنه الحديث كما روى عنه الموطأ(38)

7 ــ أحمد بن محمد بن العاصي ابو بكر(39) تلا عنه بالسبع(40).

---

(30) الاحاطة 156/3.

(31) شجرة النور الزكية 212 والديباج المذهب 188/1.

(32) الذيل والتكملة س 1 ق 1 /40 والاحاطة 330/1.

(33) ذكره في صلة الصلة 220 والذيل والتكملة س 1 ق 40/1. وتذكرة الحفاظ 1484/4 والوافي بالوفيات 222/6 والدرر الكامنة 84/1 والبدر الطالع 33 ترجمة 20 وفيه الكمال.

(34) الذيل والتكملة س 1 ق 1 ص 40.

(35) الذيل والتكملة س : 1. ق 40/1 و94 والديباج 188/1.

(36) الاحاطة 175/1 والذيل والتكملة سفر 1 قسم 41/1.

(37) ذكره ابن الزبير في صلة الصلة 14 و18 والمراكشي في الذيل والتكملة س 1 ق 41/1 وذكره ابن الخطيب 91/1 وذكر اخذه عنه ايضا في الوافي بالوفيات 22/6 ترجمة 2690 والديباج المذهب 188/1 والدرر الكامنة 84/1 وثبت البلوي 277.

(38) ثبت البلوي ابي جعفر أحمد الوادي آشي ص 277، تحقيق د. عبد الله العمراني ذ، دار الغرب الاسلامي.

(39) في صلة الصلة 124.

(40) في الذيل والتكملة س 1 ق 1 ص : 39.

8 ـــ احمد بن المضرس[41] اخذ عنه القراءة.

9 ـــ أحمد بن يوسف بن فرتون ابو العباس المؤرخ المتوفى سنة 660هـ من أهل مدينة فاس نزل سبتة لقي ابن الزبير اول مرة سنة 649هـ قال عنه ابن الزبير مشيداً به : «كان ذاكراً للرجال والتاريخ ولكثير من متون الأحاديث وقسطا صالحاً من الجرح والتعديل وطبقات الناس توفي سنة 660هـ عن سن عالية تناهز الثمانين.[42]

10 ـــ إسحاق بن عامر الطوسي أبو إبراهيم ذكره ابن الزبير نفسه[43] وهو من مشاهير شيوخه[44] وروى عنه الموطأ[45]

11 ـــ إسماعيل بن يحيى الأزدي أبو الوليد العطار ذكره ابن الزبير[46] كثيرا أخذ عنه القراءات وغير ذلك[47].

من عرف بابن او ابو من شيوخه :

12 ـــ ابن احمد بن الشيخ الفهري، وقد تدبجا وشاركه في طائفة من شيوخه[48]

13 ـــ ابن علي الدهان[49]

14 ـــ ابن محمد بن بالغ[50]

---

(41) غاية النهاية 32/1 ترجمة 132.

(42) مقدمة صلة الصلة (ط ي) والذيل والتكملة سفر 1 قسم 1 ص : 39 والديباج 188/1 والدرر الكامنة 84/1. وطبقات المفسرين 26/1.

(43) في صلة الصلة ص 54 و129.

(44) في الذيل والتكملة س 1 ق 1 ص : 40 وتذكرة الحفاظ 1484/4 والوافي بالوفيات والدرر الكامنة 84/1 والبدر الطالع 33 و20.

(45) وردت في ثبت البلوى : 277.

(46) في صلة الصلة عدة مرات منها 20 و220 وغيرها.

(47) تذكرة الحفاظ 1484/4 والدرر الكامنة 84/1 وغاية النهاية في طبقات القراء 32/1 والبدر الطالع 33.

(48) الذيل والتكملة س 1، ق 1، ص : 40.

(49) المصدر السابق.

(50) المصدر السابق.

15 ــ ابو إسحاق بن محمد بن عبيد الله الاوسي[51] اخذ عنه الحديث وسمع منه[52]

16 ــ أبو بكر بن رشيق تلا بالسبع وأخذ عنه ابن الزبير[53]

17 ــ أبو جعفر ابن عثمان الوراد ذكره ابن عبد الملك المراكشي[54]

18 ــ ابو جعفر ابن محمد بن خلف بن خديجة[55]

19 ــ ابو الحجاج بن محمد المريلي ذكره ابن عبد الملك المراكشي[56]

20 ــ ابو الحسن بن احمد الغزال[57]

21 ــ ابو زكرياء بن عبد الملك الموليي[58]

22 ــ ابو زيد الشريشي العشاب[59]

23 ــ ابو عبد الله بن أحمد السماني اكثر عنه ذكره ابن عبد الملك المراكشي[60]

24 ــ ابو عبد الله ابن احمد بن زكريا الآلشي.[61]

25 ــ ابو عبد الله ابن الحسن بن الزبير قريبه وسمع منه[62]

26 ــ ابو عبد الله ابن عبد الرحمن بن جدير البلنسي[63]

27 ــ الحاج ابو عبد الله ابن عبد الكريم الجرشي[64]

---

(51) صلة الصلة 219.

(52) الذيل والتكملة س 1، ق 1 ص : 39.

(53) صلة الصلة 57.

(54) الذيل والتكملة س 1، ق 1 ص : 40.

(55) المصدر السابق.

(56) المصدر السابق.

(57) المصدر السابق.

(58) المصدر السابق.

(59) المصدر السابق.

(60) المصدر السابق.

(61) المصدر السابق ص : 39

(62) المصدر السابق.

(63) صلة الصلة 88 و57 و112 و215 و216 وتذكرة الحفاظ 1484/4.

(64) صلة الصلة 120 والذيل والتكملة س 1، ق 1، ص : 39.

28 ـ ابو عبد الله ابن يحيى بن محمد العبدري الفاسي سمع منه ابن الزبير[65]

29 ـ ابو عبيد الله الصدفي[66]

30 ـ ابو القاسم ابن محمد بن رحمون[67]

31 ـ ابو محمد بن محمد بن ايوب الجياني وهو قريبه[68]

32 ـ ابو يحيى بن عبد الرحيم[69]

33 ـ ابو يعقوب المحساني الحافظ[70]

34 ـ الحسين بن عبد العزيز بن أبي الأحوص القرشي الفهري، كان متفننا في جملة معارف حافظا للحديث والتفسير وآخر مقرئي القرآن والعربية بغرناطة ثم انتقل الى مالقة[71] روى عنه الجم الغفير، منهم ابن الزبير[72].

35 ـ سعد[73] بن محمد الحفار ابو عثمان[74] اخذ عنه الحديث والقراءة[75].

ولم تتفق له منه اجازة، وذلك لموت الحفار وابن الزبير غائب عن غرناطة رغم قراءته الكثيرة عليه.[76].

---

(65) الذيل والتكملة س 1 ق 1 ص : 39.

(66) صلة الصلة 123.

(67) صلة الصلة 123 والذيل والتكملة س 1، ق 1، ص : 40.

(68) الذيل والتكملة س 1 ق 1، ص 40.

(69) صلة الصلة 8 و112.

(70) الذيل والتكملة س 1، ق 1، ص : 40 والوافي بالوفيات 222/6.

(71) الاحاطة 664/1.

(72) درة الحجال 11/1 وكذا المرقبة العليا : 127.

(73) وفي تذكرة الحفاظ «سعيد» 1484/4.

(74) في صلة الصلة ص 122 «أبو عثمان» حيث قال عنه بعد حديثه عن أبي الحسن علي ابن أحمد المحاربي الحاج «وحدث عنه من شيوخنا أبو عثمان سعد ابن محمد الحفار وهو آخر من سمعه على الحاج المذكور.» وفي شجرة النور الزكية أبو الحسن الحفار 212 ترجمة 741.

(75) الذيل والتكملة س 1 ق 1، ص : 40 وتذكرة الحفاظ 1484/4 والوافي بالوفيات 222/6.

(76) الذيل والتكملة س 1 ق 1 ص : 40.

36 ـــ عبد الرحمان بن عبد المنعم بن الفرس ابو يحيى الوزير ذكره ابن الزبير[77] وقال : «هو اول من قصدته في طلب الحديث»[78].

37 ـــ عبد العظيم بن عبد الله بن يوسف البلوي ابو محمد ويعرف بابن الشيخ. قال ابن الزبير : «كان رحمه الله ورضي عنه يقرىء الفقه وأصول الفقه، ويعتمد في الأكثر قراءة مستصفى ابي حامد وجواهر ابن شاش، وكان له بهذين الكتابين اعتناء كبير، وفيهما تصرف لتحويله عليهما ودؤوبه على تدريسهما، وكان مسدد النظر جليلا في دينه صحبته رحمه الله لمدة ثلاثة اعوام، واخذت عنه مسائل من مستصفى ابي حامد مما كان له فيه اختيار او مفهوم ما، وقرأت عليه اشياء خلال تلك المدة من الاصول وغيرها. تـ 666هـ»[79].

38 ـــ عبد الله بن احمد بن محمد بن عطية القيسي[80].

39 ـــ عبد الله بن سليمان بن داود بن عبد الرحمن بن حوط الله الحارثي الازدي ابو عمر[81].

40 ـــ عبد الله بن يحيى بن ربيع ابو القاسم[82] روى عنه ابن الزبير الموطأ[83].

---

(77) صلة الصلة : 20.

(78) الذيل والتكملة عن برنامج ابن الزبير س 1 ق 1 ص 40. وانظر : الوافي بالوفيات 222/6، والديباج 188/1، وبغية الوعاة 291/1.

(79) ترجم له ابن الزبير في صلة الصلة : 35، وذكره المراكشي في الذيل والتكملة في جملة شيوخه س 1 ق 1 ص 40.

(80) ذكره ابن الزبير في صلة الصلة في ص : 6، 8، 20، 51، 112. وذكر البلوي في «الثبت» ص : 277 ان ابن الزبير روى عنه الموطأ. كما ذكر في شجرة النور الزكية ص : 212 في اشياخه.

(81) صلة الصلة ص : 11، 20، 57، 110. والذيل والتكملة س 1 ق 1 ص : 41. والديباج 188/1، وشجرة النور الزكية : 212

(82) الذيل والتكملة س 1 ق 1 ص : 40.

(83) ثبت البلوى الوادي آشي : 276.

41 ــ عبد المنعم بن سالم بن سماك العاملي ولد سنة 613 وتوفي سنة 703 هـ. حدث عنه ابن الزبير كما استجازه لنفسه ولأولاده فأجازه وسمع عنه أولاد ابن الزبير: ابراهيم والزبير(84)

42 ــ عثمان بن محمد بن الحاج ابو عمرو(85)

43 ــ علي بن عبد الله الغافقي المعروف بأبي الحسن الشاري وهو من اهـل سبتــة.

قال عنه ابن الزبير : «دخل الاندلس سنة 641 هـ فنزل «المرية» وأقرأ بها القرآن وكتب الي منها اجازة ما رواه(86) ورحلت اليه فسمعت منه وقرأت كثيرا وتلوت عليه الكتاب العزيز واقبلت اليه من حضرة غرناطة مرارا الى ان ادركته وفاته سنة 649 هـ. ثم قال عنه ايضا : وكان يجلس لنا بمالقة نهاره كله الا القليل، وكنا نتلو عليه الكتاب العزيز ليلا لاستغراق نهاره فيما ذكره(87) وسبب قدوم ابي الحسن الى الاندلس كان لتغريب امير سبتة له والى هذا اشار ابن الزبير بقوله : وقرأت اذ ذاك عليه وكان يروم من مالقة الرجوع الى بلده ويحوم عليه فلم يقض له ذلك، وأقام بها يؤخذ عنه العلم الى ان أتته منيته(88) واخذ عنه الحديث وتلا عليه بالسبع(89). وروى عنه أيضاً الموطأ(90) والبخاري(91) وأجازه إجازة عامة، وفاز برواية النسائي عنه والتي لم يكن بين أبي الحسن وصاحبها غير ستة انفس.

44 ــ علي بن محمد بن علي بن يوسف الكتامي المعروف بابن الصنائع(92) قال عنه ابن الزبير بلغ الغاية في الفن النحوي... واما فن العربية وعلم

(84) ذكر ذلك ابن الزبير في صلة الصلة ص : 23.

(85) الذيل والتكملة. س 1، ق 1 ص : 40.

(86) صلة الصلة ص : 151.

(87) نفس المصدر ص : 153.

(88) نفس المصدر ص : 31، 116، 120، 123.

(89) الذيل والتكملة س 1 ق 1 ص : 39، والاحاطة 189/4، والوافي بالوفيات 222/6 والدرر الكامنة 84/1، وغاية النهاية في طبقات القراء 132/1.

(90) ثبت البلوي الوادي آشي ص : 276.

(91) المصدر السابق ص : 272.

(92) الاحاطة 121/1 ــ 122.

الكلام فلم يكن في وقته من يقاربه في هذين العلمين، واما فهمه وتصرفه في كتاب سيبويه فلا أراه سبقه في ذلك أحد... ثم قال عن أخذه عنه : لازمته وأخذت عنه كتاب سيبويه في عدة سنين واكثر كتاب الايضاح، وجمل الزجاجي الى غير ذلك، وجمع التلقيحات للسهروردي وطائفة كبيرة من ارشاد أبي المعالي، ومن كتاب الاربعين، لابن الخطيب وغير ذلك(93)

45 ــ عيسى بن سليمان الرعيني أبو محمد قال عنه ابن الزبير، ممن أخذنا عنه وكان ضابطا لما رواه مقيدا متقنا عارفا بالرجال والاسانيد نقادا، ثم قال : الف كتابا في الصحابة وألف معجم أشياخه وجلب كتبا كثيرة مما لم يكن وصل المغرب ولا دخل الأندلس وكان قدومه آخر سنة 631 هـ توفي سنة 632هـ(94) ويعرف بالرندي اذ أصله من رندة وسكن مالقة رحل الى المشرق واقام مدة تزيد عن العشرين عاما ثم انتقل الى الاندلس.

46 ــ محمد بن عبيد الله أبو عبد الله الأزدي القاضي(95) روى عنه الموطأ وحديث الماهر بالقراءة(96).

47 ــ محمد بن عياض بن موسى ابو عبد الله اليحصبي قال عنه ابن الزبير، اجاز لي مرتين اثنتين. وقال حدثني ابو عبد الله مشافهة(97)

48 ــ محمد بن عيسى بن هلال ابو عبد الله. وهو من مالقة ذكره ابن الزبير نفسه(98)

49 ــ محمد بن محمد بن لب الكناني، قال عنه ابن الزبير وكانت فيه لوثه واخشيشان وكان له ارب في التطواف وخصوصا بارض النصارى يتكلم مع

(93) الاحاطة 121/1، 122

(94) صلة الصلة 51 وما بعدها.

(95) ذكره ابن الزبير نفسه في صلة الصلة 31 و120 و20 وفي الذيل والتكملة س 1 ق 40/1 وفي الوافي بالوفيات 222/6.

(96) ثبت البلوي الوادي آشي 276.

(97) فهرس الفهارس والاثبات 108/1.

(98) صلة الصلة 220 والذيل والتكملة س 1 ق 1 ص : 41.

الاساقفة في الدين فيظهر عليهم وكانت أُموره غريبة من امتزاج اليقظة بالغفلة وخلط السذاجة بالدعابة وقال عنه ايضا :

وعرض لي في مالقة يرجع بعضها الى الطريقة البيانية والمآخذ الأدبية والمآخذ الدينية وصحت ضرورة الى الاخذ معه فيها وفي آيات من الكتاب العزيز فاستدعيته الى منزلي وكان فيه تخلق وحسن ملاقاة مع خفته الطبيعية وتشتت منازعه فاجاب واخذت معه في كل ذلك فألفيته صائما عن ذلك جملة[99].

50 ــ محمد بن مسمغور ابو عبد الله[100] قال ابن الزبير عنه، هو اول من قصدته بغرناطة من أهلها وفتحت عليه كتاب متعلم.[101]

51 ــ محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان (صاحب البحر المحيط) اخذ عن الاستاذ ابن الزبير استدركه الحافظ بن حجر في ذيله على طبقات الحفاظ[102]

52 ــ محمد بن يوسف الطنجالي اخذ عنه وشاركه في بعض شيوخه[103]

53 ــ مالك بن عبد الرحمن بن سعد بن سالم بن الفرج[104] قال عنه ابن الزبير : شاعر مطبوع متقدم سريع البديهة رشيق الاغراض تحرف مدة بضاعة التوثيق ببلده وولى القضاء مرات بجهات غرناطة وغيرها. وكان حسن الكتابة اذا كتب والشعر أغلب عليه، ثم قال تكرر قدومه علينا بغرناطة وآخر انفصالاته عنها اخر سنة اربع وسبعين وستمائة[105]

54 ــ محمد بن ابراهيم بن مستقور الغرناطي الطائي ابو عبد الله[106] وهو من أشهر من أخذ عنهم. وأول من قصده بغرناطة وفتح عليه كتاب متعلم.

---

(99) الاحاطة 3/80 ــ 81.

(100) الذيل والتكملة س1 ق2 / 39

(101) المصدر السابق

(102) صلة الصلة 132 والاحاطة 2 /228ــ229

(103) الذيل والتكملة س1 ق1 /39 ودرة الحجال 1 /11.

(104) الاحاطة 3 /304

(105) الاحاطة 3/363

(106) الاحاطة 1/189.

55 ــ محمد بن ابراهيم بن موسى بن علي ابو القاسم الجياني[107] أخذ عنه الحديث كما روى عنه الموطأ[108].

56 ــ محمد بن احمد بن ابي القاسم السماني الشريشي المقري المسن ذكره ابن الزبير نفسه فقال حدثني من شيوخي ابو عبد الله محمد[109].

57 ــ محمد بن احمد بن خليل ابو الخطاب السكوني الكاتب من اشهر اساتذة ابن الزبير قال عنه:وكان شيخنا القاضي العالم الجليل ابو الخطاب بن خليل[110].

58 ــ محمد بن سعيد الطراز ابو عبد الله[111]

59 ــ محمد بن عبد الرحمن بن جوبر[112] سمع منه التيسير عن أبي حمزة عن أبيه عن الداني بالاجازة وهذا سند في غاية الحسن والعلو[113].

60 ــ محمد بن عبد الوهاب ابو سعد[114] سمع منه الحديث.

61 ــ يحيى بن عبد الملك بن يحيى بن ابي الغصن اللخمي ابو زكرياء من أهل مولة وسكن مرسية، رحل الى المشرق وحج ولقي في رحلته جملة واخذ عنهم وأجازوه مثل ابي محمد يونس بن ابي البركات الهاشمي، وابي الفتوح نصر بن أبي الفرج بن علي الحصري امام الحنابلة، وابي بكر بن حزب الله القفصي، وابي الحسن علي بن محمد بن الحصار الخزرجي[116] قال ابن الزبير مشيدا بشيخه هذا. «كان لهذا الشيخ اعتناء بالحديث ولقاء اهله وكان من اهل السنة والفضل «وقال

---

(107) الاحاطة 3 /91 وثبت البلوي الوادي آشي 277
(108) المصدر الاخير السابق والذيل والتكملة س1 ق1 ص : 40
(109) صلة الصلة. 169.
(110) الذيل والتكملة س1 ق1 / 40 الاحاطة 3 /472 وايضا 3 /91 والوافي بالوفيات 6 /22 والديباج 1 /188 والدر الكامنة 1 /84 وبغية الدعاة 1 /291 وطبقات الداودي 1 /26 والبدر الطالع 33 وشجرة النور 212.
(111) صلة الصلة 227
(112) صلة الصلة. 207 وشجرة النور الزكية 212 ترجمة 741.
(113) صلة الصلة 58 وغاية النهاية 1 /32 ترجمة 132 والذيل والتكملة س1 ق1 ص : 39
(114) المصدر الاول السابق. صلة الصلة 58
(115) المصدر السابق ص : 40
(116) صلة الصلة 198ــ200 وتذكرة الحفاظ 4 /1484 ترجمة : 1169 والوافي بالوفيات 6 /222 ترجمة 2690.

عن لقائه به وأخذه عنه : «لقيته بمرسية أعادها الله — وقرأت عليه غير شيء وأجاز واستحسنت اعتناءه..» توفي سنة 659هـ. وكان مولده 575 هـ[117]

62 — يحيى بن احمد بن عبد الرحمن بن ظافر بن ابراهيم بن أحمد المرادي ابو بكر يعرف بابن المرابط من اهل اريولة واعيانها[118] قال عنه ابن الزبير... «كان الشيخ رحمه الله من جلة من اخذنا عنه عدالة وفضلا وتمسكا بالسنة عقدا وفعلا كاتبا جليلا اديبا بارعا ومتورعا سريا، ولي بعد خروجه من بلده قضاء وادي آش ثم قضاء مالقة فاحسن السيرة وتظاهر من العدل ما يلائم علمه ودينه وأعز الخطة والصنف العلمي فكان ممن ختم به قضاة العدل بالاندلس فلم يُربها بعده مثله رضي الله عنه، ثم قال عن اخذه عنه، روى عنه جلة من اصحابنا وكتب لي بالاجازة ثم لقيته وشافهني بها ورأيت منه رجلا عظيما من أفضل من لقيت، توفي عفا الله عنه في محرم سنة 658 بمالقة ومولده سنة 582.[119].

63 — يوسف بن ابي ريحانة المالقي[120].

إجازة ابن الزبير من أقطار مختلفة

عرف ابن الزبير بحرصه الشديد على لقاء الشيوخ واستجازتهم، ولهذا كان يكاتب العلماء، فيروي عنهم بالمكاتبة، ويستجيزهم لنفسه ولأبنائه[121] سواء بالأندلس أو بغيرها من الأقطار. نذكر فيما يلي طائفة ممن كاتبهم وأجازوه :

— من بجاية كتب إليه :

64 — أبو بكر بن محمد بن محرز[122].

(117) صلة الصلة : ص 200.

(118) صلة الصلة 197—198. وهكذا ورد نسبه فيها، وفي ص : 129 ابو بكر بن المرابط اما في الوافي بالوفيات 6 /222 فهو ابو زكريا وكذلك في الذيل والتكملة س1 ق1 ص : 40.

(119) صلة الصلة : 198.

(120) صلة الصلة : 58، ودرة الحجال : 1 /11.

(121) الاحاطة. 1 /156

(122) الذيل والتكملة س1 ق1 ص : 41 وذكره ابن الزبير في صلة الصلة في ص : 169، 215.

65 ــ أحمد بن محمد بن سراج بن عباس أبو الحسن[123].

66 ــ أبو المطرف بن عميرة[124].

67 ــ محمد بن أحمد بن سيد الناس أبو بكر[125].

68 ــ يحيى بن عباس بن أحمد بن أيوب بن محمد بن خليفة القيسي أبو زكرياء[126]. قال عنه ابن الزبير : «كتب إلي من بجاية مرتين بإجازة عامة ما رواه. وتاريخ كتبه الثاني تاسع شهر ربيع الأول سنة 649 هـ[127] وأصله من قسطنطينية رحل إلى الأندلس سنة 608 ثم عاد إلى بلده[128].

ــ ومن سبتة :

69 ــ أبو بكر بن محمد بن مشليون[129].

70 ــ أبو العباس بن محمد البطيط[130].

ــ ومن قوص:

71 ــ أبو الحسن علي بن زيد بن مطيع القشيري المالكي بن دقيق العيد[131]

ومن مالقة :

72 ــ أبو عبد الله بن عيسى بن هلال.

من كتبوا إليه وأجازوه من مصر :

73 ــ أحمد بن حامد بن أحمد بن محمد الارتاجي قال عنه ابن الزبير أراه ابن أخي الراوية مجود الخط[132].

(123) الذيل والتكملة س 1 ق 1، : 41

(124) المصدر السابق.

(125) المصدر السابق.

(126) صلة الصلة 202 حيث ترجم له.

(127) المصدر السابق.

(128) المصدر السابق.

(129) الذيل والتكملة س1 ق1 ص 41 وفي صلة الصلة (غشليون)

(130) المصدر السابق.

(131) المصدر السابق.

(132) الذيل والتكملة س1، ق1، ص : 41

74 ــ أحمد بن محمد بن مزين القرطبي أبو العباس ضياء الدين(133).

75 ــ اسماعيل بن عبد القوي بن أبي العز بن داود بن غرون الأنصاري(134).

76 ــ الحسين بن علي بن أبي الفرج بن عبد الرحمن بن علي الجوزي (أبو علي)(135).

77 ــ عبد الرحمن بن أبي محمد مكي بن سلمة البخاري الشافعي(136).

78 ــ عبد الغني بن سليمان بن بنين بن خلف أبو القاسم الشافعي(137).

79 ــ عبد المجيد بن علي الانصاري بن الزبير أبو محمد(138).

80 ــ عبد الهادي بن عبد الكريم بن علي بن عيسى بن تميم القيسي المضري(139).

81 ــ عثمان بن عبد الرحمن بن عتيق بن حسين بن رشيق الربعي(140).

82 ــ عز الدين بن عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم السلمي أبو محمد(141).

83 ــ عيسى بن سليمان بن رمضان بن أبي الكرم الشافعي(142).

84 ــ محمد بن البغدادي(143).

85 ــ محمد بن عبد الدايم أبو المكارم(144).

---

(133) المصدر السابق

(134) المصدر السابق

(135) المصدر السابق

(136) المصدر السابق ص : 42

(137) المصدر السابق

(138) المصدر السابق

(139) المصدر السابق

(140) المصدر السابق

(141) المصدر السابق.

(142) المصدر السابق.

(143) المصدر السابق

(144) المصدر السابق.

86 ــ نجيب الدين بن عبد اللطيف بن عبد المنعم بن هبة الله الحراني أبو محمد[145]

وكتب إليه من مكة :

87 ــ ابراهيم رضى الدين بن عمر بن مضر بن فارس الواسطي أبو اسحاق[146].

88 ــ اسحاق بن أبي بكر بن محمد بن ابراهيم الطبري[147].

89 ــ جمال الدين بن أبي بكر بن محمد بن ابراهيم أبو يعقوب أخ السابق الذكر[148].

90 ــ عبد الصمد وابراهيم ومحمد ثلاثة أسماء وغلبت عليه كنية وهي أبو اليمن بن عساكر[149] وتتمة نسبه : ابن أبي الحسن عبد الوهاب بن عساكر

91 ــ محمد أبو عبد الله امام المالكية بالحرم الشريف ضياء الدين ابن إمام المالكية بن علي بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن الحسن القسطلاني[150].

92 ــ محمد جمال الدين أبو عبد الله بن يوسف بن مسدي الغرناطي[151].

ومن غيرها من بلاد المشرق كتب إليه :

93 ــ أبو بكر بن علي بن مكارم بن فتيان الانصاري الدمشقي الشافعي[152].

---

(145) المصدر السابق.

(146) الذيل والتكملة س1، ق1، ص : 42

(147) المصدر السابق.

(148) المصدر السابق.

(149) المصدر السابق بغية الوعاة 1 /291 وطبقات المفسرين 1 /29

(150) الذيل والتكملة س1 ق1 ص : 42

(151) المصدر السابق

(152) المصدر السابق

94 ــ وكمال الدين علي بن شجاع بن سالم القرشي العباسي أبو الحسن الضرير[153] وكتب عنه باذنه : عبد القوي بن عطايا بن عبد القوي بن عطايا القرشي، وعيسى بن مظفر بن عبد الله العباسي، ومحمد بن ابراهيم بن عبد الواحد المقدسي مدرس الحنابلة، ومحمود الدمشقي، وغيرهم يزيدون عن المائة، قال عنهم بن الزبير : «وقد استوفيت ذكرهم في جزء مشيختي»[154].

قال ابن عبد الملك المراكشي : «كذا قال ــ أي ابن الزبير ــ ولم أقف عليه، وإنما استخرجت هؤلاء المذكورين هنا من برنامج رواياته التي بعث بها إلي محملا لي ولبني اياه»[155].

وممن لم يجزه من شيوخه :

ــ أبو الحسن الحفار، وأبو جعفر بن خلف (ابن خديجة)، قال ابن الزبير : «أما الحفار فلم تتفق اجازته مع كثرة قراءتي عليه لموته، وأنا غائب عن غرناطة. واما الأستاذ ابو جعفر فلازمته ولم تتفق منه اجازة.

ــ أبو زيد العشاب، وابو عبد الله العبدري الصوفي. لم يجيزاه أيضا رغم انه روى الاربعين للسلفي عن الأول، وتعقب الثاني في أصول الفقه والعربية، وذلك راجع إلى ان العشاب لم يجزه، وان العبدري لم يكن يقول بالاجازة[156].

مكانتـه العلميـة

كان الأستاذ ابن الزبير من صدور العلماء المقرئين، حافظا، مؤرخا، وكان خاتمة المحدثين، وإليه انتهت الرئاسة بالأندلس في العربية والتفسير والأصول، وتجويد القرآن ورواية الحديث.[157]

---

(153) المصدر السابق وغاية النهاية 1 /32 وثبت البلوي الوادي آشي ص : 414.
(154) الذيل والتكملة س1 ق1 ص : 42 ونهاية النهاية 1 /32 وثبت البلوى ص : 414.
(155) نفس الذيل والتكملة.
(156) نفس الذيل والتكملة.
(157) الاحاطة 1 /189. فهرس الفهارس 1 /340، الاعلام 1 /29.

بل هناك من يعده آخر من بلغ مرتبة الإجتهاد في الأندلس، يقول الشيخ عبد الرحمن بن ادريس المنجرة في فهرسته : «أحمد بن إبراهيم بن الزبير شيخ أبي حيان وابن جزي هو آخر من بلغ مرتبة المجتهدين بالأندلس».(158)

ويوضح لنا ابن الخطيب مكانته العلمية فيقول : «كان خاتمة المحدثين، وصدور العلماء والمقرئين، نسيج وحده في حسن التعلم والصبر على التسميع والملازمة للتدريس، لم تختل له مع تخطي الثمانين، ولا لحقته سآمة»(159). وهو الذي انتهت إليه الرئاسة بالأندلس في صناعة العربية والتجويد ورواية الحديث إلى المشاركة في الفقه، والقيام على التفسير والخوض في الأصلين»(160).

لقد كان ابن الزبير طرازا فريدا في تعليم العربية وتدريس الفقه والمثابرة على افادة العلم ونشره. يقول ابن عبد الملك المراكشي شاهد عصره : «وهو الآن متصدر لاقراء كتاب الله تعالى، واسماع الحديث، وتعليم العربية، وتدريس الفقه، عامرا بذلك عامة نهاره، عاكفا عليه، مثابرا على افادة العلم ونشره، انفرد بذلك في بلده قاعدة جزيرة الاندلس وصارت الرحلة إليه».(161)

بل إنه بلغ من الشهرة والاشادة بذكره ما لم يبلغه سواه كما يقول لسان الدين ابن الخطيب(162) «فارتحل إلى بابه العلماء لسعة معارفه»(163)«وتخرج به جماعة، وبه أبقى الله ما بأيدي الطلبة من العربية وغيرها».(164).

إن انحدار ابن الزبير من أسرة ذات حسب أصيل، وثروة معروفة، قد أعانته على طلب العلم(165)، والتفنن في علوم كثيرة واتقانها ثم التأليف فيها، والتفرغ

(158) تسمى فهرسته «الاسناد الشفيع يوم التناد» ص 16أ، 17 ب مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم : 2285.
(159) الاحاطة 1 /189 والديباج المذهب 1 /188.
(160) الاحاطة 1 /189.
(161) الذيل والتكملة 1 /43.
(162) الاحاطة : 1 /189.
(163) الوافي بالوفيات 291/1.
(164) بغية الوعاة 1 /291.
(165) الاحاطة 1 /188

لتدريسها، حتى نال بذلك مرتبة الأستاذية. فقد «روى عنه جماعة من أهل بلده وطائفة من الراحلين إليه من أقطار الأندلس وغيرها»[166]، وتفقه عليه خلق.... وانفرد بالافادة ونشر العلم»[167].

لقد كان ابن الزبير — كما قال عنه تلميذه أبو حيان — «أفصح عالم رأيته، واشفقه على خلق الله تعالى»[168] كما «كان معظّما عند الخاصة والعامة حَسن التعليم ناصحا»[169].

واذا تتبعنا المصادر التي بين أيدينا عن مكانة ابن الزبير العلمية فاننا نجدها قد أجمعت على سعة معارفه، «حتى بلغ من الشهرة والاشادة بذكره ما لم يبلغه سواه»[170] فقد انتهت إليه الرئاسة في بعض العلوم، والمشاركة في بعضها الآخر، فهو كما وصفه عمر رضا كحالة : «محدث، ناقد، نحوي، أصولي، أديب، مقرئ، مفسر، مؤرخ»[171].

وسنبين فيما يلي جوانب من مكانته العلمية باستعراضنا للعلوم والفنون التي برز أو شارك فيها :

— علوم القرآن والتفسير :

لقد كان ابن الزبير من أكبر الدارسين للقرآن وتفسيره وعلومه وبه خُتم علم القرآن بالأندلس وسائر المغرب في عصره.ه ،

قال تلميذه ابن جزي «ثم خُتم علم القرآن بالأندلس وسائر المغرب بشيخنا الاستاذ أبو جعفر بن الزبير، فقد قطع عمره في خدمة القرآن وآتاه الله بسطة في علمه، وقوة في فهمه، وله فيه تحقيق، ونظر دقيق».[172]

---

(166) الذيل والتكملة 1 /43.
(167) البدر الطالع 1 /33
(168) الوافي بالوفيات 6 /222
(169) الدرر الكامنة 85/1.
(170) الاحاطة 1 /189.
(171) معجم المؤلفين 1 /138
(172) كتاب التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الكلبي 10/1 ط، 1973/2 «دار الكتاب العربي» بيروت.

وقال تلميذه الآخر أبو حيان : «فما كان في كتابي هذا من تفسير الزمخشري رحمه الله تعالى فأخبرني به أستاذنا العلامة أبو جعفر أحمد بن ابراهيم بن الزبير قراءة مني عليه فيه، واجازة أيام كنت أبحث معه في كتاب سيبويه».(173)

وقد نقل عنه كثيرا في تفسيره (البحر المحيط) مما يتعلق بمناسبات السور بعضها ببعض — كما سنبين فيما بعد — من ذلك ما ذكره عند تعرضه لمناسبة سورة الفاتحة للبقرة حيث قال : «وسمعت الأستاذ أبا جعفر ابراهيم بن الزبير شيخنا يقول : ذلك إشارة إلى الصراط كأنهم لما سألوا الهداية إلى الصراط المستقيم قيل لهم ذلك الصراط الذي سألتم الهداية إليه هو هذا الكتاب» وبهذا الذي ذكره الأستاذ تبين وجه ارتباط سورة البقرة بسورة الحمد»(174) وهذا القول اولى لأنه اشارة إلى شيء سبق ذكره لا إلى شيء لم يجر ذكره(175).

وابن الزبير أيضا «من أهل التجويد والاتقان عارف بالقراءات»(176) إليه «انتهت الرياسة في صناعة العربية وتجويد القرآن».(177)

ولا أدل على تبحره في علم التفسير واجادته وتفننه في مسائله وغوصه في لجج درره من كتابيه البرهان في ترتيب سور القرآن — موضوع بحثنا — و«ملاك التأويل»(178) الذي يعد من أجل الأعمال المقدمة لخدمة القرآن الكريم، حيث بسط فيه تفسير متشابه القرآن، «ووجه ما تكرر من آياته لفظا أو اختلف بتقديم أو تأخير وبعض زيادة في التعبير فعسر..» الذي تابع فيه الخطيب الاسكافي(180)

(173) البحر المحيط 1 /8 ط1. سنة 1328هـ مطبعة السعادة بمصر.

(174) سياتي بيان ذلك مفصلا في التناسي.

(175) البحر المحيط 1 /36.

(176) الذيل والتكملة 1 /43

(177) الاحاطة 1 /189 والديباج المذهب 1 /188.

(178) قام بتحقيقه واخراجه الى النور الاستاذ سعيد الفلاح الذي نال به رسالة الدكتوراه الحلقة الثالثة بالكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين. طبعة دار الغرب الاسلامي سنة 1983.

(179) ملاك التأويل. 1 /145—146

(180) المصدر السابق 1 /146

في «درة التنزيل وغرة التأويل» فاستدرك عليه ما أغفله من الآيات المتشابهات[181] برفع تلك الاشكالات وإبداء المعاني الخفيات القاطعة بدرب البطالات...[182] وقد استجرت تلك الآيات جملة وافرة من المقفلات من مثال تلك المشكلات، مما يجاري ويشبه ويلتبس على من قصر في النظر ويشتبه، مما لم يقع في كتاب «درة التنزيل» ولا تعرض له بذكر بنص التنزيل ولا تاويل فنبهنا إلى ذلك لينحاز من المجتمع على ذكره ويفصل».[183] وقد احال ابن الزبير عدة مرات في كتابه «البرهان في ترتيب سور القرآن» على ملاك التأويل الذي كان ينعته بالتفسير.

والواقع ان كتاب «ملاك التأويل» الذي تناول فيه متشابه القرآن بالتفسير والبيان وكتاب البرهان في ترتيب سور القرآن الذي بين فيه وجه التناسب في ترتيب سور القرآن ليؤكد لنا انه قد أوتي حظا وافرا في علمي التفسير والقراءات اللذين كان له فيهما تحقيق ونظر دقيق كما قال ابن جزي الكلبي[184].

2 ــ الحديث وعلومه :

حفظ الحديث وروايته من أجل العلوم واشرفها ولا يستطيعه غير الحافظ المتقن الثقة الضابط العدل وقد اعتنى به الأندلسيون وعظموا حملته منذ عودة بقي ابن مخلد من رحلته من المشرق الذي به وبابن وضاح صارت الأندلس دار حديث، وبالاصيلي والباجي ــ اللذين تدارك الله بهما ديار الأندلس ــ تجددت الروايات واستحكم هذا الفن بأرضها وتأصل.

وبابن الزبير «شيخ المحدثين في عصره» ختم هذا الفن بالأندلس فقد «كان خاتمة المحدثين وصدور العلماء والمقرئين نسيج وحده في حسن التعليم والصبر على التسميع والملازمة للتدريس».[185]

---

(181) (4) المصدر السابق 147/1.
(182) المصدر السابق 1 /147
(183) المصدر السابق 1 /147
(184) التسهيل لعلوم التنزيل : 1 /10.
(185) الديباج المذهب 1 (188) وطبقات المالكية ص 372 مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 3928د.

قال عنه الحافظ ابن نصر : «كان حافظا علامة أستاذ القراء وشيخ الاسناد عني بالحديث ونظر في الرجال».[186]

فقد «تفرد ابن الزبير بالسنن الكبرى للنسائي عن ابي الحسن الشاري بينه وبين المؤلف ستة انفس»[187] وهو ثقة عمدة محدث الأندلس بل حافظ ومحدث الأندلس وسائر المغرب».[188] كانت إليه الرحلة من اقطارهما للأخذ عنه. فعليه «تخرج علامة عصره في الحديث والقراءة أبو حيان[189] «وكان عمدة» أبي البركات ابن الحاج البلفيقي في الرواية والحديث وبقي يروي عنه بعد سماعه منه نحو السبعين سنة 771 هـ.

كما روى عنه الموطأ كل من : جلال الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أمين الاقشهري، وشمس الدين أبو عبد الله محمد بن جابر الوادي آشي، وأبو عمر عز الدين عبد العزيز بن أبي عبد الله بن جماعة.[190]

وروى عنه حديث الماهر بالقرآن : كل من ابي عبد الله محمد بن يوسف اللوشي الراوية الخطيب «وهو آخر من روى عنه في الدنيا سماعا».[191]

وابي جعفر أحمد بن محمد الهاشمي الطنجالي[192] وابي القاسم سلمون بن علي بن سلمون الكناني الذي لازمه بغرناطة وانتفع به رواية ودراية.[193] وغير هؤلاء كثيرون جدا.

---

(186) طبقات الحفاظ : 513.
(187) شذرات الذهب 6 /16، وفهرس الفهارس والاثبات 1 /340
(188) الدرر الكامنة 1 /84 وفهرس الفهارس 1 /341
(189) الدرر الكامنة 1 /84.
(190) ثبت أبي جعفر احمد بن علي البلوي الوادي آشي ص 276 تحقيق د : عبد الله العمراني.
(191) غاية النهاية في طبقات القراء 1 /32 وثبت البلوى ص 171.
(192) نفس المصدر السابق ص 171.
(193) الاحاطة 3 /202

3 ــ علم العربية والنحو :

ــ يعتبر ابن الزبير علماً من أعلام عصره في العربية وعلومها وصدراً من صدورها انتهت إليه الرياسة في صناعتها[194] مقصوداً للأخذ عنه فيها متصدراً لتلقينها وتدريسها، فهو أستاذ الجيل في النحو والعربية مدة طويلة بغرناطة ومالقة وبغيرهما قال عنه تلميذه أبو حيان : «خرج من مالقة ومن طلبته أربعة يقرأون كتاب سيبويه، وبه أبقى الله ما بأيدي الطلبة من العربية وغيرها».[195]

وقال أيضاً موضحاً جوانب من أخذه عنه في مجالي العربية والنحو : (...الوجه الثاني معرفة الأحكام التي لكلم العربية من جهة أفرادها ومن جهة تركيبها، ويوخذ ذلك من علم النحو..... وقد أخذت هذا الفن عن أستاذنا الأوحد العلامة أبي جعفر أحمد بن ابراهيم بن الزبير الثقفي في كتاب سيبويه وغيره. والوجه الثالث كون اللفظ والتركيب أحسن وأفصح، ويؤخذ ذلك من علم البيان والبديع..... وقد أخذت جملة من هذا الفن عن أستاذنا أبي جعفر بن الزبير رحمه الله»[196] وقال أيضاً : «كان يحرر العربية ويعلمني المنطق... يعني النطق... له اليد الطولى في علم الحديث والقراءة والعربية.... أحكم العربية وأقرأها مدة طويلة».[197]

ولتقدمه في علوم العربية والنحو فقد اكتض مجلسه بالطلبة وشد إليه الركاب ومن الذين قصدوه فيهما عبد الله بن عبد البر بن سليمان الرعيني الذي رحل إليه من بلده ارجدونة فلازمه وانتفع به آخذاً عنه الكتاب العزيز والعربية....»[198]

---

(194) الديباج المذهب 1 /188 ــ والاحاطة 1 /189.

(195) بغية الوعاة 1 /299 ــ وطبقات المفسرين 1 /26.

(196) البحر المحيط 1 /4

(197) الوافي بالوفيات 6 /222.

(198) الاحاطة 3 /459.

ومن الآخذين عنه في العربية والنحو ابن جزي الكلبي[199] وغيره كثير[200]. إليه انتهت الرياسة في صناعة العربية[201]، ولم يقتصر ابن الزبير على تدريس العربية والنحو ولكن كانت له فيهما مشاركة واضحة بالتأليف، وعليه كان اعتماد أبو حيان في تفسيره كما سبقت اليه الاشارة؛ كما أنه صنف تعليقاً على كتاب سبويه[202].

4 ـــ الفقه والأصول :

كان ابن الزبير عالماً متفنناً على طريقة القدماء في الموسوعية العلمية متقناً لعدة علوم مجيدا لأغلبها ومنها علمي الفقه والأصول اللذين كان يقوم بتدريسهما بمسجد غرناطة العامر وبمالقة وألمرية[203] وغيرها من مراكز العلم التي الجأته إليها أوضاع الأندلس المتقلبة. قال ابن الخطيب موضحاً مكانته العلمية ومشاركته القوية... «انتهت إليه الرياسة في الأندلس في صناعة العربية وتجويد القرآن ورواية الحديث إلى المشاركة في الفقه والقيام على التفسير والخوض في الأصليين.[204]

وقال أبو حيان : «وكان ورعاً عاقلاً له اليد الطولى في علم الحديث والقراءات والعربية ومشاركة في أصول الفقه صنف فيه وفي علم الكلام والفقه[205] وله كتب كثيرة وأمهات».[206]

(199) الاحاطة 3 /21.
(200) تذكرة الحفاظ 4 /1484
(201) الاحاطة 1 /189
(202) بغية الوعاة 1 /291
(203) الاحاطة 3 /37.
(204) الاحاطة 1 /188 والديباج المذهب 1 /188
(205) لعله يقصد شرحه لكتاب الاشارة في الاصول للباجي إذ لا نعرف له كتبا مصنفة في الفقه أو لعلها ضاعت ضمن ما ضاع من كتبه في المحنة التي تعرض لها على يد المتغلب بمالقة من الرؤساءالتجيبيين بسبب مدعي النبوة المسمى بالفزاري الاحاطة 1 /190—191
(206) الوافي بالوفيات 6 /222.

تمثلت مشاركته هذه بشكل واضح في شرحه لكتاب الإشارة في الأصول[207] لأبي الوليد الباجي المتوفى سنة 474 هـ، كما أنه كان يقوم بتدريسه لطلاب العلم ومنهم أبو حيان تلميذه النجيب الذي قال مشيراً إلى ذلك : «....وقد بحثت في هذا الفن في كتاب الإشارة للباجي علي... وعلى الأستاذ العلامة أبي جعفر في كتاب الإشارة وفي شرحها له، وذلك بالأندلس».[208]

ولمشاركته تلك ومعرفته ودرايته بالفقه وأصوله ولى ابن الزبير قضاء الأنكحة بغرناطة وكذلك ولى الخطبة والإمامة بها.[209]

5 ـــ التاريخ والرواية :

ابن الزبير لم تقصر به معارفه على جوانب معينة ولا مشاركته فيما سبق ذكره عن الخوض في التاريخ والرواية كما لم يكتف فيها بالمشاركة والتدريس فقط بل تعدى به تمكنه منها إلى التأليف فيها فترك لنا مؤلفات جليلة مهمة تنبيء عن قدره وعلمه وحجم إجادته في هذا المجال، واشهر مصنفاته والتي وصلنا بعضها :

كتاب «صلة الصلة» الذي وصل به كتاب ابن بشكوال «الذي وصل به تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضي.[210]

وكتاب : «الاعلام بمن ختم به القطر الاندلسي من الأعلام»[211] وهو في علماء الاندلس واعيانها في عصره.

وله في شيوخه ورواياته «معجم شيوخه» كما له «برنامج رواياته».[212]

6 ـــ الدفاع عن العقيدة ومواجهة أهل البدع :

ان ابن الزبير عالم عامل بما يعلم، فهو من حملة الامانة ما كانت ترده لومة لائم ولا سطوة حاكم جائر، ولا اعتساف جاهل أو غوغاء عامة، عن الدفاع عن

(207) شجرة النور الزكية : 212.
(208) البحر المحيط 1 /4.
(209) الاحاطة 1 /188
(210) الذيل والتكملة 1 /44 والاحاطة 1 /188.
(211) الذيل والتكملة 1 /44 والاحاطة 1 /188
(212) الذيل والتكملة 1 /44ـــ45.

الحق، لقد حمل لواء الاسلام يذود عن حياضه مجردا نفسه لحماية أصوله وسلامة عقيدة أهله، لم يدخر وسعا في رعاية سنة نبيه، قاصدا ردع الضلال والمنحرفين والمتقولين والمرجفين بالباطل. لم يثنه عن ذلك الجور أو التشريد أو الاذاية، بل وقف مواقف الشرف ممتحنا بأعز ما يملك انسان، مبتلي في ماله وكتبه ونفسه مشردا[213] افموقفه من فتنة الفزازي المشعوذ الساحر[214] وتأليفه في الرد على الشوذية المسمى «بردع الجاهل عن اعتساف المجاهل في الرد على الشوذية وابداء غوائلها الخفية»[215] شاهدة على مشاركته وفعاليته كعالم كبير تميز بعطاءاته الكثيرة المتميزة في بيئة وأوضاع مضطربة يجد فيها المنحرفون والجاهلون والضلال المرتع الخصب لترهاتهم وإرجافهم وإفسادهم، وكتابه «ملاك التأويل» الذي عمد فيه إلى تفسير متشابه القرآن هو في الحقيقة من هذا السياق وفي هذا الباب. وكذلك كتابه «سبيل الرشاد في فضل الجهاد».

تلاميذ ابن الزبير :

كان ابن الزبير علماً من أعلام الأندلس وخاتمة شيوخها في علوم القرآن والتجويد والقراءة والحديث والنحو والتاريخ والفقه وأصوله[217] وغير ذلك فجعله ذلك مقصد طالبي العلم ومحبي الرواية كما كان هو نفسه حريصاً على نشر العلم وإفادة الخلق ملبياً الحاجة المتعلمين صبوراً على ذلك حليماً صادقاً ناصحاً مثابراً معتكفاً على ذلك حتى انفرد بذلك في بلده قاعدة جزيرة الأندلس[218] وصارت الرحلة اليه[219] لذيوع صيته في الأقطار فكثر المتحلقون حوله سواء في غرناطة او في

---

(213) الاحاطة 1 /191، 192.

(214) الذيل والتكملة 1 /44—45 والاحاطة 1 /190 وما بعدها.

(215) المرقبة العليا : 128. الاحاطة : 191، 192

(216) الذيل والتكملة 1 /44.

(217) انظر الذيل والتكملة س 1 ق 1 ص : 39—45 والوافي بالوفيات 6 /222 وغيرهما.

(218) قال عنه ابن عبد الملك المراكشي «وهو الآن متصدر لاقراء كتاب الله تعالى واسماع الحديث وتعليم العربية وتدريس الفقه عامرا بذلك عامة نهاره عاكفا عليه مثابرا في افادة العلم ونشره انفرد بذلك...»، الذيل والتكملة س 1 ق1 ص : 45.

(219) الاحاطة 3 /459

مالقة او غيرها من حواضر الأندلس، والمغرب كما كاتبه العلماء واستجازه أهل الروايات[220] فكثر الآخذون عنه، ومنهم :

1 ـــ إبراهيم بن محمد بن علي بن العاصي التنوخي نشأ بغرناطة واشتهر وكتب في الحملة عن سلطانها، وترقي معارج الرتب، أقرأ فنونا من العلم بعد مهلك استاذ الجماعة أبي جعفر بن الزبير باشارة منه، قرأ بغرناطة على ابن الزبير. وكان مقرئا للقرآن مبرزا في تجويده مدرسا للعربية والفقه آخذا في الأدب متكلما في التفسير[221]

2 ـــ إبراهيم بن يحيى بن زكريا قرأ على أبيه ثم تحول إلى الأستاذ أبي جعفر استعمل في القضاء.[222]

3 ـــ احمد بن أحمد الأنصارى ابن الفقيه حمل عن ابن الزبير رواية شمائل النبى ﷺ لأبي عيسى الترمذي بعلو عن القاسم الخليلي، وقد راجعه أبو جعفر ابن الزبير في برنامج رواياته[223].

4 ـــ أحمد بن الحسن بن علي بن الزيات الكلاعي تعلم العلم عن جملة منهم شيخ الجماعة الأستاذ ابن الزبير، استعمل في السفارة، فسد مسد مثله، واقرأ ببلده فانتفع به[224] توفي سنة 728هـ.

5 ـــ احمد بن عبد الولي بن احمد أبو جعفر العيني قرأ على أبي الزبير وكان ممن تطوي عليه الخناصر معرفة بكتاب الله وتحقيقا لحقه وإتقانا لتجويده ومثابرة على تعليمه ونصحا في افادته توفي سنة 750 هـ[225].

---

(220) انظر الذيل والتكملة س1 ق1 ص : 44ـــ45. والهامش الاول من ص 45 والمنقول عن صلة الصلة 18 بدار الكتب المصرية.

(221) الاحاطة 1/334 و 375.

(222) المرقبة العليا : 154

(223) الذيل والتكملة س1 ق1 ص : 297و298.

(224) الاحاطة 2/138ـــ139 و 1/289 وغاية النهاية 1/32.

(225) الاحاطة 1/193ـــ194.

6 ــ احمد بن عبد الولي العواد ذكره ابن الجزري(226)

7 ــ احمد بن الطباع أبو جعفر ذكره ابن مخلوف(227)

8 ــ احمد بن محمد بن أحمد بن قعنب أبو جعفر ولى القضاء في اماكن عديدة كلوشة وبسطة وبرجة وغير ذلك يحمل عن الأستاذ أبي جعفر بن الزبير(228).

9 ــ أحمد بن محمد بن خديجة أبو جعفر اخذ عن ابن الزبير ذكره ابن فرحون(229)

10 ــ أحمد بن محمد الهاشمي الطنجالي أبو جعفر روى عن ابن الزبير(230)

11 ــ سلمون بن علي بن عبد الله بن سلمون الكناني القاضي اخذ عن جملة من الشيوخ اولهم أبو جعفر بن الزبير.(231)

12 ــ عز الدين عبد العزيز بن جماعة أبو عمر أجاز له ابن الزبير كما روى عنه الموطا.(232)

13 ــ عبد الله بن أحمد بن سعيد بن زيد الغافقي قال ابن الخطيب: «أجازه من أهل المغرب شيخ الجماعة بالأندلس ابن الزبير».(233)

14 ــ عبد الله بن عبد البر بن سليمان الرعيني. قال ابن الخطيب: «قرأ على الأستاذ الجليل ابى جعفر ابن الزبير رحل اليه من وطنه ارجدونة عام 692 هـ ولازمه وانتفع به اخذ الكتاب العزيز والعربية وسمع عليه الكثير من الحديث.(234)

---

(226) غاية النهاية 1 /32. وشجرة النور الزكية 212.

(227) شجرة النور الزكية 212.

(228) الاحاطة 1 /168.

(229) الديباج 1/188.

(230) ثبت البلوي الوادي آشي : 171.

(231) الاحاطة 4 /310 والمرقبة العليا : 167.

(232) تذكرة الحفاظ 532، وثبت البلوي 276.

(233) الاحاطة 3 /412.

(234) المصدر السابق 3 /459.

15 ــ عبد الله بن الجبر بن عثمان اليحصبي : قرأ على استاذ الجماعة ابن الزبير[235] وشهد له ابن الزبير بانه «من اعيانها ذوي الشرف والجلالة اخذ عن اشياخ بلده غرناطة»[236]

16 ــ عبد الله بن سعيد بن أحمد بن علي السلماني قرأ على شيخ وأستاذ الجماعة أبي جعفر بن الزبير فأجازه.[237]

17 ــ عبد الله بن علي بن عبد الله بن سلمون الكناني قرأ على الأستاذ الكبير ابي جعفر بغرناطة ولآزمه وانتفع به دراية ورواية[238]

18 ــ عبد الله بن يحيى بن محمد بن زكريا الأنصاري قرأ على الأستاذ ابي جعفر بن الزبير وأجازه[239].

19 ــ عبد الله بن يحيى الأنصاري من أهل غرناطة وأصله من مرسية من بيت جود وفضل ولي القضاء دون العشرين وتصرف فيه بقية عمره بالجهات الأندلسية، روى عن ابن الزبير.[240]

20 ــ عبد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمن الحضرمي قرأ بغرناطة على الشيخ العلامة ابن الزبير وهو من الغرباء الذين قدموا الأندلس.[241]

21 ــ عبد الواحد بن سليمان بن عبد الواحد بن سليمان كان من أهل المشاركة في الحديث والفقه واللغة والأدب حسن الكتابة.[242]

22 ــ عبد الواحد بن محمد بن علي بن ابي السداد الأموي المالقي الشهير بالباهلي قرأ على ابن الزبير وكان من مفاخره.[243]

---

(235) نفس المصدر السابق 3 /335.

(236) نفس المصدر السابق 3 /385

(237) المصدر السابق 3 /388

(238) المصدر السابق 3 /401 وشجرة النور الزكية 212.

(239) الاحاطة 3 /414.

(240) المرقبة العليا : 152.

(241) الاحاطة 124/4.

(242) صلة الصلة 25ــ26.

(243) الاحاطة 3 /553 وغاية النهاية 1 /32.

23 ــ علي بن سليمان الأنصاري ذكره ابن الجزري(244)

24 ــ علي بن عتيق بن أحمد الهاشمي من أهل غرناطة قرأ على الأستاذ ابن الزبير ولازمه وتأدب به وتلا عليه بالسمع وسمع كثيراً من الحديث.(245)

25 ــ علي بن عمر بن ابراهيم بن عبد الله الكناني القيجاطي قرأ القرآن على ابن الزبير.(246)

26 ــ على بن محمد الجياب أبو الحسن روى عن ابن الزبير صحيح البخاري(247).

27 ــ علي بن محمد بن عبد الحق بن الصباغ العقيلي من أهل غرناطة. قال ابن الخطيب «نقلت بخطه في بعض ما كتب به إلي، من الأشياخ الذين لقيتهم وأجازوا لي عامة الشيخ الفقيه الأستاذ العالم العلم خاتمة المسندين بالمغرب أبو جعفر أحمد بن الزبير التقفي، نشأت بين يديه وقرأت عليه كثيراً وسمعت وأجازني.(248)

28 ــ قاسم بن عبد الكريم بن جابر الأنصاري من أهل غرناطة قرأ على خاتمة المقرئين ابن الزبير.(249)

29 ــ محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن يوسف بن رويبيل الأنصاري أكثر القراءة على شيخ الجماعة العلامة ابن الزبير»(250).

30 ــ محمد بن ابراهيم بن علي بن باق الأموي قرأ على الأستاذ(251) توفي سنة 752هـ.

31 ــ محمد بن ابراهيم بن محمد الدوسي قرأ على الأستاذ ابن الزبير(252).

(244) غاية النهاية 1 /32.
(245) الاحاطة 4 /198
(246) المصدر السابق 4 /105
(247) ثبت البلوي 272.
(248) الاحاطة 4 /127
(249) المصدر السابق 4 /262
(250) المصدر السابق 3 /161
(251) الاحاطة 2 /161
(252) المصدر السابق 3 /161

32 ـ محمد بن أحمد بن أمين الأقشهري أبو عبد الله جلال الدين روى عنه الموطأ[253].

33 ـ محمد بن أحمد الزيات الكلاعي قرأ بغرناطة على الأستاذ ابن الزبير شيخ الجماعة توفي سنة 728هـ[254].

34 ـ محمد بن أحمد بن جعفر بن عبد الحق بن حقاف السلمي قرأ على ابن الزبير وأجازه[255].

35 ـ محمد بن أحمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن بن يوسف الكلبي المشهور بابن جزي صاحب القوانين الفقهية. قرأ على ابن الزبير وأخذ عنه العربية والفقه والحديث والقرآن وبه تفقه بألمرية[256].

36 ـ محمد بن أحمد بن علي بن شبرين أبو بكر سمع بحضرة غرناطة على الأستاذ أبي جعفر بن الزبير، وكان من كبار أهل العلم فارتسم بالكتابة السلطانية وولى القضاء بعدة جهات، من أهل الدين والعقل والعدالة تاريخياً مقيداً طلعة اختيار أصحابه محققاً لما ينقله، كانت له رحلة إلى الأندلس اتسع بها نطاق روايته، شعره متعدد الأسفار كثير الاغراض[257] توفي سنة 747هـ.

37 ـ محمد بن احمد بن فتوح بن شقرال اللخمي قرأ على الأستاذ ابن الزبير.[258]

38 ـ محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن خميس الأنصاري قرأ على ابن الزبير[259]

39 ـ محمد بن أحمد بن محمد بن الأشعري يعرف بابن المحروق الوكيل بالدار السلطانية القهرمان بها المستوزر آخر عمره[260] قرأ على ابن الزبير وكانت له

(253) ثبت البلوي 276.
(254) الاحاطة 3 /235، و 2 /138ـ139.
(255) الاحاطة 2 /138
(256) الاحاطة 3 /20ـ24 وشجرة النور الزكية 212.
(257) الاحاطة 2 /240ـ242.
(258) المصدر السابق 3 /24.
(259) المصدر السابق 3 /185
(260) المصدر السابق 2 /136

فيه فراسة صادقة، كتب الشروط وبرز في عدول الحضرة قبل سنة 727 هـ.[261]

40 ــ محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الهاشمي الطنجالي قرأ على ابن الزبير[262]

41 ــ محمد البياني.[263]

42 ــ محمد بن بيش العبدري قرأ على شيخ الجماعة ببلده أبي جعفر ابن الزبير[264]

43 ــ محمد بن جابر الوادي آشي شمس الدين أبو عبد الله قرأ وروى عن ابن الزبير ومما رواه عنه الموطأ.[265]

44 ــ محمد بن محمد بن سهل أبو القاسم : قال الذهبي ورأيت إجازته بالسمع لابن سهل وقد صدرها بخطبة فائقة الحسن من انشائه.[266]

45 ــ محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن ابراهيم الأنصاري الساحلي قرأ على الأستاذ ابن الزبير[267]

46 ــ محمد بن محمد بن يوسف بن عمر الطنجالي أبو بكر روى عن جده أبي جعفر وعن الراوية الكبير ابن الزبير.[268]

47 ــ محمد بن يحيى بن أبي بكر الأشعري المالقي أبو عبد الله القاضي من اشياخه أبو جعفر ابن الزبير خاتمة المقرئين كما روى عنه البخاري[269]

---

(261) المصدر السابق 2 /137

(262) نفس المصدر 3/.247

(263) شجرة النور الزكية 212.

(264) الاحاطة 3 /28

(265) ثبت البلوى 276. ودرة الحجال 1 /11 ترجمة : 88

(266) تذكرة الحفاظ 1 /1484 وما بعدها والوافي بالوفيات 6 /222

(267) الاحاطة 3 /191

(268) الاحاطة 3 /194ــ و 3 /247

(269) المصدر السابق 2 /179 وثبت البلوى 272 وشجرة النور الزكية 212

48 ــ محمد بن يوسف اللوشي أبو عبد الله الراوي الخطيب وهو آخر من روى عنه في الدنيا سماعا، وانبأنا عنه الإمام جمال الدين محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد الشريسي وغيره.[270]

49 ــ محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان النفزي (صاحب البحر المحيط) قرأ ببلده على الأستاذ ابن الزبير ولازمه وانتفع به وشاد له بالمشرق ذكراً كبيراً ويقال انه نادى في الناس عندما بلغه نعيه وصلى عليه بالقاهرة[271] وقد وقعت بينه وبين أستاذه الوحشة فنال منه وتصدى للتأليف في الرد عليه وتكذيب روايته فرفع أمره إلى السلطان فامتعض ونفذ الأمر بتنكيله فاختفى ثم أجاز البحر مختفيا يلتفت خلفه[272]

50 ــ موسى بن محمد بن جرادة[273]

51 ــ يحيى بن عبد الله بن محمد بن أحمد اللخمي اخذ عن جماعة من أهل بلده غرناطة لما قدم اليها مغربا عن وطنه أخذ عن الأستاذ أبي جعفر ابن الزبير[274].

52 ــ محمد بن حسان القيسي الوادي آشي أبو عبد الله كتب عن ابن الزبير[275].

53 ــ محمد بن خلف السلمي المعروف بابن أبي البركات ابن الحاج البلفيقي وعمدته في الرواية من المغاربة أبو جعفر ابن الزبير وقد بقي يروي بعد السماع منه نحو السبعين وتوفي سنة 773 هـ[276]

(270) غاية النهاية 1 /32 وثبت البلوى 171.

(271) الاحاطة 3 /44.

(272) نفس المصدر 3 /46 وتذكرة الحفاظ 4 /1484 والوافي بالوفيات 6 /222 وشجرة النور الزكية 212.

(273) غاية النهاية 1 /32

(274) الاحاطة 4 /341.

(275) ثبت البلوى 99 ترجمة 81

(276) الاحاطة 2 /145ــ149و 2 /72، والمرقبة العليا 165 وغاية النهاية 1 /32 وشجرة النور الزكية 212 وفهرس الفهارس والاثبات 1 /75

54 ــ محمد بن عبد الله بن عبد العظيم بن أرقم النميري من أهل وادي آش قرأ على ابن الزبير(277)

55 ــ محمد بن عبيد الله بن منظور القيسي توفي ببلده مالقة وقبر بها شهيداً بالطاعون سنة 750 هـ اجازه ابن الزبير(278)

56 ــ محمد بن علي بن مثبت شيخ القدس(279)

57 ــ محمد بن علي بن عمر بن يحيى بن العربي الغساني اخذ بغرناطة عن ابن الزبير(280)

58 ــ محمد بن علي بن محمد بن قطران الأنصاري أخذ عن ابن الزبير(281)

59 ــ محمد بن القاسم بن أبي رمان أبو عبد الله(282) قرأ على ابن الزبير

60 ــ محمد ابن القاسم بن عمران الحضرمي السبتي(283) قرأ على ابن الزبير.

61 ــ محمد بن محمد بن احمد بن علي الأنصاري قرأ على ابن الزبير(284)

62 ــ محمد بن محمد بن ادريس القضاعي من اهل اسطبونة يعرف بالقللوسي قرأ على ابن الزبير بغرناطة(285)

63 ــ يحيى بن مسود المحاربي ولى قضاء الجماعة بالحضرة، من أهل الأصالة والجزالة والجلالة كان عالي الهمة ماضي العزيمة شديد الشكيمة، اشتهر

---

(277) الاحاطة 3 /89.

(278) المرقبة العليا : 153

(279) غاية النهاية 1 /32

(280) 3 /97 من الاحاطة

(281) المصدر السابق 2 /203و 2 /230

(282) الوافي بالوفيات 6 /222

(283) المصدر السابق.

(284) الاحاطة 3 /37

(285) المصدر السابق 3 /77

بالمضاء والاشتداد على اهل الجاه واقامة الحدود واضافة الشهود، قرأ على ابن الزبير وتوفي سنة 727 هـ[286]

64 ــ يوسف بن إبراهيم الفهري من اهل غرناطة قرأ على ابن الزبير ببلده[227]

65 ــ يوسف بن موسى بن سليمان المنشتاغري من اهل رندة ــ قال : فمن شيوخي الذين رويت عنهم واسترفدت البركة منهم الشيخ الإمام أبو جعفر ابن الزبير[288].

وذكرت جماعة من تلاميذه بألقابهم وهم :

66 ــ أبو جعفر بن أبي حبل وهو ممن رثاه بعد موته بقصيدة أوردها ابن الخطيب[289].

67 ــ أبو حفص الزيات[290]

68 ــ ابن الحبان[291]

69 ــ ابن الشراط[292]

70 ــ الزاهد أبو عمر بن المرابط[293]

مؤلفات ابن الزبير

ابن الزبير عالم كبير كانت له مشاركة واسعة في ثقافة عصره تدريسا وتأليفا وقد خلف لنا مكتبة قيمة تبرز لنا مكانته العلمية وأصالته الفكرية وصلابته العقيدية ولعل عددا من مؤلفاته قد ضاع فيما ضاع له من كتب عندما انتهب العامة بيته بمالقة في فتنة الفزاري.

---

(286) المرقبة العليا : 139
(287) الاحاطة 4 /404
(288) المصدر السابق 4 /387
(289) الاحاطة 1 /193
(290) شجرة النور الزكية 212.
(291) نفس المصدر السابق
(292) نفس المصدر السابق
(293) الوافي بالوفيات 6 /222

أما ما عرف من عناوين كتبه فهي على الشكل التالي :

ـــ الإعلام بمن ختم به القطر الأندلسي من الأعلام(294)

ـــ ايضاح السبيل من حديث سؤال جبريل(295)

ـــ البرهان في ترتيب سور القرآن وهو موضوع بحثنا .

ـــ تعليق على كتاب سيبويه(296) في النحو

ـــ الذيل على الصلة لابن بشكوال وهو المعروف بصلة الصلة(297)

ـــ ردع الجاهل عن اعتساف المجاهل في الرد على الشوذية(298)

ـــ الزمان والمكان(299)

ـــ فهرسة شيوخه(300)

ـــ سبيل الرشاد في فضل الجهاد(301)

ـــ شرح الإشارة لأبي الوليد الباجي في الأصول(302)

---

(294) الذيل والتكملة س1 ق1 ص : 44 والدرر الكامنة 1 /85 وهدية العارفين 1 /103 والاعلام 1 /29

(295) ذكره ابن الزبير في بيان مناسبة سورة الماعون لقريش في : «البرهان في ترتيب سور القرآن» ص : 377 من هذا الكتاب.

(296) طبقات المفسيرين للداودى 1 /26

(297) الذيل والتكملة س 1 ق 1 ص 44 والديباج 1 /188 والدرر الكامنة 1 /84 وطبقات المفسرين 1 /26 والاعلام 1 /29 والموسوعة المغربية للاعلام البشرية 1 /110

(298) الذيل والتكملة س1 ق1 ص : 44 والديباج 1 /188 والدرر الكامنة 1 /85 وطبقات المفسرين 1 /26 وهدية العارفين 1 /103.

(299) معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة 1 /138

(300) الذيل والتكملة س1 ق1 ص : 44 وفهرس الفهارس والاثبات (وفيها رويات تلك الفهرسة وتداولها الى المؤلف».

(301) طبقات المفسرين 1 /26 وكذلك الديباج 1 /188

(302) الديباج 1 /188 وطبقات المفسرين 1 /26.

ـ معجم شيوخه[303]

ـ ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل.[304]

ـ نزهة البصائر والأبصار[305]

ـ أرجوزة في الرد على الشوذية[306].

(303) الذيل والتكملة س1 ق1 ص : 44

(304) حقق الكتاب الاستاذ سعيد الفلاح ونشر بدار الغرب الاسلامي ببيروت سنة 1983

(305) الاحاطة 1 /467 حيث نقل عنه ابن الخطيب وأشار اليه.

(306) وقد كانت درجة ابن الزبير في النظم منحطة ولهذا تعتبر ارجوزته هذه احط ما ألف وعيب عليه. انظر الذيل والتكملة س1 ق1 ص : 44ـ و45

المبحث الثالث

* تحقيق عنوان الكتاب
* وصف النسخ المعتمدة في التحقيق
* قيمة المخطوطتين.
* منهج التحقيق
* دليل الاشارات والرموز

تحقيق عنوان الكتاب ونسبته إلى صاحبه

لم يرد عنوان هذا الكتاب بشكل كامل وصحيح عند ابن الزبير سواء في ثنايا كتابه هذا أو في تفسيره لمتشابه القرآن المسمى ب «ملاك التاويل»، وإنما أشار إلى موضوعه في مقدمة كتابه «البرهان» بقوله «فاقتصرت بحكم الإضطرار في هذا الاختصار على وجوه ترتيب السور»(1) ثم قال بعد ذلك : «باب التعريف بترتيب السور»(2).

كما أحال عليه عدة مرات في كتابه «ملاك التاويل» فنعته فيه «بالبرهان» اختصارا، حيث قال عند حديثه عن مناسبة افتتاح السور الخمس : — أم القرآن، والانعام، والكهف، وسبأ وفاطر — بـ : الحمد لله : «وقد بسطت هذا في كتاب البرهان»(3)

وقال أيضا في موضع آخر : «وقد اوضحنا في كتاب البرهان ان ترتيب السور بتوقيف على أصح المأخذين»(4)

واذا كان ابن الزبير قد أشار إلى أن هذا الكتاب يقتصر على وجوه ترتيب السور، فاننا نجد طائفة ممن ترجموا له او نقلوا عنه قد وسموا كتابه بـ : «البرهان في ترتيب سور القرآن» ومن بين هؤلاء من هو قريب من عصره ممن يمكن أن يكون قد أخذ عن تلاميذه، مثل ابن فرحون المتوفى سنة 799 اي بعد وفاة ابن الزبير بـ 91 سنة، وممن أورد هذا الكتاب تحت نفس العنوان أيضا :

(1) أنظر ص 2 من النص

(2) نفس المصدر ص : 4

(3) ملاك التأويل 1 /154، 155

(4) نفس المصدر 1 /316

(5) انظر الديباج المذهب 1 /188

الإمام البقاعي[6] في كتابه نظم الدرر في تناسب الآيات والسور»[7] والحافظ شمس الدين محمد الداودي،[8] وخير الدين الزركلي،[9] وعبد العزيز بن عبد الله[10]

كما ورد اسم الكتاب تحت عناوين أخرى متقاربة نذكرها فيما يلي

ـــ البرهان في تناسب سور القرآن. اورده كل من ابن الباشا البغدادي[11]، وحاجي خليفة[12]، ومحمد بن مخلوف[13]

ـــ البرهان في مناسبة سور القرآن : اورده كل من الإمام السيوطي[14]، والشيخ عبد الله بن الصديق[15]

ـــ مناسبات ترتيب السور : اورده السيوطي[16]

والذي اختاره هو ما ذهب اليه الصنف الأول ـــ وهم الأكثر ـــ من ان اسم الكتاب هو : البرهان في ترتيب سور القرآن «وهذا موافق لاشارات المؤلف في كتابيه» ملاك التأويل و «البرهان» : إلى ان هذا الكتاب يتعلق بترتيب السور.

ولقد كان رأي المؤلف رحمه الله مع من يرى ان ترتيب السور توقيفي لا محل للاجتهاد فيه لذلك، فقد عمل جهده لابراز الحكمة من هذا الترتيب، واظهار

---

(6) هو ابراهيم بن عمر بن حسن الخرباوي البقاعي الشافعي عالم واديب ومفسر ومحدث ومؤرخ له عدة مولفات من بينها «الاصل الاصيل في تحريم النقل من التوراة والانجيل» توفي بدمشق سنة 325 هـ، انظر معجم المؤلفين لرضا كحالة 1 /71

(7) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ق : 181. ج1 /3

(8) طبقات المفسرين 1 /27

(9) الاعلام 1 /29

(10) الموسوعة المغربية للاعلام البشرية 1 /110

(11) انظر هدية العارفين في اسماء المؤلفين وآثار المصنفين 1 /103

(12) انظر كشف الظنون 1 /241

(13) شجرة النور الزكية ص : 212

(14) معترك الاقران 1 /55

(15) جواهر البيان في تناسب سور القرآن ص : 16

(16) الاتقان 1 /20

اوجه الترابط والتناسب بين سور القرآن الكريم كما ورد ترتيبها في المصحف الإمام، ولعل هذا الملحظ في عمل المؤلف هو الذي جعل الكثيرين ممن اشرت اليهم اعلاه يذهبون إلى تسمية كتابه بالبرهان في تناسب او مناسبة سور القرآن».

وإذا كان الإشكال قد وقع في عنوان الكتاب، فإن نسبته إلى ابن الزبير لا اشكال فيها ولا تحتاج إلى دليل لان جل كتب التراجم والفهارس نسبت له هذا الكتاب[17] من جهة، ولان ابن الزبير نفسه أحال في كتابه ملاك التأويل عليه عدة مرات كما سبقت الإشارة إلى ذلك من جهة ثانية، ولان الإمام البقاعي قد اطلع عليه وضمنه في تفسيره، كما أن الإمام السيوطي اطلع عليه بدوره وجعله مرجعا من مراجع كتابه : الإتقان.[18].

وصف النسخ المعتمدة في التحقيق

يعتبر تحقيق كتاب من نسخة واحدة وخاصة في رسالة جامعية مغامرة كبيرة، وخاصة اذا كانت تلك النسخة غير تامة كما هو الحال بالنسبة لكتاب «البرهان في ترتيب سور القرآن»[19] موضوع بحثنا، لكنني وجدت في نفسي جرأة زائدة على القيام بهذا العمل، وذلك بفضل تشجيع بعض أساتذتي[20] للمضي في تحقيق هذا المخطوط مما قوى عزمي، ورغبني في الإقدام على ما ذكرت، مؤملا ان أعثر على نسخ أخرى لنفس المخطوط ولم أكد أقطع شوطا طويلا في تحقيق هذا المخطوط حتى اطلعت على تفسير البقاعي المسمى بـ : «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» الذي اعتمد فيه على كتاب ابن الزبير هذا في مناسبات

---

(17) انظر الديباج المذهب 1 /188، طبقات المفسرين 1 /26، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور البقاعي مخطوط بالخزانة العامة تحت رقم ق/181 ج1 /3، الاتقان 1 /20 معترك الاقران 1 /55، هدية العارفين 103/1، وكشف الظنون 241/1، وشجرة النور الزكية ص 212، والاعلام للزركلي 29/1 وغيرهم.

(18) الاتقان 20/1 وانظر معترك الاقران 55/1.

(19) تنتهي هذه النسخة عند ذكر مناسبة سورة القمر لسورة النجم.

(20) منهم الاستاذ الجليل محمد المنوني، والاستاذ المشرف د. الهراس.

السور خاصة اعتمادا كليا فكان ذلك فتحا لي في هذا البحث، ومعلما جديدا استنرت به في هذا الطريق اذا اعتبرته نسخة ثانية للمخطوط.

وصف النسخة «أ»

النسخة الوحيدة التي علمت بوجودها لهذا المخطوط توجد بالخزانة العامة بالرباط ضمن مجموع رقم 131 ك وتبتدىء من صفحة 83 إلى 169 أي 86 صفحة، وهو من الحجم الصغير كتب بخط نسخي دقيق، عدد اسطر الصفحة 21، ومعدل كلمات كل سطر، اربعة عشر كلمة.

والنسخة مبتورة من آخرها، حيث ينتهي كلام المؤلف بها عند ذكر مناسبة سورة القمر لسورة النجم بها خروم غير ضارة تسببت فيها الأرضة، وهي جيدة الخط، واضحة القراءة في عمومها، قليلة الأخطاء ملونة العناوين بالأحمر، وقد رمزت اليها بحرف «أ»

وصف النسخة «ب»

اعتمدت في تصحيح وتحقيق وتتميم النسخة المذكورة، على تفسير البقاعي الآنف الذكر، الذي التزم فيه بالنقل الحرفي لنصوص كتاب ابن الزبير هذا، وذلك في معرض بيانه لمناسبة السور، وقد صرح باطلاعه على كتاب ابن الزبير ونقله عنه فقال :

«وطالعت على ذلك كتاب العلامة ابي جعفر بن ابراهيم بن الزبير الثقفي الأندلسي المعلم ب «البرهان في ترتيب سور القرآن» وهو لبيان تعقيب السورة والسورة فقط لا يتعرض فيه للآيات، وسأذكر في اول كل سورة ما قال بلفظه كما ستراه ان شاء الله تعالى» :(21)

(21) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور 1 /3.

واستنادا إلى ما ذكر، اعتبرت هذا النقل الملتزم به من طرف البقاعي الذي لم يتخلف في الكتاب كله[22] بقوله في بداية كل نقل : «قال ابن الزبير» وبقوله «انتهى» عند نهاية النقل، اعتبرت ذلك نسخة ثانية ورمزت لها بحرف «ب».

ومما إطلعت عليه من نسخ كتاب البقاعي المخطوطة : نسخة بالخزانة الملكية تحمل رقم : 2695 في ثماني مجلدات جيدة النسخ والخط، وهي التي اعتمدت عليها في تصحيح وتتميم نص النسخة «أ» وثانية بالخزانة* العامة تحمل رقم 181 ق في خمس مجلدات كثيرة الأخطاء رديئة الخط، لم استفد منها، وثالثة تحمل رقم : 1896 ك في مجلد ضخم، تبتدىء من قوله تعالى «من لدن حكيم خبير ألا تعبدوا إلا الله انني لكم منه نذير وبشير» من سورة هود، الآية (1ـــ2) وتنتهي بقوله سبحانه : «وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك» من سورة الإسراء الآية 110) وهي جيد النسخ ملونة العناوين جميلة الخط، لكنها مبتورة الأول والآخر، وقد اغنتني عنها نسخة الخزانة الملكية

قيمة المخطوطتين :

اذا كانت النسخة «أ» قد اسندها صاحبها إلى الإمام ابي جعفر بن الزبير حيث ابتدأت بالنص التالي : «قال الشيخ الفقيه الإمام المحدث المقرىء الأستاذ العلامة ابو جعفر أحمد بن ابراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي رضي الله عنه وارضاه : الحمد لله الحكيم العليم... الخ» فاننا ـــ بسبب البتر الحاصل في آخرها ـــ لم نتمكن من معرفة كاتبها ولا المصدر المنقول منه، ولا تاريخ كتابتها.

إلا أنها رغم ذلك فهي نسخة قيمة وهامة، كتبت بخط مشرقي متأنق، أخطاؤها يسيرة محتملة نبهت عليها في مكانها وعليها بعض التصحيحات التي تدل على اهتمام كاتبها بها، وحرصه على سلامة نصها

(22) الا انه تصرف في نص ابن الزبير اربع مرات، حيث جزأ النص واختصره في سورة البقرة وآل عمران، والمائدة، والانعام.

ومما أكد قيمتها وسلامتها موافقة النسخة «ب» لها في جملتها وتفصيلها، فليس بين النسختين الا اختلافات طفيفة، باستثناء بعض ما اكلته الأرضة في النسخة «أ» وتمم أو صحح من نسخة «ب».

واذا كان تاريخ نسخ المخطوطة «أ» مجهولا فان النسخة «ب» التي اعتمدها البقاعي تعتبر نسخة قريبة من عهد المؤلف اذ أن البقاعي المولود سنة 809 هـ لا يفصله عن تاريخ وفاة ابن الزبير الا قرن من الزمان تقريبا

* * *

منهـج التحقيـق :

لقد اتبعت في تحقيق نص كتاب البرهان المنهجية التالية :

ـــ اعتمدت في التحقيق على نسختين وقابلت بينهما كلمة كلمة

ـــ ما وجدت من اختلاف بين النسختين ذكرته وبينت ما كان منها على صواب وما كان منها على خطأ.

ـــ حصرت ما نقص من نسخة من النسخ بين قوسين واشرت بالهامش إلى النسخة المنقوص منها. واما ما اختلفا فيه فقد وضعته بين قوسين كذلك، وعلقت عليه بالهامش.

ـــ قمت بتخريج الآيات بذكر سورها وأرقامها ووضعتهما بين قوسين وأثبتهما مع النص لكثرتها لأن كتاب «البرهان» قائم على جمع الآيات المتناسبة وربطها بما تقدمها من الآيات وما يتلوها معا.

ـــ قمت بتصحيح بعض الآيات القرآنية التي وقع فيها الخطأ بالزيادة او النقصان، أو لاشتباهها بآية أخرى تقاربها في التركيب واشرت إلى ذلك بالهامش.

ـــ اعتمدت في تخريج الآيات على المصحف المطبوع بدار المصحف شركة مكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد برواية الإمام ورش.

ـــ خرجت الأحاديث والآثار بإرجاعها إلى مصادرها مع ذكر المواضيع التي تندرج تحتها ورقم ترتيبها ان كان، كما علقت على بعض الأحاديث بما رأيته مفيدا.

— ترجمت للاعلام الغير المشهورين او من رأيت انه بحاجة إلى ترجمة، واحلت على مصادر الترجمة مع ذكر الجزء والصفحة.

— شرحت بعض الألفاظ الصعبة بالرجوع إلى معاجم اللغة، وعلقت على ما رأيت التعليق عليه مفيدا للنص أو للقارىء.

دليل الإشارات والرموز

هذا وقد استعملت في التحقيق بعض الإشارات والرموز، اختصارا لبعض الكلمات التي تتردد كثيرا أثناء التحقيق أو لغرض اقتضاه التحقيق وهي كما يلي :

«أ» رمزت به لمخطوطة الخزانة العامة. رقم 131 ك

«ب» رمزت به لمخطوطة الخزانة الملكية المضمنة في تفسير البقاعي.

(   ) حصرت بهما ما سقط من احدى النسختين او خالفت فيه احداهما الأخرى، كما حصرت بهما اسم السورة ورقم الآية عقب كل آية.

اشارة إلى بداية صفحة جديدة من المخطوطة «أ» يقابلها في الهامش رقمها كما استعملتها أيضا للفصل بين الرقم المشير إلى جزء الكتاب، والرقم المشير إلى صفحته وكذا للفصل بين التاريخين الهجري والميلادي.

س — اختصار كلمة سفر.

ق — اختصار كلمة قسم.

ج — اختصار كلمة جزء.

ص — اختصار كلمة صفحة.

ط — اختصار كلمة طبعة.

ت — اختصار كلمة المتوفى.

البرهان في ترتيب سور القرآن

(تحقيق نص الكتاب)

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.

قال الشيخ الفقيه الامام المحدث المقرىء الأستاذ العلامة أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي رضي الله عنه وأرضاه.

الحمد لله الحكيم العليم، العلي العظيم، ذي الفضل العميم، والجود القديم، الذي ابتدأ الانسان بالنعم فرادى ومثنى، وخلقه في أحسن تقويم بعد كونه نطفة من مني تمنى، وخصه بمزيد التشريف والتكريم، وأهله لتلقي خطابه، وهيأه لتحمل فرقانه العزيز وكتابه، وقد قال سبحانه فيه :

«وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم (الزخرف 4)، والصلاة والسلام على محمد نبيه المعظم، ورسوله المصطفى المكرم، المخصوص بالكتاب، والفاتح لأولي البصائر الباصرة، بما أيد به من الاعلام الباهرة، والحجج القاطعة القاهرة، مستغلق ذلك الباب، فأوضح السبيل للسالك،فلن يهلك على الله بعد بيانه إلا هالك، وأنى بسلوك ذلك الباب لمن حقت عليه كلمة العذاب، وقد قال سبحانه : «إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم» (يس 11).

وبعد، فإني اعتبرت قوله ﷺ : (ما من نبي إلا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيا، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة)[1].

وتأملت ما أيد به ﷺ من المعجزات سوى القرآن،فإذا بضروب لا يحصيها العد ولا تكاد تنحصر بالحد[2]، وقد قال عليه السلام : (وإنما كان الذي أوتيت

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده 341/2 : 451 والبخاري في صحيحه 3/9 و247/13، ومسلم في صحيحه، والنسائي في فضائل القرآن، الحديث رقم 2.

(2) وقد ألف أئمة الاسلام نوعا من التأليف سموه الدلائل، جمعوا فيه المعجزات التي ظهرت على يديه ﷺ مما يدل على نبوته وهذه المؤلفات كثيرة جدا منها :

[illegible]

عجائب شواهد التنزيل فعلقت في ذلك ما قدر، ثم قطعت بي قواطع الايام عن تتميم رومي من ذلك وعملي، فاقتصرت بحكم الاضطرار في هذا الاختصار على توجيه ترتيب السور، وإن لم أر في هذا الضرب شيئا لمن تقدم وغير، وإنما نذر لبعضهم توجيه ارتباط آيات في مواضع مفترقات، وذلك في الباب أوضح، ومجال الكلام فيه أفسح وأسرح(6).

أما تعلق السور على ما ترتب في الامام(7)، واتفق عليه الصحابة الاعلام فمما لم يتعرض له فيما أعلم، ولا قرع أحد هذا الباب ممن تأخر أو تقدم، فإن صلى أحد بعد بهذه الاقامة، أو ائتم فمرتبط حتما بهذه الامامة، فإن انصف فلابد أن ينشد إذ عانا للحق وانابة(8):

فلو قَبل مبكــاها بَكيــت صبـابــة

ولما كمل لي بفضل الله الأمل من جليل هذا العمل، غريبا في بابه، رفيعا في نصابه، موفى التحرير، معلوم النظير، تحصل بمطالعته العلم اليقين، ويفصح بشهادته أن العاقبة للمتقين، والله ينفع فيه بالنية من مرضاته الأمنية بمنه ويمنه.

---

(6) شهد بالسبق للمصنف في هذا الباب الامام بدر الدين الزركشي ت : 794. ثم قال : «وممن أكثر منه (أي من ارتباط الآيات والسور ببعضها) الامام فخر الدين الرازي، ت : 606هـ. وقال في تفيسره : أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط».
أنظر البرهان في علوم القرآن 1/ 35.

(7) أي المصحف الامام الذي أجمع عليه الصحابة وكتب في عهد عثمان رضي الله عنه، ووزعت نسخ منه على الامصار، واعتمدته الأمة الاسلامية جيلا بعد جيل إلى يومنا هذا.

(8) هذا الشطر لعدى بن الرقاع العاملي الذي عاش في العصر الاسلامي وهو شاعر محسن مجيد، كان ينزل الشام توفي سنة 95هـ.

وتتمة لمعنى هذا الشطر يقول :

.... بسعدي شفيت النفس قبل التندم.
ولكن بكت قبلي فهاج لي البكا بكاها فقلت الفضل للمتقدم.

أنظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ج : ص : 622.

باب التعريف بترتيب السـور
وهل ذلك بتوقيف من الشارع ﷺ أم هو من فعل الصحابة؟

اعلم أولا أن ترتيب الآيات في سورها وقع بتوقيفه ﷺ وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين(9)، وإنما اختلف في ترتيب السور على ما هي عليه وكما ثبت في الامام مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي بعث بنسخة إلى الآفاق(10)، واطبقت الصحابة على موافقة عثمان في ترتيب سوره وعمله فيه، فذهب مالك(11)، والقاضي أبو بكر بن الطيب(12). فيما اعتمده واستقر عليه مذهبه من قوليه، والجمهور من العلماء، إلى أن تريب السور إنما وقع باجتهاد الصحابة، وأن رسول ﷺ فوض ذلك إلى أمته بعده، وذهبت طائفة من العلماء إلى أن ذلك إنما وقع بتوقيفه ﷺ وأمره، ولكل من الطائفتين جهات تعلق، وكلا القولين والحمد لله لا يقدح في الدين، ولا يثمر إلا اليقين، فأقول مستعينا بالله سبحانه :

(9) ما ذهب إليه المؤلف لم يخالفه فيه أحد بل كان قبله وبعده موضع تسليم واتفاق وذلك لأمرين اثنين

أ ـــ لأنه نقل الكافة عن الكافة إلى عهد نزول الوحي، فلم يحدث أي خلاف في هذا.

ب ـــ النصوص الواردة عن الصحابة الذين شاهدوا الوحي والتنزيل وعاصروه، تدعم هذا وتؤيده، وفي هذا يقول مكي بن أبي طالب : «ترتيب الآيات في السور هو من النبي ﷺ»، وقال الباقلاني : «ترتيب الآيات أمر واجب وحكم لازم»، وقال الزركشي : «فأما الآيات في كل سورة ووضع البسملة أوائلها فترتيبها توقيفي بلا شك ولا خلاف فيه، ولهذا لا يجوز تعكيسها.»

والنصوص الواردة في هذا الباب مترادفة كما قال السيوطي وساق طائفة منها أنظر البرهان 1/ 256، الاتقان : 1/ 63. والمدخل لعلوم القرآن والتفسير ص : 107.

(10) أما عدد المصاحف التي نسخت في عهد عثمان وأرسل بها إلى الآفاق فيرى أكثر العلماء أنها أربع، بعث واحدا إلى الكوفة وواحدا إلى البصرة، وواحدا إلى الشام وأبقى في المدينة واحدا.

ويرى أبو حاتم السجستاني أن عثمان كتب سبع نسخ وانفذها إلى مكة والبصرة والكوفة والشام واليمن والبحرين وترك عند أهل المدينة واحدة. أنظر فضائل القرآن لابن كثير الملحق بتفسيره7/ 445 والاتقان : 1/ 60.

(11) مالك بن أنس صاحب الموطأ، وله كتاب : «التفسير لغريب القرآن»/ ت : 179هـ أنظر الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب» لابن فرحون ص : 27 وترتيب المدارك : 1/ 104.

(12) هو أبو بكر ابن الطيب المعروف بالباقلاني صاحب اعجاز القرآن، ونكت الانتصار لنقل القرآن ت : 403هـ أنظر وفيات الابن خلكان 4/ 269، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي/ 168.

اعلم أن الأمر في ذلك كيفما قدر فلابد من رعي التناسب، والتفات التواصل والتجاذب، فإن كان بتوقيف منه ﷺ، فلا مجال للخصم بعد ذلك التحديد الجليل والرسم، وإن كان مما فوض فيه الأمر إلى الأمة بعده فقد أعمل الكل من الصحابة في ذلك جهده، وهم الأعلياء بعلمه، والمسلم لهم في وعيه وفهمه، والعارفون بأسباب نزول الآيات، ومواقع الكلمات، وإنما ألفوا القرآن على ما كانوا يسمعونه من رسول الله ﷺ، وهذا قول مالك رضي الله عنه في حكاية بعضهم عنه، ومالك أحد القائلين بأن ترتيب السور اجتهاد من المسلمين كما تقدم عنه، فكيف ما دار الأمر، فمنه ﷺ عرف ترتيب السور، وعلى ما سمعوه منه بنوا جليل ذلك النظر، فإذا إنما الخلاف هل ذلك بتوقيف قولي أو بمجرد استناد فعلي بحيث بقي لهم فيه مجال للنظر ؟ فهذا موضع الخلاف(13).

فإن قيل إذًا كانوا قد سمعوا منه كما استقر عليه ترتيبه ففيم إذاً عملوا الأنظار، وأي مجال بقي لهم بعد للاختيار ؟ فالجواب انا قد روينا/ في صحيح مسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال : صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح بالبقرة، فقلت يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران....... الحديث(14).

فلما كان ﷺ ربما فعل هذا إرادة التوسعة على الأمة، وبيانا لجليل تلك النعمة، كان محلا للتوقف حتى استقر النظر على رعي من كان من فعله الأكثر فهذا محل اجتهادهم في المسألة والله اعلم.

ثم يشهد لما بنينا كتابنا هذا عليه ما روينا في مصنف ابن ابي شيبة عن أناس من أهل المدينة قال الحكم : أرى منهم أبا جعفر قال : كان رسول الله

---

(13) سبق تفصيل ذلك في المبحث الثاني من هذا الكتاب ص 43 وما بعدها.

(14) أخرجه أحمد في مسنده 5/ 397 وقارن بـ : 384، ومسلم في صحيحه «كتاب صلاة المسافرين وقصرها : 536/1.

ﷺ يقرأ في الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين، فأما سورة الجمعة فيبشر بها المومنين ويحرضهم، وأما سورة المنافقين فيؤيس بها المنافقين ويوبخهم[15].

وحكى الخطابي[16]. ان الصحابة لما اجتمعوا على القرآن، وضعوا سورة القدر عقيب العلق، واستدلوا بذلك على أن المراد بهاء الكتابة في قوله : «إنا أنزلناه في ليلة القدر» (القدر : 1) اشارة إلى قوله : اقرأ، قال القاضي أبو بكر ابن العربي[17]. وهذا بديع جدا، قلت : ومن ظن ممن اعتمد القول بأن ترتيب السور اجتهاد من الصحابة أنهم لم يراعوا في ذلك التناسب والاشتباه فقد سقطت مخاطبته، وإلا فما المراعى وترتيب النزول غير ملحوظ في ذلك بالقطع، بل هذا معلوم في ترتيب آي القرآن، الواقع ترتيبها بأمره عليه السلام وتوقيفه بغير خلاف، ألا ترى أن سورة البقرة من المدني وقد تقدمت سور القرآن بتوقيفه عليه السلام في الصحيح المقطوع به، وتقدم المدني على المكي في ترتيب السور والآي كثير جدا، فإذا سقط تعلق الضمان بترتيب النزول لم يبق إلى رعي التناسب والاشتباه، وارتباط النظائر والاشباه.

---

(15) أما قراءة رسول الله ﷺ يوم الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين، فقد أخرجه الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة وابن عباس رضي الله عنهما.
أنظر صحيح مسلم 2/ 597 و599. وأخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، وأما بسياقة ابن أبي شيبة التي ذكرها المصنف فأخرجه سعيد بن منصور، والطبراني في الأوسط بسند حسن عن أبي هريرة قال : كان ﷺ يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة فيحرض بها المومنين وفي الثانية بسورة المنافقين فيقرع بها المنافقين، كما أخرج هذا الحديث غير المذكورين أنظر الدر المنثور : 6 / 215 و 222.

(16) هو الامام العلامة أحمد بن محمد ابن ابراهيم ابن الخطاب البستي أبو سليمان فقيه محدث لغوي مصنف كبير، له كتب كثيرة وآراء سديدة، من آثاره المطبوعة : معالم السنن (شرح سنن أبي داود)، إصلاح غلط المحدثين، غريب الحديث. وله شرح على البخاري وكتب أخرى توفي سنة : 388هـ. قال الذهبي كان ثقة مثبتا من أوعية العلم أنظر تذكرة الحفاظ 1018/3.

(17) هو محمد بن عبد الله بن محمد المعروف بابن العربي المعافري الاشبيلي المالكي ولد في اشبيلية ورحل إلى المشرق وعاد بعلم كثير وتفنن في علوم كثيرة وتولى القضاء. قال ابن بشكوال ختام علماء الأندلس وآخر أئمتها وحفاظها ترك ثروة علمية كبيرة في مصنفات جليلة تدل على بلوغه رتبة الاجتهاد منها : أحكام القرآن، وعارضة الأحوذي، في شرح الترمذي، والعواصم من القواصم، والقبس شرح موطأ مالك بن أنس، ومسائل الخلاف في عشرين مجلدا، وقانون التأويل وغيرها من الكتب، ويجمع إلى ذلك كله آداب الأخلاق مع حسن المعاشرة ولين الكنف وحسن العهد وثبات الود توفي سنة 543 خارج فاس ونقل إليها ودفن خارج باب المحروق. أنظر وفيات الأعيان : 4/ 296. وتاريخ قضاة الأندلس : ص : 105، نفح الطيب 2/ 25 والصلة : 590/2. الاعلام 230/6. ازهار الرياض للمقري : 62/3، فهرسة ابن خير ص : 54. أحكام صنعة الكلام للكلاعي ص : 191. مطمح الأنفس للضبي : 369. الغنية القاضي عياض ص : 133، الخريدة للعماد الاصفهاني : 2/ 296.

وتدبر بعقلك وضوح ذلك في عدة سور كالانفال وبراءة، والطلاق والتحريم، والتكوير والانفطار، والضحى والم نشرح، والفيل وقريش، والمعوذتين إلى غير هذه السور مما لا يتوقف في وضوحه من له أدنى نظر.

وقد (مال)[18]. القاضي ابو محمد عبد الحق بن عطية[19]. رحمه الله في ترتيب السور إلى القول بالتفصيل[20]. وهو أن كثيرا من سور القرآن قد كان علم ترتيبها في أيامه ﷺ كالسبع الطوال، والحواميم، والمفصل، وأشار كلامه إلى أن ما سوى ذلك يمكن ان يكون عليه السلام فوض فيه الأمر إلى الأمة بعده، ولم يقطع القاضي أبو محمد في هذا القسم الثاني بشيء[21].

وظواهر الآثار شاهدة بصحة ما ذهب إليه في أكثر ما نُص عليه، ثم يبقى بعدُ قليلٌ من السور يمكن فيها جري الخلاف أو يكون وقع، وإذا كان مستند المسألة النقل لم يصعب خلاف غير أهله، على أن ما مهدناه من المراعاة في الترتيب حاصل لا محالة على كل قول، ولنورد هنا بعض ما يشهد بظاهره من الآثار لما قاله القاضي أبو محمد على ما نطنا به فمن ذلك :

قوله عليه السلام : (اقرأوا الزهراوين : البقرة وآل عمـران)[22]. في حديث خرجه مسلم وغيره، وخرج أيضا قوله ﷺ : (يوتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمه سورة البقرة وآل عمران[23].

---

(18) في النسختين قال والسياق يقتضي ما أثبتناه.

(19) هو عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي الغرناطي أبو محمد القاضي من بيت علم وفضل وكرم ونبل، كان فقيها نبيها مفسرا أديباً شاعراً لغوياً أثنى عليه المصنف في كتابه الصلة وقال مولده 481هـ. وتوفي في 25 رمضان 341هـ بمدينة لورقة، ومن أشهر مصنفاته المحرر الوجيز وهو جليل الفائدة عظيم العائدة أنظر في ترجمته : تاريخ قضاة الأندلس : ص : 109، المعجم في أصحاب الصدفي ص : 269، والاعلام : 3/ 282.

(20) ما بين القوسين زيادة ليلتئم الكلام.

(21) أنظر المحرر الوجيز : 1/ 35.

(22) أخرجه مسلم من حديث أبي أمامة الباهلي ونصه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه اقرأوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما.... الحديث أنظر : 1/ 553 كما أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن وأحمد وابن حبان والحاكم والبيهقي في سننه أنظر الدر المنثور : 1/ 18.

(23) أخرجه مسلم : 1/ 554 والترمذي : الحديث رقم : 3045 المجلد الرابع من حديث النواس بن سمعان ولفظه (يأتي القرآن وأهله الذين يعملون به في الدنيا تقدمه سورة البقرة وآل عمران قال نواس : (وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد، قال يأتيان كأنهما غيايتان وبينهما شرق أو كأنهما غمامتان سوداوان، أو كأنهما ظلة من طير صواف تجادلان عن صاحبهما) كما أخرجه أحمد وغيرهم. أنظر الدر المنثور : 1/ 18.

وفي مصنف ابن أبي شيبة عن معبد بن خالد[24]. قال: (صلى رسول الله ﷺ بالسبع الطوال في ركعة)[25]، وفيه أنه عليه السلام (كان يجمع المفصل في ركعة)[26].

وفي صحيح البخاري عن عبد الرحمن بن زيد قال سمعت عبد الله بن مسعود يقول في بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء: إنهن من العتاق الأولى، وهن من تلادي[27]، فذكرها نسقا كما استقر ترتيبها.

وفي صحيح البخاري أيضا عن عائشة (أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما قل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس..... الحديث[28].

وفي المصنف[29] عن عمر أنه قرأ في ركعة واحدة ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، ولايلاف قريش، وروى أنهما في مصحف أبي[30] غير مفصول بينهما

(24) معبد بن خالد الجهني أبو زرعة قديم الاسلام كان من الذين حملوا ألوية جهينة يوم الفتح توفي سنة 72هـ، وله رواية أنظر تجريد أسماء الصحابة 2/ 84 والاصابة: 3/ 439.

(25) وفيه حدثنا علي بن هشام ووكيع ابن أبي ليلى عن عبد الكريم عن معبد بن خالد قال: صلى رسول الله ﷺ بالسبع الطوال في ركعة، إلا أن وكيعا قال: قرأ. وأنظر أيضا في مصنف عبد الرزاق عن ابن جريج عن عبد الكريم عن رجل قال: أخبرني بعض أهل النبي ﷺ فساق الحديث وفيه فقرأ بالسبع الطول في ركعة 2/ 147.

(26) ولفظه عن عبد الله بن شفيق العقيلي قال: قلت لعائشة كان رسول الله ﷺ يجمع بين السور في ركعة قالت: نعم المفصل، المصنف: 368/1، كما أخرجه الامام أحمد: 5/ 204.
والمفصل هو أواخر القرآن الكريم سمي بذلك لكثرة الفصول بين السور بالبسملة وقيل لقلة المنسوخ منه ولهذا سمي بالمحكم أيضا وفي تحديد أوله أقوال صحح أن أوله سورة الحجرات وذكر السيوطي الخلاف في أوله على إثني عشر قولا. الاتقان: 1/ 180.

(27) أنظر البخاري 8/ 388 و435 و39/9، والعتاق جمع عتيق وهو القديم أو هو كل ما بلغ الغاية في الجودة والاتقان، وقوله هن من تلادي أي مما حفظ قديماً، والتلاد: قديم الملك وهو بخلاف الطارف ولفظ البخاري في المواضع الثلاثة المشار إليها (من العتاق الأول)، ولا يخفى أن السبع الطوال هي البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنعام، الأعراف، والسابعة أما الأنفال وبراءة، لعدم الفصل بينهما بالبسلمة، وما يونس، وأما الكهف. أنظر الاتقان ج: 1 ص 179.

(28) أخرجه الامام أحمد في مسنده: 116/6 و154 والبخاري في صحيحه 9/ 62، وأبو داود في سننه رقم 5056 والترمذي في جامعه: 4/ 231 والنسائي في اليوم والليلة رقم: 788، وابن ماجة رقم: 3875، وله طرق لكن مداره على ابن شهاب الزهري عن عروة عن عائشة، وهو في مسلم من طريق مالك عن ابن شهاب بأطول من سياقه في الكتب المتقدمة.

(29) يقصد مصنف ابن أبي شيبة.

(30) أبي بن كعب ابن قيس بن عبيد أبو المنذر الأنصاري رضي الله عنه أقرأ الأمة عرض القرآن على النبي ﷺ وقرأ النبي عليه خاصة بأمر من الله سبحانه وتعالى وتلقى عنه القراءة عدد من الصحابة وجمع من التابعين شهد غزوات رسول الله ﷺ بدرا وما بعدها كلها ومناقبه كثيرة وكان يختم القرآن في ثمان وقال له النبي ﷺ ليهنك العلم أبا المنذر وهو أحد أربعة أمر النبي ﷺ أن يتلقوا عنهم القرآن قال الذهبي: وهو أقرأ من أبي بكر وعمر وفضله في هذا الباب شهير كثير أنظر: معرفة القراء الكبار للذهبي 1/ 32.

بالبسملة(31).

قلت والوارد من هذا عن النبي ﷺ وعن كبار الصحابة قبل كتب المصحف كثير ومروي من طرق شتى، وفي أحوال مختلفة، فإن قيل فقد كان يجب على ما أشرت إليه أن يكون القول بالتوقيف أكثر وأشهر، والأمر على خلاف ذلك، فإن مالكا رحمه الله، والقاضي أبا بكر من المتكلمين وأكثر أهل العلم قائلون بأن ترتيب السور اجتهاد من الصحابة وقد مر(32).

فالجواب أن الآثار المستفيضة والمقطوع به منها، إنما ورد ذلك في الأكثر ولم يرد فيما بين كل سورتين سورتين، ولا شك أنه إذا بقي بعض ذلك لاجتهادهم ولو فيما بين سورتين(33)، جرى المقول المشهور عليه وصح اعتماده، ثم أن الآثار إنما وقعت بفعل، لا بقول وأمر يحصل منه التوقيف. فإذا قد آل الأمر إلى أن تلك الآثار هي مستند اجتهادهم وأصل اتفاقهم، وهذا أراد مالك رحمه الله بقوله : وإنما ألفوا القرآن على ما كانوا يسمعونه من رسول الله ﷺ، وهذا القدر كاف في المقصود، والحمد لله رب العالمين.

سورة أم القرآن(34)

قد ذكر الناس كيفية تضمنها مجملاً لما تفصل في الكتاب العزيز

(31) قال القرطبي في تفسيره : 10/ 200 قيل أن هذه السورة (لإيلاف قريش) متصلة بالتي قبلها في المعنى يقول أهلكت أصحاب الفيل لإيلاف قريش أي لتأتلف أو لتتفق قريش أو لكي تأمن قريش فتؤلف رحلتيها، وممن عد السورتين واحدة أبي بن كعب ولا فصل بينهما في مصحفه وقال سفيان بن عيينة : كان لنا إمام لا يفصل بينهما ويقرأهما معاً، وقال عمر بن ميمون الاودي : صلينا المغرب خلف عمر رضي الله عنه فقرأ في الأولى والتين والزيتون وفي الثانية ألم تر كيف فعل ربك ولإيلاف قريش، وقال القراء هذه السورة (لايلاف قريش) متصلة بالسورة الأولى (ألم تر).

(32) نقل السيوطي في الاتقان وقال كل مذهب واختار ما ذهب إليه البيهقي من أن ترتيب جميع سور القرآن توقيفي إلا الأنفال وبراءة. الاتقان : 1/ 179.

(33) وهو مذهب البيهقي والسيوطي اللذين يريان بأن ترتيب السور كلها توقيفي إلا سورتي الأنفال وبراءة. الاتقان : 1/ 179.

(34) سأقتصر في تعليقي على هذه السورة على توضيح أوجه التناسب التالية :
أ ـــ **تسمية السورة** : تسمى هذه السورة بأم القرآن، وهذا الاسم من أبرز أسمائها وقد وردت أحاديث كثيرة في شأنها منها :

= ــ ما أخرجه الترمذي في جامعة (132/4) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : الحمد لله أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثاني، وقال عنه : حسن صحيح :

ــ ما أخرجه مالك في الموطأ 106/1 ومسلم في صحيحه 9/2، وأحمد في مسنده 250/2 وغيرهم أن رسول الله ﷺ قال : «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج». أنظر تخريج الحديث في فضائل القرآن للنسائي ص : 74.

ــ ومنها قول أبي هريرة في البخاري 2/ 251 «وان لم تزد على أم القرآن أجزأت». ولهذا جوز العلماء تسميتها بأم القرآن، وقد كرهه أنس بن مالك وابن سيرين، والأحاديث الثابتة ترد قولهما. أنظر المحرر الوجيز 62/1، وتفسير القرطبي 1/ 111.

وتسميتها بأم القرآن لأن أم الشيء ابتداؤه وأصله، ومنه سميت مكة أم القرى، وقيل سميت أم القرآن لاشتمالها عن المعاني التي في القرآن من الثناء على الله تعالى والتعبد بالأمر والنهي، والوعد والوعيد، وعلى ما فيها من ذكر الذات والصفات والفعل واشتمالها على ذكر المبدأ والمعاد والمعاش.

وللسورة أسماء أخرى منها : أم الكتاب، السبع المثاني، والكنز، والشافية، والكافية، والحمد، والحمد لله، والأساس، والشكر، وغيرها، وقد وردت في هذه الأسماء أحاديث أو آثار. أنظر البخاري : 8/ 155، 156 وتفسير القرطبي 1/ 111.

ب ــ **فضلها** : وردت أحاديث كثيرة تبين فضلها وتعلي شأنها وتحض على التحصن بها، وقد وصفها النبي ﷺ بأنها أعظم سورة في القرآن كما جاء في حديث أبي سعيد بن المعلى قال : كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه، فقلت يا رسول الله إني كنت أصلي، فقال ألم يقل الله «استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم» ثم قال لي لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد، ثم أخذ بيدي فلما أراد أن يخرج قلت : ألم تقل لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن ؟ قال الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته، أخرجه الشيخان وأحمد وغيرهم.

ج ــ **مناسبتها** : جاءت هذه السورة على قصرها متصدرة للكتاب العزيز، وقد راح العلماء والمفسرون يتلمسون سر افتتاح القرآن بها حتى صارت كالعنوان له. قال الحسن البصرى : إن الله أودع علوم الكتب السابقة في القرآن، ثم أودع علوم القرآن في المفصل، ثم أودع علوم المفصل في الفاتحة وبني الامام فخر الرازي على ذلك رأيه ــ عند تفسيره لسورة الفاتحة ــ فقال : المقصود من القرآن كله تقرير أمور أربعة : الالهيات، والمعاد، والنبوات وإثبات القضاء والقدر. فقوله : «الحمد لله رب العالمين» يدل على الالهيات. وقوله «مالك يوم الدين» يدل على نفي الجبر وعلى إثبات أن الكل بقضاء الله وقدره، وقوله «إهدنا الصراط المستقيم» إلى آخر السورة، يدل على قضاء الله وعلى النبوات.

ومع اشتمال هذه السورة على المطالب الأربعة التي هي المقصد الأعظم من القرآن، فقد اشتملت على الألفاظ الحسنة والمقاطع المستحسنة وأنواع البلاغة وهذا هو الغاية في براعة الاستهلال.

يقول السيوطي : أحسن البلاغة عند البيانيين هو أن يتأنق في أول الكلام لأنه أول ما يقرع السمع، فإن كان محررا قَبِلَ السامع قَبِل الكلام ووعاه، وإلا أعرض وان كان في نهاية الحسن. ثم قال : ومن الابتداء الحسن نوع أخص منه يسمى براعة الاستهلال وهو أن يشتمل أول الكلام على ما يناسب الحال المتكلم فيه، ويشير إلى ما سبق الكلام لأجله، والعلم الأسنى في ذلك سورة الفاتحة التي هي مطلع القرآن. معترك الاقران 1/ 74، 75.

بجملته(35). وهو أوضح وجه في تقدمها سوره الكريمة. ثم هي مما يلزم المسلمين حفظه، ولابد للمصلين من قرائتها(36)، ثم افتتاحها بحمد الله(37) سبحانه. وقد شرع في ابتداءات الأمور، وأوضح الشرع فضل ذلك(38) وأخذ به كل خطيب ومتكلم، وفيها تعقيب الحمد له سبحانه بذكر صفاته الحسنى والاشارة إلى إرسال الرسل في قوله، «إهدنا» وقوله «صراط الذين أنعمت عليهم»، وقد قال تعالى: «أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده (الأنعام 90) وذكر افتراق الخلق بذكر المهتدين، وذكر المغضوب عليهم ولا الضالين، وان ملاك الهدى بيده، «وإياك نستعين» وهذا كله أشفى شيء في بيان التقديم.

---

(35) يشير المؤلف إلى أن المفسرين تعرضوا لبيان مدلول سورة الفاتحة، وتضمنها لمقاصد القرآن الكريم، وقلما تجد تفسيرا يخلو من ذلك، وقد فصل هذه المقاصد بكلام نفيس الامام الغزالي في كتابه جواهر البيان ص. 38. كما أفاض ابن القيم في كتابه القيم «مدارج السالكين بين منازل اياك نعبد واياك نستعين» في تجلية أسرار هذه السورة التي جعلها أساس كتابه هذا الذي يقع في ثلاث مجلدات.

(36) للحديث الذي أخرجه الشيخان وأصحاب السنن من حديث عبادة ابن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» أنظر فيض القدير 6/ 429.

(37) لقد تساءل المؤلف ـــ رحمه الله ـــ عن وجه افتتاح السور الخمس وهي: سورة أم القرآن وسورة الأنعام، وسورة الكهف، وسورة سبأ، وسورة فاطر، بقوله: «الحمد لله» واختصاصها بذلك مع تساوي السور كلها في استقلالها بأنفسها وامتياز بعضها من بعض. فأجاب بقوله: أما أم القرآن فهي أول السور ومطلع القرآن العظيم بالترتيب الثابت، فافتتاحه بحمده تعالى بين، وأما سورة الأنعام فمشيرة إلى إبطال مذهب الثنوية ومن قال بمثل قولهم ممن جعل الأفعال بين فاعلين.... وإذ كانت هذه السور مشيرة إلى ما ذكر وانفردت بذلك فافتتاحه بحمده تعالى بين،..... وأما سورة الكهف فكذلك لبنائها على قصة أصحاب الكهف وذكر ذي القرنين حسبما ألفت يهود لسائلهم من كفار قريش وذلك مما لم يتكرر في القرآن فافتتحت بحمده تعالى وذلك بين. وأما سورة سبأ فإن قصة سبأ لم يرد فيها أيضا في غير هذه السور إلا الايماء الوارد في سورة النمل. وجئتك من سبإ بنبإ يقين (21)، فلما تضمنت سورة سبأ من هذا ما تضمنت ومن قصص داود وسليمان عليهما السلام وما منحهما الله سبحانه وتعالى من تسخير الجبال والطير والجن وإلانة الحديد، ولم يجتمع مثل هذا التعريف في سواها، افتتحها سبحانه بحمده وانفراده بملك السموات والأرض وما فيهما، وانه أهل الحمد في الدنيا والآخرة. وأما سورة فاطر ففيها التعريف بخلق الملائكة عليهم السلام وجعلهم رسلا أولي أجنحة: إلى خلق السموات والأرض وإمساكهما أن تزولا وانفراده بذلك، ولم يقع هذا التعريف في غيرها من سور القرآن فناسب هذه المقاصد التي لم ترد في غير هذه السور، فناسب ما افتتحت به ولا يلزم على هذا اطراد ذلك في كل سورة انفردت بحكم أو تعريف ليس في غيرها، بل جواز ذلك منسحب على الجميع، واختصاص هذه السور بذلك واضح لانفرادها بما ذكرناه. أنظر ملاك التأويل: 1/ 150 و154 وما بعدها:

(38) لقول الرسول ﷺ: «كل أمر ذي بال لم يبدأ فيه بحمد الله فهو أقطع» أنظر طرق تخريج الحديث والكلام عليه في «عمل اليوم والليلة» ص: 494.

سـورة البقـرة[39].

لما قال العبد بتوفيق ربه «إهدنا الصراط المستقيم» قيل له : «ذلك الكتاب لا ريب فيه» (آية 2) هو مطلوبك وفيه أربك، وهو الصراط المستقيم «هدى للمتقين» (آية 2) القائلين إهدنا الصراط المستقيم والخائفين من حال الفريقين المغضوب عليهم ولا الضالين، فاتخذوا وقاية من العذاب خوف ربهم وتقواه بامتثال أمره ونهيه، ثم أشير من الأعمال إلى ما يستحق سائرها من قبيلي البدنيات والماليات بيانا للصراط المستقيم فقيل في وصف المتقين أنهم «الذين يومنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون» (البقرة 3) وحصل من هذا حصر الفعل والترك الضابطين لجميع الأعمال كيف ما تشعبت كما في مهد التفسير عند ضم ما ورد هنا إلى قوله : «إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر» (العنكبوت 45) ووقع الفعل صريحا والترك إيماء للتناسب المبين خيث ذكر، ثم بين لهم قدر النعمة عليهم في طلب الهدى من الله في قولهم «اهدنا» قيل : «إن الذين كفروا.... الآية

(39) هذه السورة مدنية وهي أول ما نزل بالمدينة وآياتها مائتان وسبع وثمانون آية وقيل ست وثمانون وقيل خمس وثمانون. وهي من أعظم السور القرآنية وأطولها، نزلت في أزمان متباعدة، فقد صح أن قوله تعالى : «واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله» مع آيات الربا من آخر القرآن نزولا. أنظر الفتح البارى 8/ 205.

وهي مليئة بآيات الاحكام والتشريع، ولعظيم فقهها اقام عبد الله ابن عمر ثماني سنين في تعلمها، ولهذا سميت فسطاط القرآن، ووصفها الرسول ﷺ بأنها سنام القرآن. انظر موارد الظمآن على صحيح ابن حبان الحديث رقم 1727.

ومما يمكن تاكيده وابرازه في الربط بين هذه السورة وسورة الفاتحة هو ان فاتحة الكتاب لما علمت المومنين ان يسألوا الله عز وجل سلوك الطريق المستقيم ويجنبهم طريق المغضوب عليهم والضالين، وبين رسول الله ﷺ ان المغضوب عليهم هم اليهود، والضالين هم النصارى كما جاء ذلك في الحديث الذي اخرجه الترمذي في جامعه 4 /76 عن عدي بن حاتم قال : رسول الله ﷺ : اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضلال، جاءت هذه السورة مفصلة لحال وتعنت المغضوب عليهم، وكان اكثر الحديث فيها عن اليهود — الذين ذكروا في سورة الفاتحة قبل النصارى الضلال — معالجة كبريات القضايا التي عرضت لانبياء بني اسرائيل، وابانت عن مستوى تفكير هؤلاء القوم وقصور نظرهم، ولهذا سميت باسم حدث بارز من احداثهم، وفندت دعواهم الصلة بابراهيم ابي الانبياء وصاحب الحنيفية السمحة، لتبين الطريق المستقيم الذي سلكه هو ومن جاء بعده من المومنين، وليكون جليا للسائرين عليه الذين وصفهم الله عز وجل بقوله «صراط الذين انعمت عليهم» ومن اخص خصائصهم الايمان بالغيب والتماس الهداية من الله تعالى.

وهذا كله بيان وتفصيل لذلك الاجمال الوارد في سورة الفاتحة وتنبيه على خط الانحراف الذي الحق غضب الله ببني اسرائيل والله اعلم.

(البقرة : 6) ليعلموا أن الهدى من عنده فيلحوا في الطلب ويتبرؤوا من ادعاء حول أو قوة.

تم نبهوا على الاخلاص، وان يكون قولهم «اهدنا الصراط» صادرا عن يقين وإخلاص حتى لا يشبهوا من يقول : «آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمومنين» (البقرة : 8)، وبسط لهم حال هؤلاء في ثلاث عشرة آية ما يوضح لهم طريق الهدى الواضح، إذ حذروا من شكك هؤلاء وحيرتهم فقالوا : إهدنا عن يقين وإخلاص، ثم اعقب ذلك الدلائل المشاهدة من جعل الأرض فراشا والسماء بناء وإنزال الماء وإخراج النبات وذلك كله أمر مشاهد يصل إليه كل عاقل بأول وهلة.

ثم اعقب بابتداء الخلق وهو قوله تعالى : «وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة» (البقرة : 30) وذلك كله مبين لقوله «رب العالمين ملك يوم الدين» إذ من البدأة تعلم العودة لمن تدبر، وقد نبه تعالى بتكرر النبات.

ثم ذكر أحوال بني إسرائيل وامهالهم على مرتكباتهم ومعاملتهم بالعفو والاقالة وذلك مبين سعة رحمته، واعلم تعالى أن أفعالهم تلك مما أعقبهم أن «ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله» (البقرة : 61) تحذيرا لمن طلب سلوك الطريق المستقيم من حالهم، واعلاما لعباده أن المتقين المستجاب لهم عند قولهم «إهدنا» ليسوا في شيء من ذلك لأنهم/ قالوا إهدنا عن يقين وإخلاص متبرين من المساوىء.

ثم اعقب تعالى تفصيل أحوال هؤلاء بقوله : «وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن «البقرة 124) ليبين أحوال المصطفى من أهل الصراط المستقيم فأنبأ تعالى بحال إبراهيم، وإتمام ما ابتلاه به من غير توقف ولا بحث عن علة، وهي أسنى أحوال العباد، وفي طرف من حال من قدم من بني إسرائيل وهذا الموضع ممايعضد ما ظهر في قصة أمر بني إسرائيل في ذبح البقرة من وجوه الحكمة، فتوقفوا وشددوا بعد إسائتهم الأدب مع نبيهم فأورثهم ذلك نكالا وبعدا.

فالصراط المستقيم حال إبراهيم عليه السلام ومن ذكر من الأنبياء والرسل «أولئك الذين هدى الله» (الأنعام 90) وهم المنعم عليهم.

ثم أعقب ذلك بما نسبوا لابراهيم وبنيه المصطفين بعد أن بين حاله فقال : «أم يقولون أن إبراهيم... الآية (البقرة : 140) وبين فساد اليهودية والنصرانية وبرأ نبيه إبراهيم والأنبياء عن ذلك، وأوضح أن الصراط المستقيم هو ما كانوا عليه لا اليهودية ولا النصرانية.

ثم ذكرهم بوحدانيته تعالى «وإلهكم إله واحد» (البقرة : 163) ثم نبه على الاعتبار ودلائل التوحيد، وبين حال من اعتمد سواه جل وتعالى فقال : «إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا» (البقرة : 166) وبين سوء حال المشركين وأنهم لاحقون باليهود والنصارى في انحرافهم عن الصراط المستقيم وحيدتهم عن الجادة، ووقع تنبيه هؤلاء بدون ما تضمنه تنبيه بني إسرائيل من التقريع والتوبيخ لفرقان ما بينهم لأن كفر هؤلاء تعنيت بعد مشاهدة الآيات «وجعلنا قلوبهم قاسية» (المائدة : 13).

ومتى بين شيء في الكتاب العزيز من أحوال النصارى فليس على ما ورد مثله في (بني إسرائيل)[40] لما ذكر، وخطاب مشركي العرب فيما أشير إليه دون خطاب الفريقين إذ قد تقدم لهم (ذكر)[41] ما لم يتقدم للعرب، وبشروا في كتبهم وليس لمشركي العرب (مثل ذلك)[42]، والزيغ عن الهدى شامل للكل، وليسوا في شيء من الصراط المستقيم، مع أن أسوأ الأحوال حال من أضله الله (على علم)[43].. وان الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد (البقرة : 176).

وهنا انتهى ذكر ما حذر منه ونهى عنه من أراد سلوك الصراط المستقيم، وبيان حال من حاد عنه وتنكبه، وظن أنه على شيء، وضم مفترق أصناف الزائغين في

(40) ب : «اليهود أي أن كفرهم تعنت».
(41) ساقطة من : ب
(42) ساقطة من : أ
(43) ب : بعد العلم. وسقطت الآية «وان الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد».

أصناف ثلاثة وهم : اليهود، والنصارى، وأهل الشرك، وبهم يلحق سائر من تنكب فيلحق باليهود منافقو أمتنا ممن ارتاب بعد إظهار إيمانه وفَعل أفاعيلهم من المكر والخديعة والاستهزاء، ويحلق بالنصارى من اتصف بأحوالهم، وبالمشركين من جعل لله ندا (أو اعتقد)(44). فعلا لغيره تعالى(45) على غير طريقة الكسب، والمجوس لا حقون بأهل(46) الشرك، والشرك أكثر هذه الطرق السيئة تشعبا، ولهذا قال ﷺ : «الشرك في أمتي أخفى من ذبيب النمل»(47)، ومن فعل أفعال من ذكر ولم ينته به الأمر إلى مفارقة دينه والخروج في شيء من اعتقاده خيف عليه أن يكون ذلك وسيلة إلى اللحوق بمن تشبه به وإلى هذا أشار عليه السلام بقوله «أربع من كن فيه كان منافقا خالصا»(48). إلى أشباه هذا من الأحاديث.

ثم ذكر تعالى من أول آية «ليس البر» (177) ما لزم المتقين لما بين لهم ما هو خروج عن الصراط المستقيم، وحذروا منها عقب ذكر ما يلزمهم، فابتدىء من هناك بذكر الأحكام إلى قوله : «آمن الرسول» خاتمة السور، وفصل لهم كثيرا مما كلفوه، فذكر الايمان وفصل تفصيلا لم يتقدم، وأعقب بذكر الصدقة وموقعها على التفصيل، وفي ذكر إتيان المال عقب الايمان إشعارا بما فيه السلامة من فتنة المال «إنما أموالكم وأولادكم فتنة» التغابن : 15)، وإشارة من الآية إلى أنه يبعد حب المال بل يستحيل وجوده ممن أحب الله سبحانه، وان محبة الله تعالى تهون عليه كل شيء «لا تمدن عينيك.... إلى لا نسألك رزقا» (طه : 131 — 132)، ثم ذكر الزكاة والصيام والحج والجهاد إلى غير ذلك من الأحكام كالنكاح والطلاق والعُدد والحيض والرضاع والحدود والربا والبيوع إلى ما تخلل هذه الآيات من تفاصيل

---

(44) ب : واعتقد.

(45) ب : ساقطة.

(46) ب : لاهل.

(47) الترمذي وأبو يعلي وابن عدي وابن حبان واحمد والطبراني والبزار والحاكم وأبو نعيم في الحلية وقال الحاكم صحيح وضعفه الذهبي وغيره، انظر فيض القدير 4 /172.

(48) تمام الحديث (ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر) أخرجه أحمد في مسنده والبخاري في صحيحه 1 /89. ومسلم في صحيحه 1 /78. واصحاب السنن عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

الأحكام ومجملها، وقدم منها الوفاء بالعهد والصبر، لأن ذلك يحتاج إليه في كل الأعمال، وما تخلل هذه الآيات من لدن قوله :«ليس البر إلى قوله آمن الرسول» آية : 177 ـــ 185) مما ليس من قبيل الإلزام والتكليف فلسبب أوجب ذكره ولتعلق أو نسق استدعاه

ولما بين سبحانه أن الكتاب هو الصراط المستقيم، وذكر افتراق الأمم كما شاء، وأحوال الزائغين والمتنكبين تحذيرا من حالهم ونهيا عن مرتكبهم وحصل قبيل التروك بجملته وانحصار التاركين، واعقب بذكر ملتزمات المتقين وما ينبغي لهم امتثاله والأخذ به من الأوامر والأحكام والحدود، اعقب[49] ذلك بأن المرء يجب أن ينطوي على ذلك ويسلم[50] الأمر لمالكه فقال تعالى : «آمن الرسول» (آية : 285) فاعلم أن هذا إيمان الرسول ومن كان معه على إيمانه وأنهم قالوا : «سمعنا وأطعنا» (البقرة : 325) لا كقول بني إسرائيل «سمعنا وعصينا» (البقرة : 93) وأنه اثابهم على إيمانهم برفع الإصر والمشقة والمؤاخذة بالخطا والنسيان عنهم[51] فقال : «لا يكلف الله نفسا إلا وسعها» (البقرة : 286) فحصل من هذه السورة[52] بأسرها بيان الصراط المستقيم على الاستيفاء والكمال اخذا وتركا، وبيان شرف من أخذ به، وسوء حال من تنكب عنه، وكأن العباد لما عُلّموا (أن يقولوا)[53] اهدنا الصراط المستقيم إلى آخر السورة قيل لهم عليكم بالكتاب إجابة لسؤالهم، ثم بين لهم حال من سلك ما طلبوه، فكان قد قيل لهم أهل[54] الصراط المستقيم وسالكوه هم الذين من شأنهم وأمرهم، والمغضوب عليهم من المتنكبين هم اليهود الذين من أمرهم وشأنهم، والضالون هم النصارى الذين من شأنهم وأمرهم.

(49) ب. واعقب.
(50) أ : وان يسلم.
(51) ب : ساقطة.
(52) أ : ساقطة.
(53) ب : ساقطة.
(54) أ : أصل

فيجب على من رغب في سلوك الصراط المستقيم أن يحذر ما أصاب هؤلاء مما نُبه عليه وأن يأخذ نفسه بكذا وكذا، وأن (ينسحب إيمانه)(55) على كل ذلك وأن يسلم الأمر لله الذي يُطلب(56) منه الهداية ويتضرع إليه بأن لا يواخذه لما(57) يثمره الخطأ والنسيان وألا يُحمّله ما ليس في وسعه وأن يعفو عنه إلى آخر السؤال.

سورة آل عمران(58)

اتصالها بسورة البقرة والله أعلم من جهات :

إحداها(59) ما تبين في صدر السورة مما هو إحالة على ما ضمن في سورة البقرة بأسرها.

---

(55) أ : يستحب بايمانه.

(56) ب : تطلب.

(57) ب : بما يثمر.

(58) هذه السورة مدنية بالإجماع نزلت في النصف الأخير من السنة الثانية او السنة الثالثة للهجرة، والذي يرجح ذلك كون صدرها عالج قضايا اهل الكتاب وخاصة النصارى الذين قدموا على رسول الله ﷺ من نجران في وفد من ستين راكباً ولم يكونوا ليقدموا على من لا شأن له. بل كان قدومهم إثر غزوة بدر وإحراز المسلمين على النصر فيها كما ورد ذلك في اسباب نزول السورة. وأيضاً فقد عالج الشطر الثاني منها درس «احد» الذي كانت فيه الدائرة على المسلمين وكانت أحد بالاتفاق في السنة الثالثة، وعلى هذا فيكون نزول هذه السورة في فترة زمنية متقاربة، انظر في تفصيل وفد نجران ابن هشام 2 /175 وتفسير القرطبي 111/3.

— سميت سورتا البقرة وآن عمران بالزهراوين اي النيرتان، وقد وردت آثار في فضل السورتين وجليل مكانتهما عند الله، ففي الحديث ان اسم الله الاعظم يوجد فيهما في قوله تعالى في البقرة «والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم» وفي آل عمران في قوله تعالى «الله لا اله الا هو الحي القيوم». انظر في فضل هذه السورة تفسير القرطبي 4 /2.

— اما في مناسبة هذه السورة لما قبلها فقد ابدى صاحب المنار أوجها في ارتباطها بها منها : ان كلا من السورتين بدىء بذكر الكتاب وشأن الناس في الاهتداء به ففي الاولى ذكل اصناف الناس من يومن به ومن لا يومن والمناسب في ذلك التقديم لانه كلام في اصل الدعوة وفي الثانية ذكر الزائغين الذين يتبعون ما تشابه من ابتغاء الفتنة وابتغاء تاويله. والراسخين في العلم الذين يومنون بمحكمه ومتشابهه، والمتناسب فيه التأخير.

ومنها : ان كلا منهما قد حاج اهل الكتاب ولكن الإولى افاضت في محاجة اليهود واختصرت في محاجة النصارى، والثانية بالعكس، والنصارى متأخرون عن اليهود في الوجود وفي الخطاب بالدعوة الى الاسلام، فناسب ان تكون الافاضة في محاجتهم في الثانية.

ومنها : ان في كل منهما أحكاما مشتركة كأحكام القتال ومن قابل بين هذه الأحكام رأى أن ما في الاول أحق بالتقديم وما في الثانية أجدر بالتأخير.

ثانيها(60) الاشارة في صدر السورة أيضا إلى أن الصراط المستقيم/ قد بين شأنه لمن تقدم في كتبهم، وأن هذا (الكتاب)(61) جاء مصدقا لها «نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس» (آل عمران : 3 — 4) ليبين لأمة محمد ﷺ، أن من تقدمهم قد بين لهم «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا»(62)(الاسراء 15).

والثالثة(63) قصة عيسى عليه السلام، وابتداء أمره من غير أب والاعتبار به نظير الاعتبار بآدم عليه السلام، ولهذا أشار قوله تعالى : «إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم (آل عمران : 59) كما اتبعت قصة آدم بذكر بني إسرائيل لوقوفهم من تلك القصة(64). على ما لم تكن العرب تعرفه وانذروا وحذروا، واتبعت (أيضا)(65) قصة عيسى عليه السلام(66) بذكر الحواريين وأمر النصارى إلى آية المباهلة حسبما نبسط بعد، ولنبين وجه الانفصال من صدر السورة فأقول مستعينا بالله. إن قوله سبحانه : نزل عليك الكتاب «بيان لحال الكتاب الذي هو هدى للمتقين ولما(67) بين افتراق الأمم بحسب السابقة إلى أصناف ثلاثة، وذكر من تعنيت بني

ومنها : الدعاء في آخر كل منهما، فالدعاء في الاولى يناسب بدء الدين لان معظمه فيما يتعلق بالتكليف وطلب النصر على جاحدى الدعوة ومحاربي اهلها، وفي الثانية يناسب ما بعد ذلك لانه يتضمن الكلام في قبول الدعوة وطلب الجزاء عليه في الاخرة.

ومنها : ما قاله بعضهم من ختم الثانية بما يناسب بدء الاولى كانها متممة لها، ذلك انه بدأ الاولى باثبات الفلاح للمتقين، وختم الثانية بقوله «واتقوا الله لعلكم تفلحون» تفسير القرآن الحكيم ج : 3 /153.

(59) ب : احدها.

(60) أ : ثم.

(61) أ : ساقطة.

(62) ب : سقط من قوله وأنزل التوراة الى قوله رسولا، ولعل هذا من تصرف البقاعي، لانه أشعر بهذا في بداية كلامه عن هذه السورة بقوله، قال ابن الزبير ما حاصله، وهذا يعني انه اختصر النص وتصرف فيه على غير عادته ومنهجه.

(63) ب : والثالث .

(64) ب : القصص.

(65) ب : ساقطة.

(66) ب : زيادة «يعني هنا» بين كلمتي «السلام» و «بذكر».

(67) أ : لما.

إسرائيل وتوقفهم ما تقدم، أخبر تعالى هنا أنه أنزل عليهم التوراة وأنزل بعده[68] الانجيل وأن كل ذلك هدى لمن وفق.

ثم أشار قوله تعالى : «إن الله لا يخفى عليه شيء» (آل عمران : 5) إلى ما تقدم[69] من تفصيل أخبارهم، فكان الكلام في قوة أن لو قيل أتخفى[70] عليه مرتكبات العباد وهو مصورهم في الأرحام والمطلع عليهم حيث لا يطلع عليهم غيره.

ثم لما بلغ الكلام هنا، كأن قد قيل فكيف طرأ عليهم مع وجود الكتاب فأخبر تعالى بشأن الكتاب، وأنه محكم ومتشابه[71] وكذا غيره من الكتب والله أعلم.

---

(68) ب : بعدها.

(69) ب : (اي في البقرة) زيدت للتوضيح بين كلمتي «تقدم» و «من تفصيل».

(70) ب : أيخفى.

(71) لابد من الاشارة هنا الى المحكم والمتشابه في النص القرآني لأن قوله تعالى في الآية (7) من سورة آل عمران «هو الذي انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن ام الكتاب واخر متشابهات.... الآية» هي ام هذا الباب وأصله، وقد وقع في تحديد الآيات المحكمات والآيات المتشابهات التي بين الله عز وجل انها موجودة في النص المنزل خلاف بين العلماء تشعبت فيه ارائهم وتعددت اقوالهم كثيرا وحاصلها ان المحكمات ما عرف تاويله وفهم معناه وتفسيره، والمتشابهات ما لم يكن لاحد الى علمها سبيل مما استأثر الله بعلمه دون خلقه، وذلك مثل وقت قيام الساعة، وخروج ياجوج وماجوج، والدجال، وعيسى ونحو الحروف المقطعة في اوائل السور، وهذا احسن ما قيل في المتشابه، كما قال القرطبي. وقال النحاس : احسن ما قيل في المحكمات والمتشابهات ان المحكمات ما كان قائما بنفسه ولا يحتاج ان يرجع فيه الى غيره، نحو : «لم يكن له كفوا أحد» «واني لغفار لمن تاب»، والمتشابهات نحو : «ان الله يغفر الذنوب جميعا» يرجع فيها الى قوله جل وعلا «وإني غفار لمن تاب» «وقوله عز وجل» «ان الله لا يغفر ان يشرك به».

واستحسن ابن عطية قول محمد بن جعفر بن الزبير إذ قال : المحكمات هي التي فيهن حجة الرب وعصمة العباد، ودفع الخصوم والباطل ليس لها تصريف ولا تحريف عما وضعن عليه، والمتشابهات لهن تصريف وتحريف وتاويل ابتلى الله فيهن العباد، وهذا ما ارتآه مجاهد وابن اسحاق. انظر لباب هذا الموضوع في : المحرر الوجيز لابن عطية 3 /15 وتفسير القرطبي : 2.2 /10 والبرهان في علوم القرآن : 1 /112 والاتقان في علوم القرآن 2 /2.

واشير الى ابرز مؤلفين في المتشابه وهما : «درة التنزيل وغرة التأويل» للخطيب الاسكافي ت : 385 هـ وملاك التأويل لابن الزبير صاحب هذا الكتاب ت : 708 هـ.

وللسيوطي أيضا كتاب في المتشابه سماه : «البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان» حققه الاستاذ عبد القادر احمد عطا ووضع له عنوانا مختصرا هو : «اسرار التكرار في القرآن».

فحال أهل التوفيق تحكيم المحكم، وحال أهل الزيغ المتشابه والتعلق به، وهذا بيان قوله : «يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا (البقرة : 26) وكل هذا بيان لكون الكتاب العزيز أعظم فرقا وأوضح بيانا، إذ قد أوضح أحوال المختلفين، ومن أين أتي عليهم مع وجود الكتب، وفي أثناء ذلك تنبيه العباد على عجزهم، وعدم استبدادهم لئلا يغتر الغافل فيقول مع هذا البيان ووضوح الأمر/ لا طريق إلى تنكب الصراط، فنهوا حين علموا الدعاء من قوله «وإياك نستعين».

ثم كرر تنبيههم لشدة الحاجة ليذكر هذا أبداً ففيه معظم البيان، ومنه ينشأ الشرك الأكبر، إذ اعتقاد الاستبداد بالأفعال إخراج لنصف الموجودات عن يد بارئها «والله خلقكم وما تعملون» (الصافات : 96)، فمن التنبيه «إن الذين كفروا» (البقرة : 6) ومنه «يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا» (البقرة : 26) ومنه «آمن الرسول» إلى خاتمتها» (البقرة : الآيتان : 285 و286).

هذا من جلي التنبيه ومحكمه، ومما يرجع إليه ويحرز معناه بعد اعتباره «وإلهكم إله واحد» (البقرة : 163 وقوله : «الله لا إله إلا هو الحي القيوم» (البقرة : 255)، فمن رأى الفعل أو بعضه لغيره تعالى حقيقة فقد قال بالهية غيره، ثم حذروا أشد التحذير لما بين لهم فقال تعالى : «إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد. (آل عمران : 4) ثم ارتبطت الآيات إلى آخرها.

سورة النساء[72]

لما تضمنت سورة البقرة ابتداء الخلق وإيجاد آدم عليه السلام من غير أب ولا أم، واعقبت بسورة آل عمران لتضمنها مع ما ذكر في صدرها أمر عيسى عليه

---

(72) هذه السورة الكريمة مدنية لما اخرجه البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت ما نزلت سورة النساء الا وانا عند رسول الله ﷺ. ومعلوم ان الرسول عليه السلام لم يبن بعائشة الا بعد الهجرة، وزَعْمُ النحاس انها مكية وَهْمٌ بعيد واستدلال باطل. المنار 4 /320، 321.

وسميت السورة بالنساء لانها افتتحت بذكر النساء وبعض الاحكام المتعلقة بهن. ومن وجوه اتصالها بالتي قبلها ــ كما يرى ذلك الشيخ رشيد رضا ــ ان هذه افتتحت بمثل ما اختتمت به تلك من الامر بالتقوى وهو ما يسمى في البديع بتشابه الاطراف، وهو وجه من آكد وجوه المناسبات في ترتيب السور.

السلام، وانه كمثل آدم في (عدم)[73] الافتقار إل أب، وعلم الموقنون من ذلك أنه تعالى لو شاء لكانت سنة فيمن بعد آدم عليه السلام، (فكان سائر الحيوان لا يتوقف على أبوين، أو كان يكون)[74] عيسى عليه السلام لا يتوقف إلا على أم فقط، أعلم سبحانه أن من عدا المذكورين عليهم السلام من (ذرية)[75] آدم سبيلهم سبيل الأبوين[76] فقال تعالى : «يا أيها الناس اتقوا ربكم» إلى قوله : «وبث منها رجالا كثيرا ونساء» (آية : 1).

ثم أعلم[77] تعالى بكيفية[78] النكاح المجعول سببا في التناسل وما يتعلق به، وبين حكم الأرحام والمواريث، وتضمنت[80] السورة ابتداء الأمر وانتهاءه فاعلمنا بكيفية التناكح، وصورة الاعتصام واحترام بعضنا لبعض وكيفية تناول الاصلاح فيما بين الزوجين عند التشاجر والشقاق، وبين لنا ما ينكح (وما لا ينكح)[81] وما أبيح من العدد، وحكم من لم يجد الطول وما يتعلق بهذا إلى المواريث، فصل ذلك كله، إلا[82] الطلاق لأن أحكامه (قد تقدمت، ولأن بناء هذه السورة على التواصل والائتلاف ورعي حقوق ذوي الأرحام)[83] وحفظ ذلك كله الى حالة الموت

= ومنها : محاجة اهل الكتاب اليهود والنصارى، وذكر شيء عن المنافقين في كليهما، ومنها : ذكر احكام القتال في كل منهما، وان في هذه شيئا يتعلق بغزوة أحد التي فصلت وقائعها وحكمها واحكامها في آل عمران وهو قوله تعالى في هذه السورة «فما لكم في المنافقين فئتين... الآية» وكذا ذكر شيء يتعلق بغزو حمراء الأسد التي كانت بعد احد وسبق ذكرها في آل عمران، وذلك قوله تعالى في هذه السورة» و «لا تهنوا في ابتغاء القوم». المنار : 4 /321، 322.

(73) ب : ذلك.
(74) ب : ساقطة.
(75) النسختين : ذريته ولعل ذرية آدم أوضح في فهم المعنى.
(76) في أ : ابوين.
(77) . ب : أعلى.
(78) . ب : كيفية.
(79) . أ : تسببا.
(80) . ب : فتضمنته.
(81) . ب : ساقطة.
(82) . ب : الى.
(83) . ب : ساقطة.

المكتوب علينا وناسب هذا المقصود (من)[84] التواصل والألفة ما افتتحت به السورة من قوله (تعالى) : «اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة[85]وخلق منها زوجها» (آية : 1) بالالتئام والوصلة، (ولهذا خصت حكم تشاجر الزوجين بالاعلام بصورة الاصلاح والعدل إبقاء لذلك التواصل)[86]، فلم يكن الطلاق ليناسب هذا فلم يقع له هنا ذكر ولا إيماء[87] «وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته» (النساء 136) ولكثرة ما يعرض من رعي حظوظ النفوس عند الزوجية ومع القرابة ويدق ذلك[88] ويغمض، لذلك (ما)[89] تكرر كثيرا في هذه السورة الأمر بالاتقاء، وبه افتتحت «اتقوا بركم» (آية : 1) «واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام» (آية : 1) «ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم واياكم ان اتقوا الله» (آية : 131) ثم حذروا من حال من صمم على الكفر، وحال اليهود والنصارى والمنافقين وذوي التقلب في الأديان (بعدا عن)[90] اليقين، «وكل ذلك تأكيد لما أمروا به من الاتقاء، والتحمت الآيات إلى الختم بالكلالة من المواريث المتقدمة.

سورة المائدة[91]

لما بين تعالى حالة أهل الصراط المستقيم ومن تنكب عن نهجهم، ومآل الفريقين من المغضوب عليهم ولا الضالين، وبين لعباده المتقين ما فيه هداهم وبه خلاصهم أخذا وتركا، وحصل طي ذلك الأسهم الثمانية الواردة في حديث

(84) . ب : ساقطة.
(85) . ب : واحدة الآية.
(86) . ساقطة من ب.
(87) . ب : الايماء.
(88) . أ : لذلك.
(89) يستقيم المعنى بدونها ولعلها مقحمة في النص.
(90) . ب : بعد اذن.
(91) . وتسمى أيضا سورة العقود لما اشتملت عليه من الفروع الحكمية المتصلة بالحياة الاجتماعية نزلت في أوقات متفرقة كما تفيد ذلك نصوصها، وطابعها العام تفصيل الاحكام العملية والمعاملات الاجتماعية وما يحتاجه الناس من ذلك في سفرهم وحضرهم، ولهذا كانت عائشة رضي الله عنها تحض على قراءتها وتوصي بالعمل بأحكامها، فعن جبير بن

حذيفة(92) من قوله : (الاسلام ثمانية أسهم : الشهادة سهم، والصلاة سهم، والصوم سهم، والحج سهم، والجهاد سهم، والأمر بالمعروف سهم، وقد خاب من لا سهم له)،(93) وقال ﷺ : بني الاسلام على خمس(94)، وقد تحصلت(95) وتحصل مما تقدم أيضا أن أسوأ حال المخالفين حال من غضب الله عليه ولعنه، وإن ذلك ببغيهم وعدوانهم ونقضهم العهود «فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم»

نفير قال حججت فدخلت على عائشة فقالت يا جبير تقرأ المائدة ؟ فقلت نعم، فقالت اما انها آخر سورة نزلت فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه وما وجدتم من حرام فحرموه.
انظر مستدرك الحاكم : 2 /311.

ووجه تقدم سورة النساء على المائدة ان الاحكام التي في سورة النساء وخاصة ما يتعلق بالمرأة والمرأة أهم في الحياة العملية واولى بالتقديم من الاحكام المذكورة في هذه السورة، ثم ان اتحاد وتلازم السورتين شبيه بتلازم البقرة وآل عمران، فتلك اتحدتا في تقرير الأصول من الوحدانية والنبوة ونحوهما، وهاتان في تقرير الفروع الحكمية.

وقد ابدى بعض العلماء وجها قويا لتناسب السور الاربع الطوال المتقدمة مع سورة الفاتحة خلاصته أن الفاتحة تضمنت الاقرار بالربوبية والاعتصام بدين الاسلام ومخالفة اليهودية والنصرانية، ثم جاءت البقرة فتضمنت قواعد الدين، وآل عمران مكملة لذلك المقصود، وكانت البقرة بمنزلة اقامة الدليل على الحكم وآل عمران بمنزلة دفع شبهات الخصوم، ولهذا ورد فيها ذكر المحكم والمتشابه، ثم ان ذكر اليهود ورد كثيرا في سورة البقرة وورد ذكر النصارى كثيرا في سورة آل عمران، وغير خاف أن التوارة أصل والانجيل فرع، ولهذا قدم خطاب اليهود على النصارى.

ثم جاءت سورة النساء فتضمنت أسباب الاحكام التي بين الناس واكملتها سورة المائدة، وبالكمال يكون تمام الدين والشرع، ولهذا ذكر في هذه السورة ما يختص بالشريعة المحمدية كالوضوء والتيمم وغيرها من الفروع، وعليه فهذه السورة تعتبر سورة التكميل لما قبلها، وفيها جاء قوله تعالى : «اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا» وتكرر فيها ذكر التمام والكمال لأن الشريعة المحمدية بها ختمت الشرائع وتمت، فكان التناسب بين هذه السور الاربع المدنيات في غاية الاحكام والالتئام. انظر تفسير المنار 6 /117 وجواهر البيان ص : 25.

(92) . هو حذيفة بن اليمان واسم اليمان حسيل ويقال حسل العبسي حليف الانصار صحابي جليل من السابقين الاولين للاسلام، اخرج عنه مسلم ان رسول الله ﷺ اعلمه بما كان وما يكون الى قيام الساعة، ولهذا يقال له صاحب سر رسول الله ﷺ، وأبوه صحابي استشهد بأحد، مات حديفة في أول خلافة علي رضي الله عنه سنة 36هـ، انظر الاصابة : 1 /317، تهذيب الاسماء : 1 /153 والاستيعاب 1 /227، وحلية الأولياء : 1 /270.

(93) انظر مسند الطيالسي حديث رقم 413.

(94) وتمام الحديث (شهادة ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله، واقام الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت) اخرجه البخارى ومسلم وغيرهما، من حديث ابن عمر وقد جاء من حديث غير واحد من الصحابة، وانظر في تخريجه والكلام عليه : جامع العلوم والحكم. ص : 40.

(95) زيد في (ب) للتوضيح : اى الاسهم الثمانية والدعائم الخمس فيما مضى «بين كلمتي» «تحصلت» و «وتحصل»

(آية : 13) وكان النقض كل مخالفة، قال الله تعالى : لعباده المومنين : «ياأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود» (آية : 1) لأن اليهود والنصارى إنما أتي عليهم من عدم الوفاء ونقض العهود فحذر المومنين.

ولهذا الغرض والله أعلم(96) ذكر هنا العهد المشار إليه في قوله تعالى : «وأوفوا بعهدي» (البقرة : 40) فقال تعالى : «(ولقد أخذ)(97) الله ميثاق بني إسرائيل» إلى قوله : «فقد ضل سواء السبيل» (المائدة : 12).

ثم بين نقضهم وبنى اللعنة وكل محنة ابتلوا بها عليه فقال : «فبما نقضهم ميثاقهم» (آية : 13) وذكر تعالى عهد الآخرين فقال : «ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم.... الآية (آية : 14)، ثم فصل تعالى للمومنين أفعال الفريقين ليتبين لهم فيما نقضوا (فيه من ادعائهم في المسيح ما ادعوا، وقولهم نحن أبناء الله وأحباؤه، وكفهم عن فتح الأرض المقدسة، وإسرافهم في القتل وغيره، وتغييرهم أحكام التوراة إلى غير ذلك مما ذكره في أحكام هذه السورة(98) ثم بين تفاوتهم في البعد عن الاستجابة فقال تعالى : «لتجدن أشد الناس عداوة.... الآية (آية : 82) ثم نصح عباده وبين لهم أبوابا منها دخول الامتحان، وهي سبب في كل ابتلاء فقال تعالى : «لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا» (آية : 89).

واعقب ذلك بقوله : «يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والانصاب والازلام... الآية» (آية : 90) ثم قال تعالى : «جعل الله الكعبة البيت الحرام... الآية (آية : 97) فنبه على سوء العاقبة في تتبع البحث عن التعليل، وطلب الوقوف على ما لعله استاثر الله بعلمه، ومن هذا الباب أتي على بني إسرائيل في أمر البقرة وغير ذلك، وجعل هذا التنبيه إيماء، ثم أعقبه بما يفسره «يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم» (آية : 101) ووعظهم بحال غيرهم في

(96) ب : زيادة «اى غرض التحذير من نقض العهد» بين كلمتي «أعلم» و «ذكر».
(97) أ : «واذ اخذ» وهو خطأ.
(98) ساقطة من أ.

هذا، وانهم سألوا فخيروا ثم امتحنوا، وقد كان التسليم أولى لهم فقال تعالى : «قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين» (آية : 102) ثم عرف عباده أنهم إذا استقاموا فلن يضرهم خذلان غيرهم «يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم» (آية : 105) فلما طلب تعالى المومنين بالوفاء فيما نقض فيه غيرهم وذكرهم ببعض ما وقع فيه النقض، وما أعقب ذلك فاعله، واعلمهم بثمرة التزام التسليم والامتثال أراهم جل وتعالى ثمرة الوفاء وعاقبته فقال تعالى : «وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس» إلى قوله تعالى «هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم» إلى آخر السورة (116 — 120).

فحصل من جملتها الأمر بالوفاء فيما تقدمها وحال من حاد ونقض، وعاقبة من وفى وانهم الصادقون، وقد أمرنا أن نكون معهم «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين» (التوبة : 119).

سـورة الأنـعـام(99)

لما بين سبحانه وتعالى لعباده حال المتقين وهو الصراط المستقيم وأوضح تعالى ما يحذرون من جانبي الأخذ والترك، وبين حال من تنكب عنه ممن كان قد يلمحه

(99) هذه السورة في جملتها مكية وهي أول سورة على هذا الترتيب في القرآن المكي اذا ما استثنينا الفاتحة، وقد جاء في الحديث من عدة طرق انها نزلت دفعة واحدة شيعها موكب من الملائكة لهم زجل بالتسبيح والتحميد. انظر الدر المنثور 3 /2، وتفسير المنار : 7 /283—287.

ومن أوجه التناسب بين هذه السورة وسابقاتها ما أشار اليه السيد رشيد رضا في تفسيره اذ يقول : لما كان أمر العقائد هو الاهم المقدم في الدين، وكان شأن أهل الكتاب فيه أعظم من شأن المشركين، قدمت السور المشتملة على محاجتهم بالتفصيل (وهي البقرة، آل عمران، النساء، المائدة)، وناسب ان يجيء بعدها ما فيه محاجة للمشركين بالتفصيل وتلك سورة الانعام لم تستوف سورة مثلها لشرح ما في سورة البقرة، ما يتعلق بالعقائد وجاءت سورة الاعراف بعدها متممة لما فيها ومبينة لسنن الله تعالى في الانبياء المرسلين وشؤون اممهم معهم وهي حجة على المشركين واهل الكتاب جميعا، ولكن سورة الانعام فصلت الكلام في ابراهيم الذي ينتمي اليه العرب واهل الكتاب في النسب والدين وسورة الاعراف فصلت الكلام في موسى الذي ينتمي اليه اهل الكتاب ويتبع شريعته حتى عيسى عليهم الصلاة والسلام.

ولما تم بهذه الصورة تفصيل ما أجمل في سورة البقرة من العقائد في الالهيات والنبوات والبعث ناسب ان يذكر بعدها ما يتم ما أجمل فيها من الاحكام ولا سيما احكام القتال والمنافقين — وكان قد فصل بعض التفصيل في سورة النساء — فكانت سورة الانفال والتوبة هما المفصلتين لذلك وبهما يتم ثلث القرآن.

وهم اليهود والنصارى وكونهم لم يلتزموا الوفاء، وحادوا[100] عما أنهج لهم، وانقضى أمر الفريقين ذما لحالهم وبيانا لنقضهم وتحذيرا للمتقين أن يصيبهم ما أصابهم، وختم ذلك ببيان حال الموقنين في القيامة «يوم ينفع الصادقين صدقهم» (المائدة : 119).

وقد كان انجرَّ مع ذلك ذكر مشركي العرب وصممهم عن الداعي، وعماهم عن الآيات فكانوا اشبه بالبهائم منهم بالأناسي، أعقب ذلك تعالى بالاشارة إلى طائفة أومأت إلى النظر والاعتبار، فلم توفق لاصابة الحق، وقصرت عن الاستضاءة بأنوار الهدى وليسوا ممن يرجع إلى شريعة قد حرفت وغيرت، بل هم في صورة من هم أن يهتدى بهدى الفطرة، ويستدل بما بسط الله تعالى في المخلوقات، فلم يمعن النظر ولم يوفق فضل وهم المجوس وسائر التنويه[101] ممن كان قصارى أمره نسبة الفعل إلى النور والاظلام ولم يكن تقدم لهؤلاء ذكر ولا أخبار بحال فقال تعالى : «الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور» (آية : 1). فبدأ تعالى بذكر خلق السموات والأرض التي عنها أوجد[102]

= كما اوضح السيد رشيد رضا بأن ركن المناسبة الاعظم بين سورتي المائدة والانعام ان المائدة معظمها في محاجة أهل الكتاب ، والانعام معظمها بل كلها في محاجة المشركين، ومن التناسب بينهما في الاحكام أن سورة الانعام قد ذكرت احكام الاطعمة المحرمة في دين الله والذبائح بالاجمال وسورة المائدة ذكرت ذلك بالتفصيل، وهي قد نزلت أخيرا كما هو معلوم، ومن التفصيل في هذه المسألة ما في سورة الانعام من الكلام على محرمات الطعام عند المشركين وما في المائدة من الكلام على طعام اهل الكتاب. تفسير المنار : 7 /288،289.

(100) . أ : وجادلوا.

(101) . التنوية أخص من المجوسية وهي شعبة منها وسموا ثنوية لأنهم أثبتوا أصلين اثنين مدبرين قديمين يقتسمان الخير والشر والنفع والضر والصلاح والفساد يسمون احدهما النور والاخر الظلمة وبالفارسية يزدن وأهرمن.
وسائر المجوس زعموا أن الاصلين لا يجوز ان يكونا قديمين ازليين بل النور أزلي والظلمة محدثة، ويزعمون ان الخير من فعل النور والشر من فعل الظلمة، وبعامتهم ينتسبون الى الديانة الزرادشتية، وقد انتهت المجوسية ظاهرا بعد ان تم فتح بلاد فارس ولكنها اتخذت أشكالا سرية واثرت الى حد ما في الفكر الاسلامي في العصر العباسي.
وتجدر الاشارة الى ان الصحابة سنوا بهم في أخذ الجزية سنة أهل الكتاب. انظر الملل والنحل للشهرستاني 2 /70 وما بعدها، والنهاية في غريب الحديث 4 /299.

(102) . ب : وجد.

النور والظلمة، إذ الظلمة ظلال هذه الاجرام، والنور عن أجرام نيرة محمولة فيها (وهي الشمس)،[103] والقمر والنجوم، فكأن الكلام في قوة : الحمد لله الذي أوضح الأمر لمن اعتبر واستبصر فعلم أن وجود النور والظلمة متوقف بحكم السببية التي شاءها تعالى على وجود أجرام السموات والأرض وما أودع فيها، ومع بيان الأمر في ذلك حاد عنه من عمي عن الاستبصار «ثم الذين كفروا بربهم يعدلون» (آية 1) وقوله تعالى : «هو الذي خلقكم من طين» (آية : 2) مما يزيد هذا المعنى وضوحا فإنه تعالى ذكر أصلنا والمادة التي عنها أوجدنا كما ذكر للنور والظلمة ما هو كالمادة وهو وجود السموات والأرض وأشعر لفظ «جعل» بتوقف الوجود بحسب المشيئة على ما ذكر فكأن[104] قد قيل : أي فرق (بين)[105] وجود النور والظلمة عن[106] وجود السموات والأرض وبين وجودكم عن الطين حتى يقع امتراء فتدعى نسبة الايجاد إلى النور والظلمة ؟ وهما لم يوجدا إلا بعد مادة أو سبب كما طرأ في إيجادكم، فالأمر في ذلك أوضح شيء ثم أنتم تمترون.

ثم مرت السورة من أولها إلى آخرها منبهة على بسط الدلالات في الموجودات مع التنبيه على أن ذلك لا يصل إلى استثمار فائدته إلا من هيء بحسب السابقة. فقال «إنما يستجيب الذين يسمعون» (آية 36) ثم قال (تعالى)[107] «والموتى يبعثهم الله» (آية : 36) وهو والله أعلم من نمط «أو من كان ميتا فأحييناه» آية : 122) أجمل هنا، ثم فسر[108] بعد في السورة بعينها، والمراد أن من الخلق من جعله الله سامعا مستيقظا معتبرا بأول وهلة، وقد أرى المثال سبحانه وتعالى من ذلك في قصة إبراهيم عليه السلام في قوله «وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموت والأرض» (آية : 75) فكأنه يقول لعباده المتقين تعالوا فانهجوا طريق الاعتبار ملة

(103) . ب : ساقطة.
(104) . ب : وكان.
(105) . ب : ساقطة.
(106) . ب : ممن.
(107) . ساقطة من : ب .
(108) . ب : نشر.

أبيكم إبراهيم، كيف نظر عليه السلام نظر السامع المتيقظ فلم يعرج في أول نظرة على ما سبب وجوده بين فيحتاج فيه إلى فرض (ما فرض)[109] في الكوكب والقمر والشمس، بل نظر فيما عنده صدور النور لا في النور «فلما جن عليه الليل رأى كوكبا» (آية : 76) فتأمل كونه عليه السلام لم يطول النظر بالتفات النور، ثم كان يرجع إلى اعتبار الجرم الذي عنه(115) النور، بل لما رأي النور اجرام سماوية تأمل تلك[111] الاجرام وما قام بها من الصفات فرأى الافول والطلوع والانتقال فقال هذا لا يليق بالربوبية لأنها صفات حدوث، ثم رقى[112] النظر إلى القمر والشمس فرأى ذلك الحكم جاريا فيهما، فحكم بأن وراءها مدبرا لها يتنزه عن الانتقال والغيبة والافول فقال : «إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض» (آية : 79) وخص عليه السلام ذكر هذين لحملهما أجرام النور وسببيتهما في وجود الظلمة، ثم تأمل هذا النظر منه عليه السلام، وكيف خص بالاعتبار أشرف/ الوجودين واعلاهما فكان في ذلك وجهان من الحكمة.

أحدهما علو النظر ونفوذ البصيرة في اعتبار الأشرف الذي إذا بان فيه[113] الأمر فهو فيما سواه أبين، فجمع بين قرب التناول وعلو التهدي.

والوجه الثاني : التناسب بين حال الناظر والمنظور فيه، والتفاؤل[114] والجرى على الفطرة العلية، وهو من قبيل أخذ نبينا عليه السلام[115] اللبن حين عرض عليه اللبن والخمر، فاختار اللبن فقيل له اخترت الفطرة، فكان قد قيل : هذا النظر والاعتبار بالهام لا نظر من أخلد إلى الأرض فعبد الضياء والظلام.

---

(109) . ب : ساقطة.
(110) . ب : عند.
(111) . أ : ذلك.
(112) . أ : رمى.
(113) . ب : منه.
(114) . ب : والتناول
(115) . ب : صلى الله عليه وسلم.

وينبغي أن يعتمد في قصة إبراهيم عليه السلام في هذا الاعتبار أنه ﷺ في قوله : «هذا ربي» (آية : 78) إنما (قصد)[116] قطع حجة من عبد شيئا من ذلك، إذ كان دين قومه، فبسط لهم الاعتبار والدلالة، وأخذ بعرض ما قد تنزه[117] قدره عن الميل إليه، فهو كما يقول المناظر لمن يناظره هب أن هذا على ما تقول يريد بذلك إذعان خصمه (وساتدناءه)[118] للاعتبار حتى يكون غير (منافر له)[119] فيسلم له ما لا يعتقده ليبني على ذلك مقصوده ليقع خصمه وهو على يقين من أمره. فهذا ما ينبغي أن يعتمد هنا لقول يوسف عليه السلام «ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء» (يوسف : 38) فالعصمة قد اكتنفتهم عما يتوهمه المبطلون ويتقوله المفترون[120]، ويشهد لما قلناه قوله تعالى : «وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه» (آية : 83)، فهذه حال من علت درجته من الذين يسمعون، فمن الخلق من جعله الله سامعا بأول وهلة، وهذا مثال شاف في ذلك، ومنهم الميت، والموتى على ضربين[121] منهم من يزاح ضربين[121] عمهـه، ومنهم من يبقى في ظلماته ميتا لا حراك به يبين ذلك قوله تعالى : «أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الأرض كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها»[123] (آية : 123).

(116) . ب : ساقطة.

(117) . ب : نـزه.

(118) . ب : استدعاءه.

(119) . ب : مناظر له.

(120) . العصمة للرسل : قال ابو منصور عبد القاهر البغدادي : أجمع اصحابنا على وجوب كون الانبياء معصومين بعد النبوة عن الذنوب كلها وأما السهو والخطأ فليسا من الذنوب، فلذلك ساغ وقوعهما منهم، وقد سها نبينا عليه الصلاة والسلام في صلاته انظر اصول الدين ص : 168.

وقال القاضي عياض في الشفا : 2 /117 واعلم ان الامة مجمعة على عصمة النبي ﷺ من الشيطان وكفايته منه لا في جسمه بانواع الاذى ولا على خاطره بالوسواس. وقال في ص : 147، وقد اختلف في عصمتهم من المعاصي قبل النبوة فمنعها قوم واجازها آخرون. والصحيح ان شاء الله تنزيههم من كل عيب وعصمتهم من كل ما يوجب الريب.

وقال ابن حزم في الفصل: 2/4، وذهبت جميع فرق أهل أهل الاسلام من أهل السنة والمعتزلة والخوارج والشيعة الى أنه لا يجوز البتة أن يقع من النبي أصلا معصية بعمد لا صغيرة ولا كبيرة، وهذا الذي ندين الله تعالى به ولا يحل لأحد ان يدين بسواه.

(121) . ب : جزأين.

(122) . ب : ساقطة.

(123) . أ : أو من كان ميتا فأحييناه «الى قوله» في الظلمات ليس بخارج منها :

ولما كانت السورة مضمنة جهات الاعتبار ومحركة إلى النظر ومعلنة من مجموع آياتها أن المعتبر والمتأمل وإن لم يكن متيقظا بأول وهلة، ولا سامعا أول محرك ولا مستجيباً لأول سامع قد(124) قد تنقل حاله عن جموده وغفلته إلى أن يسمع ويلحق بمن كان تيقظ(125) في أول وهلة، ناسب تحريك العباد وأمرهم بالنظر أن تقع الاشارة في صدر السورة إلى حالتين : حالة السامعين لأول وهلة، وحالة السامعين في ثاني حال فقيل : «إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله» (آية : 36).

ولم تقع هنا إشارة إلى القسم الثالث مع العلم به وهو الباقي على همود وموته ممن لم يحركه زاجر ولا واعظ ولا اعتبار، وكان هذا الضرب لو ذكر هنا لكان فيه ما يُكسل من ضعفت همته ورجعت حاله ابتدائية، فقيل «والموتى يبعثهم الله» وأطلق القول ليعمل الكل على هذا البعث من الجهل والتيقظ من سنة الغفلة، كما دعي الكل إلى الله دعاء واحداً فقيل : «يأيها الناس اعبدوا ربكم» (البقرة : 21) ثم اختلفوا في إجابة الداعي بحسب السوابق هكذا ورد في هذا «والموتى يبعثهم الله» اسماعاً للكل، وفي صورة التساوي مناسبة للدعاء لتقوم الحجة على العباد، حتى إذا انبسطت الدلائل وانشرحت الصدور لتلقيها، وتشبثت النفوس وتعلقت بحسب ما قدر، وفاز بالخير أهله قال تعالى بعد آي «أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس» (آية : 122) وكان قد قيل (لمن)(126) انتقل عن حالة الموت فرأى قدر نعمة الله عليه بإحيائه هل تشبه الآن حالك النيرة(127) بما منحت حين اعتبرت (بحالك)(128) الجمادية فاشكر ربك، واضرع إليه في طلب الزيادة، (واتعظ)(129) بحال من لزم حال موته، فلم تغن عنه الآيات وهو المشار إليه بقوله : «كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها» (آية : 122) «إنا جعلنا على قلوبهم

---

(124) . ب : ينتقل.

(125) . ب : يتيقظ.

(126) . ب : ساقطة.

(127) . ب : التنزه

(128) . ب : لحالك.

(129) . ب : والنقص.

أكنة أن يفقهوه» (الكهف : 57) «ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليومنوا إلا أن يشاء اللهء» (الأنعام : 111) «سواء عليهم آنذرتهم أم لم تنذرهم» (البقرة : 6)، وكان القسم المتقدم الذي سمع لأول وهلة لم يكن ليقع ذكره هنا من جهة قصـد إراءة قدر هذه النعمة، وإنقاذ المتصف بها من حيرة شكه (موقعها)[130] فيما تقدم من قوله : «إنما يستجيب الذين يسمعون» (آية : 36) فذكر هنا ما هو واقع في اراءة قدر نعمة الانقاذ والتخليص من عمى الجهل، وهذا حال من انتقل بتوفيق ربه[131] وحال من بقي على موته، أو يكون الضربان/ قد شملها قوله : «أومن كان ميتا فأحييناه» (آية : 122).

وأما الثاني وهو الذي (تبينت)[132] فيه صورة النقل فأمره صريح من الآية وأما الضرب الأول وهو السامع لأول وهلة المكفي المؤنة (بواقي)[133] العصمة من طوارق الجهل والشكوك فدخـوله (تحت)[134] مقتضى هذا اللفظ من حيث أن وقايته تلك أو سماعه بأول وهلة ليس من جهته ولا بما (هو)[135]إنسان أو مكلف، بل باسداء الرحمة وتقديم النعمة ولو أبقاه لنفسه (ووكله)[136] إليها لم يكن كذلك، «وما بكم من نعمة فمن الله» (النحل : 53)فبهذا النظر قد تكون الآية قد شملت الضروب الثلاثة وهو أولى.

أما سقوط الضرب الثالث من قوله : «إنما يستجيب الذين يسمعون» فلما قدم والله أعلم بما أراد.

(130) . في ب : موقفها.
(131) . في ب : الله.
(132) . ب : بينت.
(133) . ب : لواقي.
(134) . ب : ساقطة.
(135) . ب : ساقطة.
(136) . ب : وكله.

ولما تضمنت هذه السورة الكريمة من بسط الاعتبار وإبداء جهات النظر ما إذا تأمله المتأمل علم أن حجة الله قائمة على العباد، وأن إرساله الرسل رحمة ونعمة وفضل وإحسان، وإذا كانت الدلالات مبسوطة والموجودات شاهدة مفصحة، ودلالة النظر من سمع وإبصار وأفئدة موجودة، فكيف يتوقف عاقل في عظيم رحمته تعالى بإرسال الرسل، فتأكدت الحجة وتعاضدت البراهين.

فلما عرف الخلق (بقيام)[137] الحجة عليهم بطريقي الأصغاء إلى الداعي والاعتبار بالصنعة قال (الله)[138] تعالى : «قل فلله الحجة البالغة» (آية 149) «فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة» (آية : 157) (فما)[139] عذر المعتذر بعد هذا أتريدون كشف الغطاء ورؤية الأمر عيانا، لو استبصرتم لحصل لكم ما منحتم «هل ينظرون إلا ن تاتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك». (الآية : 158)، ثم ختمت السورة من التسليم والتفويض بما يجدي مع قوله : «فلو شاء لهداكم أجمعين» (آية : 149) وحصل من السور الأربع بيان أهل الصراط المستقيم وطبقاتهم في سلوكهم وما ينبغي لهم التزامه أو تركه وبيان حال المتنكبين عن سلوكه من اليهود والنصارى وعبدة الأوثان والمجوس.

سـورة الأعـراف[140]

لما قال تعالى ابتداء بالاعتبار «ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض/ ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم

(137) . ب : لقيام.

(138) . ب : ساقطة.

(139) . ب : فيما.

(140) . سورة الاعراف مكية بالاجماع وهي اطول من سورة الانعام، فلو كان ترتيب السبع الطوال مراعى فيه تقديم الاطول فالاطول مطلقا لقدمت الاعراف على الانعام، على أنه وقد روى انها نزلت قبلها والظاهر انها نزلت دفعة واحدة مثلها، فلم يبق وجه لتقديم الانعام الا أنها أجمع لما تشترك السورتان فيه وهو اصول العقائد وكليات الدين كما سبقت الاشارة إلى ذلك في السورة السابقة.

واذا كانت سورة الانعام لبيان الخلق وفيها «هو الذي خلقكم من طين» وقال في بيان القرون «كم اهلكنا من قبلهم من قرن»، واشير فيها الى ذكر المرسلين وتعداد كثير منهم وكانت الامور الثلاثة على وجه الاجمال لا التفصيل، ذكرت هذه السورة عقبها لأنها مشتملة على شرح الامور الثلاثة وتفصيلها.

فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين» (الأنعام : 6) ثم قال تعالى : «ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون» (الأنعام : 10) ثم قال تعالى : «قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين» (الأنعام : 11) ثم قال تعالى : «ولقد كذب رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا.... الآية» (الأنعام : 36) وقال تعالى : «ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء...... الآية (الأنعام : 42) وقال تعالى : «يا معشر الجن والانس ألم ياتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي» (الأنعام : 130) فوقعت الاحالة في هذه الآى على الاعتبار بالأمم السالفة وما كان منهم حين كذبوا أنبياءهم (وهلاك تلك)[141] القرون بتكذيبهم وعتوهم وتسلية رسول الله ﷺ وسلم يجريان ما جرى له (لمن)[142] تقدمه من الرسل «قد نعلم أنه (ليحزنك)[143] الذي يقولون» (الأنعام : 33) فاستدعت الاحالة والتسلية بسط أخبار الأمم السالفة وهلاك تلك القرون الماضية، والاعلام بصبر الرسل عليهم السلام وتلطفهم في دعائهم ولم يقع في السور الأربع قبل سورة الأنعام مثل هذه الاحالة والتسلية، وقد تكررت في سورة الأنعام كما تبين بعد انقضاء ما قصد من بيان طريق المتقين أخذا وتركا وحال من حاد عن سننهم ممن رامه أو قصده فلم يوفق له، ولا تم له أمل من (الفريقين)[144] المستندين للسمع والمعتمدين للنظر، فحاد الأولون بطارىء التغيير والتبديل وتنكب الآخرون سوء (التاويل)[145] وقصور الافهام، وعلة حيد الفريقين السابقة الأزلية[146].

وايضا لما قال تعالى في آخر سورة الانعام «وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه»، ناسب ذلك افتتاح هذه السورة بالحث على اتباع الكتاب بقوله : «كتاب انزل اليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمومنين، اتبعوا ما انزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء» (2—3) : كما أن السورة ختمت بالامر بالاستماع الى القرآن «واذا قرىء القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون» فتناسب المطلع والمقطع.
انظر تفسير المنار : 8 /294، 295 وتناسب الدرر : 101، وجواهر البيان : 32.

(141) . ب : ساقطة.

(142) . أ : بمن.

(143) . ب : لحزنك.

(144) . ب : الفرقتين.

(145) . أ : التناول.

(146) . ب : الاولية.

فلما انقضى[147] أمر هؤلاء وصرف الخطاب إلى تسليته عليه السلام وتثبيت فؤاده بذكر (أحوال)[148] الأنبياء مع أممهم، وأمر الخلق بالاعتبار بالأمم السالفة، وقد كان قدم لرسوله عليه السلام[149] عند ذكر الأنبياء «أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده» (الأنعام : 90) بسط تعالى حال من وقعت الاحالة عليه واستوفى الكثير من قصصهم إلى آخر سورة هود وإلى قوله سبحانه «وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك» (هود : 128).

فتأمل بما افتتحت السور المقصود بها قصص الأمم وبما اختتمت يلوح لك ما أشرت إليه والله أعلم بمراده، وتأمل[150] افتتاح سورة الأعراف بقوله «فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين» (الأعراف : 7) وختم القصص فيها بقوله : «فاقصص القصص لعلهم يتفكرون» (الأعراف : 176) بعد تعقيب قصص بني إسرائيل بقصة بلعام[151] «واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها... الآية» (الأعراف: 175) ثم قال: «ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا» (الأعراف: 176).

---

(147) . أ : انفض.

(148) . ساقطة من : أ.

(149) . ب : لرسول الله ﷺ.

(150) . أ : فتأمل.

(151) . لقد اختلف المفسرون في تعيين هذا الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها على أقوال عديدة ارجحها انه رجل من بني اسرائيل سمته النصوص الواردة «بلعم» أو «بلعام» ابن باعوراء أو ابن آجر، وكان في زمن موسى أو بعده، وقد تفضل الله عليه باجابة الدعاء، فبعث الى ملك مدين يدعوه الى الايمان فأعطاه واقطعه فاتبع دينه وترك دين موسى، فهذا هو الانسلاخ من آيات الله والارتداد الى الكفر والشرك، ويشبهه في العرب أمية ابن أبي الصلت الثقفي وكان قد قرأ الكتب وساح في الارض وعلم أن رسولا سيبعثه الله في ذكل الوقت، وتمنى أن يكون ذلك الرسول، فلما اصطفى الله محمدا ﷺ حسده وكفر به مع اعترافه لقريش بصدق نبوته ومات على كفره بالطائف، ويشبهه كذلك أبو عامر ابن صيفي وكان يلبس المسوح في الجاهلية فلما دخل النبي ﷺ المدينة قال : يا محمد ما هذا الذي جئت به ؟ قال جئت بالحنيفية دين ابراهيم، قال : فاني عليها، فقال النبي ﷺ لست عليها، لأنك أدخلت عليها ما ليس منها، فقال أبو عامر : أمات الله الكاذب طريدا وحيدا، فقال له النبي ﷺ أمات الله الكاذب كذلك، فخرج الى قيصر واتصل بالمنافقين وعاد بعد بدر في أحد ومات حقيرا ذليلا غير مأسوف عليه وحقق الله الدعوة فيه.

وهذا المثل الذي ضربه الله عز وجل خالد الى قيام الساعة ينطبق على كل من يعرف الحق وينكص عنه، أو يهتدى الى الاسلام ثم يتركه الى متاع من الدنيا زهيد، فمثله كمثل الكلب دائم اللهاث مستمر التعب وعدم الاستقرار. انظر تفسير ابن كثير : 3 /250، الدر المنثور : 3 /145، تفسير القرطبي : 7 /319.

(وتأمل[152] هذا الايماء بعد ذكر القصص وكيف الحق من كذب رسول الله ﷺ من العرب وغيرهم (ممن)[153] قص ذكره من المكذبين، وتأمل (إفتتاح[154] ذكر الأشقياء بقصة إبليس وختمها بقصة بلعام وكلاهما ممن كفر على علم، وفي ذلك أعظم موعظة، قال الله تعالى اثر ذلك «من يهد الله فهو المهتدى... الآية» (الأعراف: 178 (فبدأ)[155] الاستجابة لنبيه بذكر ما أنعم به عليه وعلى من استجاب له فقال تعالى: «المص كتاب أنزل إليك» آية: 1-2) فأشار إلى نعمته بإنزال الكتاب الذي جعله هدى للمتقين، وأشار هنا إلى ما يحمله (على)[156] التسلية وشرح الصدور بما حوى[157] من العجائب والقصص مع كونه هدى ونورا فقال «فلا يكن في صدرك حرج منه» أي أنه قد تضمن مما احلناك عليه ما يرفع الحرج ويسلي النفوس لتنذر به كما أنذر من قبلك ممن نقص خبره من الرسل ولتستن في إنذارك ودعائك وصبرك بسنتهم وليتذكر المومنون.

ثم أمر عباده بالاتباع لما أنزله فقال : «اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم» (آية : 3) فإن هلاك من نقص عليكم خبره من الأمم إنما كان لعدم الاتباع والركون إلى أوليائهم من شياطين الجن والانس، ثم اتبع (تعالى)[158] ذلك بقصة آدم عليه السلام ليتبين لعباده ما جرت (به)[159] سنته فيهم من تسلط الشيطان وكيده وانه عدو لهم «يابني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة» (آية : 27) ووقع في قصة آدم هنا ما لم يقع في قصة البقرة من بسط ما أجمل هناك، كتصريح اللعين بالحسد، وتصور خيريته (بخلقه من النار وطلبه)[160]

(152) . أ : فتأمل.
(153) . ب : بمن.
(154) . ب : ساقطة.
(155) . ب : قيد
(156) . أ : من.
(157) . ب : جرى.
(158) . ب : ساقطة.
(159) . ب : ساقطة.
(160) . ب : لخلقه من النار وطلبة.

الانظار والتسلط على/ ذرية آدم والأذن له في ذلك ووعيده ووعيد متبعيه، ثم أخذه في الوسوسة إلى آدم عليه السلام، وحلفه له «وقاسمهما اني لكما لمن الناصحين» (آية : 21)، وكل هذا مما أجمل في سورة البقرة، ولم تتكرر قصة إلا وهذا شأنها أعني أنها تفيد مهما[161] تكررت ما لم يكن حصل منها أولا، ثم انجرت الآى إلى ابتداء قصة (نوح عليه السلام)[162] واستمرت القصص إلى قصص بني إسرائيل، فبسط هنا من حالهم وأخبارهم شبيه ما بسط في قصة آدم وما جرى من محنة إبليس، وفصل هنا الكثير، وذكر ما لم يذكر في (سورة)[163] البقرة حتى لم يتكرر بالحقيقة ولا التعرض لقصص طائفة معينة فقط.

ومن عجيب الحكمة أن الواقع في السورتين من كلا القصتين مستقل شاف وإذا ضم بعض ذلك إلى بعض ارتفع إجماله، ووضح كماله، فتبارك مَن هذا كلامه، ومن جعله حجة قاطعة وآية باهرة.

ولما اعقب تعالى قصصهم في البقرة بأمره نبيه والمومنين بالعفو والصفح فقال تعالى : «فاعفوا واصفحوا» (آية : 109) اعقبه تعالى (أيضا)[164] هنا بقوله لنبيه (عليه الصلاة والسلام)[165] خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين» (آية : 199) وقد خرجنا عن المقصود فلنرجع إليه.

سـورة الأنفـال[166].

لما قص سبحانه على نبيه عليه السلام في سورة الأعراف أخبار الأمم وقطع المومنين من مجموع ذلك بأنه لا يكون الهدى إلا بسابقة السعادة لافتتاح السورة

(161) . ب : فيما.
(162) . ساقطة من : أ.
(163) . ساقطة من : ب .
(164) . ساقطة من : أ.
(165) . ساقطة من : أ.
(166) . سورة الانفال مدنية كلها كما روى عن الحسن وعكرمة وجابر بن زيد وعطاء وعبد الله ابن الزبير وزيد بن ثابت، وقال ابن عباس انها نزلت في بدر، وفي لفظ:تلك سورة بدر، وقيل ان قوله تعالى «يا أيها النبيء حسبك الله ومن اتبعك من المومنين» التي نزلت لما اسلم عمر، وقوله تعالى «واذ يمكر بك الذين كفروا» التي نزلت قبل الهجرة

= فهما مكيتان. واذا تخللت السورة بعض آيات عن حال كفار مكة ومكرهم برسول الله ﷺ فإن ذلك لا يقتضي نزولها في مكة، بل ورود مثل هذه الآيات غايته تذكير رسول لله ﷺ بعد الهجرة، ومعلوم أن كل ما نزل بعد خروج النبي ﷺ مهاجرا فهو مدني. انظر الدر المنثور : 3 /158، وتفسير المنار : 9 /536. ووجه مناسبتها لسورة الاعراف زيادة على ما تقدم أن هذه بينت حال خاتم المرسلين ﷺ مع قومه، وسورة الاعراف بينت احوال اشهر الرسل مع أقوالهم كما هوواضح بين.

وهنا لابد من وقفة حول ترتيب الانفال وتناسبها لما قبلها هل كان ذلك بتوقيف ام اجتهاد ؟.

ذكر الجلال السيوطي ان ذكر هذه السورة هنا ليس بتوقيف من الرسول ﷺ كما هو المرجح في سائر السور بل باجتهاد من عثمان رضي الله عنه، وقد استشكل ذلك قديما حبر الأمة رضي الله تعالى عنه فقال لعثمان ما حملكم على ان عمدتم الى الانفال وهي من المثاني والى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا البسملة بينهما ووضعتموهما في السبع الطوال ؟ فقال عثمان : كان رسول الله ﷺ ينزل عليه السور ذوات العدد فكان اذا نزل عليه الشيء دعا من كان يكتب يقول : ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا وكانت الانفال من اوائل ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر القرآن نزولا وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا انها منها من أجل ذلك قرنت بينهما ولم اكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها في السبع الطول.

وقد تعقب الالوسي الامام السيوطي فيما ذهب اليه بأن عثمان رضي الله عنه جعل الانفال قبل براءة مع قصرها لكونها مشتملة على البسملة كتتمتها وبقيتها ولهذا قال جماعة من السلف انها سورة واحدة. وان وضع براءة هنا لمناسبة الطول فانه ليس بعد الست السابقة سورة اطول منها وذلك كاف في المناسبة، وانه خلل بالسورتين اثناء السبع الطوال المعلوم ترتيبها في العصر الاول للاشارة الى ان ذلك أمر صادر لا عن توقيف. وانه لو اخرهما وقدم يونس واتى بعد براءة بهود كما في مصحف ابي لمراعاة مناسبة السبع لفات مع ما أشرنا اليه أمر آخر آكد في المناسبة، فان الاولى بسورة يونس ان يوتى بالسور الخمس التي بعدها لما اشتركت فيه من المناسبات من القصص والافتتاح «بالر» وبذكر الكتاب ومن كونها مكيات».

الا ان الشيخ رشيد رضا لم يسلم ما ذهب اليه كل من السيوطي والالوسي، ذاهبا الى ان ترتيب جميع السور توقيفي عن النبي ﷺ وان مستند السيوطي والبيهقي من قبله هو حديث عثمان المذكور، ورد عليهما بأنه لا يعقل ان يرتب النبي ﷺ جميع السور الا الانفال وبراءة، وقد صح انه ﷺ كان يتلو القرآن كله في رمضان على جبريل عليه السلام مرة واحدة كل عام فلما كان العام الذي توفي فيه عارضه بالقرآن مرتين فأين كان يضع هاتين السورتين في قراءته ؟ التحقيق ان وضعهما في موضعهما توقيفي وان فات عثمان أو نسيه، ولولا ذلك لعارضه الجمهور أو ناقشوه فيه عند كتابة القرآن.

ثم قال : وهذا الحديث الذي قال الترمذي حسن، لا نعرفه الا من حديث عوف بن ابي جميلة عن يزيد الفارسي عن ابن عباس، ويزيد الفارسي هذا غير مشهور، وسئل عنه يحيى بن معين فقال لم اعرفه : ومثل هذا الرجل لا يصح ان تكون روايته التي انفرد بها مما يؤخذ به في ترتيب القرآن المتواتر. انظر روح المعاني : 9 /140، 141 وتفسير المنار : 9 /539، 540.

من ذكر الأشقياء بقصة إبليس وختمها بقصة بلعام، وكلاهما كفر على علم، ولم ينفعه ما قد كان حصل عليه، ونبه تعالى عباده على الباب الذي أتي منه على بلعام بقوله سبحانه «ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه» (الأعراف : 176) فأشار سبحانه إلى أن اتباع الأهواء أصل كل ضلال، نبهوا على ما فيه الحزم من ترك الأهواء جملة فقال تعالى : «يسالونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول» (الآية)[167] (آية : 1) فكان قد قيل لهم اتركوا ما ترون أنه حق واجب لكم (وفوضوا)[168] في أمره لله وللرسول فذلك أسلم وأحزم في ردع أغراضكم وقمع شهواتكم، وترك أهوائكم، وقد ألف في هذه الشريعة السمحة البيضاء حسم الذرائع كثيرا، وإقامة مظنة الشيء مقامه كتحريم الجرعة من الخمر، والنظرة، والخطبة في العدة، واعتداد النوم الثقيل ناقضا، فهذه مظان لم يقع الحكم فيها على ما هو لا نفسها، ولا بما هي كذا، بل بما هي مظان وروادع لما منع لعينه، أو استوجب حكما ما لعينه وعلته الخاصة به.

ولما أمر المسلمون بحل أيديهم عن الأنفال يوم بدر، إذ كان المقاتلة قد هموا بأخذها، وحدثوا أنفسهم بالانفراد بها، ورأوا أنها من حقهم، وان من لم يباشر قتالا من الشيوخ، ومن انحاز فئة لهم فلا حق له فيها، ورأى الآخرون أيضا أن حقهم فيها ثابت لأنهم كانوا فئة للمقاتلين، وعدة وملجأ وراء ظهورهم، كان ما أمرهم الله به من تسليم الحكم في ذلك إلى الله ورسوله من باب حسم الذرائع، لأن تمشية أغراضهم في ذلك ـــ وان تعلق كل من الفريقين بحجة ـــ مظنة لرياسة النفوس، واستسهال اتباع الأهواء، فأمرهم الله بالتنزه عن ذلك والتفويض فيه لله ولرسوله فإن ذلك اسلم لهم واوفى لدينهم وأبقى في إصلاح ذات البين (وأجدى)[169] في الاتباع (بقوله)[170] «فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم.... الآية

(167) . ساقطة من : أ.
(168) . في أ : فوضوا.
(169) . في ب : وأغرى.
(170) . ساقطة من : أ.

(آية : 1) ثم ذكروا بما ينبغي لهم أن يلتزموا فقال تعالى : «إنما المومنون[171] إلى قوله : «زادتهم إيمانا» (آية : 2)، ثم نبهوا على أن أعراض الدنيا من نفل أو غيره لا ينبغي للمومن أن يعتمد عليه اعتمادا يدخل عليه ضررا من الشرك أو التفاتا إلى غير الله سبحانه بقوله : «وعلى ربهم يتوكلون» (آية : 2) ثم ذكروا بما وصف به المتقين من الصلاة والانفاق، ثم قال : «أولئك هم المومنون حقا» (آية : 4) تنبيها على أن من قصر عن هذه الأحوال ولم يأت بها على كمالها لم يخرج عن الايمان، ولكن ينزل[172] (عن) درجة الكمال بحسب تقصيره، وكأن هذا إشعارا بعذرهم في كلامهم في الأنفال، وأنهم قد كانوا في مطلبهم على حالة من الصواب، وشرب من التمسك والاتباع لكن أعلى الدرجات ما بُيّن لهم ومُنحوه، وانه الكمال والفوز.

ثم نبههم سبحانه بكيفية أمرهم في الخروج إلى بدر، وودهم أن غير ذات الشوكة تكون لهم، وهو سبحانه يريهم حسن العاقبة فيما (اختار)[173] لهم فقد كانوا تمنوا/ لقاء العير واختاروا ذلك على (لقاء)[174] العدو ولم يعلموا ما وراء: «ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين» (آية : 7) إلى ما قصه تعالى عليهم من اكتنافهم برحمته وشمول ألطافه وآلائه وبسط نفوسهم، ونبههم على ما يُثَبت يقينهم ويزيد في إيمانهم.

ثم اعلم أن الخير كله في التقوى فقال : «يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا» (آية : 29)، وهذا الفرقان هو الذي حرفه إبليس وبلعام فكان منهما ما تقدم من اتباع الاهواء القاطعة لهم عن الرحمة، وقد تضمنت حصول الدنيا والآخرة بنعمة الاتقاء، ثم أجمل الخيران معا في قوله : «والله ذو الفضل العظيم» (آية : 29). والفضل العظيم بعد تفضيل ما إليه إسراع المومن من الفرقان والتكفير والغفران، ولم يقع التصريح بخير الدنيا الخاص بها مع اقتضاء الآية إياه

(171) . في ب : «انما المومنون اخوة» (الحجرات : 10) وهي ليست مقصودة هنا.

(172) . في ب : على.

(173) . في ب : اختاره.

(174) . في ب : القاء.

تنزيها للمؤمن ـــ في مقام إعطاء الفرقان وتكفير السيئات والغفران ـــ عن ذكر متاع (الدنيا)(175) التي هي لهو ولعب، فلم يكن ذكر متاعها الفاني ليذكر مفصلا مع ما لا يجانسه ولا يشاكله، «وان الدار الآخرة لهي الحيوان» (العنكبون : 64)، ثم التحمت الآي. ووجه آخر وهو أنه سبحانه لما قال : «وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له» (الأعراف : 204) بين لهم كيفية هذا الاستماع وما الذي يتصف به المؤمن من ضروبه فقال : «إنما المومنون الذين إذا ذكر الله (وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا»)(176) (آية : 2)، فهؤلاء لم يسمعوا بآذانهم فقط ولا كانت لهم آذان لا يسمعون بها، ولا قلوب لا يفقهون بها ولو (كانت)(177) كذا لما وجلت وعمهم الفزع والخشية، وزادتهم الآيات إيماناً، فإذاً إنما يكون سماع المومن هكذا، «ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون» (آية : 21).

ولما كان هؤلاء إنما أُتي عليهم من اتّباع أهوائهم والوقوف مع أغراضهم وشهواتهم يأخذون عرض هذا الأدنى «ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه» (الأعراف : 176) وهذه بعينها كانت آفة إبليس (فإنه)(178) رأى لنفسه مزية واعتقد لها الحق ثم اتبع هذا الهوى حين قال : «لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون» (الحجر : 33) فلما كان اتباع الأهواء أصلا في الضلال/ (وتنكب الصراط المستقيم، أمر المومنون بحسم باب الأهواء والتسليم فيما لهم به تعلق وان لم يكن هوى مجردا. لكنه مظنة تيسير اتباع الهوى(179))، فافتتحت السورة بسؤالهم عن الأنفال، واخبروا أنها لله ورسوله، يحكم فيها (بما)(180) شاء، فاتقوا الله واحذروا الأهواء التي أهلكت من قص عليكم ذكره، واصلحوا ذات بينكم يرفع التنازع، وسلموا لله ولرسوله، وإلا لم تكونوا سامعين، وقد أمرتم أن

(175) . في أ : الدين.
(176) . ساقطة من : ب.
(177) . في أ : كانوا.
(178) . ساقطة من : ب.
(179) . ما بين القوسين غير واضح في أ نظرا للخرم الحاصل في المخطوط.
(180) . في أ : ما.

تسمعوا السماع الذي عنه ترجى الرحمة، وبيانه في قوله تعالى : «إنما المومنون» (الآية)[181] (آية : 2).

ووجه آخر، وهو أن قصص بني إسرائيل عقّب بوصاة المومنين خصوصا بالتقوى، وعلى حسب ما يكون الغالب فيما يذكر من أمر بني إسرائيل، (ففي[182] البقرة اتبع قصصهم بقوله : «يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا» (آية : 104). ولما كان قصصهم مفتتحا بذكر تفضيلهم «يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وإني فضلتكم على العالمين» (البقرة : 47) افتتح خطاب هذه الأمة بما يشعر بتفضيلهم، وتأمل ما بين «يا بني إسرائيل» و«يا أيها الذين آمنوا»، وأَمَر أولئك بالإيمان «وآمنوا بما أنزلت» (البقرة : 41) وَأَمَر هؤلاء بتعبد احتياطي فقيل : «وقولوا انظرنا واسمعوا» (آية : 104).

ثم أعقبت البقرة بآل عمران : وافتتحت ببيان المحكم والمتشابه الذي من جهته أُتي على بني إسرائيل في كثير من مرتكباتهم.

ولما ضمنت سورة آل عمران من ذكرهم ما ورد فيما أعقب بقوله تعالى : «ياأيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين» (آية : 100) ثم أعقبت[183] السورة بقوله : «يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة» (النساء : 1) وعدل عن الخطاب باسم الايمان للمناسبة، وذلك أن سورة آل عمران خصت من مرتكبات إسرائيل بجرائم كقولهم في الكفار «هؤلاء اهدى من الذين آمنوا سبيلا» (النساء : 51)، فهذا (بهت)[184]، (ومنها)[185] قولهم : «إن الله فقير ونحن أغنياء» (آل عمران : 181) إلى ما تخلل هاتين من الآيات المنبئة عن

(181) . في ب : الآيات.

(182) . في أ : يعني.

(183) . في أ : أعقب.

(184) . البهت الكذب والافتراء أو اشده.

(185) . ب : منهما.

تعمدهم الجرائم، فعدل عن «يا أيها الذين آمنوا» إلى «يا أيها الناس» ليكون أوقع في الترتيب (وأخوف وأوضح)[186] مناسبة لما ذكر.

ولما ضمنت سورة النساء/ قوله تعالى : «فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم»(آية 160) إلى قوله : «وأكلهم أموال الناس بالباطل» (آية : 161)، اتبعت بقوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود» (المائدة : 1) ثم ذكر لهم ما أحل لهم وحرم عليهم ليحذروا مما وقع فيه أولئك، فعلى هذا لما ضمنت سورة الأعراف من قصصهم جملة وبين فيها اعتداءهم وبناه على اتباع الأهواء والهجوم على الأعراض طلب هؤلاء باتقاء ذلك والبعد عما يشبهه جملة، فقيل في آخر السورة إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا» (الأعراف : 201).

ثم افتتحت السورة الأخرى بصرفهم عما لهم به تعلق وإليه (تسبب)[187] يقيم عذرهم شرعا فيما كان منهم، فكأن قد قيل لهم ترك هذا أسلم وأبعد عن اتباع الأهواء فسلموا في ذلك الحكم لله ورسوله، واتقوا الله، ثم تناسج السياق والتحمت الآى وقد تبين وجه اتصال الأنفال بالأعراف من وجوه والحمد لله.

سورة براءة [188]

اتصالها بالأنفال أوضح من أن يتكلف توجيهه، حتى أن شدة المشابهة والالتئام ــ مع أن الشارع عليه السلام لم يكن بَيَّنَ انفصالهما ــ أَوْجَبَ أن لا يفصل بينهما ببسم الله الرحمن الرحيم، وذلك أن الأنفال قد تضمنت الأمر بالقتال

(186) . ساقطة من : ب.

(187) . في ب : تشبث.

(188) . هذه السورة مدنية بالاتفاق، وقد نزل أولها على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك وهو بالحج، ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عاداتهم في ذلك وأنهم يطوفون بالبيت عراة فكره مخالطتهم وبعث ابا بكر الصديق رضي الله عنه اميرا على الحج تلك السنة ليقيم للناس مناسكهم ويعلم المشركين أن لا يحجوا بعد عامهم هذا وان ينادى في الناس «براءة من الله ورسوله» فلما قفل اتبعه بعلي بن أبي طالب ليكون مبلغا عن رسول الله ﷺ.

«وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة» (آية : 39) وبين أحكام الفرار من الزحف وحكم النسبة المطلوبة فيها بالثبوت ولحوق التأثيم للفار، وانها على الضعف، وحكم الأسرى، وحكم ولاية المومنين ومن يدخل تحت هذه الولاية، ومن يخرج عنها، ثم ذكر في السورة الأخرى من عهد إليه من المشركين، والبراءة منهم إذا لم يوفوا، وحكم من استجار منهم إلى ما يتعلق بهذا وكله باب واحد، وأحكام متواردة على قضية واحدة وهو تحرير حكم المخالف، فالتحمت السورتان أعظم التحام ثم عاد الكلام إلى حكم المنافقين وهتك أسرارهم.

سورة يونس عليه السلام(189)

لما تضمنت سورة براءة قوله تعالى : «إلا تنصروه فقد نصره الله» (آية : 40) وقوله : «عفا الله عنك لم اذنت لهم» (آية : 43) وقوله : «ورحمة للذين آمنوا منكم

أما بقية السورة فنزلت في مجملها في شأن المنافقين قبيل وأثناء غزوة تبوك التي كانت في السنة التاسعة للهجرة وهي آخر غزوة غزاها رسول الله ﷺ، فكان صدر السورة التبرى من الشرك والكفر وسائرها فضح للمنافقين وبيان لاساليبهم ليحذرهم المسلمون لذلك سماها الصحابة ب : الفاضحة، والبعوث، والمنفرة، والمثيرة، والمبعثرة، المدمدمة، والمخزية، والمنكلة، والمقشقشة، وذلك لتنفيرها وتعبيرها عما في القلوب وبحث ذلك واثارته وبعثرته، وفضح المنافقين وما يترتب على ذلك من الدمدمة عليهم والخزى والنكال والتشريد بهم، وهي تقشقش من النفاق اى تبرىء منه كما قال الزمخشرى.

ولم يكن الصحابة ولا من بعدهم يكتبون البسملة في أولها لأنها لم تنزل معها كما نزلت مع غيرها من السور وهذا هو المعتمد المختار في تعليله، وقيل رعاية لمن كان يقول انها مع الانفال سورة واحدة، والمشهور انه لنزولها بالسيف ونبذ العهود وقيل غير ذلك انظر : تفسيرى ابن كثير والمنار : 3 /356، 357 و 10 /174.

ونحن مع المؤلف في ان اتصال السورتين واضح لا يحتاج الى تكلف في بيان المناسبة حتى عدهما جمع من السلف بانهما سورة واحدة، إلا أننا نريد الأمر إيضاحا فنقول : اذا كانت سورة الانفال بينت أن النصر من عند الله ليس بكثرة عدد ولا عدة — وان كانت العدة مطلوبة — اذ قال تعالى : «وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى» وقال أيضا : «وما النصر الا من عند الله» فان هذه السورة بينت للمسلمين بأن يلتجئوا الى الله ويتبرؤوا من الشرك والا يخافوا كثرة عدوهم وعظمة عدته، ويحذروا مكر المنافقين وأساليبهم وخذ لانهم حتى لا تؤتى الجماعة المسلمة من داخلها وفي ذلك اعظم البلاء وأشد المصيبة. ولذلك ختمت بقوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة» ووصفت المنافقين بأنهم لا يفقهون : تثبيتا للمومنين على الاستمرار في جانب الحق والايمان والتأسي برسول الله الذي أرشده الله الى التوكل عليه وبذلك ختمت السورة «فان تولوا فقل حسبي الله لا اله الا هو عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم».

(189) . هذه السورة في مجملها مكية سوى آيات ليست بالكثيرة قيل انها مدنية ولكن طابعها ومضمونها كشأن سائر السور المكية، ونشير هنا الى أن سورة يونس نزلت ثم تلتها هود ثم يوسف فوافق ترتيبها في النزول ترتيبها في المصحف، وهذا وجه من وجوه المناسبة بين هذه السور.

والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم» (آية : 61) وقوله لقد جاءكم (رسول)(190) إلى آخر السورة، (الآيتين : 128—129) إلى ما تخلل أثناء آى هذه السورة الكريمة مما شهد لرسول الله ﷺ بتخصيصه بمزايا السبق والقرب والاختصاص والملاطفة في الخطاب، ووصفه بالرأفة والرحمة، هذا مع ما انطوت (عليه هي والأنفال)(191) من قهره أعداءه وتأييده ونصره عليهم وظهور دينه، وعلو دعوته واعلاء لكلمته إلى غير هذا من نعم الله سبحانه عليه، كان ذلك كله مظنة لتعجب المرتاب وتوقف الشاك، ومثيرا لتحرك ساكن الحسد من العدو (لعظيم)،(192) ما مُنحه عليه السلام، قال تعالى في هذه السورة : «أكان للناس عجبا ان أوحينا إلى رجل منهم أن انذر الناس إلى قوله لسحر مبين» (آية : 2)(193) ثم قال تعالى : «إن ربكم الله» الآيات (آية : 3 وما بعدها) فبين انفراده تعالى بالربوبية والخلق والاختراع والتدبير، فكيف تعترض أفعاله أو يطلع البشر على وجه الحكمة في كل ما يفعله ويبديه، وإذا كان الكل ملكه وخلقه فيفعل في ملكه ما يشاء ويحكم في خلقه بما يريد «ذلكم الله ربكم فاعبدوه» (آية 3) «ما خلق الله ذلك إلا بالحق» (آية : 5) ثم توعد سبحانه الغافلين عن التفكير في عظيم آياته حتى أدتهم الغفلة إلى مرتكب سلفهم في العجب والانكار حتى قالوا «مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق» الفرقان : 7) «وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا» (الفرقان : 21)، وهذه مقالات الأمم المتقدمة «قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا» (يس : 15)، «ما نراك إلا بشرا مثلنا» (هود : 27)

وقد ابدى المؤلف وجها قويا في مناسبة مجيئها بعد براءة، وهناك وجه آخر وهو أن جل تلك في بيان أحوال المنافقين ومنه ما كانوا يقولونه ويفعلونه عند نزول القرآن «واذا ما نزلت سورة فمنهم من يقول ايكم زادته هذه ايمانا الى قوله لا يفقهون» (125—128) وهذه في أحوال الكفار ومنها ما كانوا يقولونه في القرآن : «وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا إيت بقرآن غير هذا أو بدله.. (الى قوله) عما يشركون» (15—18)، انظر تفسير المنار : 11 /142.

(190) . ساقطة من : ب.

(191) . في ب : هي والانفال عليه.

(192) . في ب : العظيم.

(193) . وقد روي عن ابن عباس في سبب نزول هذه الآية أنه قال لما بعث الله محمدا ﷺ انكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم فقالوا الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا مثل محمد، ، فنزلت «اكان للناس عجبا... الآية» انظر أسباب النزول للواحدى : 199 وتفسير ابن كثير : 3 /482.

«قالوا أنومن لبشرين مثلنا» (المومنون : 48)[194] «(ما) هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم» (سبأ : 43) فقال تعالى متوعداً للغافلين : «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم... الآيات» (آية : 9 وما بعدها) وكل هذا بين الالتحام جليل الالتئام ثم تناسجت آي السورة.

سـورة هـود عليـه السـلام[195]

لما[196] كانت سورة يونس عليه السلام قد تضمنت من آي التنبيه والتحريك للنظر، ومن العظات والتخويف والتهديد والترهيب والترغيب/ وتقريع المشركين والجاحدين والقطع بهم والاعلام بالجريان على حكم السوابق ووجوب التفويض والتسليم ما لم تشتمل على مثله سورة لتكرر هذه الأغراض فيها، وسبب

---

(194) . في الاصل : ان.

(195) . هذه السورة كسابقتها مكية وكان لها في حياة رسول الله ﷺ شأن، فقد أخرج جمع من المحدثين عن عدد كبير من الصحابة ان أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال للرسول ﷺ، يا رسول الله لقد أسرع اليك الشيب قال : شيبتني هود واخواتها، وفي طريق أخرى : شيبتني هود والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، واذا الشمس كورت : انظر : تحفة الاحوذي 493 ومستدرك الحاكم : 2 /343، وتفسير ابن كثير 3 /535. والدر المنثور 3 /319.

وسبب اهتمام رسول الله ﷺ بهذه السورة أنها ابانت عن المثلات والنوازل المريعة التي حلت بالقرون الخوالي والأمم الماضية وكشفت عن القانون الالهي الصارم الذي يحكم هذا الكون وتسير عليه الانسانية، فقد استعرضت ستة أمم بارزة في التاريخ الانساني كان لها شأن وجاه وقوة، وأوضحت السبل التي انحرفت بها عن منهج الرسل ودعوات الانبياء، وان كانت السبل مختلفة عن بعضها الا أنها اشتركت في مجانبة الحق والعدل فكان مصيرها الهلاك. ومن الواضح البين ـــ يقول صاحب المنار ـــ ان المناسبة بين هذه السورة وسابقتها أن في هذه تفصيل لماأجمل في يونس من قصص الرسل عليهم السلام مع أممهم وهي مناسبة لها ببراعة المطلع في فاتحتها والمقطع في خاتمتها وتفصيل الدعوة في اثنائها. فقد افتتحتا بذكر القرآن بعد «الر» ومثلهما في هذا ما بعدهما من السور الأربع الا الرعد فأولها «المر»، وذكر رسالة النبي المبلغ له عن الله تعالى، وبيان وظيفته فيها وهو الانذار والتبشير، وختمتا بخطاب الناس بالدعوة الى ما جاء به الرسول ﷺ وامره في الأولى بالصبر حتى يحكم الله بينه وبين الكافرين، وفي الثانية بالانتظار اى انتظار هذا الحكم منه تعالى مع الاستقامة على عبادته والتوكل عليه، وذكر في اثناء كل منهما التحدى بالقرآن ردا على من زعم الرسول ﷺ قد افتراه، وكذا محاجة المشركين في اصول الدين كلها، فهما باتفاق الموضوع واختلاف النظم والاسلوب آيتان من آيات الاعجاز. تفسير المنار : 12 /2.

(196) . ب : ولما.

تكرر ذلك فيها والله أعلم، أنها (أعقبت)[197] بها السبع الطوال، وقد مر التنبيه على أن سورة الأنعام بها وقع استيفاء بيان حال المتنكبين عن الصراط المستقيم على اختلاف أحوالهم، ثم استوفت سورة الأنعام ما وقعت الاحالة عليه من أحوال الأمم السالفة كما تقدم، وبسطت ما أجمل من أمرهم، ثم اتبع ذلك بخطاب المستجيبين لرسول الله ﷺ، وحذروا وأنذروا وكشف عن حال من تلبس بهم من عدوهم من المنافقين، وتم المقصود من هذا في سورتي (الأنفال وبراءة)[198] ثم عاد الخطاب إلى طريقة الدعاء إلى الله والتحذير من عذابه بعد بسط ما تقدم، فكان مظنة لتأكيد التخويف والترهيب لاتيان ذلك بعد بسط حال وإيضاح أدلة، فلهذا كانت سورة يونس عليه السلام مضمنة من هذا ما لم يضمن غيرها، الا ترى افتتاحها بقوله «إن ربكم الله... الآيات (آية : 3) ومناسبة هذا الافتتاح دعاء الخلق إلى الله في سورة البقرة بقوله تعالى : «يا أيها الناس اعبدوا ربكم» (آية : 21)، ثم قد نبهوا هنا كما نبهوا هناك فقال تعالى : «أم يقولون افتراه، قل فاتوا بسورة مثله» (يونس : 38) ثم تأكدت المواعظ والزواجر والاشارات إلى أحوال المكذبين والمعاندين (فمن التنبيه)[199] «إن ربكم الله» (يونس : 3) إن في اختلاف الليل والنهار» (يونس : 6) «قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق» (يونس : 35) «قل انظروا ماذا في السماوات والأرض» (يونس : 101) إلى غير هذا.

وعلى هذا السنن تكررت العظات والأغراض المشار إليها في هذه السورة إلى قوله تعالى : «يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم» (يونس : 108) فحصل من سورة الأعراف والأنفال وبراءة ويونس تفصيل ما كان أجمل فيما تقدمها، كما حصل مما تقدم تفصيل أحوال السالكين والمتنكبين، فلما تقرر هذا كله، اتبع المجموع بقوله : «كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير»/ (آية : 1).

---

(197) . ب : اعقب.
(198) . أ : الانعام وبراءة.
(199) . أ : في الشبه.

وتأمل مناسبة الاتيان بهذين الاسمين الكريمين وهما : الحكيم، الخبير، ثم تأمل تلاؤم صدر السورة لقوله : «(قل)(200) يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم» (يونس : 108) وقد كان تقدم قوله تعالى : «قد جاءتكم موعظة من ربكم»(201) (يونس : 57) فاتبع قوله تعالى : «قد جاءكم الحق من ربكم» بقوله في صدر سورة هود كتاب أحكمت آياته ثم فصلت» (آية : 1) فكأنه في معرض بيان الحق والموعظة، وإذا كانت محكمة مفصلة فحق لها أن تكون شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمومنين، وحق توبيخهم في قوله تعالى : «بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه» (يونس : 39). والعجب في عمههم مع أحكامه وتفصيله، ولكن.. «(إن)(202) الذين حقت عليهم كلمات ربك لا يومنون» (يونس : 96).

وتأمل قوله سبحانه آخر هذه السورة «وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمومنين» (آية : 120) فكل الكتاب حق وموعظة وذكرى، وإنما الاشارة والله أعلم بما أراد إلى ما تقرر الايماء إليه من كمال بيان الصراط المستقيم، وملتزمات متبعيه أخذا وتركا، وذكر أحوال المتنكبين على شتى طرقهم واختلاف أهوائهم وغاياتهم وشرّهم إبليس فإنه متبعهم والقائل لجميعهم في اخبار الله تعالى (سبحانه :)(203) «إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فاخلفتكم» (إبراهيم : 22) وقد بُسط من أمره وقصته في (البقرة والأعراف)(204) ما يَسّر على المومنين الحذر منه وعرفهم به، وذُكِرَ اليهود والنصارى والمشركون والصابئون والمنافقون وغيرهم، وفصل مرتكب كل فريق منهم، كما استوعب ذكر أهل الصراط المستقيم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين، وفصل من أحوالهم ابتداء وانتهاء والتزاما وتركا ما أوضح طريقهم وعين حزبهم وفريقهم، «أولئك الذين هدى الله» (الأنعام : 90) وذكر أحوال الأمم مع

---

(200) . ساقطة من : ب.

(201) . قد جاءتكم موعظة من ربكم ساقطة من ب.

(202) ساقطة من : ب .

(203) . ب : ساقطة.

(204) . أ : الاعراف والبقرة.

أنبيائهم وأخذ كل من الأمم بذنبه مفصلا، وذكر ابتداء الخلق في قصة آدم عليه السلام، وحال الملائكة في التسليم والاذعان، وذكر فريقا الجن من مومن وكافر، وأمر الآخرة وانتهاء حال الخلائق واستقرارهم الأخروي، وتكرر دعاء الخلق إلى الله تعالى طمعا (فيه)[205]/ ورحمة، واعلام الخلق بما هو عليه سبحانه، وما يجب له من الصفات العلا، والأسماء الحسنى، ونبه العباد على الاعتبار وعلموا طرق الاستدلال ورغبوا ورهبوا واندروا واعلموا بافتقار المخلوقات بجملتها إليه سبحانه كما هو المنفرد بخلقهم إلى ما تخلل ذلك مما يعجز الخلائق عن حصره والاحاطة به، والله يقول الحق.

فلما تقدم هذا كله في السبع الطوال وما تلاها، أعقب ذلك بقوله : «كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير» (آية : 1) ثم اتبع هذا بالايماء إلى فصول ثلاثة عليها مدار آى (الكتاب)[206]، وهي فصل الالهية وفصل الرسالة وفصل التكاليف. أما الأول فأشار إليه قوله : «الا تعبدوا إلا الله» (آية : 2). وأما فصل الرسالة فأشار إليه سبحانه : «انني[207] لكم منه نذير وبشير» (آية : 2) وأما فصل التكاليف فأشار إليه قوله سبحانه : «وان استغفروا ربكم ثم توبوا إليه» (آية : 3) وهذه الفصول الثلاثة (هي)[208] التي تدور عليها آى القرآن، وعليها مدار السورة الكريمة.

فلما حصل استيفاء ذلك كله فيما تقدم ولم يبق وجه (شبهه)[209] للمعاند ولا تعلق للجاحد، واتضح الحق وبان، قال سبحانه وتعالى : «وجاءك في هذه الحق» (آية : 120) إشارة إلى كمال المقصود، وبيان المطلوب واستيفاء التعريف (بوضوح)[210] الطريق، وقد وضح من هذا تلاؤم هذه السورة الكريمة لما تقدمها، ومما

(205) . أ : منه.

(206) . ب : الكتب.

(207) . في الاصل : انى.

(208) . ساقطة من : ب.

(209) . ساقطة من : ب.

(210) . ب : وضوح.

يشهد لهذا والله أعلم قوله تعالى : «أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه» (آية : 17) وقوله تعالى : «فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا» (آية : 112) فقد وضح طريقك وفاز بالفلاح حزبك وفريقك «ولا تركنوا إلى الذين ظلموا» (آية : 113) فقد عرفتم سبيلهم ومصيرهم فقد بان طريق الحق. (وكيف)[211] تنكب من حُرم سلوكَه من الخلق. ونظير قوله سبحانه : «وجاءك في هذه الحق» (آية : 120) عقب ما ذكر سبحانه «لمن الملك اليوم غافر» (غافر : 16) وقوله (تعالى) :[212] «يوم لا تملك نفس لنفس شيا والأمر يومئذ لله» (الانفطار : 19) فتأمل ذلك والله المستعان.

سـورة يوسف عليـه السـلام[213]

هذه السورة من جملة ما قص عليه عليه السلام[214] من أنباء الرسل وأخبار من تقدمه مما فيه التثبيت الممنوح في قوله تعالى : «وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك» (هود : 120)، ومما وقعت الاحالة عليه في سورة الأنعام كما

(211) . ب : وكيف.

(212) . ب : ساقطة.

(213) . وسبب نزولها ما رواه سعد بن ابي وقاص انه أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه على أصحابه زمانا فقالوا لو قصصت علينا فنزلت، وقيل هي تسلية عما يفعله به قومه بما فعلت اخوة يوسف بيوسف عليه السلام، وقيل أن اليهود سألوه ﷺ ان يحدثهم بأمر يعقوب وولده وشأن يوسف وما انتهى اليه فنزلت. روح المعاني : 12 /152.

وما ابداه المصنف من ارتباط هذه السورة بسالفتها ظاهر وجيه، نزيد ذلك ايضاحا فنقول :

لما ذكرت سورة هود النهايات الأليمة والخواتيم السيئة للأمم المكذبة، انفصلت هذه السورة بأن الأمة التي بعث فيها يوسف عليه السلام لم تكن نهايتها كأولئك بل هداها الله عز وجل وآمنت فمتعت الى حين، وحياة سيدنا يوسف وما لاقاه تشبه حياة سيدنا رسول الله ﷺ في تحمله وصبره، فكما كانت العاقبة الحسنة والمنزلة الرفيعة لسيدنا يوسف، ففي هذه السورة وعد ضمني من الله عز وجل لمحمد ﷺ أنه سينصره وسيجعله بالمقام الارفع والمحل الأسنى، ولهذا جاءت متميزة عن القصص المذكورة في سورة هود وان كان الموضوع في حقيقته واحدا، ولكن النتائج مختلفة.

وأشير الى ملاحظة أبداها القرطبي حيث قال : قال العلماء : ذكر الله اقاصيص الأنبياء في القرآن وكررها بمعنى واحد في وجوه مختلفة بألفاظ متباينة على درجات البلاغة، وقد ذكر قصة يوسف ولم يكررها فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرر ولا على معارضة غير المتكرر. انظر الجامع لاحكام القرآن : 9 /118.

(214) . ب : ﷺ .

تقدم، وانما افردت على حدتها ولم تنسق على قصص الرسل مع (أممهم)[215] في سورة واحدة لمفارقة مضمونها تلك القصص، (ألا ترى)[216] ان تلك قصص إرسال من تقدم ذكرهم عليهم السلام وكيفية تلقي قومهم لهم وإهلاك مكذبيهم، أما هذه القصة فحاصلها فرج بعد شدة، وتعريف بحسن عاقبة الصبر، فإنه تعالى امتحن يعقوب عليه السلام بفقد ابنيه وبصره وشتات بنيه، وامتحن يوسف عليه السلام بالجب والبيع وامرأة العزيز وفقد الأب والأخوة والسجن، ثم امتحن جميعهم بشمول الضرر وقلة ذات اليد «مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوفِ لنا الكيل» (آية : 88) ثم تداركهم الله بإلفهم وجمع شملهم ورد بصر أبيهم وائتلاف قلوبهم ورفع ما نزغ به الشيطان، وخلاص يوسف عليه (الصلاة)[217] والسلام من كيد من كاده واكتنافه بالعصمة وبراءته عند الملك، وكل ذلك مما أعقبه جميل الصبر، وجلالة اليقين في حسن تلقي الأقدار بالتفويض والتسليم على توالي الامتحان وطول المدة، ثم انجر في أثناء هذه القصة الجليلة إثابة امرأة العزيز ورجوعها إلى الحق وشهادتها ليوسف عليه السلام بما منحه الله من النزاهة عن كل ما يشين، ثم استخلاص العزيز إياه إلى ما أنجز في هذه القصة الجليلة من العجائب والعبر، «لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب» (آية : 111). فقد انفردت هذه القصة بنفسها ولم تناسب ما ذكر من قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام، وما جرى من أممهم، فلهذا فُصلت عنهم[218]. وقد أشار في

(215) أ : أنهم.
(216) . أ : الأخرى.
(217) . اقطة من : ب.
(218) . يقول الشيخ عبد الله بن الصديق عن سبب ذكر قصة يوسف في سورة مستقلة وعدم تكرارها كسائر القصص القرآني : ان هذه القصة نزلت بسبب سؤال وقع «لقد كان ليوسف واخوته آيات للسائلين» وذلك يقتضي ان نذكر كلها في موضع واحد ولو أخر شيء منها الى سورة أخرى كان الجواب غير واف بالسؤال وذلك غير جائز، لأن تأخير الجواب عن وقت الحاجة لا يجوز كما هو مقرر في علم الاصول، ثم ان القصة ذكرت مجملة في قول يوسف لأبيه : «اني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين» وما حصل بعد ذلك بينه وبين اخوته يعد تفصيلا لهذه الرؤيا وتمهيدا لتفسيرها، الا ترى الى يوسف حين تلاقى بأبويه واخوته وخروا له سجدا قال : «يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا» ولا شك ان السامع للرؤيا تطلعت نفسه الى تأويلها ومعرفة ما المراد بالكوكب وما المراد بالشمس والقمر، وما معنى سجودهم، فكان من مقتضيات البلاغة التي هي مطابقة الكلام المقتضى الحال، تفصيل القصة بعد هذا الاجمال وتفسير الرؤيا بعد ذلك الابهام، لتهدأ نفس السامع ويطمئن قلبه. انظر جواهر البيان : 39.

سورة برأسها إلى عاقبة من صبر ورضي وسلم ليتنبه المومنون على ما في طي ذلك، وقد صرح لهم (بما)[219] اجملته هذه السورة من الاشارة في قوله تعالى : «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض إلى قوله أمنا» (النور : 35) وكانت قصة يوسف (عليه السلام)[220]، بجملتها أشبه شيء بحال المومنين في مكابدتهم في أول الأمر وهجرتهم وتشتتهم مع قومهم، وقلة ذات أيديهم إلى أن جمع الله شملهم «واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا» (آل عمران : 103) وأورثهم الأرض وأيدهم ونصرهم، ذلك. بجليل إيمانهم وعظيم صبرهم.

فهذا ما أوجب تجرد هذه القصة عن تلك القصص والله أعلم، وأما تأخر ذكرها عنها فمناسب لحالها، ولأنها إخبار بعاقبة من آمن واتعظ ووقف عند ما حُدله فلم يضره ما كان، ولم تُذكر أثر قصص الأعراف لما بقي من استيفاء تلك القصص الحاصل ذلك في سورة هود، ثم أن ذكر أحوال المومنين مع من كان معهم من المنافقين وصبرهم عليهم مما يجب أن يتقدم ويعقب بهذه القصة من حيث عاقبة الصبر والحض عليه كما مر فأخرت إلى عقب سورة هود عليه السلام لمجموع هذا والله تعالى أعلم.

ثم ناسبت سورة يوسف أيضا أن تذكر أثر قوله تعالى : «إن الحسنات يذهبن السيئات» (هود : 114) وقوله : «واصبر فإن الله لا يضيع أمر المحسنين» (هود : 115) وقوله : «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة الآية» (هود : 118) وقوله «وقل للذين لا يومنون اعملوا على مكانتكم انا عاملون وانتظروا انا منتظرون» (هود : 121) فتدبر ذلك. أما نسبتها (للآية)[221] الأولى فإن ندم اخوة يوسف واعترافهم بخطإ فعلهم وفضل يوسف عليهم «لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين» (آية : 91) وعفوه عنهم «لا تثريب عليكم اليوم» (آية : 92)، وندم

(219) . أ : مما.
(220) . أ : ساقطة.
(221) . أ : ساقطة.

امرأة العزيز وقولها «الآن حصحص الحق... الآية» (آية : 51) كل هذا من باب إذهاب الحسنة السيئة، وكأن ذلك مثال لما عرف المومنون من إذهاب الحسنة السيئة، وأما نسبة السورة لقوله تعالى : «واصبز فإن الله لا يضيع أجر المحسنين» (هود : 115) فإن هذا أمر منه سبحانه لنبيه عليه السلام بالصبر على قومه، فاتبع بحال يعقوب يوسف عليهما السلام. وما كان من صبرهما مع طول المدة وتوالي امتحان يوسف عليه السلام بالجب ومفارقة الأب والسجن حتى خلصه الله أجمل خلاص بعد طول تلك المشقات، ألا ترى قول نبينا (عليه الصلاة والسلام)[222]، وقد ذكر يوسف عليه السلام فشهد له بجلالة الحال، وعظيم الصبر فقال : «ولو لبثت في السجن ما لبث أخي يوسف لأجبت الداعي[223] ، فتأمل عذره له عليهما السلام وشهادته بعظيم قدر يوسف «وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك» (آية : 120). لما قيل له عليه السلام «واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين» (هود : 115) اتبع بحال يعقوب ويوسف من المحسنين، «ووهبنا له إسحاق ويعقوب إلى قوله وكذلك نجزي المحسنين» (الأنعام : 84).

وقد شملت الآية ذكر يعقوب ويوسف (عليهما السلام)[224]، ونبينا عليه (الصلاة)[225] والسلام قد (أمر)[226] بالاقتداء في الصبر بهم، وقيل له «فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل» (الاحقاف : 35) ويوسف عليه السلام من أولي العزم (صلى الله عليهم أجمعين)[227].

---

(222) . ب : ساقطة.
(223) . ونص الحديث «يرحم الله لوطا وقد كان يأوى الى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي، ونحن أحق بالشك من ابراهيم اذ قال : رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تومن قال بلى، ولكن ليطمئن قلبي «أخرجه البخارى في صحيحه من حديث أبي هريرة، واحمد في مسنده ومسلم في صحيحه، فتح البارى : 6 /410 و 8 /366 وانظر الدر المنشور : 4 /23، وتفسير ابن كثير : 4 /32.
(224) . أ : ساقطة.
(225) . أ : ساقطة.
(226) . أ : أمرنا.
(227) . ب : ساقطة.

ثم إن حال يعقوب ويوسف عليهما السلام في صبرهما ورؤية حسن عاقبة الصبر في الدنيا مع ما أعد الله لهما من عظيم الثواب انسب شيء لحال[228] نبينا عليه السلام في مكابدة قريش ومفارقة وطنه، ثم تعقب ذلك بظفره بعدوه، واعزاز دينه، واظهار كلمته، ورجوعه إلى بلده على حالة قرت بها عيون المومنين وما فتح الله عليه وعلى أصحابه فتأمل ذلك.

ويوضح ما ذكرناه ختم السورة بقوله تعالى : «حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا... الآية (آية : 110)، فحاصل هذا كله الأمر بالصبر وحسن (عاقبة)[229] أولياء الله فيه. وأما النسبة لقوله «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين» (هود : 118) فلا أنسب لهذا ولا أعجب من حال اخوة فضلاء لأب واحد من أنبياء الله وصالحي عباده جرى بينهم من التشتت ما جعله الله عبرة لأولى الألباب، وأما النسبة لآية التهديد فبينة، وكأن الكلام في قوة اعملوا على مكانتكم وانتظروا، (فلن)[230] نصبر عليكم مدة صبر يعقوب ويوسف (عليهما السلام)[231]، (وقد)[232] وضح بفضل الله وجه ورود هذه السورة عقب سورة هود والله أعلم.

سورة الرعد[233]

هذه السورة تفصيل لمجمل قوله سبحانه في خاتمة سورة يوسف عليه السلام «وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون (آية :

(228) . ب : بحال.

(229) . ب : عواقب.

(230) . ب : على.

(231) . ب : عليهما الصلاة والسلام.

(232) . ب : فقد.

(233) . هذه السورة الكريمة اختلف فيها هل هي مكية أو مدنية فبعضهم قال مكية وبعضهم قال مدنية وبعضهم قال فيها المدني والمكي، ولكن المتتبع لآياتها اذا قارنها بالآيات المكية يجدها بها أشبه، وموضوعها بيان آيات الله عز وجل في السماء والارض ودلائل عظمته وقدرته في الخلق والتدبير، ولهذا فقد برع المصنف كعادته في بيان وجه ارتباطها بسورة يوسف من حيث أنها تفصيل لأواخر سورة يوسف، واقامة البراهين أمام الخلق للاهتداء الى معرفة الخالق، ومن هذه البراهين برهان القرآن وانه منزل من عند الله تعالى : قارن بذلك تناسق الدرر : 109، 110، وتفسير المراغي : 13 /60.

105) «وما يومن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون» (آية : 106) «أفأمنوا أن تاتيهم غاشية من عذاب الله أو تاتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون» (آية : 107) «قل هذه سبيلي ادعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين» (آية : 108)، فبيان آى السماوات في (قوله)[234] الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش، وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى» (آية : 2) وبيان آي الأرض في قوله : «وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين» (آية : 3) فهذه آي السماوات والأرض وقد زيدت بيانا في مواضع ثم في قوله تعالى : «يغشي الليل النهار» (آية : 3) (و)[235] ما (يكون)[236] من الآيات عنهن، لأن الظلمة عن جرم الأرض والضياء عن نور الشمس وهي سماوية ثم زاد تعالى آيات الأرض بيانا وتفصيلا في قوله : «وفي الأرض قطع متجاورات إلى قوله لقوم يعقلون» (آية : 4)، ولما كان إخراج الثمر بالماء النازل من السماء من أعظم آية ودليلا واضحا على صحة المعاد، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى «كذلك نخرج الموتى» (الأعراف : 57) وكان قد ورد هنا على أعظم جهة في الاعتبار من إخراجها مختلفات في الطعوم والألوان والروائح مع اتحاد المادة، تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الطعوم والألوان والروائح مع اتحاد المادة «تسقى بماء واحد وتفضل بعضها على بعض في الأكل» (آية : 4) لذلك[237] أعقب قوله تعالى : «وفي الأرض قطع متجاورات... الآية بقوله «وان تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد» (آية : 5)، ثم بين سبحانه الصنف القائل بهذا وانهم الكافرون أهل الخلود في النار، ثم أعقب ذلك ببيان عظيم حلمه وعفوه فقال : «ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة... الآية» (آية : 6) ثم اتبع ذلك بما يشعر بالجري على السوابق في قوله : «إنما أنت منذر ولكل قوم هاد» (آية : 7) ثم بين عظيم ملكه واطلاعه على

(234) . أ : قول.

(235) . زيادة من المحقق لربط الكلام.

(236) . ب : تكون.

(237) . ب : لذلك.

دقائق ما أوجده من جليل صنعه واقتداره فقال : «الله يعلم ما تحمل كل أنثى.... الآيات إلى قوله «وما لكم من دونه من وال» (8ـــ11) ثم خوف عباده وانذرهم ورغبهم «هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا الآيات» (13 وما بعدها) وكل ذلك راجع إلى ما أودع سبحانه في السماوات والأرض وما بينهما من الآيات، وفي ذلك أكثر آي السورة. ونبه تعالى على الآية الكبرى والمعجزة العظمى فقال : «ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى» (آية : 31) والمراد لكان هذا القرآن)[238] ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا» (النساء : 82)، والتنبيه بعظيم هذه الآيات مناسب لمقتضى السورة من التنبيه بما أودع تعالى من الآيات في السماوات والأرض، وكأنه جل وتعالى لما بين لهم عظيم ما أودع في السماوات والأرض وما بينهما من الآيات وبسط ذلك وأوضحه أردف ذلك بآية أخرى جامعة للآيات ومتسعة للاعتبارات فقال تعالى : «ولو أن قرآنا سيرت به الجبال» فهو من نحو «إن في السموات والأرض لآيات للمومنين (الجاثية : 3)، «وفي أنفسكم» (الذاريات : 21)، أي لو فكرتم في آيات السماوات والأرض لاقلتكم وكفتكم في بيان الطريق إليه، ولو فكرتم في أنفسكم وما أودع تعالى فيكم من العجائب لاكتفيتم، (من عرف نفسه عرف ربه)[239].

---

(238) . يقول الشيخ المراغي تأكيدا لهذا المعنى : «ولو أن قرآنا سيرت به الجبال» أي ولو ثبت أن كتابا سيرت بتلاوته الجبال وزعزعت من أماكنها كما فعل بالطور لموسى عليه السلام، «أو قطعت به الارض» أي شققت وجعلت أنهارا وعيونا كما حدث للحجر حين ضربه موسى بعصاه، «أو كلم به الموتى» اى أو كلم به أحد الموتى في قبورهم بأن احياهم بقراءته فتكلم معهم بعد كما وقع لعيسى عليه السلام ـــ لو ثبت هذا الشيء من الكتب لثبت هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه : لما انطوى عليه من الايات الكونية الدالة على بديع صنع الله في الأنفس والآفاق... ويجوز أن يكون المعنى لو أن كتابا فعلت بواسطته هذه الأفاعيل العجيبة لما آمنوا به لفرط عنادهم وغلوهم في مكابرتهم. تفسير المراغي : 13 /104، 105.

(239) . هذا النص قال ابن السمعاني لا يعرف مرفوعا وانما هو من كلام يحيى بن معاذ الرازي، قال الامام النووى : انه ليس بحديث ثابت. انظر تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على السنة الناس من الحديث ص : 165 والدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ص 148 قلت : ويحيى بن معاذ الرازي أبو زكريا من كبار الزهاد والوعاظ من أهل الري، مات بنيسابور سنة 258 هـ. ولم يكن له نظير في وقته في الزهد والورع، وله كلمات سائرة.

فمن قبيل هذا الضرب من الاعتبار هو الواقع في سورة الرعد من بسط آيات السماوات والأرض، ثم ذكر القرآن وما يحتمل، فهذه إشارة إلى ما تضمنت هذه السورة الجليلة من بسط الآيات المودعة في الأرضين والسماوات.

وأما قوله تعالى : «وما يومن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون» (يوسف : 106) فقد أشار إليه قوله تعالى : «ولكن أكثر الناس لا يومنون» (الرعد : 1) «إنما يتذكر أولوا الألباب» (الرعد : 19) وقوله : «الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم (بذكر)(240) الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب» (الرعد : 28)، فالذين تطمئن قلوبهم بذكر الله هم أولو الألباب المتذكرون التامو الايمان (وهم)(241) القليل المشار إليهم في قوله : «وقليل ما هم» (سورة ص : 24) والمقول فيهم «أولئك هم المومنون حقا» (الأنفال : 4) ودون هؤلاء طوائف من المومنين ليسوا في درجاتهم ولا بلغوا يقينهم وإليهم الاشارة بقوله : «وما يومن أكثرهم بالله الا وهم مشركون» (يوسف : 106) قال عليه (الصلاة)(242) والسلام (الشرك في أمتي أخفى من دبيب النمل)(243) فهذا بيان ما أجمل في قوله : «وما يومن أكثرهم بالله الا وهم مشركون».

وأما قوله تعالى : »أفأمنوا أن تاتيهم غاشية من عذاب الله» يوسف: 107) فما عجل(244) لهم من ذلك في قوله : «ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتي وعد الله» (الرعد : 31) القاطع دابرهم والمستأصل لأمرهم، وأما قوله تعالى : «قل هذه سبيلي ادعوا إلى الله على

(240) . في أ : لذكر.

(241) . في أ : وهو.

(242) . أ ساقطة.

(243) . جاء هذا النص مرفوعا من رواية عدد من الصحابة وبعضها مطولا، فقد أخرجه الإمام أحمد والطبراني والبزار من حديث أبي موسى الأشعرى، وأخرجه أبو يعلى الموصلي، وأبو القاسم البغوى، وابن عدى وابن حبان من حديث أبي بكر الصديق كما أخرجه الحاكم في التفسير والحكيم في نوادر الأصول من حديث عائشة، وطرقه كلها مضعفة. انظر فيض القدير : 4 /172، 173. وتفسير ابن كثير : 4 /57.

(244) . أ : فما أعجل.

بصيرة.... الآية (يوسف : 108)، فقد أوضحت آى سورة الرعد سبيله عليه السلام وبينته بما تحتمله من عظيم التنبيه وبسط الدلائل بما في السماوات والأرض وما بينهما وما في العالم بجملته وما تحمله الكتاب المبين كما تقدم.

ثم قد تعرضت السورة لبيان جلي سالكي تلك السبيل الواضحة المنجية فقال تعالى : «الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق» (آية : 20) إلى آخر ما حلاهم به أخذا وتركا.

ثم عاد الكلام بعد إلى ما فيه من التنبيه والبسط وتقريع الكفار وتوبيخهم وتسليه عليه السلام في أمرهم «إنما أنت منذر» (آية : 7) «ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية» (آية : 38) فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب» (آية : 40) «ويقول الذين كفروا لست مرسلا» (آية : 43) والسورة بجملتها غير حائدة عن تلك الأغراض المجملة في الآيات الأربع المذكورات من آخر سورة يوسف، ومعظم السورة وغالب آيها في التنبيه وبسط الدلالات والتذكير بعظيم ما أودعت من الآيات، ولما كان هذا شأنها أعقبت بمفتتح سورة إبراهيم عليه السلام.

سـورة إبراهيـم عليـه السـلام(245)

لما كانت سورة الرعد على ما تمهد(246) (بأن)(247) كانت تلك الآيات والبراهين (التي سلفت فيها)(248) لا يبقى معها شك لمن اعتبرها لعظيم(249) شأنها واتضاح(250) أمرها، قال تعالى : «كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم» (الآيتين : 1—2) أي إذا هم تذكروا به واستبصروا ببراهينه وتدبروا آياته «ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض (أو كلم به

---

(245) . هذه السورة الكريمة مكية النزول في جملتها، ويظهر لي أن من وجوه ارتباط هذه السورة بما قبلها والله أعلم، أنه لما تقدم في سورة الرعد اقامة الدلائل والبراهين على عظمة الله وقدرته وتدبيره، جاءت هذه السورة لتبين ناموسا من نواميس هذا الكون، وتملي حقيقة من حقائق هذا الوجود، ألا وهي أن الحق يشب ويدوم وينمو مع الأيام ويزداد، وإن الباطل يتضاءل ويتصاغر ويذوب، فبعد أن مهدت السورة بمحاورة الرسل مع أقوامهم وجهدهم في النصح لهم، جاء قوله تعالى : «مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد» وهذا مثل الباطل الذي يزول سريعا ثم بعد آيات جاء مثل الحق «ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين باذن ربها».

وبعد هذا التقرير الالهي تنتقل هذه السورة الى حقيقة كان العرب يعيشونها الا وهي حقيقة ابراهيم واسماعيل، اذ ترك ابراهيم فلذة كبده اسماعيل في الارض القفر لا ظل ولا ماء ولكنه فرع من الشجرة الطيبة فهيأ الله له أسباب النماء والعفاء، وهو أبوكم الذي اليه تنتسبون وبأصله تعتزون يا معشر المخاطبين من العرب، فاذا كان أصلكم بالحق والايمان نما فما عليكم الا سلوك هذا السبيل ليستمر وجودكم ويزداد عزكم وشرفكم، ولا تكونوا كالأمم التي عصت وكذبت وتقدم ذكرها في سورة هود فكان عاقبتها خسرانا، بل اسلكوا سبيل ابيكم ابراهيم، ففي هذا بلاغ وانذار يهتدي به اولو الالباب «هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا انما هو اله واحد وليذكر أولوا الالباب».

وقد أبدى الشيخ المراغي أوجها لارتباطها بالتي قبلها وهي : أنه قد ذكر سبحانه في السورة السابقة أنه أنزل القرآن حاكما عربيا ولو يصرح بحكمة ذلك وصرح به هنا. وأنه ذكر في السورة السالفة قوله «وما كان لرسول ان ياتي بآية الا باذن الله «وهنا ذكر أن الرسل قالوا : وما كان لنا أن ناتيكم بسلطان الا باذن الله.» وذكر هناك أمره عليه السلام بالتوكل على الله وهنا حكى عن إخوانه المرسلين أمرهم بالتوكل عليه جل شأنه. وذكر هناك رفع السماوات بغير عمد، ومد الارض وتسخير الشمس والقمر، وذكر هنا نحو ذلك. وذكر هناك مكر الكفار وذكر مثله هنا، وذكر من وصفه ما لم يذكر هناك. واشتملت تلك على تمثيل الحق والباطل، واشتملت هذه على ذلك أيضا. تفسير المراغي : 13 /122.

(246) .أ : أقحم بعد كلمة تمهد ما يلي : (قال تعالى : كتاب أنزلناه اليك الى قوله باذن ربهم) وبدونها يستقيم التركيب.

(247) . أ : لما.

(248) . ساقطة من : أ.

(249) . ب : لتعظيم.

(250) . ب : وايضاح.

الموتى» (الرعد : 31) لكان هو)[251]، ولما كان الهدى والضلال كل ذلك موقوف على مشيئة الله سبحانه وسابق إرادته، وقد قال لنبيه عليه السلام : «إنما أنت منذر ولكل قوم هاد» (الرعد : 8) قال تعالى هنا «بإذن ربهم» (الآية : 1) «فإنما عليك البلاغ» (الرعد : 40) وكما قال تعالى : «وكآين من آية في السماوات والأرض» (يوسف : 105)، ثم بسطها في سورة الرعد، اعلم هنا أن ذلك كله له وملكه فقال : «الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض» (آية : 2)2 فالسماوات والأرض بجملتهما وما فيهما (وما بينهما)[252] من عظيم ما أوضح لكم الاعتبار به، كل ذلك/ له ملكا وخلقا واختراعاً «وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها» (آل عمران : 83) «وويل للكافرين من عذاب شديد»[253] إبراهيم : 2) لعنادهم مع وضوح الأمر وبيانه، ويصدون عن سبيل الله مع وضوح السبيل وانتهاج ذلك بالدليل[254] (ثم)[255] قال تعالى : «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه» (آية : 4) وكان هذا من تمام قوله سبحانه «ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية» (الرعد : 38) وذلك أن الكفار لما حملهم الحسد والعناد (وبعد)[256] إلفهم بما جبل على قلوبهم وطبع عليها على أن انكروا كون الرسل من البشر حتى قالوا : «أبشر يهدوننا» (التغابن : 6) ما أنتم إلا بشر مثلنا» (يس : 15) وحتى قالت قريش : «لولا أنزل (عليه)[257] ملك» (الأنعام : 8) «وما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك.... الآية» (الفرقان : 7) «وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم» (الزخرف : 31) فلما كثر هذا منهم وتبع خلفُهم في هذا سلفَهم رد تعالى (أزعامهم)[258] وأبطل توهمهم في آيات وردت على التدريج في هذا الغرض شيئا

(251) . ب : ساقطة.

(252) . ساقطة.

(253) . هذه الآية ساقطة من : أ.

(254) . ب : الدليل.

(255) . ب : ساقطة.

(256) . ب : بعد.

(257) . أ،ب : إليه وهو خطأ

(258) . في أ : ازعاما لهم.

فشيئا، فأول الوارد من ذلك في معرض السرد عليهم وعلى ترتيب سور الكتاب قوله تعالى : «أكان للناس عجبا ان أوحينا إلى رجل منهم... الآية» (يونس : 2)، ثم اتبع ذلك بانفراده تعالى بالخلق والاختراع والتدبير والربوبية، وفي طي ذلك أنه يفعل ما يشاء، لأن الكل خلقه وملكه وأنه العليم بوجه الحكمة في إرسال الرسل وكونهم من البشر، فأرغم (الله)[259] تعالى بمضمون هذه (الآى)[260] كل جاحد ومعاند، ثم ذكر تعالى في سورة هود قوم نوح : «ما نراك إلا بشرا مثلنا... الآية (هود : 27) وجوابه عليه السلام : «أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وأتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون» (هود : 28) أي واني وان كنت في البشرية مثلكم فقد خصني الله من فضله وآتاني رحمة من عنده وبرهانا على ما جئتكم به عنه، وفي هذه القصة (أوضح)[261] عظة، ثم جرى هذا لصالح وشعيب عليهما السلام وديدن الأمم أبدا مع أنبيائهم ارتكاب هذه المقالات، وفيها من الحيد والعجز عن مقاومتهم ما لا يخفى، وما هو شاهد على تعنتهم[262]، ثم زاد تعالى نبيه ﷺ تعريفا بأحوال من تقدمه من/ الأنبياء (عليهم السلام)[263]ليسمع ذلك من جرى (له)[264] مثل ما جرى لهم فقال مثل مقالتهم فقال تعالى : «ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية» (الرعد : 38) واعلم سبحانه أن هذا لا يحيط شيئا من مناصبهم بل هو أوقع في قيام الحجة على العباد، ثم تلى ذلك بقوله : «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه» (إبراهيم : 4) أي ليكون ابلغ في الحجة وأقطع للعذر[265]، فربما كانوا يقولون عند اختلاف الألسنة لا نفهم عنهم، إذ (قد)[266] قالوا ذلك مع اتفاق اللغات، فقد قال قوم شعيب عليه السلام :

---

(259) . في أ : ساقطة.
(260) . ب : الآية.
(261) . في ب : أعظم.
(262) . في أ : تعتبتهم.
(263) . ساقطة من : أ.
(264) . ب : لهم.
(265) . ب : في العذر.
(266) . ب : ساقطة.

«(ما)[267] نفقه كثيرا مما تقول» (هود : 91) هذا وهو عليه السلام يخاطبهم بلسانهم، فكيف لو كان على خلاف ذلك، بل لو خالفت الرسل عليهم السلام الأمم في التبتل وعدم اتخاذ الزوجات والأولاد، واستعمال الأغذية وغير ذلك من مألوفات[268] البشر لكان ذلك منفرا[269]، فقد بان وجه الحكمة في كونهم من البشر، ولو كانوا من الملائكة لوقع النفار والشرود لافتراق الجنسية وإليه الاشارة بقوله تعالى : «ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون» (الأنعام : 9) أي ليكون أقرب إليهم لئلا يقع تنافر فكونهم من البشر أقرب وأقوم للحجة.

ولما كانت رسالة محمد ﷺ عامة[270] كان عليه الصلاة[271] والسلام يخاطب كل طائفة من طوائف العرب بلسانها ويكلمها بما تفهم[272] وتأمل (كم)[273] بين كتابه ﷺ لأنس (رضي الله عنه)[274] في الصدقة، وكتابه إلى وائل

(267) . ب : لا.

(268) . في ب : مما لو لوفات.

(269) .أ مقصراً، والصواب منفراً.

(270) . أ : تامة.

(271) . أ : ساقطة.

(272) أنظر الهامش : 275

(273) . أ : ساقطة.

(274) . أ : ساقطة.

ابن حُجْر مع اتحاد الغرض، وللكتابين نظائر يوقف عليها في مظانها(275) وكل ذلك لتقوم(276) الحجة على الجميع، واستمر باقي سورة إبراهيم عليه السلام على التعريف بحال مكذبي الرسل ووعيد من خالفهم وبيان بعض أهوال الآخر وعذابها.

سـورة الحجـر(277)

لما تقدم من وعيد الكفار ما تضمنته الآى المختتم بها سورة إبراهيم عليه السلام من لدن قوله سبحانه : «ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون» إلى خاتمتها (الآيات : 42ـ52) أعقب ذلك بقوله : «ربما يود الذين كفروا لو كانوا

(275) . أما كتابه لوائل بن حجر فانه لما أراد الشخوص الى بلاده بعد أن وفد على رسول الله ﷺ قال يا رسول الله اكتب لي الى قومي كتابا، فقال رسول الله ﷺ اكتب له يا معاوية الى الأقيال العباهلة ليقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، والصدقة على التيعة السائمة لصاحبها التيمة لا خلاط ولا وراط، ولا شغار، ولا جلب ولا جنب ولا شناق وعليهم العون لسرايا المسلمين، وعلى كل عشرة ما تحمل العراب من أجبأ فقد أربى. انظر نص الكتاب في طبقات ابن سعد الكبرى : 1 /287، وانظر نماذج كتبه ﷺ الى قبائل العرب بلهجاتها المختلفة في نفس المصدر.

أما كتاب أنس فقد كتبه النبي ﷺ وختمه ليوجهه عاملا الى البحرين لكن المنية عاجلته فوجهه أبو بكر، وقد أخرجه البخاري في صحيحه مطولا ومفرقا في مواضيع في كتاب الزكاة من صحيحه، كما أخرجه أحمد والشافعي والبيهقي والحاكم والدارقطني، انظر صحيح البخاري مع الفتح : 3 /317 ونيل الاوطار : 4 /143.

(276) . ب : يقوم.

(277) . هذهالسورة مكية كما أخرج ذلك النحاس وابن مردويه، وجريا على قاعدتنا في بيان بعض أوجه الارتباط بين السور فأقول :

ان ارتباط سورة الحجر بسورة ابراهيم له متعلقات عديدة منها ما أبداه المصنف وما أبداه غيره، ومن هذه المتعلقات :

لما كانت سورة ابراهيم قبلها تذكرة بفضل الله على ابراهيم واسماعيل أبي العرب ونبيهم الوحيد قبل محمد ﷺ، وتبيانا بألطاف الله عز وجل بعباده المخلصين، وكانت خاتمة هذه السورة «هذا بلاغ» للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو اله واحد، وليذكر اولو الالباب «وان الاله الواحد هو الذي أكرمهم بهذا الرسول وهذا الكتاب الذي جاء به، بينت سورة الحجر مصير قوم من جلدتهم عاشوا في هذه الديار أو قريبا منها، فلما عتوا عن أمر الله أصبحوا أثرا بعد عين، وفي ذلك دعوة لهم ليتأملوا بعقولهم وألبابهم. فقد قال ﷺ مستثيرا عقول اصحابه عندما مروا معه على الحجر لاجتناب سبيل المجرمين : لا تدخلوا على هؤلاء القوم الا أن تكونوا باكين، فان لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم يصيبكم ما أصابهم. أخرجه أحمد والبخارى من حديث ابن عمر انظر فتح البارى : 8 /381.

وقبل أن يقص الحق تبارك وتعالى خبر اصحاب الحجر ذكر المنشأة الاولى للانسانية، وتسلط إبليس من تلك اللحظات ليغوى هذا المخلوق، واستمراره في هذا الخط، ثم ذكرت قصة ابراهيم مع الملائكة ومع قوم لوط ودمارهم، تنبيها لكل ذي لب أن قدرة الله تبارك وتعالى لا يحجزها حاجز ولا يدافعها مدافع وذكرتهم بمنة الله عليهم ان الله آتى نبيه سبعا من المثاني والقرآن العظيم تشريفا وتكريما له ولهم، ثم جاءت بعد ذلك سورة النحل لتعدد لهم نعم الله عليهم كما سنبين ذلك في سورة النحل.

مسلمين» (آية : 2) أي[278] عند مشاهدة تلك الأهوال الجلائل[279]، ثم قال تعالى تأكيدا لذلك الوعيد «ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل فسوف يعلمون» (آية : 3) ثم أعقب تعالى[280] هذا بيان ما جعله سنة في عباده من ارتباط الثواب والعقاب معجلة ومؤجلة بأوقات وأحيان لا انفكاك لهما[281] عنها، ولا تقدم ولا تأخر إذ استعجال البطش في الغالب إنما يكون ممن يخاف الفوت، والعالم بجملتهم لله تعالى وفي قبضته لا يفوته أحد منهم ولا يعجزه، قال تعالى : «وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم» (آية : 4) وكان هذا يزيده[282] إيضاحا قوله عز وجل «إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار» (إبراهيم : 42) وقوله : «وانذر الناس يوم ياتيهم العذاب» (إبراهيم : 44) وقوله : «يوم تبدل الأرض غير الأرض... الآية : (إبراهيم : 48).

وتأمل نزول قوله تعالى : «ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين (آية 2) على هذا وعظيم موقعه في اتصاله به ووضوح ذلك كله.

وأما افتتاح السورة بقوله : «(الر)[283] تلك آيات الكتاب وقرآن مبين» (آية : 1) فأحاله على أمرين واضحين أحدهما ما نبه به سبحانه من الدلائل والآيات كما يفسر، والثاني ما بينه القرآن المجيد وأوضحه وانطوى عليه من الدلائل والغيوب والوعد والوعيد وتصديق بعض ذلك بعضا، فكيف لا يكون المتوعد به في قوة[284] الواقع الشاهد[285] لشدة البيان في صحة الوقوع، فالعجب من التوقف والتكذيب ثم أعقب هذا بقوله : «ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين» (آية : 2).

---

(278) . أ : ساقطة.

(279) . أ : الجذائل.

(280) . أ : ذلك.

(281) . ب : لها.

(282) . ب : يزيد.

(283) . ساقطة من : أ.

(284) . أ : به لا يكون في قوة...

(285) . ب : المشاهد.

سـورة النحـل(286)

هذه السورة في التحامها بسورة الحجر مثل الحجر بسورة إبراهيم من غير فرق، لما قال تعالى : «فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون» (الحجر : 92ـ93) وقال بعد ذلك في وعيد المستهزئين «فسوف يعلمون» (الحجر : 96) أعقب هذا ببيان تعجيل الأمر فقال تعالى : «أتى أمر الله فلا تستعجلوه» (آية : 1) وزاد هذا بيانا قوله سبحانه وتعالى : «عما يشركون» (آية : 1) فنزه سبحانه نفسه عما فاهوا به في استهزائهم وشركهم وعظيم بهتهم واتبع ذلك تنبيها(287) وتعظيما فقال : «خلق السماوات والأرض بالحق تعالى عما يشركون» (آية : 3) ثم اتبع ذلك بذكر ابتداء خلق الانسان وضعف جبلته «خلق الانسان من نطفة» (آية : 4). ثم أبلغه تعالى حدا يكون منه(288) الخصام والمحاجة، كل ذلك ابتلاء منه واختبار ليميز الخبيث من الطيب، وأعقب هذا(289) بذكر بعض ألطافه (سبحانه)(290) في خلق الأنعام وما جعل فيها من المنافع المختلفة/ وما هو سبحانه

---

(286) . هذه السورة الكريمة مكية النزول خلا آيات ثلاثة مدنية نزلت بشأن أسف النبي ﷺ على عمه حمزة، بعد ان استشهد بوقعة أحد ومُثل به فقال : لئن اقدرني الله عز وجل لأمثلن بسبعين منهم، فنزل قوله تعالى بعد ذلك، «وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به الى قوله والذين هم محسنون» الآيات الثلاثة الأخيرة من السورة.

وأضيف الى ما أبداه المؤلف من التناسب بين السورتين بأن سورة الحجر التي ذكرت المخاطبين بالقرآن بمصارع الغابرين وأرشدتهم الى دار الفاسقين، وأمرت النبى صلى الله عليه وسلم بأن يدوم على عبادته حتى يلقى ربه هو من اتبعه بقوله تعالى : «واعبد ربك حتى ياتيك اليقين» وجاءت كلمة رب ذات دلالة خاصة (أى المربي) بالنعم والألطاف والعناية فكانت المناسبة قوية في بيان طائفة من هذه النعم وهذا ما جاءت به هذه السورة.

وقد أبدى الشيخ عبد الله بن الصديق أوجها أخرى من التناسب من بينها : ختام السورة السابقة بقوله تعالى : «واعبد ربك حتى ياتيك اليقين» وهو الموت وفتحت هذه بقوله : «أتى أمر الله» يوم القيامة فتناسبت فاتحة هذه وخاتمة تلك في ذكر أمرين واجبي الوقوع، وأيضا فقد ذكر الله تعالى في السورة السابقة بداية خلق آدم ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمإمسنون» وذكر في هذه ما خلق من النعم له ولأولاده مثل خلق نعمة الانعام وانزال الماء من السماء، وانبات الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ونعم أخرى كاللبن والعسل والازواج والذرية وغير ذلك، ولهذا قال قتادة تسمى هذه السورة سورة النّعم وهذه مناسبة واضحة. جواهر البيان : 49ـ50 وتناسق الدرر : 112.

(287) . في ب : تنزيها.

(288) . في ب : فيه.

(289) . في ب : ذلك.

(290) . ساقطة من : ب.

عليه من الرأفة والرحمة اللتين بهما أخر العقوبة عن مستوجبها، وهدى من لم يستحق الهداية بذاته بل كل هداية فبرأفة الخالق ورحمته، ثم أعقب ما ذكره بعد من خلق الخيل والبغال والحمير وما في ذلك كله قوله : «ولو شاء لهداكم أجمعين» (آية : 9) فبين أن كل الواقع من هداية وضلال، خلقه وفعله، وأنه أوجد الكل من واحد وابتدأهم ابتداء واحدا «خلق الانسان من نطفة» (آية 4)، فلا بعد في اختلاف غاياتهم بعد ذلك، فقد ارانا سبحانه مثال هذا الفعل ونظيره في قوله : «هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر إلى قوله لأية لقوم يتفكرون» (الآيتان : 10—11).

سـورة الاسـراء(291)

لما تقدم قوله تعالى : «إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا (ولم يكن من المشركين)(292) إلى قوله «ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا.... الآية» (النحل : 120—123) كان ظاهر ذلك تفضيل إبراهيم عليه السلام على محمد ﷺ وعلى جميع الأنبياء لا سيما مع الأمر بالاتباع، فاعقب ذلك بسورة الاسراء،

(291) . هذه السورة الكريمة، والسور الاربع التي تليها — الكهف، ومريم، وطه، والانبياء — في جماتها سور مكية هكذا ثبتت في المصحف وعرفها الصحابة منذ نزولها بهذه الكيفية كما جاء ذلك عن ابن مسعود رضي الله عنهم فيما أخرجه البخارى وغيره. (انظر فتح البارى : 8 /388و 435) قال : بني اسرائيل ومريم وطه والانبياء هن من العتاق الأول وهن من تلادي.

ووجه مناسبتها لما قبلها — والله اعلم — ان «النحل» التي سبقتها هي سورة الامتنان بالنعم على جميع الخلق، وهذه السورة بيان للنعم الخاصة بسيد الخلق محمد ﷺ، فأبتدأت بذكرإسرائه وجاء فيها بعد تعداد بعض النعم التي خص بها قوله تعالى : «ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا (الآية : 79)، وقد جاء أن التهجد وقيام الليل كان مفروضا عليه ﷺ.

ومن الظاهر في هذه السورة ان الله عز وجل ذكر أفضل نعمة على بني آدم وهي نعمة التكريم والتفضيل على سائر المخلوقات في قوله عز وجل «ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا»، ففيها تخصيص بعد أن ذكرت النعم بشكل عام في السورة السابقة. وانظر أوجها أخرى في كتاب جواهر البيان في تناسب سور القرآن لأبي الفضل عبد الله بن الصديق. ص : 50—51.

(292) . ب : ساقطة.

وقد تضمنت من خصائص نبينا (عليه السلام)[293] وانطوت على ما حصل من المنصوص في الصحيح والمقطوع به والمجمع عليه من أنه ﷺ سيد ولد آدم[294] فاستفتحت السورة بقصة الاسراء، وقد تضمنت حسبما وقع في صحيح مسلم وغيره امامته بالأنبياء عليهم السلام وفيهم إبراهيم وموسى وغيرهما من الأنبياء من غير استثناء[295]، هذه رواية ثابت عن أنس (رضي الله عنه)[296] (وهي أنقى رواية عند أهل صناعة الحديث وأجودها)[297]، وفي[298] حديث (أبي هريرة أنه عليه السلام[299] أثنى على ربه فقال: (الحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين كافة وللناس بشيرا ونذيرا. وأنزل علي القرآن فيه تبيان كل شي وجعل أمتي خير أمة (أخرجت للناس)[300]، وجعل أمتي وسطا، وجعل أمتي (هم)[301] الأولون وهم

---

(293) . ب : ﷺ.

(294) . جاء عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدرى وعن جابر قوله ﷺ : انا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع أخرجه مسلم وأبو داود من حديث أبي هريرة، وجاء في رواية أبي سعيد الخدرى انا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدى لواء الحمد ولا فخر. الحديث أخرجه أحمد في مسنده والترمذي وابن ماجة، وفي رواية جابر أنا قائد المرسلين ولا فخر وانا خاتم النبيين ولا فخر... الحديث أخرجه الدارمي. انظر : فيض القدير 3 /42 وصحيح مسلم : 4 /1782.

قال القاضي عياض في الشفا : 1 /165، لا خلاف انه أكرم البشر وسيد ولد آدم وأفضل الناس منزلة عند الله وأعلاهم درجة وأقربهم زلفى، واعلم أن الاحاديث الواردة في ذلك كثيرة جدا، وقد ساق طرفا منها، فانظرها هناك.

(295) . أما الاسراء والمعراج فقد أجمع عليه المسلمون وتواتر فقد روي عن خمسة وأربعين صحابيا وجاء في كتب ودواوين الاسلام ولا ينكره بعد أن ورد به الكتاب ورواه هذا الجمع من الصحابة الا زنديق معاند أو جاهل جاحد، وصلاته صلى الله عليه وسلم بالانبياء ثابتة في الصحاح

(296) . أ : ساقطة.

(297) . ب : ساقطة. وانظر رواية ثابت البناني عن أنس في صحيح مسلم : 1 /145 و 147 وكأن المصنف يعرض بالرواية التي جاءت عن شريك ابن أبي نمر وقد قال الأئمة ان فيها اضطرابا ونبه الى ذلك الامام مسلم في صحيحه حيث قال عن رواية شريك : وقدم فيه شيئا وأخر، وزاد ونقص : صحيح مسلم 1 /148.

وسبب ذلك ان شريكا ساء حفظه ولم يضبط الحديث انظر تفسير ابن كثير : 4 /240.

(298) . ب : في.

(299) . ب : ساقطة.

(300) . أ : ساقطة.

(301) . ب : ساقطة.

الآخرون، وشرح لي صدري، ووضع عني وزري ورفع لي ذكري، وجعلني فاتحا وخاتما فقال إبراهيم (عليه السلام)[302] بهذا فضلكم محمد).

وفي رواية أبي هريرة[303] (رضي الله عنه)[304] من طريق الربيع بن أنس وذكر ﷺ سدرة المنتهى وأنه تبارك وتعالى قال له : سل فقال إنك اتخذت إبراهيم خليلا وأعطيته ملكا عظيما، وكلمت موسى تكليماً، وأعطيت داود ملكاً عظيماً، وألَنْتَ له الحديد وسخرت له الجبال، وأعطيت سليمان ملكا عظيما، وسخرت[305] له الجن والانس والشياطين والرياح وأعطيته ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، وعلمت عيسى التوراة والانجيل وجعلته يبرىء الأكمه والأبرص، وأعذته وأمه من الشيطان الرجيم، فلم يكن له عليهما سبيل فقال له ربه تعالى : قد اتخذتك حبيبا فهو مكتوب في التوراة (محمد)[306] حبيب الرحمن وأرسلتك إلى الناس كافة، وجعلت أمتك هم الأولون والآخرون، وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدي ورسولي، وجعلتك أول النبيئين خلقا وآخرهم بعثا، وأعطيتك سبعا من المثاني ولم أعطهما لنبي[307] قبلك وأعطيتك خواتم البقرة من كنز تحت العرش لم أعطها نبيا قبلك، وجعلتك فاتحا وخاتما[308].

---

(302) . أ : ساقطة.

(303) . وحديث أبي هريرة ــ وفيه الثناء على الله ــ اخرجه مطولا ابن جرير الطبرى والبزار وأبو يعلى ومحمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة وابن عدي والبيهقي في الدلائل وابن مردوية. انظر تفسير الطبرى ج 15 /8 والدر المنثور : 4 /144.

قال الحافظ ابن كثير : وهي رواية مطولة جدا وفيها غرابة انظر التفسير : 4 /266. واسناده عند ابن جرير : حدثني علي بن سهل قال حدثنا حجاج قال أخبرنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية الرياحي عن أبي هريرة أو غيره (شك أبو جعفر) الحديث...

(304) . أ : ساقطة.

(305) . ب : سخرت.

(306) . ب : ساقطة.

(307) . ب : نبيا.

(308) . قال أبو جعفر الرازي رواية عن الربيع ابن أنس خاتم النبوة وفاتح بالشفاعة. وانظر عن نبوة محمد ﷺ في التوارة كتاب : نبوة محمد في الكتاب المقدس للدكتور احمد حجازي السقا،ص: 74 وما بعدها. وهو رسالة دكتوراة قدمت الى كلية اصول الدين بجامعة الأزهر سنة 1977 وقد أورد سبع نبوءات من التوارة مطابقة لما ورد في القرآن الكريم عن محمد صلى الله عليه وسلم ودعوته وأمته.

وفي حديث شريك أنه رأى موسى عليه السلام في السماء السابعة[309] قال بتفضيل كلام الله، قال ثم علا به فوق ذلك ما لا يعلمه إلا الله فقال (موسى)[310] لم أظن أن يرفع علي أحد[311].

وفي حديث علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)[312] أخرجه البزار في ذكر تعليمه عليه (السلام)[313] الأذان وخروج الملك فقال رسول الله ﷺ ياجبريل من هذا؟ قال: والذي بعثك بالحق إني لأقرب الخلق مكاناً وإن هذا الملك ما رأيته منذ خلقت قبل ساعتي هذه... الحديث[314]، وفيه ثم أخذ الملك بيد

---

(309) . أ : موسى في السابعة.

(310) . ب : ساقطة.

(311) . رواية شريك هذه. انظرها بطولها في صحيح البخاري في كتاب التوحيد 13 /478.

(312) . أ : ساقطة.

(313) . في ب : ﷺ .

(314) . قال البزار : حدثنا محمد بن عثمان بن مخلد الواسطي ثنا أبي عن زياد بن المنذر عن محمد بن علي بن الحسين عن أبيه عن جده عن علي لما أراد الله تبارك وتعالى أن يعلم رسوله الأذان أتاه جبريل صلى الله عليهما بدابة يقال لها البراق، فذهب يركبها فاستصعبت فقال لها جبريل : أسكني فوالله ما ركبك عبد اكرم على الله من محمد ﷺ قال فركبها حتى انتهى الى الحجاب الذي يلي الرحمن تبارك وتعالى، قال : فبينما هو كذلك اذ خرج ملك من الحجاب فقال رسول الله ﷺ يا جبريل ما هذا ؟ فقال : والذي بعثك بالحق اني لأقرب الخلق مكانا وان هذا الملك ما رأيته منذ خلقت قبل ساعتي هذه فقال الملك : الله أكبر الله أكبر قال فقيل له من وراء الحجاب صدق عبدي أنا أكبر انا أكبر، ثم قال الملك : أشهد أن لا اله الا الله قال فقيل له من وراء الحجاب صدق عبدى انا ارسلت محمدا، قال الملك حي على الصلاة، حي على الفلاح، قد قامت الصلاة، ثم قال الله اكبر الله اكبر، قال فقيل له من وراء الحجاب : صدق عبدى انا اكبر انا اكبر ثم قال : لا اله الا الله قال فقيل من وراء الحجاب : صدق عبدى لا اله الا أنا، قال ثم أخذ الملك بيد محمد صلى الله فقدمه فأم أهل السماء فيهم آدم ونوح. قال أبو جعفر محمد بن علي : فيومئذ اكمل الله لمحمد ﷺ الشرف على أهل السماوات والارض.

قال البزار : لا نعلمه يروى عن علي بهذا اللفظ الا بهذا الاسناد، وزياد بن المنذر شيعي روى عنه مروان بن معاوية وغيره، (انظر كشف الأستار : 178/1).

وزياد بن المنذر أبو الجارود الاعمى رافضي خبيث كذبه يحيى بن معين وقال : عدو الله ليس يسوى فلسا وقال ابن حبان كان رافضيا يضع الحديث في مثالب اصحاب رسول الله ﷺ ويروي في فضائل أهل البيت أشياء

محمد ﷺ فقدمه فأم أهل[315] السماء فيهم آدم ونوح.

وفي هذا الحديث قال أبو جعفر محمد بن علي راويه : اكمل الله لمحمد ﷺ الشرف على أهل السماوات والارض، قلت :[316] (وفي هذا الحديث إشكالات صعبة فلهذا لم نورد منه إلا أطرافاً بحسب الحاجات، إذ ليس ما فيه الاشكال من مطلوبنا هنا)[317].

وقد حصل منه تفضيله ﷺ بالاسراء وخصوصه بذلك، ثم قد انطوت السورة على ذكر المقام المحمود، وهو مقامه في الشفاعة الكبرى[318]، وذلك مما خص به حسبما ثبت في الصحيح، وانعقد عليه إجماع أهل السنة، ولا أعلم في الكتاب العزيز سورة تضمنت من خصائصه التي[319] فضل بها[320] كافة الأنبياء مثل ما تضمنت هذه السورة والحمد لله.

= ما لها أصول، لا يحل كتب حديثه، وهو رأس الفرقة الجارودية المنسوبة إليه. انظر تهذيب التهذيب : 3 /386، والمغني في الضعفاء : 1 /244.

وأقول أثر الصنعة والوضع ظاهر في هذا الحديث.

. ب : بأهل.

(315) . ب : بأهل.

(316) . ب : قال ابن الزبير.

(317) . ب : ساقطة.

(318) . احاديث الشفاعة كثيرة ومتواترة انظرها في الخصائص الكبرى للسيوطي /2 /218 وتفسير ابن كثير : 4 /333.

(319) . ب : الذي.

(320) . ب : به.

سـورة الكهـف(321)

....

(321) هذه السورة مكية النزول على ما أخرجه النحاس وابن عباس وابن الزبير ووافقهم عليه جميع المفسرين كما يقول القرطبي، وموضوعها وتوجيهاتها تؤيد ذلك وتؤكده. وقد ورد في فضلها أن في قراءتها وقاية من الفتن المادية والمباهج الدنيوية الآثمة وفي قمتها الدجال الذي يزين الباطل بالحق ويضل الناس وهو أعظم فتنة تواجه المسلمين، فقد أخرج احمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ : من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف (وفي روايات عديدة من آخرها عصم من فتنة الدجال) انظر عمل اليوم والليلة : 27 والدر المنثور : 4 /209.

ووجه ارتباطها بما قبلها ـــ والله اعلم ـــ أنه لما تقدم في سورة الاسراء قوله تعالى : «انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللاخرة اكبر درجات واكبر تفضيلا لا تجعل مع الله الها آخر الى قوله كل ذلك كا سيئة عند ربك مكروها (21ـــ38) جاء قوله تعالى : في نفس السورة ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة، ولا تجعل مع الله الها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا» (39)، كما جاء فيها تعاليم علوية المنزع، سماية التوجيه مع ما فيها من خصوصيات للنبي ﷺ، اعقبتها سورة الكهف وفيها اخبار سماوية لا يطلع على حقائقها بشر، فقد يعرفون جزءا منها، ولكنهم لا يدركون أبعادها وتوجيهاتها، وهذه الاخبار التي وردت فيها أربع قصص عجيبة : اصحاب الكهف، وصاحب الجنتين، وموسى والخضر، وذو القرنين، وتمثل هذه القصص مواجهة الايمان في حياة الانسان مع المادية التي تستولي على بعض بني البشر، فشرحتها هذه القصص باجلى بيان، وقضى الله فيها أن الغلبة في النهاية للايمان، وكأن هذه القصص تفصيل لقوله تعالى في سورة الاسراء «من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا» (18ـــ19)

ويمكن القول باجمال ان الارتباط والتناسب من وجهين اثنين :

اولهما : بيان غلط تفكير الذين انكروا الاسراء والمعراج وتعجبوا منه واستغربوه، لأن فيه خرقا لنواميس المادة، فكشف الله لهم عن حقائق جرت على هذه الارض وفيها خرق لنواميس المادة وطبيعتها.

ثانيهما : اخبارهم بمعلومات سماوية فيها العجب لمن يتعجب منهم،وإيضاح الحقيقة لذوي الألباب بما يدل على صد محمد ﷺ ونبوته.

ثالثها : انه جاء في السورة السابقة «فاذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا (آية 104) ثم فصل ذلك في هذه السورة بقوله : «فاذا جاء وعد ربي جعله دكا وكان وعد ربي حقا، وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا، وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا» (آية : 94ـــ96).

من الثابت المشهور[322] أن قريشا بعثوا إلى يهود بالمدينة يسألونهم في أمر رسول الله ﷺ فأجابتها[323] يهود بسؤاله عن ثلاثة أشياء قالوا فإن أجابك (بجوابها)[324] فهو نبي، وإن عجز (عن جوابكم)[325] فالرجل متقول، فروا فيه[326] رأيكم وهي : الروح، وفتية ذهبوا في الدهر الأول، وهم أهل الكهف، وعن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغربها، فأنزل الله عليه (سبحانه)[327] جواب ما سألوه وبعضه في سورة الاسراء «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي»[328] (آية : 85)، واستفتح تعالى سورة الكهف بحمده وذكر نعمة الكتاب وما أنزل بقريش وكفار العرب من البأس يوم بدر وعام الفتح وبشارة المومنين بذلك وما منحهم الله من النعيم الدائم وانذار القائلين بالولد من النصارى وعظيم مرتكبهم وشناعة قولهم : «ان يقولون إلا كذبا» (آية : 5) وتسلية نبي الله ﷺ في أمر جمعهم «فلعلك باخع نفسك الآية...» (آية : 6) والتحمت الآي أعظم التحام وأحسن التئام إلى ذكر ما سأل عنه الكفار من أمر الفتية «أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا» (آية : 9) ثم بسطت الآي قصتهم وأوضحت أمرهم واستوفت خبرهم، ثم ذكر سبحانه أمر ذي القرنين وطوافه وانتهاء أمره فقال : «ويسألونك عن ذي القرنين.... الآيات» (آية : 83—94) وقد فصلت بين القصتين مواعظ وآيات مستجدة على أتم ارتباط وأجل اتساق[329] ومن جملتها قصة

---

(322) . قوله من الثابت المشهور فيه تجوز لان هذا الخبر لم يخرج في الصحيحين ولا في الكتب الستة، بل اخرجه ابن إسحاق في سيرته وابن جرير الطبري في تفسيره، وأبو نعيم في دلائل النبوة، وكذلك البيهقي في سننه وابن المنذر في تفسيره. انظر الدر المنثور : 4 /210. وهذه الكتب لا تلتزم الصحة، ولهذا فتعبيره هذا فيه تجاوز وتسامح.

(323) . أ : فأجابته.

(324) . ب : ساقطة.

(325) . ب : ساقطة.

(326) . أ : فيكم.

(327) . ب : ساقطة.

(328) . في ب : ويسألونك عن الروح الآية.

(329) . في ب : أنساق.

الرجلين وجنتي أحدهما وحسن الجنتين وما بينهما وكفر صاحبهما واغتراره وهما من بني إسرائيل ولهما قصة، وقد أفصحت هذه الآي منها[330] باغترار أحدهما بما لديه وركونه إلى توهم البقاء وتعويل صاحبه على ما عند ربه ورجوعه إليه وانتهاء أمره بعد المحاورة الواقعة في الآيات بينهما إلى إزالة ما تخيل المفتون بقاءه ورجع ذلك كأنه[331] لم يكن ولم يبق بيده إلا الندم، ولا صح له من جنتيه بعد عظيم تلك البهجة سوى التلاشي والعدم. (وهذه حال من)[332] ركن إلى ما سوى المالك، وكل شيء إلا وجهه سبحانه وتعالى فإنه فان وهالك، «إنما الحياة الدنيا لعب ولهو» (محمد : 36) «ففروا إلى الله» (الذاريات : 50).

ثم أعقب ذلك بضرب مثل الحياة الدنيا لمن اعتبر واستبصر، وأعقب تلك الآيات بقصة موسى والخضر عليهما السلام إلى تمامها وفي كل ذلك من تأديب بني إسرائيل وتقريعهم وتوبيخ مرتكبهم في توقفهم عن الايمان وتعنيفهم في توهمهم عند فتواهم لكفار قريش بسؤاله عليه السلام عن القصص الثلاث، ان قد حازوا العلم وانفردوا بالوقوف على ما لا يعمله غيرهم، فجاء جواب قريش بما يرغم الجميع ويقطع[333] دابرهم، وفي ذكر قصة موسى والخضر إشارة[334] لهم لو عقلوا وتحريك لمن سبقت له منهم السعادة، وتنبيه لكل موفق في تسليم الاحاطة لمن هو العليم الخبير، وبعد تقريعهم وتوبيخهم بما أشير إليه عاد الكلام إلى بقية سؤالهم فقال : «ويسألونك عن ذي القرنين» إلى آخر القصة (آية : 83) وليس بسط هذه القصص من مقصودنا وقد حصل ما أردناه ولم يبق إلا السؤال عن وجه انفصال جوابهم ووقوعه في السورتين مع أن السؤال واحد وهذا ليس من شرطنا فلننسأه بحول الله إلى[335] موضعه ان قدر به[236].

(330) . في ب : منهما.
(331) . في أ : كان.
(332) . في أ : غير مقروءة بسبب الخرم.
(333) . في أ : وبقطع.
(334) . في ب : بشارة.
(335) . في أ : في.
(336) . والسر في ذلك ــ والله أعلم ــ أنه لما لم يقع الجواب عند السؤال الأول ــ يسألونك عن الروح ــ فصل عن بقية الأسئلة التي جاء جوابها شافيا كافيا، مع بيان المولى عز وجل ليهود وغيرهم أنهم لم يؤتوا الا قليلا من أجوبة هذه الاسئلة وغيرها ثم جاء التفصيل في السورة اللاحقة ــ الكهف ــ لما أقروا بصدق هذا الكلام وعجزوا عن الرد عليه.

سورة مريم[337]

لما قال تعالى : «أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا» (الكهف : 9) ثم أورد خبرهم وخبر الرجلين موسى والخضر (عليهما السلام)[338]، وقصة ذي القرنين، اتبع سبحانه ذلك[339] بقصص تضمنت من العجائب ما هو أشد عجبا واخفى سببا فافتتح سورة مريم بيحيى بن زكريا وبشارة زكريا به بعد الشيخوخة وقطع الرجاء وعقر الزوج حتى سأل زكريا مستفهما ومتعجبا «أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا» (آية : 8) فأجابه (الله)[340] تعالى بأن ذلك عليه هين وأنه يجعل ذلك آية للناس وأمر هذا أعجب من القصص المتقدمة فكأن قد قيل : أم حسبت يا محمد أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا نحن نخبرك بخبرهم ونخبرك بما هو أعجب وأغرب وأوضح آية وهو قصة (زكريا في ابنه يحيى)[341] عليهما/ السلام، وقصة عيسى (عليه السلام في كينونته بغير أب ليعلم أن الأسباب في الحقيقة لا يتوقف

(337) . وهي مكية باجماع، وقد قرأ جعفر ابن أبي طالب طرفا منها في حضرة النجاشي عندما تابعهم القرشيون الى الحبشة وأرادوا ايذاءهم بعد غزوة بدر والانتقام منهم فبكى النجاشي ومن معه من الأساقفة حتى اخضلوا لحاهم وقال :. ان هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة. انظر : سيرة ابن هشام 1 /359.
ووجه مناسبتها لسورة الكهف اشتمالها على نحو ما اشتملت عليه من أعاجيب القصص كقصة ولادة يحيى وقصة ولادة عيسى عليهما السلام وهو ما بينه المؤلف أوضح بيان.

(338) . أ : ساقطة.

(339) . ب : ذلك سبحانه.

(340) . ب : ساقطة.

(341) . ب : يحيى في ابنه زكريا.

عليها شيء من مسبباتها إلا بحسب سنة الله، وإنما الفعل له سبحانه لا لمسبب(342) وإلى هذا أشار قوله تعالى لزكريا عليه السلام «وقد خلقتك من قبل ولم تكن شيئا» (آية : 9) ثم اتبع سبحانه بشارة زكريا بيحيى باتيانه الحكم صبيا ثم بذكر مريم وابنها عليهما السلام وتعلقت الآى بعد إلى انقضاء السورة.

ســـورة طـــه(343)

لما ذكر سبحانه قصة إبراهيم وما منحه وأعطاه وقصص الأنبياء بعده بما خصهم به، وأعقب ذلك بقوله تعالى : «أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيئين من ذرية آدم» (مريم : 58) وكان ظاهر (هذا)(344) الكلام تخصيص هؤلاء بهذه المناصب العالية والدرجات المنيفة الجليلة لا سيما وقد اتبع ذلك بقوله «فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا» (مريم : 59) كان هذا مظنة اشفاق وخوف فاتبعه تعالى بملاطفة نبيه (محمد)(345) ﷺ

---

(342) . أ : غير مقروءة بسبب الخرم.

(243) . هذه السورة مكية بالاجماع، وهي من قديم ما نزل، وكان ذلك قبل اسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد أخرج الدارقطني في سننه وابن اسحاق في سيرته قصة اسلام عمر بن الخطاب وانه خرج شاهرا سيفه يريد قتل رسول الله ﷺ، ثم ذهب الى أخته فاطمة وزوجها خباب بن الارت فوجد عندها سورة طه مكتوبة فكانت سبب اسلامه، انظر سيرة ابن اسحاق 1 /297، تلخيص الحبير 1 /132، عيون الاثر 1 /122.

ومن اوجه تناسب هذه السورة بالتي قبلها أيضا أنها نزلت بعدها كما روى ذلك عن ابن عباس، وأن أول هذه متصل بآخر تلك ومناسب له في المعنى حيث جاء في آخر سورة مريم قوله تعالى : «فانما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا» وجاء في مطلع هذه السورة قوله تعالى : «ما انزلنا عليك القرآن لتشقى الا تذكرة لمن يخشى» وانه تعالى لما ذكر في سورة مريم قصص عدد من الأنبياء والمرسلين بعضها بطريق البسط والاطناب كقصص زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام وبعضها بين البسط والايجاز كقصص ابراهيم عليه السلام وبعضها موجز مجمل كقصة موسى عليه السلام، ذكر هنا قصة موسى التي اجملت فيما سلف، واستوعبها غاية الاستيعاب، ثم فصل قصة آدم عليه السلام، ولم يذكر في سورة مريم الا اسمه. انظر تفسير المراغي : 17 /93.

(344) . أ : ساقطة.

(345) . ب : ساقطة.

ملاطفة المحبوب المقرب المجتبى فقال : «ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى» (آية : 2) وأيضا فقد ختمت سورة مريم بقوله تعالى : «وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا» (آية : 98) بعد قوله : «وتنذر به قوما لدا» (آية : 97) وقد رأى عليه السلام من تأخر قريش عن الاسلام ولردها ما أوجب اشفاقه وخوفه عليهم ولا شك أنه عليه السلام يحزنه تأخر إيمانهم ولذلك قيل له : فلا تحزن عليهم»(346).

فكأنه،عليه (الصلاة)(347) والسلام ظن أنه (يستصعب)(348) المقصود من استجابتهم أو ينقطع الرجاء من (إنابتهم)(349) فيطول العناء والمشقة فبشره سبحانه بقوله : «ما أنزلنا عليه القرآن لتشقى : (آية : 2) فلا عليك من لدد هؤلاء وتوقفهم فسيستجيب من انطوى على الخشية إذا ذكر وحرك إلى النظر في آيات الله كما قيل له في موضع آخر «فلا يحزنك قولهم» (آية : يس 76).

ثم اتبع (سبحانه)(350) ذلك تعريفاوتأنيسا بقوله : «الرحمن على العرش استوى» (آية : 5) إلى أول قصص موسى عليه السلام (الرحمن : 1) فأعلم سبحانه أن الكل خلقه وملكه وتحت قهره وقبضته لا يشذ شيء عن ملكه، فإذا شاء هداية/ من وفقه لم يصعب أمره، ثم اتبع ذلك بقصة(351) موسى عليه السلام وما كان منه في القائه صغيرا في اليم، وما جرى بعد ذلك من عجيب الصنع وهلاك فرعون وظهور بني إسرائيل، وكل هذا مما يؤكد القصد المتقدم، وهذا الوجه الثاني أولى من الأول والله أعلم.

---

(346) . اشارة الى قوله تعالى : «ولا تحزن عليهم ولاتك في ضيق مما يمكرون» (النحل : 127).

(347) . أ : ساقطة.

(348) . أ : سيستضعف. ب : يستصعب

(349) . أ : اذابتهم.

(350) . ب : ساقطة.

(351) . أ : بقصص.

سـورة الأنبيـاء[352]

لما تقدم قوله سبحانه «ولا تمدن عينيك إلى قوله فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى» (طه : 131ـ135) قال تعالى : «اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون» (آية : 1) أي لا تمدن عينيك إلى ذلك فإني جعلته فتنة لمن ناله بغير حق ويسأل عن قليل ذلك وكثيره «لتسألن يومئذ عن النعيم» (التكاثر : 8) والأمر قريب «اقترب للناس حسابهم» وأيضا فإنه تعالى لما قال: «وتنذر به قوما لدا» (مريم: 97) وهم الشديدو الخصومة في الباطل (المرتكبوا للجج)[353] ثم قال (تعالى)[354] «وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً»[355] (مريم : 98) استدعت هذه الجملة بسط حال ابتدأت بتأنيسه عليه السلام وتسليته (حتى لا)[356] يشق عليه لردهم، فتضمنت سورة طه من هذا الغرض بشارته بقوله : «ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى (طه : 2) وتأنيسه بقصة موسى عليه السلام وما كان من حال بني إسرائيل وانتهاء أمر فرعون ومكابدة موسى عليه السلام لدد[357] فرعون ومرتكبه إلى أن وقصه الله وأهلكه

---

(352) . هذه السورة مكية باجماع، اخرج البخاري عن ابن مسعود أنه قال : «بنو اسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والانبياء هن من العتاق الأول وهن من تلادى».
وعن عامر بن ربيعة أنه نزل به رجل من العرب فأكرم مثواه، وكلم فيه رسول الله ﷺ فجاءه الرجل فقال : اني استقطعت رسول الله واديا ما في ديار العرب واد أفضل، وقد أردت أن أقطع اليك قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك فقال عامر : لا حاجة لي في قطعتك نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا، يعني سورة الانبياء. انظر تفسير المراغي : 17 /3.
ومن مناسبة هذه السورة لما بعدها أن تلك ختمت بأن الناس قد شغلتهم زهرة الحياة الدنيا، وأن الله نهى نبيه أن يتطلع اليها، وأمره بالصلاة والصبر عليها، وان العاقبة للمتقين، وبدئت هذه السورة بمثل ما ختمت به السالفة من ان الناس غافلون عن الساعة والحساب، وأنهم لا يستمعون للقرآن الا وهم لاعبون، لاهية قلوبهم عنه.. انظر المصدر السابق.

(353) . أ. ب. الم يكفوا النجح، والصواب ما أثبته.

(354) . ب : ساقطة.

(355) . ب : وكم أهلكنا قبلهم من قرن الى آخرها.

(356) . أ : على ما.

(357) . ب : لـرد.

وأورث عباده أرضهم وديارهم، ثم اتبعت بقصة آدم عليه السلام ليرى نبيه (ﷺ)[358] سننه في عباده حتى أن آدم عليه السلام وان لم يكن امتحانه بذريته ولا مكابدته من أبناء جنسه فقد كابد من إبليس ما قصه[359] الله في كتابه، وكل هذا تانيس للنبي ﷺ، فإنه إذا تقرر لديه أنها سنة الله تعالى في عباده هان عليه لدد قريش ومكابدتهم ثم ابتدأت سورة الأنبياء ببقية هذا التأنيس فبين اقتراب الحساب ووقوع يوم الفصل المحمود فيه ثمرة ما كوبد في ذات الله والمتمنى فيه أن لو كان ذلك أكثر والمشقة أصعب لجليل الثمرة وجليل الجزاء، ثم اتبع سبحانه ذلك بعظات/ ودلائل (ومواعظ)[360] وبسط آيات، واعلم أنه سبحانه قد سبقت سنته فأهلك[361] من لم يكن منه الايمان من متقدمي القرون وسالفي الأمم «ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها» (آية : 6) وفي قوله : «أفهم يومنون» (آية : 6) تعزية لرسول الله ﷺ في أمر قريش ومن[362] قبيل ما الكلام بسبيله[363].

وقد تضمنت هذه السورة إلى ابتداء قصة إبراهيم عليه السلام من المواعظ والتنبيه على الدلالات وتحريك العباد إلى الاعتبار بها ما يعقب لمن اعتبر به التسليم والتفويض لله سبحانه والصبر على الابتلاء وهو من مقصود السورة في قوله تعالى : «ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين» (آية : 9) اجمال لما فسره النصف الأخير من هذه السورة من تخليص الرسل عليهم السلام من قومهم واهلاك من أسرف وأفك ولم يومن، وفي ذكر تخليص الرسل وتأييدهم الذي تضمنه النصف الأخير من لدن قوله : «ولقد آتينا إبراهيم رشده (آية : 51) إلى (آخر)[364] السورة» (آية : 112) كمال الغرض المتقدم من التأنيس وملاءمة ما تضمنته سورة طه وتفصيل المجمل «وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا» (مريم : 98).

(358). أ : ساقطة.

(359). أ : ما نصه.

(360). ساقطة من : ب.

(361). ب : بأهلك.

(362). أ : من.ن.

(363). ب : سبيله.

(364). ب : ساقطة.

سورة الحج[365]

لما افتتحت سورة الأنبياء بقوله تعالى : «اقترب للناس حسابهم» (الأنبياء : 1) وكان[366] واردا في معرض التهديد، وتكرر في مواضع منها كقوله تعالى : «وإلينا يرجعون» (آية : 35) سأوريكم آياتي فلا تستعجلون ويقولون متى هذا الوعد (إن كنتم صادقين)[367] «لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار» (الآيات : 37—39) «ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك (آية : 46) «ونضع الموازين القسط ليوم القيامة» (آية : 47) «وهم من الساعة مشفقون» (آية : 49) «كل الينا راجعون» (آية : 93) «واقترب الوعد الحق» (آية : 97) «إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم (أنتم لها واردون)»[368] (آية : 98) «يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب» (آية : 104) إلى ما تخلل هذه الآى من التهديد وتشديد الوعيد حتى لا تكاد تجد أمثال هذه الآى في الوعيد والانذار بما في الساعة وما بعدها وما بين يديها في نظائر هذه السورة، وقد ختمت من ذلك بمثل ما به ابتدئت، اتصل بذلك ما/ يناسبه من الاعلام بهول الساعة وعظيم أمرها فقال تعالى : يا أيها الناس اتقوا ربكم إلى قوله (تعالى)[369] «ولكن عذاب الله شديد» (آية : 1—2) ثم اتبع هذا ببسط الدلالات على البعث الأخير وإقامة البرهان «يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث» الآية[370]، (آية : 5) ثم قال : «ذلك بأن الله هو الحق» (آية : 6) أي اطرد هذا الحكم العجيب ووضح من تقلبكم من حالة إلى حالة في الأرحام وبعد خروجكم إلى الدنيا وأنتم تعلمون ذلك من أنفسكم وتشاهدون الأرض على صفة من الهمود

---

(365) . اختلف فيها هل هي مكية أم مدنية، والصحيح الذي عليه الجمهور أنها مختلطة، منها المكي ومنها المدني قيل هي من أعاجيب السور نزلت ليلا ونهارا سفرا وحضرا، مكيا، ومدنيا، سلميا وحربيا، ناسخا ومنسوخا، محكما ومتشابها، انظر القرطبي 12 /1.

(366) . أ : كان.

(367) . ب : ساقطة.

(368) . ب : ساقطة.

(369) . ب : ساقطة.

(370) . أ : الآيات.

والموت إلى حين نزول الماء فتحيى وتخرج أنواع النبات وضروب الثمرات تسقى بماء واحد «ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى» (آية : 6) كما أحياكم أولا وأخرجكم من العدم إلى الوجود وأحيى الأرض بعد موتها وهمودها (كذلك)(371) تأتي الساعة من غير ريب ولا شك ويبعثكم لما وعدتم من حسابكم وجزائكم «فريق في الجنة وفريق في السعير» (الشورى : 7).

ســـورة المومنيـــن(372)

فَصِّل في افتتاحها ما أجمل(373) في قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعوا الخير لعلكم تفلحون» (الحج : 77) واعلم بما ينبغي للراكع والساجد التزامه من الخشوع، ولالتحام الكلامين أورد(374) الأول أمرا والثاني مدحة وتعريفاً بما به كمال الحال، وكأنه لما أمر المومنين وأطمع بالفلاح(375) جزاء لامتثاله كان مظنة لسؤاله عن تفضيل ما أمر به من العبادة وفعل الخير الذي به

(371) . ب : ساقطة.

(372) . وهي مكية النزول في قول الجميع كما يقول القرطبي، وصح أن النبي ﷺ قرأ بها في صلاة الصبح بمكة كما أخرجه احمد ومسلم وغيرهما، لكن يحتمل ذلك أنه كان بعد الهجرة في حجة الوداع أو عمرة القضاء، بل في أحد طرق الحديث أنه كان يوم الفتح.

وجاء في فضلها في الحديث الذي أخرجه احمد والترمذي والنسائي وصححه الحاكم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان اذا نزل عليه الوحي يُسمع عند وجهه كَدويّ النحل، وأنزل عليه يوما فمكثنا عنده ساعة فسريَ عنه، فاستقبل القبلة فرفع يديه فقال : اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا، واعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارضنا وارض عنا، ثم قال : لقد انزل علي عشر آيات من اقامهن دخل الجنة. ثمَ قرأ : قد أفلح المومنون حتى ختم العشر. انظر الدر المنثور 5 /2، والقرطبي 12 /102.

وأضيف بأن ارتباط هذه السورة بسابقتها يتضح من خلال تشابه وتكامل موضوعات السورتين، فقد جاء في نهاية السورة السابقة أمر المومنين باقامة الصلاة وايتاء الزكاة وفعل الخيرات لعلهم يفلحون وافتتحت هذه السورة ببيان الخير المحقق لذلك الفلاح والموصل الى جنات الفردوس (الآيات : من 1—11). وأيضا ففي السورتين الحديث عن النشأة الأولى واعتبار ذلك دليلا على البعث والنشور، واشتمالها على قصص الأنبياء الماضين وأممهم للعظة والاعتبار، مع ذكر الأدلة على وجود الخالق ووحدانيته.

(373) . أ : جمل.

(374) . أ : اورد ما.

(375) . أ : الفلاح.

يكمل فلاحه فقيل له (المفلح من التزم كذا وكذا وذكر سبعة أضرب من العبادة وفعل الخير الذي يكمل به فلاحه، فقيل له)[376] هي أصول لما وراءها ومستتبعة سائر التكاليف، وقد بسط حكم كل عبادة منها وما يتعلق بها في الكتاب والسنة.

ولما كانت المحافظة على الصلاة منافرة اتيان المأثم جملة : «إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر» (العنكبوت : 45) لذلك اختتمت بها هذه العبادات بعد التنبيه على محل الصلاة من هذه العبادات[337] بذكر (التنبيه على الخشوع)[378] فيها أولا، واتبعت هذه الضروب السبعة بذكر أطوار سبعة يتقلب فيها الانسان قبل خروجه إلى الدنيا/ فقال تعالى : «ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين إلى قوله : (ثم)[379] أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين»[380] (الآيات : 12—14) (وكان)[381] قد قيل له إنما كمل خلقك وخروجك إلى الدنيا بعد هذه التقلبات السبعة، وإنما تتخلص من دنياك بالتزام هذه العبادات السبع، وقد وقع عقب هذه الآيات قوله تعالى : «ولقد خلقنا فوقك سبع طرائق» (آية : 17) ولعل ذلك مما يقرر هذا الاعتبار، ووارد لمناسبته والله أعلم. وكان صدر هذه السورة مفسرا لما أجمل في الآيات قبلها فكذا الآيات بعد مفصلة لمجمل ما تقدم في قوله تعالى : «يا أيها الناس إن كنتم في ريب من

(376) . أ : ساقطة.

(377) . في الأصل : لذلك ما ختمت بها هذه العبادات بعد التنبيه على محل الصلاة من هذه العبادات.

(378) . ب : ساقطة.

(379) . أ : ساقطة.

(380) . الأطوار السبعة هي :

1 — الطين.

2 — النطفة.

3 — العلقة.

4 — المضغة.

5 — خلق العظام.

6 — كسوة العظام باللحم.

7 — نفخ الروح وبها تمام الخلق، فتبارك الله أحسن الخالقين.

(381) . ب : وكأنه.

البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة الآية(الحج آية : 5) وهذا كاف في التحام السورتين والله سبحانه المستعان.

سـورة النـور[382]

لما قال تعالى : «والذين هم لفروجهم حافظون...» الآية (المومنون : 5) ثم قال (تعالى)[383] «فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون» (المومنون : 7) استدعى الكلام بيان حكم العادين[384] في ذلك، ولم يبين فيها، فأوضحه في سورة النور فقال تعالى : «الزانية والزاني... الآية» (آية : 2)، ثم اتبع ذلك بحكم اللعان والقذف، وانجر مع ذلك الإخبار بقصة الافك تحذيرا للمومنين من زلل الألسنة رجما بالغيب «وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم» (آية : 15)، واتبع ذلك بوعيد محبي[385] شياع الفاحشة في المومنين بقوله تعالى : «ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المومنات... الآيات» (آية : 23) ثم بالتحذير من دخول البيوت إلا بعد الاستئذان المشروع، ثم بالأمر بغض البصر للرجال والنساء، ونهي النساء عن إبداء الزينة إلا لمن سمى الله سبحانه في الآية وتكررت هذه المقاصد في هذه السورة إلى ذكر حكم العورات الثلاث، ودخول بيوت الأقارب وذوي الأرحام، وكل هذا مما يبرىء ذمة المومن بالتزام ما أمر الله به من ذلك والوقوف عند ما حده تعالى من أن يكون من العادين المذمومين في قوله تعالى : «فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون» (المومنون : 7) وما تخلل الآى المذكورات ونسق عليها

---

(382) . هذه السورة مدنية، روى مجاهد أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : علموا رجالكم سورة المائدة وعلموا نساءكم سورة النور، وعن حارث بن مضرب رضي الله عنه قال : كتب الينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن تعلموا سورة النساء والأحزاب والنور. انظر الدر المنثور : 5 /18، والمراغي : 18 /66.

وأضيف الى ما أبداه المؤلف من وجه الارتباط وجها آخر، وهو أن السورة السابقة لما ختمت بقوله تعالى : «افحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون» جاءت هذه السورة لتبين جملة من الأوامر والنواهي، وتحمل الانسان مسؤولية فعله وقوله وما يترتب على ذلك من الجزاء العاجل بالقصاص في الدنيا والآجل بالعذاب الأليم في الآخرة.

(383) . أ : ساقطة. وفي ب : العادة.

(384) . أ : ساقطة.

(385) . ب : محبى، أ : فجىء.

مما ليس من الحكم المذكور فلاستجرار الآى إياه واستدعائه ومظنة استيفاء ذلك وبيان ارتباط[386] التفسير، وليس من شرطنا هنا/ والله سبحانه يوفقنا لفهم كتابه.

سـورة الفرقـان[387]

لما تضمنت سورة النور بيان كثير من الأحكام كحكم الزنا ورمي الزوجات به والقذف والاستئذان والحجاب، واسعاف الفقير والكتابة وغير ذلك، والكشف عن مغيبات من تغاير[388] حالات تبين بمعرفتها والاطلاع عليها الخبيث من الطيب ـ كاطلاعه سبحانه نبيه والمومنين على ما تقوله أهل الإفك وبيان حالهم واضمحلال محالهم ـ (ثم)[389] في قصة المنافقين (في إظهارهم)[390] ضد ما يضمرون، ثم كريم وعده للخلفاء الراشدين «وعد الله الذين آمنوا منكم (وعملوا الصالحات)»[391] (النور : 55)، ثم ما فضح (به)[392] تعالى منافقي الخندق «قد

(386) . أ : ارتباطه.

(387) . هذه السورة مكية في جملتها، وبينها وبين السورة السابقة من التناسب أكثر من وجه : منها اختتام السورة السابقة بوصفه تعالى مالكا لما في السماوات والارض مصرفا لهما على ما تقتضيه المصلحة والحكمة من النظام البديع، وافتتاح هذه بما يدل على تعاليه في ذاته وصفاته وأفعاله، وعلى حبه لخير عباده بانزال القرآن لهم هاديا وسراجا منيرا.

ومنها اختتام السورة السابقة بوجوب متابعة المومنين للرسول ﷺ مع مدحهم على ذلك وتحذيرهم من مخالفة أمره خوف الفتنة والعذاب الأليم، وافتتاح هذه بمدح الرسول ﷺ وأنزلنا الكتاب عليه لارشادهم الى سبيل الرشاد وذم الجاحدين لنبوته بقولهم : انه رجل مسحور وأنه يأكل الطعام... الخ.

ومنها وصف السحاب وانزال الأمطار فيهما معا ففي السورة السابقة قال تعالى :ألم تر أن الله يزجي سحابا «الخ» وفي هذه قال : «وهو الذي ارسل الرياح بشرا»

ومنها وصف أعمال الكافرين فيهما معا يوم القيامة وانها لا تجديهم فتيلا فقال في الأولى «والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة» الخ وقال في هذه «وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا».

ومنها وصف النشأة الأولى للانسان في اثنائهما فقال في الأولى «والله خلق كل دابة من ماء» وفي الثانية «وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا».

انظر تفسير المراغي : 18 /145.

(388) . ب : تغير.

(389) . ب : ساقطة.

(390) . غير واضحة في «أ» بسبب خرم في المخطوطة.

(391) . ب : ساقطة.

(392) . أ : ساقطة وفي مكانها بياض.

يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا» إلى آخر الآية (النور : 63) كان (في)[393] مجموع هذا فرقانا يعتضد به الايمان ولا ينكره مقر بالرحمن، يشهد[394] لرسول الله ﷺ بصحة رسالته ويوضح مضمن[395] قوله تعالى : «لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم (كدعاء بعضكم بعضا)»[396] (النور : 63) من عظيم قدره ﷺ، وعلي جلالته اتبعه سبحانه بقوله : «تبارك الذي نزل الفرقان على عبده» (آية : 1) وهو القرآن الفارق بين الحق والباطل والمطلع على ما أخفاه المنافقون وأبطنوه من المكر[397] والكفر ليكون للعالمين نذيرا، فيحذرهم من مرتكبات المنافقين والتشبه[398] بهم، ثم تناسج الكلام والتحم جليل المقصود[399] من ذلك النظام.

(وقد)[440] تضمنت هذه السورة من النعي على الكفار والتعريف ببهتهم وسوء مرتكبهم ما لم يتضمن كثير من نظائرها كقولهم :[401] «ما لهذا الرسول يأكل الطعام... الآيات» (آية : 7) وقولهم : «لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا» (آية : 21) وقولهم : «لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة» (آية : 32)، وقولهم : «وما الرحمن» (آية : 60) إلى ما عضّد هذه وتخللها، ولهذا ختمت بقواطع الوعيد، وأشد التهديد وهو قوله سبحانه «فقد كذبتم فسوف يكون لزاما» (آية : 77).

(393) . أ ساقطة.

(394) . ب : لرحمن يشهد.

(395) . ب : تضمن.

(396) . ب : ساقطة.

(397) . أ : الذكر.

(398) . ب : والتشبيه.

(399) . ب : تناسخ الكلام والنجم جليل العهود.

(400) . ب : ساقطة.

(401) . أ : كقوله.

ســـورة الشعـــراء[402]

لما عرفت سورة الفرقان (بشنيع)[403] مرتكب الكفرة المعاندين وختمت بما ذكر في الوعيد كان ذلك مظنة لاشفاقه عليه السلام وتأسفه على فوت إيمانهم لما جبل عليه من الرحمة والاشفاق، فافتتحت السورة الأخرى بتسليته عليه السلام وأنه سبحانه/ لو شاء (لأنزل عليهم آية تبهرهم وتذل جبابرتهم فقال سبحانه : «لعلك باخع نفسك)[404] ألا يكونوا مومنين ان نشأ ننزل عليهم آية من السماء فظلت أعناقهم لها خاضعين»[405] (آية : 3ـــ4) وقد تكرر هذا المعنى عند إرادته[406] تسليته عليه السلام كقوله تعالى : «ولو شاء الله لجمعهم على الهدى» (الأنعام : 35)، «ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها» (السجدة : 13) «ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا» (يونس : 99) «ولو شاء الله ما فعلوه» (الأنعام : 138).

(402) . هذه السورة مكية كما هو ظاهر من جوها العام وآياتها لا يستثنى من ذلك شيء، ووجه اتصالها بما قبلها واضح كل الوضوح بحمد الله، فالفرقان عالجت موضوع تثبيت نبوة محمد «البشر» ﷺ الذي لا يملك مالا ولا ذهبا ولا فضة، فخصّت هذه السورة لبيان الحجة التي جاء بها محمد رسول الله ﷺ وتقدمته دعواه بأنه رسول الا وهي هذا الكتاب المبين، فافتتحت السورة بذلك «طسم تلك آيات الكتاب المبين» ثم قص الله عز وجل فيها حجة طائفة من الأنبياء السالفين على قومهم، فذكر حجة موسى : عصاه ويده، وابطال سحر السحرة ثم نجاته ونجاة المومنين.

كما ذكر حجة ابراهيم على قومه ومحاجته لهم بأن الأصنام لا تضر ولا تنفع وهم يرون ذلك رأى العين.

ثم ذكر حجة نوح ونجاته بالسفينة التي هزؤوا بها بادىء الأمر، ثم حجة هود على قومه الذين اعتصموا بأبنيتهم الشامخة وعدم غنائها عنهم شيئا.

ثم حجة صالح وناقته وتدبير قومه، وهكذا لوط وشعيب ثم ختمت حجج الأنبياء السابقين بقوله تعالى : وانه ـــ أي هذا القرآن الكريم ـــ لتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين...»

ولما كانت صناعة الشعر عند العرب منتشرة، واقدار الشعراء المفلقين عالية ميز الله عز وجل هذا الكلام عن الشعر ونزه قدر رسوله ان يدانيه الشعر، ولا يجهل أحد أن الشاعر يقول السفه بل أكثر كلامه السفه، وهذا الكلام الذي جاء محمد منزه عن السفه والضلالة لأنه من الحق ويهدي الى الحق، والسورة كلها في آياتها التي يأخذ بعضها برقاب بعض لا يشد منها شيء، وهذا التلاحم مع السورة السابقة ظاهر ولله الحمد والمنة.

(403) . أ : شنيع.

(404) . أ : غير واضحة بسبب خرم في المخطوطة.

(405) . ب : لعلك باخع نفسك الايتين.

(406) . ب : رادة.

ثم أعقب سبحانه بالتنبيه والتذكير «أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم» (الشعراء : 7) «وإذ نادى ربك موسى» (الشعراء : 10).

وقل ما تجد في الكتاب العزيز ورود تسليته عليه السلام إلا معقبة بقصص موسى عليه السلام وما كابد من بني إسرائيل وفرعون، وفي كل قصة منها احراز ما لم تحرزه الأخرى من الفوائد والمعاني والأخبار حتى لا تجد قصة تتكرر، وإنه ظَنَّ ذلك من لم يمعن النظر، فما من قصة من القصص المتكرر في الظاهر إلا ولو سقطت أو قدر إزالتها لنقص من الفائدة ما لا يحصل من غيرها وسنوضح هذا في التفسير(407) بحول الله (تعالى)(408).

ثم اتبع جل وتعالى قصة موسى بقصص غيره من الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام)(409) مع أممهم على الطريقة المذكورة وتأنيسا له عليه السلام حتى لا يهلك نفسه أسفا على فوت إيمان قومه، ثم اتبع سبحانه ذلك بذكر الكتاب وعظيم النعمة به فقال : «وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك» (192ـــ194) فيا لها كرامة تقصر الألسنة عن شكرها وتعجز العقول عن تقريرها، ثم أخبر تعالى أنه بلسان عربي مبين، ثم أخبر سبحانه (بعلي أمر هذا الكتاب)(410) وشائع ذكره على السنة الرسل والأنبياء عليهم السلام فقال: «وإنه لفي زبر الأولين» (آية : 196) وأخبر أن علم بني إسرائيل من أعظم آية وأوضح برهان وبينة، وان تأمل ذلك كاف، واعتباره شاف، فقال : «أولم يكن لهم آية أن

(407) . جاء فيه : «أن قصص الرسل عليهم السلام مع أممهم لم تات في القرآن العظيم على نهج واحد في الدعاء والجواب والمراجعة والمحاورة، ولا يمكن ذلك لاختلاف طبائع الأمم وأغراضهم واختلاف الحالات، ولكل مقام مقال، فمرة ترد القصة على الدعاء وابداء الحجة والتوبيخ من غير ذكر شيء من جواب المدعوين سوى الاخبار بتكذيبهم، ومرة يورد من مقالات الأمم لرسلهم اليسير، ومرة يمد اطناب الكلام في المحاورات بين الرسل والأمم» اهـ وقد مثل المؤلف لكل ضرب من هذه الاضرب. انظر ملاك التاويل 2 /892، 893.

(408) . أ : ساقطة.

(409) . أ : ساقطة.

(410) . أ : تعالى الكتاب. وأشير الى لحق بالهامش لم يتضح لي رسمه ولا معناه.

يعلمه علماء بني إسرائيل» (آية : 197) كعبد الله بن سلام[411] وأشباهه، ثم وبخ تعالى متوقفي العرب فقال : «ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مومنين» (الآيتين : 198ـــ199) ثم اتبع ذلك بما يتعظ به المومن الخائف من أن الكتاب مع أنه هدى ونور قد يكون/ محنة في حق طائفة كما قال تعالى : «يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا» (البقرة : 26) «وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم» (التوبة : 125) وقال تعالى : في هذا المعنى : «كذلك سلكناه[412] في قلوب المجرمين لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم... الآيات» (الشعراء 200 وما بعدها)، ثم عاد الكلام إلى تنزيه الكتاب وإجلاله على أن تتسور[413] الشياطين على شيء منه أو تصل إليه فقال سبحانه : «وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم» (آية : 210ـــ211) أي ليسوا (أهلين)[414] له ولا يقدرون على استراق سمعه بل هم معزولون عن السمع مرجومون بالشهب، ثم وصى تعالى نبيه ﷺ والمراد المومنون فقال : «فلا تدع مع الله إلـٰها آخر (آية : 213) فتكون من المعذبين، ثم أمره بالانذار ووصاه بالصبر فقال : «وانذر عشيرتك الأقربين واخفض جناح لمن اتبعك من المومنين» (الآيتين : 214ـــ215)، ثم اعلم تعالى بموقع ما توهموه وأهلية ما تخيلوه فقال : «هل أنبؤكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم» (الآيتين : 221ـــ222) ثم وصفهم، وكل هذا تنزيه لنبيه عليه السلام على ما (تقولوه)[415]، ثم هددهم وتوعدهم فقال : «وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون» (آية : 226).

(411) . عبد الله بن سلام بن الحارث، أبو يوسف الاسرائيلي، ومن ذرية النبي يوسف عليه السلام من بني قينقاع، وكان اسمه الحصين فغيره النبي ﷺ وسماه عبد الله ولما دخل رسول الله صلوات الله عليه وسلم المدينة جاءه وكان حبرا من أحبار يهود قرأ الكتب، وعرف الأخبار، فسمع النبي ﷺ يقول : أفشوا السلام وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام. وسأل النبي عن ثلاث خصال لا يعلمها الا نبي ثم آمن في قصة طويلة هامة تبين اخلاصه للحق ومعرفته بنفسية يهود الخبيثة وهو يقول للنبي ﷺ : ان يهود قوم بهت، توفي رضي الله عنه سنة ثلاث وأربعين بالمدينة المنورة وفضائله جمة. انظر ترجمته في الاصابة 321/2، والاستيعاب 2 /382.

(412) . في الأصل «نسلكه» وهو التباس مع قوله تعالى : «كذلك نسلكه في قلوب المجرمين لا يومنون به وقد خلت سنة الأولين» الحجر : 12.

(413) . أ : تصور.

(414) ب : أهلا.

(415) ب : يقولون.

سـورة النمـل[416]

لما أوضح في سورة الشعراء عظيم رحمته بالكتاب وبيان ما تضمنه مما فضح به الأعداء أو رحم به الأولياء وبراءته من أن (تتسور)[417] الشياطين عليه، وباهر آياته الداعية من اهتدى بها إليه، فتميز بعظيم آياته كونه فرقانا قاطعا ونورا ساطعا، اتبع ذلك سبحانه ذلك مدحة وثناء، وذكر من شملته رحمته به تخصيصا واعتناء فقال : «تلك آيات القرآن» (آية : 1) أي الحاصل عنها مجموع تلك الأنوار آيات القرآن (وكتاب مبين[418] هدى وبشرى للمومنين» (آية : 1—2) ثم وصفهم ليحصل للتابع قسطه من بركة التبع وليقوى رجاؤه في النجاة مما أشار إليه، وسيعلم الذين ظلموا من عظيم ذلك المطلع، ثم اتبع ذلك بالتنبيه على صفة الأهلين لما تقدم من التقول والافتراء (تنزيها لعباده المتقين وأوليائه المخلصين عن دنس الشكوك والافتراء)[419] فقال : «إن الذين لا يومنون (بالآخرة)[420] زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون» (آية : 4) أي يتحيرون (فلا)[421] يفرقون بين النور/

---

(416) هذه السورة مكية في قول الجميع وهي في مضمونها لا تخرج عن تأكيد السورة السابقة الا وهي بيان حجة الرسول وأنه علوي المصدر فوق مستوى البشر، ولهذا فقد بدئت بذكر الكتاب العزيز — كسابقتيها — وأنه هدى وبشرى للمومنين «طس تلك آيات الكتاب وقرآن مبين هدى وبشرى للمومنين» (آية : 1 — 2)، وفي أثنائها أكد ذلك بقوله : «وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين ان هذا القرآن يقص على بني اسرائيل اكثر الذي هم فيه يختلفون» (الآيتان : 77 — 78) ثم ختمت السورة بهذا التأكيد «انما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين وأن أتلو القرآن» (الآيتان : 93—94)، والقصص التي سيقت في ثنايا هذه السورة فيها بسط وتأكيد لما جاء في السورة السابقة، فقد جاءت بمعلومات هي فوق مستوى أمم في دقتها وتنوعها وتباعدها. ففيها خبر موسى، وسليمان وداود، وملكة سبأ، وصالح مع قومه ثمود، ولوط مع قومه عاد، وهي ترشد كلها إلى وقائع العلم الذي يشترك فيه محمد صلى الله عليه وسلم مع اخوانه الأنبياء في تلقيه من الله سبحانه وتعالى ويعجز عن ادراكه البشر، الذين يرون آثاره حقيقة ماثلة، ولكنهم لا يلمسون مصدره، ولهذا فكثير منهم لا يوقن بذلك.

(417) أ : يتصور.

(418) ب : ساقطة.

(419) أ : ساقطة.

(420) أ : ساقطة.

(421) ب : ولا.

والإظلام (لارتياب)[422] الخواطر والأفهام، ثم اتبع ذلك بتسليته عليه السلام بالقصص الواقعة بعد تنشيطا له وتعريفا (بعلو)[423] منصبه، واطلاعا له على عجيب صنعه تعالى فيمن تقدم، (ثم)[424] ختمت السورة بذكر أهل القيامة وبعض ما بين يديها والاشارة إلى الجزاء ونجاة المومنين، وتهديد من تنكب عن سبيله عليه السلام.

ســـورة القصـــص[425]

لما تضمن قوله سبحانه : «إنَّما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء» إلى آخر السورة (النمل : 91ـــ93) من التخويف والترهيب والانذار والتهديد ما انجر معه الاشعار بأنه عليه السلام سيملك مكة ويفتحها تعالى عليه، ويذل عتاة قريش ومتمرديهم، ويعز أتباع رسوله عليه السلام ومن استضعفته قريش من المومنين، اتبع سبحانه ذلك بما قصه على نبيه من نظير ما

---

(422) ب : لارتباك.

(423) ب : بعلي.

(424) ب : ساقطة.

(425) هذه السورة مكية في جملتها وقيل أن بعضها نزل في وقت الهجرة والنبي صلى الله عليه وسلم متوجه إلى المدينة، وهي خاتمة الطواسين، وموضوع الطوسين التي سبقتها هي بشكل عام اقامة الحجة على رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم وصدق نبوته، وفي هذه السورة أمران رئيسيان : أولا

1 ـــ تفصيل قصة موسى عليه والسلام التيذكرت مجملة في السورتين السابقتين،فذكرت ولادته في فترة حاول فرعون (رمز الظلم) أن يذبح كل مولود ذكر قصدا منه اطفاء جذوة الحق التي تحرق الباطل وأشياعه، ثم شباب موسى وخروجه من قومه في بلاد الله الواسعة، ثم عودته رسولا نبيا مبلغا ووقوفه في وجه الباطل بهيله وهيلمانه وانتصاره في النهاية ونجاته وغرق عدوه.

2 ـــ قصة قارون وغروره بالمال، وطغيان أصحابه، وميل النفوس إلى زخارفه وكيف كانت نتيجة ذلك وهي تفصيل لقوله تعالى في السورة السابقة : قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين».

ومضمون هذين الموضوعين هنا سبب انحراف العرب عن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم فهم أصحاب سطوة وصولة في الجزيرة، وهم ذوو مال ورياش أكثر من صاحب هذه الرسالة، فبعد أن قامت الحجج عليه في السور السابقة، ختمت الطواسين بهذين النموذجين وأبانت عن نهاية أصحابهما، وأعلم الله رسوله صلى الله عليه وسلم وهو يغادر مكة كما غادر أخوه موسى موطنه من قبل بأنه عائد كما عاد سلفه موسى عليه والسلام «ان الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد» (القصص : 85)، وهذا مما يرجح لدى ان هذه السورة أو بعضها نزل، بين مكة والمدينة أثناء الهجرة.

أشار إليه في قصة بني إسرائيل وابتداء امتحانهم بفرعون واستيلائه عليهم وفتكه بهم الى أن أعيهم الله وأظهرهم على عدوهم وأورثهم(426) ارضهم وديارهم. ولهذا أشار تعالى في كلا القصتين بقوله(427) في الأولى : «سيريكم آياته فتعرفونها» (النمل : 93) وبقوله في الثانية :(428) ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون» (آية : 6).

ثم قص ابتداء أمر فرعون واستعصامه(429) بقتل ذكور الأولاد، ثم لم يغن ذلك عنه من قدر الله شيئا، ففي حاله عبرة لمن وفق للاعتبار، ودليل أنه سبحانه أنه المنفرد بملكه يوتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء لا ينازعه نازع(430) ولا يمنعه عما يشاء مانع «قل اللهم مالك الملك توتي الملك من تشا)»(431) (آل عمران : 26)، وقد أفصح قوله تعالى : «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم...(432) الآية» (النور : 55) بما أشار إليه مجملا(433) ما أوضحنا اتصاله من خاتمة النمل وفاتحة القصص ونحن نزيده بيانا بذكر لمع من تفسير ما قصد التحامه فنقول : ان قوله تعالى (معلما)(434) لنبيه ﷺ وأمراً «إنما أمرت أن أعبد رب هذه (البلدة الذي حرمها)(435) إلى قوله : «وقل الحمد لله سيريكم آياته»(436) (النمل : 91—93) لاخفاء(437) بما تضمن ذلك من التهديد وشديد الوعيد. ثم في قوله : «رب هذه

(426) ب : فأورثهم.
(427) أ : كقوله.
(428) ب : وفي الثانية بقوله.
(429) ب : واستعصائه.
(430) ب : لا يزعه وازع.
(431) أ : ساقطة.
(432) «منكم» ساقطة من : أو «كما استخلف الذين قبلهم» ساقطة من : ب.
(433) ب : مجمل.
(434) أ : ساقطة.
(435) ب : ساقطة.
(436) من ربه : «وقل الحمد لله» ساقطة من الآية في : ب.
(437) أ : لاحقا.

البلدة» أشار أنه عليه السلام سيفتحها ويملكها (لأنها بلدة ربه)[438] وهو عبده ورسوله، وقد اختصه[439] برسالته وله كل شيء، فالعباد والبلاد ملكه، ففي هذا من الاشارة مثل ما في قوله تعالى : «إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد» (آية : 85) وقوله : «وان اتلوا القرآن» (النمل : 92) أي (ليسمعوه)[440] فيتذكر من سبقت له السعادة ويلحظ سنة الله في العباد والبلاد، ويسمع ما جرى لمن عاند وعتا، وكذب واستكبر، وكيف وقصه[441] الله وأخذه ولم يغن عنه حذره، وأورث مستضعف عباده أرضه ودياره، ومكن لهم[442] في ا لأرض، وأعز رسله واتباعهم، «نتلو عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق لقوم يومنون» (آية : 3) أي يصدقون ويعتبرون ويستدلون فيستوضحون وقوله : «سيريكم آياته : (النمل : 93) يشير إلى ما حل بهم يوم بدر، وبعد ذلك إلى يوم فتح مكة، وإذعان من لم يكن يظن انقياده، واهلاك من (ظن)[443] تمرده وعناده وانقياد العرب بجملتها بعد فتح مكة ودخول الناس في الدين أفواجا، وعزة أقوام وذلة آخرين بحاكم «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» (الحجرات : 13) إلى فتح الله على الصحابة (رضوان الله عليهم)[444] ما وعدهم به نبيهم (ﷺ)[445]، فكان كما وعد.

فلما تضمنت (هذه)[446] الآى ما أشير إليه أعقب بما هو في قوة ان لوقيل ليس عتوكم بأعظم من عتو فرعون وآله، ولا حال مستضعفي المومنين بمكة ممن

(438) أ : لأنه رب بلد.
(439) أ : خصه والمعنى واحد، يقال : خصه بالشيء يخصه خصا خصوصا وخصصه، واختصه افرده به دون غيره. انظر لسان العرب 1/841.
(440) في ب : لتسمعوه.
(441) الوقص بالتحريك : قصر العنق، يقال وقص عنقه يقصها وقصا : كسرها ودقها، ووقص البعير فهو موقوص إذا أصبح داؤه في ظهره لا حراك به. انظر لسان العرب 3/965.
(442) أ : مكن له.
(443) في ب : طال.
(444) زيادة من : ب.
(445) زيادة من : ب.
(446) أ : ساقطة.

(قصدتم)[447] فتنته في دينه، بدون حال بني إسرائيل حين كان فرعون يمتحنهم بذبح أبنائهم، فهلا تأملتم عاقبة الفريقين وسلكتهم أنهج الطريقين «أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم إلى قوله : «فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون» (غافر : 82)، فلو تأملتم ذلك لعلمتم أن العاقبة للتقوى فقال سبحانه بعد افتتاح السورة «إن فرعون علا في الأرض» (آية : 4)، ثم ذكر من خبره ما فيه عبرة، وذكر سبحانه آياته الباهرة في أمر موسى عليه السلام وحفظه ورعايته وأخذ أم عدوه إياه«عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا» (آية : 9) فلم يذبح الأبناء خيفة من مولود يهتك ملكه حتى إذا كان ذلك/ المولود تولى بنفسه تربيته وحفظه وخدمته ليعلم لمن[448] (التدبير)[449] والامضاء، وكيف يقود سابق الحكم والقضاء فهل لا سألت قريش وسمعت وفكرت واعتبرت «أولم تاتهم بينة ما في الصحف الأولى :» (طه : 133).

ثم اتبع سبحانه ذلك بخروج موسى عليه السلام من أرضه «فخرج منها خائفا يترقب» (آية : 21) وما ناله عليه السلام في ذلك الخروج من عظيم السعادة، وفي ذلك منبهة لرسول الله ﷺ على خروجه من مكة وتعزية له، واعلام بأنه تعالى سيعيده الى بلده ويفتحه عليه، وبهذا المستشعر من هنا صرح آخر السورة في قوله تعالى : «إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد» (آية : 85) وهذا كاف فيما قصد.

(447) ب : قصدهم.

(448) أ : من.

(449) في ب : التدبر.

سـورة العنكبـوت(450)

افتتحت سورة القصص بذكر امتحان بني إسرائيل بفرعون وابتلائهم بذبح أبنائهم وصبرهم على عظيم تلك المحنة، ثم ذكر تعالى حسن عاقبتهم وثمرة صبرهم، وانجر مع ذلك مما هو منه، لكن انفصل عن عمومه (بالقضية امتحان أم موسى بفراقه حال الطفولية وابتداء الرضاع، وصبرها على أليم ذلك المذاق)(451) حتى رده تعالى إليها أجمل رد وأحسنه، ثم ذكر ابتلاء موسى عليه السلام بأمر القبطي وخروجه خائفا يترقب، وحسن عاقبته وعظيم رحمته، وكل هذا ابتلاء أعقب خيرا، وختم برحمة، ثم بضرب آخر من الابتلاء، أعقب محنة وأورث شرا وسوء فتنة، وهو ابتلاء قارون بماله وافتتانه به «فخسفنا به وبداره الأرض» (القصص : 81) فحصل

---

(450) مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، وقال ابن عباس في أحد قوليه، ومثله قتادة هي مدنية ولهما قول آخر أنها مكية إلا عشر آيات من أولها، وقال علي بن أبي طالب نزلت بين مكة والمدينة انظر : القرطبي: المجلد 323/7 والدر المنثور 141/5.

ويبدو لي أن القولين الأولين لا يتعارضان بل هما يتفقان مع قول سيدنا علي رضي الله عنه ونزولها هذا ومضمونها يؤكد ذلك، فهي في الواقع امتداد لسورة القصص وهي ــ أي سورة القصص ــ من آخر ما نزل بمكة، فكانت هذه السورة امتداد لها، ولهذا جاءت عقبها وابتدأت بذكر سنة من سنن الله في خلقه الا وهو الامتحان والابتلاء وخاصة لأصحاب المبادىء والمذاهب، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعيش أخطر ابتلاء في حياته. الا وهو الهجرة وهي من أشد أنواع الابتلاء، فابتدئت بقوله تعالى : «ألم أحسب الناس أن يتركو ,أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون».

ولما كانت السورة السابقة فصلت في قصة فرعون واستعلائه وجبروته، وجعله الناس شيعا افتتحت هذه السورة بذكر المومنين الذين فتنهم المشركون وعذبوهم على الايمان دون ما عذب به فرعون بني اسرائيل تسلية لهم، وتهوينا لما أصابهم، وحثا لهم على تحمل الأذى والصبر عليه.

وأيضا لما ذكر في السورة السابقة نجاة موسى من فرعون وهربه منه ثم عوده إلى مصر رسولا نبيئا، ثم ظفره من بعد بغرق فرعون وقومه ونصره عليهم نصرا مؤزرا، ذكرهنا نجاة نوح عليه السلام وأصحاب السفينة واغراق من كذبه من قومه.

واذا كانت السورة السابقة قد الحت إلى هجرته صلى الله عليه وسلم وظفره على قومه «ان الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد» فقد جاء في خاتمة هذه السورة الاشارة كذلك إلى هجرة المؤمنين «يا عبادي الذين آمنوا ان أرضي واسعة».

(451) ب : ساقطة.

من هذا أن الابتلاء في غالب الأمر سنة، وجرت منه (سبحانه)(452) في عباده ليميز الخبيث من الطيب، وهو المنزه عن الافتقار إلى تعرف أحوال العباد بما يبتليهم به، إذ قد علم كون ذلك منهم قبل كونه، إذ هو موجده وخالقه كان خيرا أو شرا، فكيف يغيب عنه أو يفتقر تعالى إلى ما به يتعرف(453) أحوال العباد، أو يتوقف علمه على سبب «ألا يعلم من خلق» (الملك : 14) ولكن هي سنة في عباده ليظهر لبعضهم من بعض عند الفتنة والابتلاء ما لم يكن ليظهر قبل ذلك حتى يشهدوا على أنفسهم وتقوم الحجة/ عليهم باعترافهم ولا افتقار به تعالى إلى شيء من ذلك.

فلما تضمنت سورة القصص هذا الابتلاء في الخير والشر، وبه وقع افتتاحها واختتامها هذا، وقد انجر بحكم الاشارة أولا خروج نبينا ﷺ من بلده ومنشئه ليأخذه عليه السلام بأوفر حظ مما ابتلى به الرسل والأنبياء من مفارقة الوطن وما يحرز لهم الأجر المناسب لعلي درجاتهم عليهم السلام، ثم بشارته ﷺ آخرا بالعودة والظفر «إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد» (القصص : 85)، فأعقب سبحانه هذا بقوله معلما للعباد ومنبها أنها سنته(454) فيهم فقال : «احسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون» (آية : 2) أي احسبوا أن يقع الاكتفاء بمجرد استجابتهم وظاهر إنابتهم ولما يقع امتحانهم بالشدائد والمشقات وضروب الاختبارات : «ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات» (البقرة : 155) فإذا وقع الابتلاء فمن فريق يتلقون ذلك تلقي العليم، إن ذلك من عند الله ابتلاء واختبارا فيكون تسخيرا لهم وتخليصا، ومن فريق يقابلون ذلك بمرضاة الشيطان والمسارعة إلى الكفر والخذلان «ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه» (آية : 6).

(452) ب : ساقطة.

(453) ب : بيانه بتعرف.

(454) ب : سنه.

ثم اتبع سبحانع هذا بذكر حال بعض الناس ممن يدعي الايمان، فإذا أصابه أدنى أذى من الكفار (صرفه)(455) ذلك عن إيمانه، وكان عنده مقاوما لعذاب الله الصارف لمن عرفه عن الكفر والمخالفة فقال تعالى : «ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله» (آية : 10) فكيف حال هؤلاء في تلقي ما هو أعظم من الفتنة وأشد في المحنة.

ثم اتبع سبحانه ذلك بما به يتأسى الموفق من صبر الأنبياء عليهم السلام وطول مكابدتهم من قومهم، فذكر نوحا وإبراهيم ولوطا وشعيبا، وخص هؤلاء عليهم السلام بالذكر(456) لأنهم من أعظم الرسل مكابدة وأشدهم ابتلاء، أما نوح عليه السلام، فلبث في قومه(457) كما أخبر الله سبحانه ألف سنة إلا خمسين عاما، وما آمن معه/ إلا قليل، وأما إبراهيم عليه السلام فرمي بالمنجنيق في النار فكانت عليه بردا وسلاما، وقد نطق الكتاب العزيز بخصوص المذكورين (صلى الله عليهما وسلم وعلى الرسل والأنبياء أجمعين)(458) بضروب من الابتلاءات حصلوا على ثوابها وفازوا من عظيم الرتبة النبوية العليا بأسنى نصابها، ثم ذكر تعالى أخذ المكذبين من أممهم فقال : «فكلا أخذنا بذنبه» (آية : 40) ثم وصى نبيه عليه السلام(459) وأوضح(460) حجته وتتابع اتساق الكلام (إلى)(461) آخر السورة.

(455) ب : عرفه.
(456) ب : وشعيبا عليهم السلام وخص هؤلاء بالذكر.
(457) أ : فلبث فيهم في قومه.
(458) ب : عليهم السلام.
(459) ب : صلى الله عليه وسلم.
(460) ب : في أوضح.
(461) ب : ساقطة.

ســـورة الـــروم(462)

لما أعتب(463) سبحانه أهل مكة ونعى عليهم قبح صنيعهم في التغافل عن الاعتبار بحالهم وكونهم مع قلة عددهم قد منع الله بلدهم عن قاصد نهبه، وكف أيدي العتاة والمتمردين عنهم مع تعاور أيدي المنتهبين من حولهم، وتكرُّر ذلك واطراده صونا منه لحرمه وبيته فقال تعالى : «الم يروا انا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهِم» (العنكبوت : 67) أي أولم يكفهم هذا في الاعتبار ويتبينوا أن ذلك ليس عن قوة منهم ولا حسن دفاع، وإنما هو بصون الله إياهم بمجاورة بيته وملازمة أمنه مع أنهم أقل العرب، أفلا يرون هذه النعمة ويقابلونها بالشكر والاستجابة قبل أن يحل بهم نقمه ويسلبهم نعمه، فلما قدم تذكارهم(464) بهذا أعقبه(465) بذكر طائفة هم أكثر منهم وأشد قوة وأوسع بلادا وقد أيد غيرهم ولم يغن عنهم انتشارهم وكثرتهم فقال : «ألم غلبت الروم في أدنى الأرض... الآيات» (آية : 1 وما بعدها) فذكر تعالى (غلبة)(466) غيرهم لهم، وانهم ستكون لهم كرة ثم يغلبون، وما ذلك إلا بنصر الله من شاء من عبيده ينصر من يشاء فلو كشف عن أبصار من كان بمكة من الكفار لرأوا(467) أن اعتصام بلادهم وسلامة ذرياتهم وأولادهم مما

---

(462) سورة الروم مكية بلا خلاف. وقد ذكر في مطلعها ظهور الروم على فارس بعد هزيمتهم التي أسي لها المسلمون وبطرها المشركون، وقد تردد كثيرا في هذه السورة الاشارة إلى قدرة الله عز وجل وتصرفه في ملكوته، ويظهر لي أن وجه تعلقها بسابقتها هو أن ما ورد فيها من دلائل التوحيد والنظر في الآفاق والأنفس والأمر بالسير في فجاج الأرض، والتفكر في عواقب السالفين «أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة واثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها....» (9—10) «قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل» (42). وما ورد فيها من ذكر آيات الله والتنبيه إليها كخلق السماوات والأرض، واحياء الموتى، وتعدد الألسنة والألوان، وتصريف الرياح، وتعاقب الليل والنهار وانزال المطر واحياء الأرض به، وغير ذلك من الآيات كل ذلك جاء بيانا وتفصيلا لقوله تعالى في السورة السابقة : «أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده ان ذلك على الله يسير، قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق» (19—20).

(463) في ب : عتب، وفي أ : أعقب، واثبت أعتب لأنها المناسبة للسياق، ومعناها ازال شكواهم وعتابهم، وهذا ما تعالجه أواخر سورة العنكبوت (الآية 50 إلى آخر السورة).

(464) ب : تذاكرهم.

(465) أ : أعقب.

(466) ب : ساقطة.

(467) أ، ب : لروا.

يتكرر[468] على من حولهم من الانتهاب والقتل وسبي الذراري والحرم، إنما هو بمنع الله تعالى وكريم صونه لمن جاور حرمه وبيته، والا فالروم أكثر عددا وأطول مددا ومع ذلك تتكرر عليهم الفتكات[469] والغارات وتتوالى عليهم الغلبات أفلا يشكر أهل مكة من/ أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف. (وأيضا)[470] فإنه سبحانه لما قال : «وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وان الدار الآخرة لهي الحيوان» (العنكبوت 64) اتبع ذلك سبحانه بذكر تقلب حالها وتبين[471] اضمحلالها ومحالها، وانها لا تصفو ولا تتم وانما حالها ابدا التقلب وعدم الثبات، فأخبر بأمر[472] هذه الطائفة التي هي من أكثر (أهل)[473] الأرض وامكنهم وهم الروم، وأنهم لا يزالون مرة عليهم واخرى لهم، فأشبهت حالهم هذه حال اللهو واللعب فوجب اعتبار العاقل بذلك وطلبته الحصول على تنعم داز لا يتقلب[474] حالها، ولا يتوقع انقلابها وزوالها، «وان الدار الآخرة لهي الحيوان» (العنكبوت : 64) ومما (يقوي هذا)[475] المأخذ قوله تعالى : «يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا» (الروم : 7) أي لو علموا باطنها لتحققوا أنها لهو ولعب ولعرفوا أمر الآخرة «من عرف نفسه عرف ربه»[476] ومما يشهد لكل من القصدين ويعضد كلا الامرين قوله سبحانه : «أولم يسيروا في الأرض...الآيات» (آية : 9 وما بعدها) أي لو فعلوا هذا وتأملوا لشاهدوا من تقلب أحوال الأمم وتغير الأزمنة والقرون ما بين[477] لهم عدم بقائها[478] على أحد، فتحققوا لهوها ولعبها، وعلموا أن حالهم ستؤول إلى حال من ارتكب في العناد والتكذيب وسوء التبار والهلاك.

(468) ب : سافطه.
(469) ب : النكبات.
(470) ب : ساقطة.
(471) ب : وتبيين.
(472) ب : عن.
(473) ب : ساقطة.
(474) ب : ينقلب.
(475) ب : يقوى على هذا.
(476) قال النووي : غير ثابت، وقال السمعاني : هو من كلام يحيى بن معاذ الرازي رضي الله عنه. انظر الدرر المنتثرة ص : 167.
(477) في ب : يبين.
(478) في ب : ايفائها.

سورة لقمان[479]

لما تكرر الأمر بالاعتبار والحض عليه والتنبيه بعجائب المخلوقات في سورة الروم كقوله : «أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق» (آية : 8) وقوله «أولم يسيروا في الأرض» (آية : 9) وقوله : «الله يبدأ الخلق ثم يعيده» (آية : 11) وقوله : «يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي إلى قوله كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون» (الآيات : 19—28) وهي عشر آيات تحملت من جليل الاعتبار والتنبيه ما لا تبقى[480] معه شبهة ولا توقف لمن وفق إلى ما بعد هذا من آيات التنبيه وبسط الدلائل، وذكر ما فطر عليه العباد وضرب الأمثال الموضحة سواء السبيل لمن عقل معانيها وتدبر حكمها إلى قوله : «ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل» (آية : 58) وهي إشارة إلى ما أودع الله كتابه المبين من مختلف الأمثال وسني العظات، وما تحملت هذه السورة من ذلك، اتبع سبحانه ذلك بقوله الحق «ألم تلك آيات الكتاب الحكيم» (آية : 1—2) أي دلائله وبراهينه لمن وفق وسبقت له الحسنى وهم المحسنون الذين ذكرهم بعد، ووصف الكتاب بالحكيم يشهد لما مهدناه، ثم أشار سبحانه إلى من حرم منفعته والاعتبار به واستبدل الضلالة بالهدى، وتنكب عن (سنن)[481] فطرة الله التي فطر الناس عليها فقال : «ومن الناس من يشتري لهو الحديث... الآيات» (آية : 6 وما بعدها)، ثم اتبع ذلك بما يبكت كل معاند ويقطع بكل جاحد، فذكر خلق السماوات بغير عمد مرئية مشاهدة لا يمكن في أمرها امتراء،

---

(479) سورة لقمان مكية في جملتها، وأضيف أن وجه اتصالها بسابقتها أنه لما ختمت الروم بأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر حتى يتحقق وعد الله، وكان فيها الأمر باقامة وجهه للدين جاءت سورة لقمان لتبين ان التزام آيات الله والعمل بها يورث الحكمة وينتج الهداية وينزل الرحمة. وفي عرض هذه السورة لقصة لقمان وهو يعظ ابنه، وينهاه عن الشرك والطغيان والبطر والأشر، تأكيد لذلك وتعريض بكفار قريش، وتعليم للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه أن يجافوا هذه الأخلاق الذميمة، ويتذكروا نعم الله عليهم الظاهرة منها والباطنة ثم ختمت بالتذكير بخشية الله وتقواه وهو القادر على أن ينتقم من الكفار، وقد ضربت لهم الأمثال بذلك في هذه السورة، وهي (أي الأمثال) بيان وتفصيل لقوله تعالى في السورة السابقة» ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل».

(480) ب : يبقى.

(481) ب : ساقطة.

ثم ذكر خلق الأرض وما أودع فيها ثم قال سبحانه «هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه» (آية : 11) ثم اتبع ذلك بذكر من هداه سبيل الفطرة فلم تزغ به الشبه ولاتنكب سواء السبيل فقال : «ولقد آتينا لقمان الحكمة... الآية» (آية : 12) (ليبين لنا سنن)(482) من اتبع فطرة الله التي تقدم ذكرها في سورة الروم ثم تناسق الكلام وتناسج.

ســـورة السجـــدة (483)

لما انطوت سورة الروم على ما قد أشير إليه من التنبيه بعجائب ما أودعه سبحانه في عالم السماوات والأرض على(484) ذكر الفطرة ثم اتبعت بسورة(485)

(482) أ : وليس لتأسيس. ب : لتأسيس، والصواب ما أثبته. تم للسياق.

(483) سورة السجدة مكية في جملتها وكانت مخصوصة بفضل عظيم وهو قراءة النبي صلى الله عليه وسلم لها في صلاة صبح يوم الجمعة في الركعة الأولى كما أخرج ذلك البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة. انظر الدر المنثور 170/5 والقرطبي المجلد السابع 83/2 . سماها أحد التابعين وهو خالد بن معدان الكلاعي بالمنجمية كما أخرج ذلك عنه الدارمي في سننه. انظر الحديث رقم 3411 حيث يقول : اقرأوا المنجمية وهي «الم تنزيل» فانه بلغني أن رجلا كان يقرؤها ما يقرأ شيئا غيرها وكان كثير الخطايا فنشرت جناحها عليه وقالت رب اغفر له فانه كان يكثر قراءتي فشفعها الرب فيه وقال اكتبوا له خطيئته حسنة وارفعوا له درجة.

وهذا الحديث وان كان مرسلا ولم يبين هذا التابعي مصدره الا أنه معضد بأحاديث صحيحة متصلة منها ما أخرجه أحمد والترمذي والنسائي والحاكم وصححه والدارمي وغيرهم عن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا ينام حتى يقرأ «الم تنزيل وتبارك». انظر سنن الدارمي حديث رقم 3414. وعمل اليوم والليلة حديث 706 وما بعده مع ملاحظة تخريجه هناك.

أما صلتها بسابقتها فقد أشار السيوطي إلى وجه قوى في ذلك حيث قال : «وجه اتصالها بما قبلها أنها شرحت مفاتح الغيب الخمسة التي ذكرت في خاتمة لقمان : فقوله في هذه السورة «ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون» (5) شرح لقوله في لقمان «ان الله عنده علم الساعة» (34) ولذلك عقب هنا بقوله «عالم الغيب والشهادة» (6) وقوله في هذه السورة «أو لم يروا انا نسوق الماء إلى الأرض الجرز» (27) شرح لقوله في لقمان «وينزل الغيث» (34) وقوله في هذه السورة «الذي أحسن كل شيء خلقه» (7) شرح لقوله : في لقمان «ويعلم ما في الأرحام» (34) وقوله هنا «يدبر الأمر من السماء إلى الأرض» (5) «ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها» (13) شرح لقوله في لقمان : «وما تدري نفس ماذا تكسب غدا» (34)، وقوله ائذا ضللنا في الأرض إلى قوله : قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون» (11) شرح لقوله تعالى في لقمان «وما تدري نفس بأي أرض تموت» (34). انظر : تناسق الدرر ص. 125.

(484) ب : وعلى.

(485) ب : سورة.

لقمان تعريفا بأن مجموع تلك الشواهد من آيات الكتاب وشواهده ودلائله، وانه قد هدى به من شاء[486] إلى سبيل الفطرة، وان لم يمتحنه بما امتحن به كثيرا ممن ذُكر فلم يغن عنه، ودُعيَ فلم يجب، وتكررت الانذارات فلم يُصْغِ لها، إن كل ذلك من الهدى والضلال واقع بمشيئته وسابق إرادته، واتبع سبحانه ذلك بما ينبه المعتبر على صحته فقال : «ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى» (لقمان : 22) فأعلم سبحانه أن الخلاص والسعادة في الاستبسلام (له ولما يقع)[487] من أحكامه، وعزَّى نبيه، وصبَّره بقوله : «ومن كفر فلا يحزنك كفره» (لقمان : 23) ثم ذكر تعالى لَـجْـأ الكل قهرا ورجوعا بحكم اضطرارهم[488] ـــ لوضوح الأمر ـــ الى الله تعالى فقال : «ولئن سألتم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله» (لقمان : 25) ثم وعظ تعالى الكل بقوله : «ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة» (لقمان : 27) أي أن ذلك لا يشق عليه تعالى ولا يصعب، والقليل والكثير سواء، ثم نبه بما يبين ذلك من إيلاج الليل في النهار وجريان الفلك بنعمته «ذلك بأن الله هو الحق» (لقمان : 30) ثم أكد ما تقدم من رجوعهم في الشدائد إليه فقال : «وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين» (لقمان : 32) فلما[489] خلصهم سبحانه ونجاهم عادوا إلى سيء أحوالهم هذا، وقد عاينوا رفقة بهم، وأخذهم عند الشدائد بأيديهم، وقد اعترفوا بأنه خلق السماوات وسخر[490] الشمس والأرض والقمر، وذلك شاهد من حالهم بجريانهم على ما قدر لهم ووقوفهم عند حدود السوابق «ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى» (لقمان : 22) ثم عطف سبحانه على الجميع فدعاهم إلى تقواه وحذرهم يوم المعاد وشدته، وحذرهم من الاغترار وأعلمهم

---

(486) ب : سلك.

(487) ب : لما يقع.

(488) أ : اضطرار.

(489) ب : فاذا.

(490) في أ : ومسخر.

أنه المنفرد بعلم الساعة وانزال الغيث وعلم ما في الأرحام وما يقع من المكتسبات وحيث يموت[491] كل المخلوقات.

ولما[492] كانت سورة لقمان بما بين من مضمنها محتوية من[493] التنبيه والتحريك على ما ذكر، ومعلمة بانفراده سبحانه بخلق الكل وملكهم اتبعها تعالى بما يحكم بتسجيل صحة الكتاب وانه من عنده وان ما انطوى عليه من الدلائل والبراهين يرفع كل ريب ويزيل كل شك فقال : «ألم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك» (الآيتين : 1 و3) أي أيقع منهم هذا بعد وضوحه وجلاء شواهده، ثم اتبع ذلك بقوله ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع» (آية : 3) وهو تمام لقوله : «ومن يسلم وجهه إلى الله» (لقمان : 21) ولقوله : ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله» (لقمان : 24) ولقوله : «وإذ غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين»[494] (لقمان : 32) ولقوله : ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون» (السجدة : 4) بما ذكرتم، ألا ترون أمر لقمان وهدايته بمجرد دليل/ فطرته فمالكم بعد التذكير وتقريع الزواجر وترادف الدلائل وتعاقب الآيات متوقفون[495] عن السلوك إلى ربكم وقد أقررتم بأنه خالقكم ولجأتم إليه عند احتياجكم.

ثم أعلم نبيه (ﷺ)[496] برجوع من عاند واجابته حين لا ينفعه رجوع ولا يغني عنه إجابة فقال : «ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم» (آية : 12) ثم اعلم سبحانه أن الواقع منهم إنما هو بإرادته وسابق من حكمه ليأخذ الموفق الموقن نفسه بالتسليم فقال : «ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها»

(491) في أ : يفوت.

(492) ب : فلما.

(493) ب : على.

(494) مخلصين : ساقطة من : أ.

(495) ب : تتوقفون.

(496) ساقطة من : أ.

(آية : 13) كما فعلنا بلقمان ومن أردنا توفيقه، ثم ذكر انقسامهم بحسب السوابق فقال : «أفمن كان مومنا كمن كان فاسقا لا يستوون» (آية : 18) ثم ذكر مصير الفريقين ومآل الحزبين، ثم اتبع ذلك بسوء حال من ذُكِّر فأعرض فقال : «ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها (آية : 22) وتعلق الكلام إلى آخر السورة.

سـورة الأحـزاب(497)

افتتحها سبحانه بأمر نبيه باتقائه ونهيه عن الصغو إلى الكافرين والمنافقين، واتباعه ما(498) يوحي الله إليه تنزيها لقدره عن محنة من سبق له الامتحان ممن قدم ذكره في سورة السجدة، وأمرا له بالتسليم لخالقه والتوكل عليه «والله يقول الحق وهو يهدي السبيل» (آية : 4) ولما تحصل من السورتين قبل (ما يُعْقب العالِمَ من الخوف أشده)(499) لغيبة العلم بالخواتم، وما جرى في السورتين من الاشارة إلى السوابق «ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها» (السجدة : 13) كان ذلك مظنة

(497) هذه السورة مدنية في قول جميع الأئمة، وقد عالجت موضوع غزوة الأحزاب والبيت النبوي في طاعته لله والرسول وحق حرمته وعدم ايذائه وختمت بالتأكيد بعدم ايذاء الرسول صلى الله عليه وسلم والحث على طاعته وهذا كله داخل في الاستسلام لله عز وجل وهو الموضوع الذي عالجته سورة السجدة قبلها، فكأن هذه السورة تأكيد لمعنى الاستسلام والخضوع والسجود الوارد في السورة السابقة مع بيان نتيجة الخاضعين لأمر الله من نصر كالذي حدث في غزوة الأحزاب وتكريم كما في الصلاة على النبي وآل بيته، وهذا وجه في ترابط السورتين.

وأشير إلى وجه آخر يبين الصلة بين هذه السورة وسابقتها أبداه الشيخ عبد الله بن الصديق إذ قال : «مناسبتها لما قبلها أن الله تعالى توعد الكفار في السورة السابقة بأن يذيقهم من العذاب الأدنى في الدنيا بالقتل والأسر قبل العذاب الأكبر وهو عذاب الآخرة» ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون» فاخبر هنا بتحقيق الوعيد المذكور «يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فارسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا... ورد الله الذين كفروا بغيضهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المومنين القتال وكان الله قويا عزيزا، وانزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا».

انظر جواهر البيان : 81. وهو وجه جيد ظاهر.

(498) ب : لما.

(499) ب : ان ما يعقب العالم من الخوف أشد.

لتيئيس نبي الله ﷺ وصالحي أتباعه، فلهذا أعقب سورة السجدة بهذه السورة المضمنة من التأنيس والبشارة ما[500] يجرى على المعهود من لطفه تعالى وسعة رحمته، فافتتح سبحانه السورة بخطاب نبيه بالتقوى واعلامه بما قد أعطاه قبل من سلوك (سبيل)[501] النجاة، وان ورد على طريقة الأمر ليشعره[502] باستقامة سبيله وإيضاح دليله، وخاطبه بلفظ النبوة لأنه أمر ورد عقب تخويف وانذار وان كان عليه السلام قد نَزّه الله قدره عن أن يكون منه خلاف/ التقوى وعصمه من كل (ما ينافر)[503] نزاهة حاله وعَلِي منصبه ولكن طريقة خطابه تعالى للعباد أنه تعالى متى جرد ذكرهم للمدح من غير أمر ولا نهي فهو موضع ذِكرهم بالأخص إلا مدحٌ من محمود صفاتهم ومنه : «محمد رسول الله والذين معه..... الآيات»[504] (الفتح : 29) فذكره ﷺ باسم الرسالة،ومهما كان الأمر أو النهي[505] عدل في الغالب إلى الأعم ومنه «يا أيها النبيء اتق الله» (الأحزاب : 1) «يا أيها النبيء حرض المومنين على القتال» (الأنفال : 65) «يا أيها النبيء إذا طلقتم النساء» (الطلاق : 1) «يا أيها النبيء لِم تحرم ما أحل الله لك» (التحريم : 1) «يا أيها النبيء إذا جاءك المومنات» (الممتحنة : 12)، وقد بين في غير هذا، وان ما ورد على خلاف هذا القانون فلسبب خاص استدعى العدول عن المطرد كقوله : «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك» (المائدة : 67)، فوجه هذا أن قوله سبحانه : «وان لم تفعل فما بلغت رسالاته» (المائدة : 67) موقعه شديد فعدل[506] بذكره عليه السلام[507] باسم الرسالة لضرب من التلطف فهو من باب «عفا الله عنك لم أذنت لهم» (التوبة : 43) وفيه بعض غموض.

---

(500) أ : بما.

(501) أ : ساقطة.

(502) ب : ليشعر.

(503) ب : منافر.

(504) محمد رسول الله إلى آخر سورة الفتح آية واحدة.

(505) ب : والنهي.

(506) ب : فعودل.

(507) ب : صلى الله عليه وسلم.

وأيضا فإنه لما قيل له : «بلغ» طابق هذا ذكره بالرسالة، فإن المبلغ رسول والرسول مبلغ ولا يلزم النبي أن يبلغ إلا أن يرسل، وأما قوله تعالى : «يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر» (المائدة : 41) فأمره وان كان نهيا أوضح من الأول لأنه تسلية له عليه السلام وتأنيس[508]، وأمر بالصبر والرفق بنفسه، فمآله[509] راجع إلى ما يرد مدحا مجردا عن الطلب وعلى ما أشير إليه يخرج ما ورد من هذا.

ولما افتتحت هذه السورة بما حاصله ما قدمناه من اعلامه عليه السلام من هذا الأمر بعلي حاله ومزية قدره، ناسب ذلك ما احتوت عليه السورة من باب التنزيه في مواضع :

منها إعلامه تعالى بأن أزواج نبيه أمهات للمومنين[510] فنزههن عن أن يكون حكمهن حكم غيرهن من النساء مزية لهن وتخصيصا وإجلالا لنبيه ﷺ.

ومنها قوله تعالى : «ولما رأى المومنون الأحزاب.... الآية (آية : 22) فنزههم/ عن تطرق سوء أو دخول ارتياب على مصون معتقداتهم وجليل إيمانهم «قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما» (آية : 22) والآية بعد كذلك وهي قوله تعالى : «من المومنين رجال صدقوا.... الآية» (آية : 23).

ومنها «يا نساء النبيء لستن كأحد من النساء أن أتقيتن» (آية : 32) فنزههن تعالى وبين شرفهن على من عداهن.

ومنها تنزيه أهل البيت وتكرمتهم «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم[511] ..... الآية» (آية : 33).

(508) ب : وتأسيس.
(509) أ : فبابه.
(509) ب : المومنين.
(511) ويطهركم ساقطة من : ب.

ومنها الأمر بالحجاب «يا أيها النبيء قل لأزواجك وبناتك ونساء المومنين يدنين عليهن من جلابيبهن» (آية : 59) فنزه المومنات عن حالة الجاهلية من التبرج وعدم الحجاب وصانهن عن التبذل والامتهان.

ومنها قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى» (آية : 69) فوصاهم جل وتعالى، ونزههم بما نهاهم عنه أن يتشبهوا بمن استحق اللعن والغضب في سوء أدبهم وعظيم مرتكبهم إلى ما تضمنت السورة من هذا القبيل، ثم أتبع سبحانه ما تقدم بالبشارة[512] العامة واللطف الشامل كقوله تعالى : «يا أيها النبيء إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا» (آية : 45—46) ثم قال تعالى : وبشر المومنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا» (آية : 47) وقوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا إلى قوله أجرا كريما» (الآيات : 41—44) وقوله تعالى : «إن الله وملائكته يصلون على النبيء.... الآية» (آية : 56) وقوله تعالى : «إن المسلمين والمسلمات إلى قوله أجرا عظيما» (آية : 35) وقوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً يصلح الآية[513] إلى قوله عظيما» (آية : 70) وقوله : «ويتوب الله على المومنين والمومنات وكان الله غفورا رحيماً» (آية : 73) وقوله سبحانه مثنيا على المومنين بوفائهم وصدقهم «ولما رأى المومنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله — إلى قوله : — وما بدلوا تبديلا» (الآيتان : 22—23) وقوله سبحانه تعظيما لحرمة نبيه (ﷺ)[514] والمومنين «إن الذين يوذون الله ورسوله إلى قوله واثما مبينا» (الآيتان : 57—58).

وفي[515] هذه الآيات من تأنيس المومنين وبشارتهم وتعظيم حرمتهم ما يكسر سورة الخوف الحاصل في سورتي لقمان والسجدة ويسكن روعهم تأنيسا/ لا رفعا،

(512) في أ : بالبشاة.
(513) ساقطة من : ب.
(514) أ : ساقطة.
(515) أ : وهي.

ومن هذا القبيل أيضا ما تضمنت السورة من تعداد نعمه تعالى عليهم وتحسين خلاصهم كقوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنودا فأرسلنا عليهم... — إلى قوله — هنالك ابتلى المومنون وزلزلوا زلزالا شديدا» (الآيات : 9—11) وقوله (تعالى)[516] : «ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المومنين القتال إلى قوله : وكان الله على كل شيء قديرا» (الآيات : 25—27) وخَتْمُ السورة بذكر التوبة والمغفرة أوضح شاهد لما تمهد من دليل قصدها وبيانها على ما وضح والحمد لله، ولما كان حاصلها رحمة ولطفا ونعمة لا يُقدر عظيم قدرها، وينقطع العالم دون الوفاء بشكرها أعقب بما ينبغي من الحمد (يعني أول سبأ)[517].

سـورة سبـأ[518]

افتتحت بالحمد لله سبحانه[519] لما أعقب بها ما انطوت عليه سورة الأحزاب من عظيم الآلاء وجليل النعماء حسبما أبين آنفا[520] فكان مظنة الحمد على ما مَنح عباده المومنين وأعطاهم فقال تعالى : «الحمد لله الذي له ما في

(516) أ : ساقطة.

(517) أ : ساقطة.

(518) هذه السورة مكية باجماع، وقال ابن عطية مكية إلا قوله : «ويرى الذين أوتوا العلم» فقالت فرقة مدنية فيمن اسلم من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام واشباهه. البحر المحيط : 257/7.

قال الألوسي في مناسبتها «ووجه اتصالها بما قبلها أن الصفات التي أجريت على الله تعالى في مفتتحها مما يناسب الحكم التي في مختتم ما قبل في قوله تعالى «ليعذب الله المنافقين والمنافقات»... الخ، وأيضا قد اشير فيما تقدم إلى سؤال الكفار عن الساعة على جهة الاستهزاء، وههنا قد حكى عنهم انكارها صريحا والطعن بمن يقول بالمعاد على أتم وجه، وذكر مما يتعلق بذلك ما لم يذكر هناك.

وفي «البحر المحيط» ان سبب نزول هذه السورة أن أبا سفيان قال لكفار مكة لما سمعوا : «ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات» ان محمدا يتوعدنا بالعذاب بعد أن نموت ويخوفنا بالبعث، واللات والعزى لا تأتينا الساعة أبدا ولا نبعث، فقال الله قل يا محمد : بلى وربي لتبعثن، قاله مقاتل وباقي السورة تهديد لهم وتخويف، ومن ذكر هذا السبب ظهرت المناسبة بين هذه السورة والتي قبلها، انظر : الألوسي 95/22 والبحر المحيط : 257/7.

(519) ب : ساقطة.

(520) ب : زيادة «يعني في آخر كلامه على سورة الأحزاب» بين كلمتي «آنفا» و«فكان».

السموات وما في الأرض» (آية : 1) ملكا واختراعا وقد أشار هذا إلى إرغام من توقف منقطعا عن فهم تصرفه سبحانه في عباده بما تقدم،وتقريعهم[521] بحسب ما شاء، فكأن قد قيل إذا كانوا له ملكا وعبيدا أفلا يتوقف في فعله بهم ما فعل من تيسير للحسنى أو لغير ذلك مما شاءه بهم على فهم علته أو استطلاع سببه[522]، بل يفعل بهم ما شاء وأراد من غير حجر ولا منع وهو الحكيم الخبير وجْهَ الحكمة في ذلك التي خفيت عنكم، وأشار قوله : «وله الحمد في الآخرة» (آية : 1) إلى أنه سيطلع عباده المومنين من موجبات حمده ما يمنحهم أو يضاعف لهم من الجزاء وعظيم الثواب في الآخرة على ما لم تبلغه عقولهم في الدنيا وفت به أفكارهم «فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين».

ثم اتبع سبحانه ما تقدم من حمده على ما هو أهله ببسط شواهد حكمته وعلمه فقال تعالى : «يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها (إلى قوله)[523] وهو الرحيم (الغفور)[524]» (آية : 2)، فبرحمته وغفرانه أنال عباده المومنين/ ما خصهم به واعطاهم، فله الحمد الذي هو أهله، ثم أتبع هذا بذكر إمهاله من كذب وكفر مع عظيم اجترائهم لتبين سعة رحمته ومغفرته فقال تعالى : «وقال الذين كفروا لا تاتينا الساعة (إلى قوله): إن في ذلك لآيات لكل عبد منيب» (الآيات : 3—9) أي أن في إمهاله سبحانه لهؤلاء بعد عتوهم واستهزائهم في قولهم :[525] «لا تاتينا الساعة» وقوله : «هل ندلكم على رجل ينبؤكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد» (آية : 7) وإغضائهم عن الاعتبار بما بين أيديهم من السماء والأرض وأمنهم أخذهم من أي الجهات، ففي إمهالهم وادرار أرزاقهم مع عظيم مرتكبهم آيات لمن أناب (واعتبر)[526]، ثم بسط

(521) ب : وتعريفهم.

(522) أ : استطاع سبب.

(523) زائدة لأن الآية متصلة وليس فيها حذف.

(524) أ : ساقطة.

(525) ب : قوله.

(526) ب : ساقطة.

لعباده المومنين من ذكر آلائه ونعمه وتصريفه في مخلوقاته ما يوضح اسنيلاء قهره وملكه، ويشير إلى عظيم ملكه، كما أعلم في قوله سبحانه : «الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض» (آية : 1) فقال سبحانه : «ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير وألنّا له الحديد» (آية : 10) (ثم قال)(527) ولسليمان الريح إلى قوله اعملوا آل داود شكرا» (الآيتان : 12—13)، ثم إتبع ذلك بذكر حال من لم يشكر فذكر قصة سبأ إلى آخرها، ثم وبخ (تعالى)(528) من عبد غيره (معه)(529) بعد وضوح الأمر وبيانه فقال : «قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله» (آية : 22) إلى وصفه حالَهم الأخروي ومراجعة متكبريهم ضعفاءَهم(530)، وضعفاءهم متكبريهم «وأسروا الندامة لما رأوا العذاب»، ثم التحمت الآي جارية على ما تقدم من لدن افتتاح السورة إلى ختمها.

سورة فاطر(531)

لما أوضحت سورة سبأ أنه سبحانه مالك السماوات والأرض ومستحق الحمد في الدنيا والآخرة، أوضحت هذه السورة أن ذلك خلقه كما هو ملكه وأنه الأهل للحمد والمستحق، إذ الكل خلقه وملكه، ولأن(532) السورة الأولى تجردت لتعريف العباد بأن الكل ملكه وخلقه دارت آيها(533) على تعريف عظيم ملكه،

(527) ب : ساقطة.

(528) ب : ساقطة.

(529) ب : ساقطة.

(530) ب : ضعفاؤهم، أ : ضعفاهم.

(531) وتسمى سورة الملائكة وهي مكية كما روي عن ابن عباس وقتادة وغيرهما، وقيل مكية إلا قوله تعالى : «إن الذين يتلون كتاب الله» الآية وقوله تعالى : «ثم أورثنا الكتاب... الآية».

وفي مناسبتها قال ابن حيان «لما ذكر تعالى في السورة التي قبلها هلاك المشركين أعداء المومنين وأنزلهم منازل العذاب تعين على المومنين حمده تعالى وشكره لنعمائه ووصفه بعظيم آلائه كما في قوله : «فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين». البحر المحيط : 7/ 297.

ولا تخفي كذلك مناسبة السورتين في افتتاحهما بالحمد وتقاربهما في المقدار.

(532) أ : وكأن

(533) ب : ساقطة.

فقد[534] أعطي داود وسليمان عليهما السلام ما هو كالنقطة في البحار الزاخرة[535] فلان الحديد وانقادت الرياح والوحوش والطير والجن والانس مذللة خاضعة «قل ادعو الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير» (سبأ : آية : 22) تعالى ربنا عن الظهير والشريك والند، وتقدس ملكه عن أن تحصره العقول أو تحيط به الأفهام، فتجردت سورة سبأ لتعريف العباد بعظيم ملكه سبحانه، وتجردت هذه الأخرى للتعريف بالاختراع والخلق، وشهد لهذا استمرار آي سورة فاطر على هذا الغرض من التعريف وتنبيهها[536] على الابتداءات كقوله تعالى : «جاعل الملائكة رسلا أولي أجنحة.... الآية» (آية : 1) وقوله : «ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها... هل من خالق غير الله يرزقكم» (آية : 2) وقوله : «أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا.... الآية» (آية : 8) وقوله : «الله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا... الآية» (آية : 9) «والله خلقكم من تراب» (آية : 11) «يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل» (آية : 13)، «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها» (آية : 27) «هو الذي جعلكم خلائف في الأرض» (آية : 39) «إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا» (آية : 41).

فهذه عدة آيات معرفة بابتداء الخلق والاختراع أو مشيرة، ولم يقع من ذلك في سورة[537] سبأ آية واحدة، ثم إن سورة سبأ جرت آيها على نهج تعريف الملك والتصرف والاستبداد بذلك والابداء به، وتأمل افتتاحها وقصة داود وسليمان وقوله سبحانه : «قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة... الآيات» (سبأ : 22) يتضح لك ما ذكرناه وما أنجر[538] في السورتين مما ظاهره الخروج

(534) أ : فقده.
(535) أ : إلى آخره.
(536) ب : وتنبيها.
(537) أ : من سورة.
(538) أ : نحن.

عن هذين الغرضين فملتحم[539] ومستدعى بحكم الانجرار بحسب استدعاء مقاصد الآي رزقنا الله الفهم عنه بمنه.

ســـــورة يـــــس[540]

لما أوضحت سورة سبأ وسورة فاطر من عظيم ملكه تعالى وتوحده بذلك وانفراده بالملك والخلق والاختراع ما تنقطع العقول دون تصور[541] أدناه، ولا تحيط من ذلك إلا بما شاءه، وأشارت من البراهين والآيات إلى ما يرفع الشكوك ويوضح السلوك مما[542] كانت الأفكار قد خمدت عن إدراكها واستولت عليها الغفلة، فكأن قد خمدت عن معهود حراكها/، ذكر سبحانه بنعمة التحريك إلى اعتبارها بثنائه[543] على من اختاره لبيان تلك الآيات واصطفاه بإيضاح تلك البينات فقال تعالى: «يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم» (آية: 1—4) ثم قال: «لتنذر قوما ما أنذر ءاباؤهم فهم غافلون» (آية: 6) فأشار

---

(539) ب: ملتحم.

(540) هذه السورة مكية على ما روي عن ابن عباس. وقد ورد في الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجة والطبراني وغيرهم من معقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: «يس قلب القرآن» وبين حجة الاسلام الغزالي وجه إطلاق ذلك عليها بأن المدار على الايمان وصحته بالاعتراف بالحشر والنشر وهو مقرر فيها على أبلغ وجه وأحسنه، ولذا شبهت بالقلب الذي به صحة البدن وقوامه.

وعد «قلب القرآن» من أسماء هذه السورة، كما تسمى أيضا «العظيمة عند الله» لما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: إن في القرآن سورة تدعى العظيمة عند الله تعالى، ويدعى صاحبها الشريف عند الله تعالى يشفع صاحبها يوم القيامة في أكثر من ربيعة ومضر وهي سورة يس «وتسمى أيضا المعممة، والمدافعة القاضية.

وقد ورد في شأنها عدة أخبار وآثار تشهد بفضلها وعلو شأنها وذلك لاشتمالها على أمهات علم الأصول وتقريرها إياها بأبلغ وجه واتمه ولعل هذا هو السر — يقول الألوسي — في الأمر الوارد في صحيح الأخبار بقراءتها على الموتى أي المحتضرين. أنظر: روح المعاني 22/ 192، 193. ومن أوجه ارتباطها بما قبلها ما أبداه السيوطي حيث قال: «إنه لما ذكر في سورة فاطر قوله: «وجاءكم النذير، وقوله: «وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير» والمراد به محمد ﷺ، وقد اعرضوا عنه وكذبوه، فافتتح هذه السورة بالإقسام على صحة رسالته وأنه على صراط مستقيم لينذر قوما ما أنذر آباؤهم «تناسق الدرر: 127.

(541) أ: تطور.

(542) ب: بما.

(543) ب: بثباته.

سبحانه إلى ما تثمر نعمة الانذار ويبعثه التيقظ بالتذكار، ثم ذكر علة من عمي بعد تحريكه، وان كان مسببا[544] عن الطبع وشر السابقة «لقد حق القول على أكثرهم.... الآيات» (آية : 7 وما بعدها)، ثم أشار بعد إلى بعض من عمي عن عظيم تلك البراهين لأول وهلة قد يهتز عن تحريكه لسابق[545] سعادته فقال تعالى : «إنا نحن نحيي الموتى» (آية : 12) فكذا نفعل بهؤلاء إذا شئنا هدايتهم «أومن كان ميتا فأحييناه» (الأنعام : 122) ثم ذكر دأب المعاندين وسبيل المكذبين مع بيان الأمر فقال : «واضرب لهم مثلا أصحاب القرية.... الآيات» (آية : 13 وما بعدها)، وأتبع ذلك سبحانه بما أودع في الوجود من الدلائل الواضحة والبراهين فقال : «ألم يرواكم أهلكنا قبلهم من القرون.... الآية» (آية : 31) ثم قال : «وآية لهم الأرض الميتة أحييناها إلى قوله أفلا يشكرون» (آية : 33) ثم قال : «وآية لهم الليل نسلخ منه النهار (إلى قوله)[546]: وكل في فلك يسبحون» (الآيات : 37—40) ثم قال : «وآية لهم أنّا حملنا ذرياتهم (إلى قوله) إلى حين» (الآيات : 41—44) ثم ذكروا إعراضهم مع عظيم هذه البراهين وتكذيبهم وسوء حالهم عند بعثتهم وندمهم وتوبيخهم وشهادة أعضائهم بأعمالهم ثم تناسجت[547] الآي جارية على ما يلائم ما تقدم إلى آخر السورة.

سورة الصافات[548]

لما تضمنت سورة يس من جليل التنبيه وعظيم الارشاد ما يهتدي الموفق باعتبار بعضه ويشتغل المعتبر به في تحصيل مطلوبه وفرضه، ويشهد بأن الملك

(544) أ : مسببت.

(545) ب : بسابق.

(546) أضفناها لاقتضاء السياق لها.

(547) ب : تناسخت.

(548) هذه السورة مكية في قول جميع أهل العلم، ووجه ترابطها بما قبلها وهي مكية مثلها أنها تفصيل لمضمون السورة السابقة.

بجملته(549) لواحد وان رغم أنف المعاند والجاحد، أتبعها تعالى بالقسم على وحدانيته فقال تعالى : «والصافات صفا فالزاجرات زجراً فالتاليات ذكراً إن إلهكم لواحد (إلى قوله) رب المشارق» (الآيات : 1—5) ثم عاد الكلام إلى التنبيه لعجيب مصنوعاته فقال تعالى : «إنا زينا السماء بزينة الكواكب إلى قوله شهاب ثاقب» (الآيات : 7—10)، ثم أتبع بذكر عناد من جحد مع بيان الأمر ووضوحه وضعف ما خلقوا/ منه «إنا خلقناهم من طين لازب» (آية : 11) ثم ذكر استبعادهم العودة الأخروية وعظيم حيرتهم وندمهم إذا شاهدوا ما به كذبوا، والتحمت الآي إلى ذكر الرسل مع أممهم وجريهم في العناد والتوقف والتكذيب على سنن متقارب وأخذ كل بذنبه وتخليص رسل الله وحزبه،وإبقاء جميل ذكرهم باصطفائه وقربه، ثم عاد الكلام إلى تعنيف المشركين وبيان إفك المعاندين إلى ختم السورة.

سـورة ص(550)

لما ذكر تعالى حال الأمم السالفة مع أنبيائهم في العتو والتكذيب وان ذلك أعقبهم الأخذ الوبيل والطويل كان هذا مظنة لتذكير حال مشركي العرب وبيان (سوء مرتكبهم، وانهم قد سبقوا إلى ذلك الارتكاب فحل بالمعاند سوء

= أما الوجه الأول فإن سورة يس قد عالجت البعث بعد الموت وهو من الأمور التي أنكرها العرب أشد الانكار. جاءت هذه السورة لتقلب لهم الأمر على وجوهه بدءا ونهاية إذ بينت لهم أنهم خلقوا من تراب ومن طين لازب، وليسوا هم بأعظم خلق الله فليتأملوا إلى السماء فوقهم وإلى الأرض حولهم، فمن أنشأهم قادر على إعادتهم ومن خلق ما حولهم قادر على خلقهم خلقا جديدا. فهذه السورة «يس» يقول السيوطي : كالأعراف بعد الأنعام وكالشعراء بعد الفرقان في تفصيل أحوال القرون المشار إلى إهلاكهم. تناسق الدرر : 128.

وقال أبو حيان في مناسبة أول هذه السورة لأواخر سابقتها : «إنه تعالى لما ذكر المعاد وقدرته على إحياء الموتى وأنه هو منشئهم، وإذا تعلقت إرادته بشيء كان، ذكر تعالى وحدانيته إذ لا يتم ما تعلقت به الارادة وجودا وعدما إلا بكون المريد واحدا «البحر المحيط» 7/ 351.

(549) أ : بجملته.

(550) هذه السورة مكية في قول جميع أهل العلم، ووجه ارتباطها بسالفتها أنه لما أمر الله سبحانه رسوله الكريم في السورة السابقة بأن يصبر عليهم وينتظر مصيرهم بعد وعده بالنصر جاءت هذه السورة لتؤكد على رسوله بالصبر وتضرب له الأمثال من أنبياء الله السابقين الذين لم تذكرهم السورة السالفة، فذكرت داود وسليمان وأيوب،وقصصهم الواردة

العذاب)[551]، فبسط حال هؤلاء وسوء مقالهم أنه لا فرق بينهم وبين مكذبي الأمم السالفة في استحقاق العذاب وسوء الانقلاب وقد وقع التصريح بذلك في قوله تعالى : «كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد (إلى قوله) : إنْ كلّ إلا كذّب الرسل فحق عقاب» (الآيات : 12—14).

ولما أتبع سبحانه هذا بذكر استعجالهم في قولهم : «عجل لنا قطّنا قبل يوم الحساب» (آية : 16) أتبع ذلك بأمر نبيه ﷺ بالصبر فقال : «اصبر على ما يقولون» (آية : 17) ثم آنسه[552] بذكر الأنبياء وحال المقربين الأصفياء «وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك» (هود : 120).

سورة الزمر[553]

لما بينت سورة (ص) على ذكر المشركين وعنادهم وسوء ارتكابهم واتخاذهم الأنداد والشركاء ناسب ذلك ما افتتحت به سورة الزمر من الأمر بالاخلاص الذي

= في هذه السورة من عجيب القصص أسلوبا ومعنى بما يأخذ بالألباب ويحير الأفكار، واستهلت هذه السورة بذكر عنجهيتهم وشقاقهم واستكبارهم على الحق وختمت باستكبار إبليس وإبائه الذي أورده موارد الهلاك واتبعه اللعنة إلى يوم الدين. فكأنها تنبههم إلى أن هذا الاستعلاء على الحق سيوردهم موارد ابليس مع تأكيد السورة للرسول صلى الله عليه وسلم بان جمعهم متفرق وشملهم متشتت (جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب) فالصبر عاقبته خير وبهذا أمر عليه الصلاة والسلام.

قال الألوسي في مناسبة هذه السورة لما قبلها : «وهي كالمتممة لما قبلها من حيث أنه ذكر فيها ما لم يذكر في تلك من الأنبياء عليهم السلام كداود وسليمان. ولما ذكر سبحانه فيما قبل عن الكفار أنهم قالوا : «لو أن عندنا ذكرا من الأولين لكنا عباد الله المخلصين»، وأنهم كفروا بالذكر لما جاءهم، بدأ عز وجل في هذه السورة بالقرآن ذي الذكر وفصل ما اجمل هناك من كفرهم وفي ذلك من المناسبة ما فيه» روح المعاني : 146/23.

(551) ب : ساقطة.

(552) ب : أتبعه.

(553) هذه السورة في جملتها مكية وكان النبي صلى الله عليه وسلم يخصها بالقراءة قبل النوم كما جاء ذلك عن السيدة عائشة فيما أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة حديث رقم 718 والترمذي في جامعه 65/4، 232 وأحمد والحاكم وغيرهم قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى نقول ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ في كل ليلة بني اسرائيل والزمر.

ومن أوجه ارتباط هذه السورة بسابقتها أن السورة السابقة قد أمرت بالصبر كما قدمنا وهذه بينت قضاء الله في خلقه، فهم مخلوقون من نفس واحدة لكن بعضهم اصطفاهم الله عز وجل كما جاء في السورة السابقة فكان

هو نقيض حال من تقدم، وذكر ما عنه يكون وهو الكتاب، فقال تعالى : «تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين ألا لله الدين الخالص» (الآيتان : 1ـــ2) وجاء قوله تعالى : «والذين اتخذوا من دونه أولياء.... الآية» (آية : 3) في معرض أن لو قيل عليك بالاخلاص ودع من أشرك ولم يخلص فسترى حاله وهل ينفعهم اعتذارهم بقولهم : «ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى» (آية : 3) وهؤلاء هم الذين بنيت سورة ص على ذكرهم، ثم وبخهم الله تعالى وقرعهم[554] فقال/ «لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى.... الآية» (آية : 4) فنزه نفسه عن عظيم مرتكبهم بقوله سبحانه : «وهو الواحد القهار» (آية : 4) ثم ذكر بما فيه أعظم شاهد من خلق السماوات والأرض وتكوير الليل على النهار وتكوير النهار على الليل وذكر آيتي النهار والليل ثم خلق الكل من البشر من نفس واحدة وهي نفس آدم عليه السلام، ولما حرك تعالى إلى الاعتبار بعظيم هذه الآيات وكانت أوضح شيء وأدل شاهد، عقب ذلك بما يشير إلى معنى التعجب من توقفهم بعد وضوح الدلائل، ثم بين تعالى أنه غني عن الكل بقوله : «إن تكفروا فإن الله غني عنكم» ثم قال : «ولا يرضى لعباده الكفر» (آية : 7) فبين أن من اصطفاه وقربه واجتباه من العباد لا يرضى بالكفر وحصل من ذلك بمفهوم الكلام أن الواقع من الكفر إنما وقع بإرادته ورضاه لمن ابتلاه به، ثم آنس من آمن ولم يتبع (سبيل أبيه وقبيلته)[555] من المشار إليهم في

من السعداء، وبعضهم أغواه إبليس فسلك سبيله فأقسم الله عز وجل في سورة «ص» أن يملأ جهنم منهم فكانت سورة الزمر مبينة لهذه الحقيقة كي لا يأسى النبي صلى الله عليه وسلم ولا يهلك نفسه حسرات عليهم وعلى عنادهم، وأمرته أن يعلن الاخلاص في دينه لله رب العالمين وختمت هذه السورة ببيان نهاية فصل القضاء الذي علمه الله عز وجل قبل أن يخلق الخلق فتحقق علمه فيهم فريق في الجنة وفريق في السعير» وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا.... وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا 71 ـــ 73» «وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين».

قال السيوطي في : تناسب الدرر ص 128 : «لا يخفى وجه اتصال أولها بآخر «ص» حيث قال في «ص» «إن هو الا ذكر للعالمين» ثم قال هنا : «تنزيل الكتاب من الله» فكأنه قيل : هذا الذكر تنزيل، وهذا تلاؤم شديد، بحيث أنه لو أسقطت البسملة لالتأمت الايتان كالاية الواحدة.

(554) ب : وفزعهم.

(555) ب : سبيل الشيطان.

السورة قبل فقال تعالى : «ولا تزر وازرة وزر أخرى» (الإسراء : 15) إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم» (الإسراء : 7) ولا تكسب كل نفس إلا عليها» (الأنعام : 164) ثم تناسجت الآي والتحمت الجمل إلى خاتمة السورة.

سورة المؤمن[556]

لما افتتح سبحانه سورة الزمر (بالأمر)[557] بالاخلاص وذكر سببه والحامل باذن الله عليه وهو الكتاب، وأعقب ذلك بالتعريض بذكر من بنيت على وصفهم سورة ص تتابعت الآي في ذلك الغرض إلى توبيخهم بما ضربه سبحانه من المثل الموضح في قوله : «ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل» (الزمر : 29) ووصف الشركاء بالمشاكسة إذ بذلك الغرض يتضح عدم

(556) هذه السورة أول سورة من سبع سور متتابعة افتتحها الله عز وجل بالحروف المقطعة «حم» وكما هو الشأن في جميع السور المبتدأة بالأحرف المقطعة لابد أن تعرض لذكر القرآن وتنزيهه والاشادة به، ولم تتخلف هذه السور عن هذه القاعدة.

وقد جاءت روايات تؤكد أن هذه السور السبع «الحواميم» نزلت متتالية كترتيبها في المصحف الكريم في مكة المكرمة، وقد خصها النبي ﷺ بتنويه كريم حيث قال فيما أخرجه أبو الشيخ وأبو نعيم والديلمي عن أنس : الحواميم ديباج القرآن، وجاء هذا الحديث عن ابن مسعود من قوله أخرجه أبو عبيد والحاكم والبيهقي وغيرهم. انظر الدر المنثور : 344/5.

وأخرج أبو عبيد في الفضائل عن ابن عباس قال : «إن لكل شيء لبابا وأن لباب القرآن حم أو قال : الحواميم.

وكان السلف يسميهن العرائس، أو عرائس القرآن لجمالهن وتناسقهن وما فيهن من حجة بالغة على الناس وخاصة كفار قريش، وأشهر أسمائها «غافر».

وقد سميت هذه السورة بالمؤمن لأنه ورد فيها ذكر مؤمن آل فرعون وقيامه بالحق في موقف قد كشر الطغيان عن انيابه وتصاغر الحق فيما يبدو لكثير من الناس أمام سطوته وارهابه فانبعث صوت هذا المؤمن ليرد القول إلى نصابه بحجة هادئة واضحة لينة. وهو موقف يتكرر ويتردد ما تعاقب الملوان فجعله خالدا في كتابه نبراسا أمام أوليائه وأحبابه. هذا الموقف يحتاج للشجاعة والصبر، وقد جاء الحض على الصبر في السورة السالفة، وهذا موقف من مواقفه ووجه من وجوه تعلق هذه السورة بسابقتها والله أعلم.

وقد أبدى الامام السيوطي وجها آخر في مناسبة هذه السورة لما قبلها وما بعدها إذ قال : وجه ايلاء الحواميم السبع سورة الزمر تآخي المطالع في الافتتاح بتنزيل الكتاب، وفي مصحف أبي بن كعب : أول الزمر «حم» وذلك مناسبة جليلة».

انظر تناسق الدرر : 129.

(557) ساقطة من : ب.

استمرار المراد[558] لأحدهم وذكر قبيح اعتذارهم بقولهم[559] : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى» (الزمر : 3)، ثم أعقب تعالى بالاعلام بقهره وعزته حتى لا يتخيل مخذول شذوذ أمر عن يده وقهره فقال تعالى : «أليس الله بكاف عبده (إلى قوله) : أليس الله بعزيز ذي انتقام» (الزمر : 36ـــ37)، ثم اتبع ذلك بحال اندادهم في أنها لا تضر ولا تنفع فقال : «قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن بمسكات رحمته» (الزمر : 38) ثم أتبع هذا بما يناسبه من شواهد عزته فقال : «قل لله الشفاعة جميعا (الرمز : 44) قل اللهم فاطر السماوات والأرض» (الزمر : 46) «أولم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر» (الزمر : 52) : «الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل، له مقاليد السماوات والأرض»[560] (الزمر : 59) ثم عنفهم وقرعهم فقال تعالى : افغير الله تأمرني أعبد أيها الجاهلون، (الزمر : 64) ثم قال تعالى : و«ما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه» (الزمر : 67)، ثم اتبع (تعالى)[561] بذكر آثار العزة والقهر فذكر النفخ في الصور للصعق، ثم نفخة القيام والجزاء ومصير الفريقين فتبارك المنفرد بالعزة والقهر.

فلما انطوت هذه الآي من آثار عزته وقهره على ما أشير إلى بعضه أعقب ذلك بقوله: «حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم» (آية: 1ـــ2) فذكر من أسمائه سبحانه هذين الاسمين العظيمين تنبيها على انفراده بموجبهما[562] وأنه العزيز الحق القاهر للخلق لعلمه تعالى بأوجه الحكمة التي خفيت عن الخلق (فأخر الجزاء الحتم للدار)[563] الآخرة، وجعل الدنيا دار ابتلاء واختبار مع قهره للكل في الدارين معا

---

(558) أ : مداد.

(559) أ : بقوله.

(560) ب : ساقطة.

(561) ب : ذلك.

(562) أ : بموجبها.

(563) أ : ما أخر... وفي ب : قاضي الجزاء الختم بالدار.

وكونهم غير خارجين عن ملكه وقهره ثم قال تعالى: «غافر الذنب وقابل التوب» (آية: 3)(564) تأنيباً لمن استجاب بحمده وأناب بلطفه، وجريا على حكم سبقية الرحمة وتقليبها ثم قال: «شديد العقاب ذى الطول» (آية 3) ليأخذ المومن بلازم عبوديته من الخوف والرجاء، واكتنف قوله شديد العقاب بقوله غافر الذنب وقابل التوب وقوله ذي الطول، وأشار سبحانه بقوله: «فلا يغررك تقلبهم في البلاد» (آية: 4) إلى قوله قبل وأورثنا الأرض» (الزمر: 74) وكأنه في تقدير إذا كانت العاقبة لك ولأتباعك فلا عليك من تقلبهم في البلاد ثم بين تعالى أن حالهم في هذا كحال الأمم قبلهم وجدالهم في الآيات كجدالهم وان ذلك لما حق عليهم من كلمة العذاب وسبق لهم في أم الكتاب.

سورة حم السجدة (565)

لما تضمنت سورة غافر بيان حال المعاندين وجاحدي الآيات وأن ذلك ثمرة تكذيبهم وجدلهم وكان بناء السورة على هذا الغرض بدليل افتتاحها وختمها ألا ترى/ قوله تعالى: «ما يجادل في ءايات الله (566) إلا الذين كفروا» (غافر: 4) وتأنيس نبيه عليه الصلاة والسلام بقوله: «فلا يغررك تقلبهم في البلاد» (غافر: 4) فقد تقدم ذلك من غيرهم فأعقبهم سوء العاقبة والأخذ الوبيل «كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه» (غافر: 5) فعصمتهم واقية: «إنا لننصر

---

(564) ب: تأييسا.

(565) هذه السورة مكية في قول الجميع، وتسمى سورة «السجدة» و«حم السجدة» و«المصابيح» و«الأقوات» وأشهر أسمائها «فصلت». أخرج البيهقي في شعب الايمان عن الخليل بن مرة أن رسول الله ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ «تبارك» و«حم السجدة». انظر روح المعاني: 84/24.

قال السيوطي في تناسق الدرر ص 130 «روينا عن جابر بن زيد وابن عباس في ترتيب نزول السور: أن الحواميم نزلت عقب الزمر، وانها نزلت متتاليات كترتيبها في المصحف: المؤمن، ثم السجدة، ثم الشورى، ثم الزخرف، ثم الدخان، ثم الجاثية، ثم الأحقاف، ولم يتخللها نزول غيرها، وتلك مناسبة جلية واضحة في وضعها هكذا».

ثم قال: «قال الكرماني في العجائب (لباب التفسير وعجائب التأويل): ترتيب الحواميم السبع لما بينها من التشاكل الذي خصت به، وهو أن كل سورة منها استفتحت بالكتاب أو وصفه مع تفاوت المقدار في الطول والقصر، وتشاكل الكلام في النظام.

(566) أ: «ما يجادل في آياتنا» غير واضحة بسبب الخرم.

رسلنا والذين آمنوا»[567] (غافر: 51) وقال تعالى: «وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف[568] كان عقاب» (غافر: 5) أي فكيف رأيت ما حل بهم وقد بلغت خبرهم فهلا اعتبر هؤلاء بهم «أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة، وآثاراً في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق» (غافر: 21) وإنما أخذهم بتكذيبهم الآيات «ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله» (غافر: 22)، ثم ذكر تعالى من حزب المكذبين فرعون وهامان وقارون وبسط القصة تنبيها على سوء عاقبة من عاند وجادل بالباطل وكذب الآيات ثم قال تعالى بعد آيات: «إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كِبْر ما هم ببالغيه» (غافر: 56) إذ الحول والقوة ليست لهم فاستعذ بالله من شرهم، فخلق غيرهم لو استبصروا أعظم من خلقهم «لخق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس» (غافر: 57) وهم غير آمنين من الأخذ من كلا الخلقين[569] «إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء» (سبأ: 9) ثم قال تعالى: بعد هذا «ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون» (غافر: 69 أي أن أمرهم لعجيب في صرفهم عن استيضاح الآيات بعد بيانها، ثم ذكر تعالى سوء حالهم في العذاب الأخروي وواهي اعتذارهم بقولهم: «ضلوا عنا بل لم نكن ندعو من قبل شيئا» (غافر: 74) ثم صبر تعالى نبيه عليه السلام[570] بقوله: «فاصبر إن وعد الله حق» (غافر: 77) ثم أعاد تنبيهم فقال تعالى: «أفلم[571] يسيروا في الأرض إلى ختم السورة» (غافر: 82—85) ولم يقع من[572] هذا التنبيه الذي دارت عليه آي هذه السورة في سورة الزمر شيء ولا من تكرار التحذير من تكذيب الآيات.

---

(567) «والذين آمنوا» زيادة من ب.

(568) فكيف ساقطة من ب.

(569) ب: الخلفين.

(570) ب: صلى الله عليه وسلم.

(571) أ: أولم، ولعله اشتبه على الناسخ بالآية 21 من نفس السورة التي نصها: «أولم يسيروا في الأرض» الآية.

(572) ب: في.

فلما بنيت على هذا الغرض أعقبت بذكر الآية العظيمة التي تحديت بها العرب وقامت بها حجة الله سبحانه على الخلق، وكأن قد قيل لهم احذروا ما قدم لكم فقد جاءكم محمد ﷺ بأوضح آية وأعظم برهان «تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً» (الآيات: 3—4) وتضمنت هذه السورة العظيمة من بيان عظيم الكتاب وجلالة قدره وكبير الرحمة به ما لا يوجد في غيرها من أقرانها كما أنها في الفصاحة تبهر العقول بأول وهلة فلا يكن للعربي الفصيح في شاهد برهانها أدنى[573] توقف ولا يجول في وهمه إلى معارضة بعض آيها أدنى تشوف، «وإنه لكتاب عزيز لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد» (آية: 41—42) «ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته آعجمي وعربي» (آية: 44) فوبخهم تعالى وادحض حجتهم وأرغم باطلهم، وبكت دعاويهم ثم قال: «قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يومنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد» (آية: 44) «إنما يستجيب الذين يسمعون» (الأنعام: 36) وقرعهم[574] تعالى في ركيك جوابهم عن واضح حجته بقولهم: «قلوبنا في أكنة مما تدعون إليه وفي آذاننا وقر» (آية: 5) وقولهم «لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه» (آية: 26) وهذه شهادة منهم على أنفسهم بالانقطاع عن معارضته وتسليمهم[575] بقوة عارضته، ثم فضحهم بقوله: «قل أرايتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به.... الآية» (آية: 52).

---

(573) أ: اذما.

(574) أ: وأقرعهم.

(575) أ: وتسجيلهم.

وتحملت السورة مع هذا بيان هلاك من عاند وكذب ممن كان قبلهم وأشد قوة منهم وهم الذين قدم[576] ذكرهم مجملا في سورة غافر في آيتي «أولم يسيروا في الأرض»[577] (آية : 21) «أفلم يسيروا» (آية : 82) فقال تعالى مفصلا لبعض ذلك الاجمال : «فإن أعرضوا فقل آنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود» (آية : 13) ثم قال : «فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة» (آية : 15) ثم قال : «فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا.... الآية» (آية : 16) ثم قال : «وأما ثمود فهديناهم[578]» (آية : 17) فبين تعالى حالهم وأخذهم فاعتضد التحام السورتين واتصال المقصدين والله أعلم.

(576) أ : قد.

(577) الأرض ساقطة من : أ.

(578) فهديناهم ساقطة من : أ.

سورة الشورى[579]

لما (تضمنت سورة غافر ما تقدم من بيان)[580] حال المعاندين والجاحدين وأعقبت بسورة السجدة بيانا أن حال كفار العرب في ذلك كحال من تقدمهم، وإيضاحا لآيات[581] الكتاب العزيز وعظيم[582] برهانه، ومع ذلك فلم تجد على من قضى عليه تعالى بالكفر، اتبعت السورتان بما اشتملت عليه سورة الشورى من أن ذلك كله إنما جرى على ما سبق في علمه تعالى بحكم المشيئة الأزلية «فريق في الجنة وفريق في السعير» (آية : 7) «وما أنت عليهم بوكيل» (آية : 6) «ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة» (آية : 8) «ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم» (آية : 14) «لنا أعمالنا ولكم أعمالكم» (آية : 15) «ولولا كلمة

---

(579) هذه السورة مكية كلها إلا أربع آيات منها في قول ابن عباس وقتادة بدءا من قوله تعالى «قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى» الآيات... فقد قالا إنها نزلت بالمدينة. ولكن سياقها ومضمونها ظاهر في أنها مكية اذ أن قرابته عليه الصلاة والسلام واهله وعشيرته هم بمكة وليسوا بالمدينة فخطابها لأهل مكة أقرب وبهذا نرجح أن تكون كلها مكية.

أما علاقتها بسابقتها فما أبداه المصنف من ذلك واضح جدا يؤكده ما جاء في غير موضع من كتب السير والحديث من أن الملأ القرشي اجتمعوا يوما وتشاوروا بشأن رسول الله ﷺ واتفقوا على أن يساومه عتبة بن ربيعة فعرض عليه كل المغريات وأبان له عن استكبارهم واعراضهم وما هم عليه من عدم الاذعان لهذا القرآن. فلما انتهى عتبة من عروضه ومساوماته قال النبي ﷺ : يا أبا الوليد اسمع. فقرأ عليه صدرا من سورة فصلت إلى قوله تعالى فان اعرضوا فقل آنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، فقام إليه الوليد بن عقبة وقال له يا محمد أناشدك الله والرحم أن تكف عن القراءة ثم رجع إلى قومه بغير الوجه الذي جاء به وقال لهم خلوا بينكم وبين هذا الرجل، فما زادهم الا طغيانا واستكبارا. انظر الدر المنثور : 358/5.

قال أبو حيان في البحر المحيط : 507/7 في مناسبة أول هذه السورة لآخر ما قبلها : «انه قال : «قل أرأيتم ان كان من عند الله... الآية» وكان في ذلك الحكم عليهم بالضلال لما كفروا به، قال هنا : «كذلك» أي مثل الايحاء السابق في القرآن الذي كفر به هؤلاء «يوحي إليك» أي أن وحيه تعالى متصل غير منقطع يتعهدك وقتا بعد وقت.

(580) أ : غير واضحة بسبب الخرم.

(581) أ : غير واضحة بسبب الخرم وفي ب : «لأنه»، واثبت ما يناسب السياق.

(582) ب : ولعظيم.

الفصل لقضي بينهم» (آية : 21) «وهو على جمعهم إذا يشاء قدير» (آية : 29) «وما أنتم بمعجزين في الأرض» (آية : 31) «ومن يضلل الله فما له من سبيل» (آية : 46) «إن عليك إلا ا لبلاغ» (آية : 48) «نهدي به من نشاء من عبادنا» (آية : 52).

فتأمل هذه الآى وما التحم (بها)(583) مما لم يجر في السورة المتقدمة منه إلا النادر (ومحكم ما استجره وبناء هذه السورة على ذلك ومدار آيها)(*)، يلح لك وجه اتصالها بما قبلها والتحامها بما جاورها.

ولما اختتمت سورة السجدة بقوله تعالى : «ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم» (فصلت 54) أعقبها سبحانه بتنزيهه وتعاليه عن (ريبهم وشكهم)(584) فقال تعالى : «يكاد السماوات يتفطرن من فوقهن» (آية : 5) كما أعقب بمثله في قوله : «وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدّا» (مريم : 88ـــ89) فقال : «يكاد السماوات يتفطرن منه» (الآيات : 90).

ولما تكرر في حم السجدة ذكر تكبر المشركين وبعد انقيادهم في قوله : «فأعرض أكثرهم» (آية : 4) «وقالوا قلوبنا في أكنة» (آية : 5) إلى ما ذكر تعالى من حالهم المنبئة عن بعد استجابتهم فقال تعالى في سورة الشورى : «كبر على المشركين ما تدعوهم إليه» (آية : 13).

ســـورة الزخـــرف(585)

لما أخبر سبحانه بامتحان خلف بني إسرائيل في شكهم في كتابهم بقولهم : «وان الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب»(الشورى :

(583) أ : ساقطة. (*) تركيب مضطرب لا يستقيم معناه.

(584) أ : غير واضحة بسبب الخرم.

(585) هذه السورة مكية بإجماع كسابقتها، ووجه تعلقها بالشورى واضح في أمرين اثنين :

الأول : أن الشورى ختمت بذكر النور الذي أوحاه الله عز وجل إلى رسول الله ﷺ، عن غير سابق معرفة به ولا علم بمضمونه، فجاء صدر سورة الزخرف لتشيد بهذا الكتاب وتعظم مكانته وتبين أنه شرف لهذا الرسول ولقومه، لا

14) ووصى نبيه ﷺ بالتبري من سيء حالهم، والتنزه عن سوء محالهم فقال تعالى(586) «ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب... الآية»(587) (الشورى : 15) وتكرر الثناء على الكتاب العزيز كقوله : «وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا» (آية : 7) وقوله : «الله(588) الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان» (الشورى : 17) وقوله : «وكذلك أوحينا إليه روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا... الآية» إلى آخر السورة (الشورى : 52—53)، أعقب ذلك بالقسم به، وعضد الثناء عليه فقال : «حم والكتاب المبين إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون وانه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم» (آية : 1—4)، ولما أوضح عظيم حال الكتاب وجليل نعمته به أردف ذلك بذكر سعة عفوه وجميل إحسانه إلى عباده، ورحمتهم بكتابه مع إسرافهم وقبيح مرتكبهم فقال : «أفنضرب عنكم الذكر صفحا إن كنتم قوما مسرفين» (آية : 5).

ولما قدم في الشورى قوله : «لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما» (آية : 49—50) فأعلم أن ذلك يكون بقدرته وإرادته والجاري على

= يسمو فوقه شرف، ولا يدانيه فخر، وهم مسؤولون عن القيام بحقه «وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون»(44).

الثاني : لما تقدم في سورة الشورى قوله تعالى : «فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا على ربهم يتوكلون»(36) كشفت هذه السورة طرفا من زخارف هذه الحياة الدنيا واغترارا الكافرين بهذه الزخارف، وان الله عز وجل سيبتليهم بها، ولكنها إلى زوال، ويفقدونها بغتة وهم لا يشعرون، وعندئذ يخلد المومنون في نعيم غير نافد، وينقلبون فيما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، ويبقى هؤلاء المغترون في عذاب لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون، فإذا جادلوكم وحاجوكم فاصفح عنهم وقل سلام فسوف تعلمون، وهذان الأمران في الارتباط ظاهران والحمد الله.

(586) أ : ساقطة.

(587) أ، ب : «ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون وقل آمنت الخ «وهو تداخل آيتين: الآية 17 من سورة الجاثية وهي قوله تعالى : «ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون أنهم لم يغنوا عنك من الله شيئا» وبين الآية 13 من سورة الشورى المشار إليها أعلاه والتي يقتضيها السياق.

(588) أ : «إن الذي.... الخ وهو خطأ.

هذا أن يسلم الواقع من ذلك ويرضى بما قسم واختار، عنف تعالى في هذه السورة[589] من اعتدى وزاغ فقال : «وإذا بشر أحدهم[590] بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم» (آية : 17) فكمل الواقع هنا بما تعلق به، وكذلك قوله تعالى : «ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض» (الشورى : 27) وقوله في الزخرف : «ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة» (آية : 33).

سورة الدخان[591]

لما تضمنت سورة حم السجدة وسورة الشورى من ذكر الكتاب العزيز ما قد أشير إليه مما لم تنطوي سورة غافر على شيء منه وحصل من مجموع ذلك

---

(589) أ : «زيادة «الأخرى» بين كلمتي «السورة» و«من اعتدى» ولا معنى لها.

(590) أ : أقحمت كلمة بالأنثى في الآية بين قوله تعالى : «أحدهم» و«بما ضرب».

(591) هذه السورة مكية كذلك بالاتفاق وقد خصها النبي ﷺ بأن تقرأ ليلا وخاصة في ليلة الجمعة. أخرج الترمذي والدارمي والبيهقي وغيرهم عن أبي هريرة وغيره أن رسول الله ﷺ قال : «من قرأ الدخان ليلة الجمعة أصبح مغفورا له» أنظر الدر المنثور : 24/6.

ووجه ارتباطها بما قبلها أنه لما ختمت سورة الزخرف بقوله تعالى : فاصفح عنهم وقل سلام فسوف تعلمون»(89) جاءت هذه السورة تبين لرسول الله ﷺ بعض ما سيعلمونه من دخان يغشى الناس في طيه عذاب أليم وبطشة كبرى، انتقاما منهم مع التقريب والتمثيل بعبر السابقين وخاصة فرعون وقومه، لأن كفار قريش سلكوا طريقهم في العناد واللجاج، وباء بالكبر في هذه الغواية وقيادتهم إلى السفه أبو جهل إذ قال لرسول الله ﷺ وقد لقيه في أحد طرق مكة يا أبا جهل إن الله أمرني أن أقول لك : أولى لك فأولى، ثم أولى لك فأولى فرد أبو جهل بقوله وما تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء، لقد علمت أني أمنع أهل بطحاء وأنا العزيز الكريم، وفي رواية قال أبو جهل أيوعدني محمد وأنا أعز من مشى بين جبليها. فجاءه الجواب من الله بعد ذكر فرعون الذي ادعى أكثر مما ادعاه أبو جهل حين ادعى الألوهية «ذق أنك أنت العزيز الكريم» بعد أن يلقى في سواء الجحيم ويصب فوق رأسه من الحميم. أنظر تفسير الطبرى مجلد 80/2/9، الدر المنثور : 6/ 33.

وغير خاف أن هذه الانذارات قد وقعت بمكة والمومنون معه في حالة ضعف. ولهذا ختمت السورة بالتأكيد على الانتظار والاصطبار في قوله : «فارتقب أنهم مرتقبون»(59). وكما جاء الدخان ومرت البطشة فلا شك أن وعيد الله لأبي جهل وأمثاله واقع لا ريب فيه. ففي قوله تعالى : «يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس» أخرج البخاري في صحيحه : 8/ 571 عن عبد الله بن مسعود قال إنما هذا لأن قريشا لما استعصوا على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف فأصابتهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فينظر بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد فأنزل الله عز وجل «فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس

الاعلام بتنزيله من عند الله وتفصيله وكونه قرآنا عربيا إلى ما ذكر تعالى من خصائصه إلى قوله : «وأنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون» (الزخرف : 44) وتعلق الكلام بعد هذا بعضه ببعض إلى آخر السورة، استفتح تعالى سورة الدخان بما يكمل ذلك الغرض وهو التعريف بوقت إنزاله إلى سماء/ الدنيا فقال : «إنا أنزلناه في ليلة مباركة» (آية : 3) ثم ذكر من فضلها فقال : «فيها يفرق كل أمر حكيم» (آية : 4) فحصل وصف الكتاب بخصائصه والتعريف بوقت إنزاله إلى سماء الدنيا، وتقدم الأهم في ذلك في السورتين قبل، وتأخر التعريف بوقت نزوله إذ ليس في التأكيد كالمتقدم، ثم وقع إثر هذا تفصيل[592] وعيد قد أجمل في قوله تعالى : «فأصفح عنهم وقل سلام فسوف تعلمون» (الزخرف : 89) وما تقدمه من قوله (تعالى)[593] : «أم ابرموا أمرا فإنا مبرمون» (الزخرف : 79) وقوله سبحانه : «أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم» (الزخرف : 80) وتنزيهه تعالى نفسه عن عظيم افترائهم في جعلهم (الشريك)[594] والولد إلى آخر السورة، ففصل بعض[595] ما أجملته هذه الآى في قوله تعالى في صدر سورة الدخان

= هذا عذاب أليم» (9، 10) قال فأتى رسول الله ﷺ أبو سفيان فقيل له يا رسول الله استسق الله لمضر فإنها قد هلكت، قال لمضر ؟ إنك لجرىء فاستسقى فسقوا فنزلت «إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون»(14) فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم فأنزل الله عز وجل «يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون»(15) قال : يعني يوم بدر.

قال أبو حيان : «ومناسبة هذه السورة أنه ذكر في أواخر ما قبلها» فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون» فذكر يوما غير معين ولا موصوفا، فبين في أوائل هذه السورة ذلك اليوم بوصفٍ وصفه فقال : «فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين وان العذاب يأتيهم من قبلك ويحل بهم من الجذب القحط ويكون العذاب في الدنيا، وان كان العذاب في الآخرة فيكون يومهم الذي يوعدون يوم القيامة». البحر المحيط : 8/ 32.

وقال الالوسي في مناسبتها : «إنه تعالى ختم ما قبل بالوعيد والتهديد، وافتتح هذه بشيء من الانذار الشديد، وذكر سبحانه هناك قول الرسول ﷺ : يارب إن هؤلاء قوم لا يومنون، وهنا نظيره فيما حكى عن أخيه موسى عليهم الصلاة والسلام بقوله تعالى : «فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون»، وأيضا ذكر فيما تقدم «فاصفح عنهم وقل سلام» وحكى سبحانه عن موسى عليه السلام «إني عذت بربي وبكم أن ترجمون وإن لم تومنوا لي فاعتزلون» وهو قريب من قريب. روح المعاني : 25/ 101.

(592) أ : التفصيل.
(593) ب : ساقطة.
(594) أ : ساقطة.
(595) أ : لبعض.

«فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين» (آية : 10) وقوله : «يوم نبطش البطشة الكبرى.... الآية» (آية : 16) والاشارة إلى يوم بدر، ثم ذكر شأن غيرهم في هذا وهلاكهم بسوء ما ارتكبوا ليشعروا أن لا فارق إن هم(596) عقلوا واعتبروا، ثم عرض بفرعونهم في مقالته، «ما بين لابتيها أعز مني ولا أكرم»(597) فذكر تعالى شجرة الزقوم إلى قوله : «ذق إنك أنت العزيز الحكيم»(598) (الآيات : 43ـــ49) والتحم هذا كله التحاماً يبهر العقول ثم اتبع بذكر حال المتقين جريا على الطرد من شفع (آية)(599) الترهيب بالترغيب ليبين حال الفريقين، وينهج على الواضح من الطريقين، ثم قال لنبيه عليه السلام(600) «فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون» (آية : 58) وقد أخبره مع بيان الأمر ووضوحه أنه إنما يتذكر من يخشى ثم قال فارتقب وعدك ووعيدهم انهم مرتقبون.

ســـورة الشريعـــة(601)

لما تضمنت السور الثلاث المتقدمة إيضاح أمر الكتاب وعظيم بيانه وأنه شاف كاف وهدى ونور، وكان أمر من كفر من العرب أعظم شيء لانقطاعهم

---

(596) أ : لبعض.

(597) أ : أنظر هذا النص في التعليق على السورة ص : 123. 301

(598) في أ : الحكيم.

(599) ساقطة من : ب.

(600) ب : ﷺ.

(601) أشهر أسماء هذه السورة : «الجاثية، وتسمى أيضا الشريعة» و «الدهر» كما حكاه الكرماني في العجائب، وهي تابعة في مضمونها للحواميم قبلها، وهي مكية مثلها، وانظر روح المعاني : 25/ 126. ووجه اتصالها بسورة الدخان إنه لما ختمت «الدخان» بقوله تعالى : «فإنما يسرناه بلسانه لعلهم يتذكرون فارتقب انهم مرتقبون افتتحت هذه السورة بذكر الكتاب العزيز وتفصيل بعض الآيات الدالة على الله وبيان تصرف أولئك الكفار من استهزاء بآيات الله، وإصرار واستكبار، واعراض وادبار، وهذا يقتضي من النبي ﷺ والتؤدة وعدم الرضوخ لهم، ولهذا جاءه الأمر بعد ذلك تثبيتا وتأييدا وبيانا للحق الذي هو عليه مقابل أهوائهم المتفرقة التي تتشعب بهم في قوله تعالى : «ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون»(17).

ولما كان الهوى باعث الكبر والبطر وهو شيء داخلي نفساني عرضت السورة في نصفها الثاني لهاتين الحقيقتين فهم لا يخفون على الله فيما أخفوه من نوازع السوء، وان الكبرياء الحق لله وحده، «وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم»(26) وهم اذلاء في ساحة محكمته لا يظلمون، بل سينالون جزاء ما كانوا

وعجزهم وقيام الحجة به عليهم حتى رضوا بالقتل والخزي العاجل وما فاهوا بادعاء معارضة ولا تشوفوا إلى الاسناد إلى عظيم تلك المعارضة، اتبع ذلك تعالى تنبيه(602) نبيه والمومنين إلى ما قد نصبه من الدلائل سواء مما صد المعرض عن الاعتبار بها أو ببعضها مجرد هواه، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله فقال تعالى بعد القسم بالكتاب المبين... «إن في السماوات والأرض لآيات للمومنين» (آية : 3) أي لو لم تجيئهم يا محمد بعظيم آية الكتاب فقد كان لهم فيما نصبنا من الأدلة أعظم برهان وأعظم تبيان «أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى» (الروم : 8).

فلما نبه بخلق السماوات والأرض اتبع بذكر ما بث في الأرض فقال : «وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون واختلاف الليل والنهار» (الآيتان : 4ـــ5) أي في دخول أحدهما على الآخر بألطف اتصال وأربط انفصال، «لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار» (يس : 40) ثم نبه على الاعتبار بانزال الماء من السماء وسماه رزقا(603).... فقال : «وما أنزل الله من رزق فأحيى به الأرض بعد موتها» (آية : 5) ثم قال : «وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون» (آية : 5) والاستدلال بهذه الآي يستدعي بسطا يطول ثم قال : «تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق» (آية : 6) أي علاماته ودلائله «وإن من شيء الا يسبح بحمده» (الاسراء : 44) ثم قال : «فبأي حديث بعد الله وآياته يومنون» (آية : 6) بعد ما شاهدوه من شاهد الكتاب وما تضمنه خلق السماوات والأرض وما فيها وما بينهن من عجائب الدلائل الواضحة لأولى الألباب، فإذا لم يعتبروا بشيء من ذلك فبماذا(604) يعتبر، ثم أردف تعالى بتقريعهم وتوبيخهم في تصحيحهم

= يعملون» وترى كل أمة جاثية تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون»(27)، وهكذا كانت السورة تفصيلا لهذا الأمر وبيانا لعاقبة هؤلاء، وهذا يتناسب وسورة الدخان التي تحدثت عن فرعونهم وحده في هذا المقام، أي مقام الحساب، بينما هذه السورة فصلت وأبانت عن نهاية القوم بجملتهم، وهذا تعلق واضح كما يبدو لي والله أعلم.

(602) أ : بتسبب.

(603) كلمتان غير واضحتين في النسختين.

(604) أ : فيمن

مع وضوح الأمر فقال : «ويل لكل أفاك أثيم.... الآيات الثلاث» (7_9) ثم قال : «هذا هدى» (آية : 11) وأشار إلى الكتاب وجعله نفس الهدى لتحمله كل أسباب الهدى في جميع جهاته ثم توعد من كفر به ثم أردف ذلك بذكر نعمه وآلائه ليكون ذلك زائدا في توبيخهم، والتحمت الآي عاضدة هذا الغرض تقريعا وتوبيخا ووعيدا وتهديدا إلى آخر السورة(605).

سـورة الأحقـاف(606)

لما قدم ذكر الكتاب وعظيم الرحمة به(607) وجليل بيانه وأردف ذلك بما تضمنته سورة الشريعة من توبيخ من كذب به وقطع تعلقهم، وأنه سبحانه قد نصب من دلائل السماوات والأرض ما ذكر في صدر السورة ما كل قسم منها كاف في الدلالة وقائم بالحجة، ومع ذلك/ فلم يجر (عليهم)(608) (إلا)(609) التمادي على ضلالهم والانهماك في سوء حالهم وسيء محالهم، أردفت بسورة الأحقاف تسجيلا بسوء مرتكبهم واعلاما بأليم منقلبهم فقال تعالى : «ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى» (آية : 3)، ولو اعتبروا(610) بعظيم ذلك الخلق واحكامه وإتقانه لعلموا أنه لم يوجد عبثا ولكنهم عموا عن الآيات، وتنكبوا عن انتهاج الدلالات «والذين كفروا عما أنذروا معرضون» (آية : 3).

---

(605) أ : وجميع.

(606) الحقف. رمل مستطيل مرتفع فيه اعوجاج واغناء. ومنه احقوقف الشيء المعوج. قال امرؤ القيس :

فلما اجزنا ساحة الحي وانتحى   بنا بطن حقف ذى ركام عفنقل.

وتأتي هذه السورة في خاتمة الحواميم، وهي مكية إلا قوله تعالى : قل أرأيتم إن كان من عند الله» و «فاصبر كما صبر .... الآيتين» فمدنيتان في قول ابن عباس وقتادة، وقد سبقت الاشارة إلى أن ترتيب نزول الحواميم جاء كترتيبها في المصحف مما يؤكد الترتيب والتناسب بين هذه السور، وأيضا لما قال تعالى في آخر السورة السابقة، : «ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزؤا» وقلتم أنه عليه الصلاة والسلام اختلقها، افتتح تعالى هذه بقوله : «حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم وهاتان الصفتان هما في آخر تلك. أنظر البحر المحيط : 8/ 54 وروح المعاني : 26/ 4.

(607) ب : ساقطة.

(608) أ : عليه.

(609) ب : ساقطة.

(610) ب : تعظيم.

ثم أخذ سبحانه في تعنيفهم وتقريعهم في عبادة ما لا يضر ولا ينفع فقال : «قل أرأيتم[611] ما تدعون من دون الله إلى قوله : «وكانوا بعبادتهم كافرين «الآيات : 4ـــ6) ثم ذكر عنادهم عند سماع الآيات فقال : «وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات.... الآيات» (آية : 7 وما بعدها) ثم التحم الكلام وتناسج إلى آخر السورة.

ســــورة القتـــال[612]

لما انبنت سورة الأحقاف على ما ذكر من مآل من[613] كذب وكفر، وافتتحت السورة بإعراضهم، ختمت بما قد تكرر من تقريعهم وتوبيخهم فقال

(611) أفرأيتم.

(612) هذه السورة الكريمة مدنية في الأغلب الأشهر كما جاء ذلك عن الماوردي أنه قول الجميع. تفسير القرطبي : مجلد 8 ج 2/ 223.

وتسمى سورة محمد لأنه ذكر فيها ﷺ في قوله تعالى : «والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم»(2) وسميت سورة القتال أيضا لأن الله عز وجل أمر المومنين بقتال الذين كفروا في قوله تعالى : «فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم. الآية(4) وفي قوله تعالى :«فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم»(20).

والملاحظ أن وجه ارتباط هذه السورة بما قبلها مع ما بينهما من تباعد؛ تلك مكية وهذه مدنية أن سورة الأحقاف عرضت لواقع المشركين والكفار وما يتعلقون به من شبه تدعوهم إلى الاعراض عن الهدى، فأماطت اللثام عن حقيقتها وذكرتهم بالأقوام السابقة ومصائرهم، ثم ختمت بقوله تعالى : «فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون» وبعد سنين نزلت هذه السورة وفيها الأمر بالقتال لتنسخ ما جاء في السورة السابقة من الأمر بالصبر والأعراض ولتبين أن جزاء الكافرين القتل وضرب الرقاب وقد قال السيوطي وهو على حق : «إن السورتين لا يخفى وجه ارتباطهما واتصالهما وتلاحمهما بحيث أنه لو أسقطت البسملة من سورة محمد لكانتا متصلتين اتصالا واحدا لا تنافر فيه كالآية الواحدة آخذا بعضها بعنق بعض» أنظر تناسق الدرر ص : 131.

وسورة محمد كلها توجيهات إلى رفع السيف في وجوه الكفار وما تقتضيه الحرب، وذلك لأن الصبر الذي أمر به في السورة المكية قد انتهى في العهد المدني، وأمر المومنون بتسخير كل شيء يملكونه لمعركة الايمان، فكما ابتدأت هذه السورة بالأمر بقتال الكافرين ختمت بالأمر ببذل المال والمتاع ليتحقق النصر، وهو امتحان يعرف به المومنون الصادقون من في قلوبهم مرض ولا يصلحون لخوض معارك الجهاد.

(613) ب : في.

تعالى : «أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى» (آية : 33) أي لو اعتبروا بالبداءة لتيسر عليهم أمر العودة، ثم ذكر عرضهم على النار إلى قوله : «فهل يهلك إلا القوم الفاسقون» (الآيتان : 34ـ35) فلما ختم بذكر هلاكهم، افتتح السورة الأخرى بعاجل ذلك اللاحق لهم في دنياهم فقال تعالى : «فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق.... الآية» (آية : 4) بعد ابتداء السورة بقوله تعالى : «الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم» (آية : 1) (فنبه على أن أصل محنتهم إنما هو بما أراده تعالى بهم في سابق علمه ليعلم المومنون أن الهدى والضلال بيده، فنبه على الطرفين بقوله : «وأضل أعمالهم») (آية : 8)(614) وقوله في الآخر :(615) «كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم» (آية : 2) ثم بين أنه تعالى لو شاء لانتصر منهم ولكن أمر المومنين بقتالهم ابتلاء واختبارا ثم حض المومنين على ما أمرهم به من ذلك فقال : «إن تنصروا الله ينصركم» (آية : 8) ثم التحمت الآى.

سورة الفتح(616)

ارتباط هذه السورة بالتي قبلها واضح من جهات، وقد يغمض بعضها منها : أن سورة القتال لما أمروا فيها بقتال عدوهم/ في قوله تعالى : «فإذا لقيتم

(614) ساقطة من : ب.
(615) ب : الأجر.
(616) هذه السورة مدنية بإجماع وقد نزلت كلها من أولها إلى آخرها في شأن الحديبية والنبي ﷺ قافل بعد صلح الحديبية، وعلى هذا فقد نزلت بين مكة والمدينة، ومثل ذلك يعد مدنيا على المشهور على اعتبار أن المدني ما نزل بعد الهجرة سواء نزل بالمدينة أم بمكة بسفر من الأسفار، والمكي ما نزل قبل الهجرة.
أنظر روح المعاني : 26/ 75، 76.

ولا يخفى وجه ارتباطها بسورة القتال، فقد جاءت هذه السورة تبشر بالفتح العظيم والنصر المبين الذي أعز الله عز وجل به جنده ونصر به حزبه، ونصر الله لا يكون إلا ببذل وتضحية من مال ودماء، وقد جاء الحض عليهما في السورة السابقة. فلما ختمت تلك السورة بقوله تعالى : «وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » أي تتولوا عن بذل المهج والأموال، ولم يتول محمد ﷺ وصحبه الكرام وقدموا هذا وذاك. وبايعوه على الموت في الحديبية بشرهم الله عز وجل بالفتح وأثنى على هذه البيعة «إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله»(10)

الذين كفروا.... الآية» (آية : 4) واشعروا[617] بالمعونة عند وقوع الصدق في قوله : «إن تنصروا الله ينصركم» (آية : 8) استدعى ذلك تشوق النفوس إلى حال العاقبة فعُرِّفوا بذلك في هذه السورة فقال (تعالى)[618] «إن فتحنا لك فتحا مبينا.... الآيات» (آية : 1 وما بعدها) فعرف تعالى نبيه ﷺ بعظيم صنعه له، واتبع ذلك بشارة المومنين العامة فقال تعالى : «هو الذي أنزل السكينة في قلوب المومنين.... الآيات» (آية : 4 وما بعدها) والتحمت إلى التعريف بحال من نكث من مبايعته ﷺ، وحكم المخلفين من الأعراب، والحض على الجهاد، وبيان حال ذوي الأعذار، وعظيم نعمته سبحانه على أهل بيعته[619] «لقد رضي الله عن المومنين» (آية : 18) وأثابهم الفتح[620] وأخذ المغانم، وبشارتهم بفتح مكة. «لتدخلن المسجد الحرام» (آية : 27) إلى ما ذكر سبحانه من عظيم نعمه[621] عليهم وذكرهم[622] في التوراة والانجيل ما تضمنت هذه السورة الكريمة.

ووجه آخر وهو أنه لما قال تعالى في آخر سورة القتال «فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم» (آية : 35) كان هذا إجمالا في عظيم ما منحهم وجليل ما أعطاهم، فتضمنت سورة الفتح تفسير هذا الاجمال وبسطه وهذا يستدعي من بسط الكلام ما لم نعتمده في هذا التعليق، وهو بعد مفهوم مما سبق من الاشارات في الوجه الأول.

وأكد لهم دخول المسجد الحرام وهو أعظم فتح في الاسلام «لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين»... (27)، وخلدت هذه السورة صفات جيل النصر، وأعلت مكانتهم بما لا يلحقهم به من بعدهم «محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم الآية(29)، فالارتباط بين السورتين واضح، فالأولى كانت بمثابة المقدمة والثانية بمثابة النتيجة لأن الفتح بمعنى النصر مرتب على القتال والجهاد في الله. أنظر تناسق الدرر. ص : 131 وروح المعاني : 26/ 76.

(617) ب : أشعر.

(618) ب : ساقطة.

(619) أ : بيت.

(620) ب : فتحا.

(621) ب : نعمته.

(622) ب : وذكره.

ووجه آخر مما قد يغمض وهو أن قوله تعالى : «وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم» (القتال : 38) إشارة إلى من يدخل في ملة الاسلام من الفرس وغيرهم عند تولي العرب، وقد أشار أيضا إلى هذا قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا من يرتدد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المومنين[623].... الآيات» (المائدة : 54) وأشار إلى (ذلك قوله عليه الصلاة والسلام) :[624] «ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم ياجوج وماجوج مثل هذا وعقد السبابة بالابهام»[625]، أشار عليه السلام إلى تولي العرب واستيلاء غيرهم الواقع في الآيتين وإنما أشار عليه السلام بقوله : «اليوم إلى التقديم (و تأخر وقوع)[626] هذا الأمر إلى أيام أبي جعفر المنصور، فغلبت الفرس والأكراد وأهل جهات الصين وصين الصين وهو ما يلي ياجوج وماجوج، وكان فتحا وعزا وظهوراً لكلمة الاسلام وغلبة[627] هؤلاء في الخطط والتدبير الامارى[628]، وسادوا غيرهم، ولهذا جعل ﷺ مجيئهم فتحا فقال : (فتح اليوم)، ولو أراد غير هذا لم يعبر بفتح، ألا ترى قول عمر لحذيفة (رضي الله عنهما)[629] في حديث الفتن[630] حين قال له : «إن بينك وبينها بابا مغلقا فقال عمر أيفتح[631] ذلك الباب أم يكسر فقال

---

(623) «أذلة على المومنين» ساقطة من : أ.

(624) أ : ذلك عليه السلام.

(625) وتمام الحديث عن زينب بنت جحش رضي الله عنها أنها قالت : استيقظ النبي ﷺ من النوم محمرا وجهه وهو يقول : لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم ياجوج وماجوج مثل هذه وحلق بأصبعه الابهام والتي تليها. قالت : فقلت يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون، قال نعم إذا كثر الخبث» أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما : 11/ 13 و4/ 2207.

كما أخرجه أيضا أحمد في مسنده والترمذي في جامعه، وابن ماجة في سننه، ومالك في موطئه وغيرهم.

(626) ب : «والتأخير كذا وفرغ» وفي هذا التركيب اضطراب مخل بالمعنى.

(627) أ : وغلب.

(628) ب : شطب على كلمة الامارى.

(629) أ : ساقطة.

(630) ب : الفين.

(631) في أ : يفتح.

بل يكسر»(632)، ففرق بين الفتح والكسر، وإنما أشار إلى قتل عمر (رضي الله عنهما)(633)، فلذا قال عليه (الصلاة)(634) والسلام : «فتح» وقال : «من ردم ياجوج وماجوج»، وأراد من نحوهم وجهتهم وأقاليمهم، لأن الفرس ومن أتى معهم، هم أهل (تلك)(635) الجهات التي تلي الروم، فعلى تمهيد هذا يكون قوله تعالى : «وان تتولوا يستبدل قوما غيركم» (القتال : 38)، إشارة إلى غلبة من ذكرنا وانتشارهم في الولايات والخطط الدينية والمناصب العلمية(636).

---

(632) والحديث هو ما أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة والنسائي في السنن الكبرى عن حذيفة قال : كنا جلوسا عند عمر رضي الله عنه فقال : أيكم يحفظ قول رسول الله ﷺ في الفتنة قلت أنا كما قاله، قال أنك عليه ــ أو عليها ــ لجرىء قلت : فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره تكفرها الصلاة والصوم والصدقة، والأمر والنهي، قال ليس هذا أريد، ولكن الفتنة التي تموج كما يموج البحر، قال ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين، إن بينك وبينها بابا مغلقا، قال أيكسر أم يفتح ؟ قال يكسر، قال : إذا لا يغلق أبدا، قلنا أكان عمر يعلم الباب قال نعم، كما أن من دون الغد الليلة، إني حدثته بحديث ليس بالأغاليط فهبنا أن نسأل حذيفة، فأمرنا مسروقا فسأله فقال : الباب عمر.

أنظر البخاري 2/ 9 وفي مواضع أخرى كثيرة : كتاب المناقب، وكتاب الفتن، وكتاب الصوم، وغيرها.

وأنظر مسلم : 4/ 2218.

(633) زيادة من : ب.

(634) ساقطة من : أ.

(635) ساقطة من : ب.

(636) ما ذهب إليه المؤلف من أن الفرس ومن أتى معهم من أهل تلك الجهات التي تلي الروم هم المعنيون في خطابه تعالى للعرب بقوله : «وان تتولوا يستبدل قوما غيركم» لا يسلم له، وقد اختلف العلماء في تفسير هذه الآية وحكى ذلك الألوسي فقال : «والمراد بهؤلاء القوم أهل فارس... وقيل أهل اليمن وقيل كندة، والنخع، وقيل العجم، وقيل الملائكة.... والخطاب لقريش أو لأهل المدينة قولان، والظاهر أنه للمخاطبين قبل، والشرطية غير واقعة، فعن الكلبي : شرط في الاستبدال توليهم لكنهم لم يتولوا فلم يستبدل سبحانه قوماً غيرهم» روح المعاني : 26/ 74، 75.

ومعلوم أن حديث «ويل للعرب من شر قد اقترب» هو للتحذير من الفتن التي ستقدم من المشرق بين يدي ياجوج وماجوج فتكون الفتنة الكبرى والطامة العظمى التي ستأتي على الاسلام، وليس معناه أن الفتح والنصر سيأتي من جهة الشرق كما ذهب إلى ذلك المؤلف رحمه الله، وواقع التاريخ يؤكد لنا أن الاسلام ابتلى ليس بالفتح من قبل المشرق ولكن بعدد من المؤامرات التي حاكها الشعوبيون، والزنادقة، وإخوان الصفا، والباطنية.

ويؤيد ذلك الحديث الذي رواه مسلم عن سالم بن عبد الله بن عمر قال لأهل العراق : يا أهل العراق ما أسألكم عن الصغيرة واركبكم للكبيرة، سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الفتنة تجيء من هاهنا (ثلاثا) وأومأ بيده نحو المشرق من حيث يطلع قرنا الشيطان».

وقد ساق مسلم هذا الحديث من طرق عديدة في باب «الفتنة من المشرق من حيث يطلع قرنا الشيطان».

وانظر بسطاً لهذا الموضوع في كتاب : «مع الرعيل الأول» لمحب الدين الخطيب ص : 158.

ولما كان هذا قبل أن يتوضح(637) أمره يوهم نقصا وحطا، بين تعالى(638) أنه تجديد فتح واعزاز منه تعالى لكلمة(639) الاسلام فقال : «إنا فتحنا لك فتحا مبينا.... الآيات» (آية : 1 وما بعدها).

ذكر القاضي أبو بكر بن العربي في تخليصُ التّلخيص(640) علماءَ المالكية(641) مشيرا إلى تفاوت درجاتهم ثم قال : «وامضاهم في النظر عزيمة وأقواهم فيه شكيمة أهل خراسان، العجم انسابا وبلدانا العرب عقائدا وإيمانا، الذين تنجز فيهم وعد الصادق المصدوق، وملكهم الله (تعالى)(642) مقاليد التحقيق حين أعرضت العرب(643) عن العلوم وتولت عنها وأقبلت على الدنيا واستوثقت منها. قال أصحاب رسول ﷺ : يارسول الله من هؤلاء الذين قال الله فيهم : «وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم» (القتال : 38) فأشار عليه السلام إلى سلمان وقال : «لو كان الايمان في الثريا لناله رجال من هؤلاء»(644).

ســـورة الحجـــرات(645)

لما وصف سبحانه عباده المصطفين من صحابة نبيه والمخصوصين بفضيلة مشاهدته وكريم عشرته فقال : «محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار

(637) أ : توضح.
(638) ساقطة من : ب.
(39) أ : بكلمة.
(460) يقع تصحيف في اسم هذا الكتاب فيقال تلخيص التلخيص، وتخليص التخليص انظر الأحكام 184/1 والناسخ والمنسوخ 119/1 لابن العربي تحقيق الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري.
(641) أ : ساقطة.
(643) ساقطة من : ب.
(644) والحديث أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كنا جلوسا عند النبي ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة «وآخرين منهم لما يلحقوا بهم» قال : قلت من هم يا رسول الله ؟ فلم يراجعه حتى سأل ثلاثا، وفينا سلمان الفارسي، فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان ثم قال : لو كان الايمان بالثريا لناله رجال ـــ أو رجل ـــ من هؤلاء».

أنظر البخاري 8/ 641 ومسلم 4/ 1973. كما أخرجه النسائي والترمذي، وابن حاتم، والطبري من طرق عديدة. أنظر تفسير ابن كثير 7/ 7.
(645) سورة الحجرات مدنية بإجماع، وآياتها من أولها إلى آخرها كلها آداب اجتماعية تخص الفرد والجماعة، وقد نزلت بعد سورة الفتح بالتأكيد.

رحماء بينهم» (الفتح : 29) فأثنى سبحانه/ عليهم وذكر وصفه تعالى لهم بذلك في التوراة والانجيل، وهذه خصيصة انفردوا بمزية تكريمها وجرت على واضح قوله تعالى : «كنتم خير أمة أخرجت للناس» (آل عمران : 110) وشهدت لهم بعظيم المنزلة لديه، ناسب هذا طلبهم بتوفية الشعب الايمانية (والجري)(646) قولا وفعلا وعملا ظاهرا وباطناً على أوضح عمل وأخلص نية، وتنزيههم عما وقع من قبلهم في مخاطبات أنبيائهم كقول بني إسرائيل : «يا موسى آدع لنا ربك» (الاعراف : 134) إلى ما شهد من هذا الضرب بسوء حالهم فقال تعالى : «يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله.... الآية (آية : 1) «يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول إلى قوله والله غفور رحيم» (الآيات : 2—5) فطولبوا(647) بآداب تناسب عَلِيَّ إيمانهم وان اغتفر(648) بعضه لغيرهم ممن ليس في درجتهم، وقد قيل : حسنات الأبرار سيئات المقربين، وكأن قد قيل لا تغفلوا ما منح لكم في التوراة والانجيل فإنها درجة لم ينلها غيركم من الأمم فقابلوها بتنزيه أعمالكم عن أن يتوهم في ظواهرها أنها صدرت عن عدم اكتراث في الخطاب وسوء قصد في الجواب، وطابقوا بين بواطنكم وظواهركم، وليكن علنكم(649) منبئاً

= أما وجه ارتباطها بما قبلها فهو أن النصر والفتح دائما تعقبه نشورة وبطر ويكون مدعاة للتنازع في المراتب والمناصب والأموال فجاءت هذه السورة لتنفي ذميم الخصال من حياة المسلمين كأمة، ومن صفاتهم كأفراد، وتحفظ للرسول ﷺ مكانته كقدوة مبلغ، وإمام متبع، له من الحرمة والتشريف ما ليس لغيره، لذلك ذكرت ما يمكن وقوعه من هذه الخصال، السيئة ونبهتهم إليها وحذرتهم من ارتكابها، ليبقوا دائما أهلا للفتح والنصر كما وصفهم الله في آخر سورة الفتح بقوله «محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم الآية» 29 وهذا ظاهر بين والحمد لله.

ومن المناسبة أيضا ما لا يخفى من تآخي في السورتين، فهما مدنيتان مشتملتان على أحكام. فتلك فيها قتال الكفار، وهذه فيها قتال البغاة، وتلك ختمت بالذين آمنوا، وهذه افتتحت بالذين آمنوا، وتلك تضمنت تشريفا له ﷺ وخصوصا في مطلعها، وهذه أيضا في مطلعها أنواع من تشريفه ﷺ. أنظر تناسق الدرر ص : 132.

(466) أ : أحرى ب : ساقطة والصواب والجري. ، وقولا «وبدونها يستقيم الكلام

(647) في ب : فطلب.

(648) في ب : اعتبر.

(649) ب : عملكم.

بسليم سرائركم «إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى» (آية : 3) ثم عرفوا بسوء حال من عدل به عن هذه الصفة فقال تعالى : «إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون» (آية : 4) ثم أمروا بالتثبت عند نزعة شيطان أو تقول ذى بهتان «يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ... الآية» (آية : 6) ثم أمرهم تعالى بصلاح ذات بينهم والتعاون في ذلك بقتال الباغين(650) وتحسين العشرة والتزام ما يثمر الحب والتودد الايماني والتواضع، وأن الخير كله في التقوى «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» (آية : 13) وكل ذلك محذر لعلي صفاتهم التي وصفوا بها في خاتمة سورة الفتح.

سـورة ق(651)

لما كانت سورة الحجرات قد انطوت على جملة من الألطاف التي خص بها تعالى عباده المومنين/ كذكره تعالى ـ أخوتهم(652) وأمرهم بالتثبت عند غائلة معتد فاسق «يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق.... الآية» (الحجرات : 6) وأمرهم بغض الأصوات عند نبيهم وأن لا يقدموا(653) بين يديه وأن لا يعاملوه في الجهر

(650) أ : الباغين إلى الفئة وتحسين، وكلمة «إلى الفئة» زائدة يستقيم الكلام بدونها.

(651) وتسمى هذه السورة أيضا بسورة الباسقات، وهي مكية النزول، كان ﷺ يقرؤها في المواقف الحاشدة على رؤوس الأشهاد كخطب الجمعة والعيدين وما شابه ذلك كما جاء في صحيح مسلم عن أم هشام بنت حارثة ابن النعمان. 2/ 595، وانظر في فضلها روح المعاني : 26/ 155.

ووجه ارتباطها بما قبلها ظاهر، وذلك أن سورة الحجرات لما نهت عن كثير من الخصال الذميمة وهي في جملتها تنطلق مما يكنه القلب وتخفيه المشاعر، جاءت هذه السورة لتنبههم إلى أنهم مهما تصرفوا ومهما عملوا سواء أسروا ذلك أم جهروا به، فإن الله به عليم، «ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد»(16)، مؤكدة أن الأمة مهما عظم شأنها وامتد سلطانها، إذا لم تسلك طريق الله فإن عاقبها الزوال والبوار وضرب لهم الأمثال بالأمم السالفة «بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج الآيات (5 وما بعدها)، وفي هذا كسر لحدة الأثر والبطر الذي يعقب الفتح والنصر والاستقرار والتحضير، وهو من آفات القلوب، فكأن هذه السورة كلها من أولها إلى آخرها تدور حول تطهير القلب وتذكير الانسان بالعاقبة، وهذه صلة واضحة بسورة الحجرات، مذكرا بأن وضع هذه السورة المكية بعد سورة الحجرات المدنية المتأخرة نزولا من أعجب الترتيب في سور القرآن الكريم، وهذا ما يؤكد لنا أن ترتيب سور القرآن توقيفي .

(652) ب : آخرتهم.

(653) ب : يتقدموا.

بالقول كمعاملة بعضهم بعضا، وأمرهم باجتناب كثير من الظن ونهيهم عن التجسس والغيبة وأمرهم بالتواضع في قوله تعالى : «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى» (الحجرات : 13) وأخبرهم تعالى أن استجابتهم، وامتثال هذه الأوامر ليست بحولهم ولكن بفضله وانعامه فقال : «ولكن الله حبب إليكم الايمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان.... الآيتان» (آية : 7—8) ثم أعقب تعالى بقوله : «يمنون عليك أن أسلموا.... الآية» (الحجرات : 17) ليبين أن ذلك كله بيده ومن عنده، أراهم سبحانه حال من قضى عليه الكفر ولم يحبب إليه الايمان ولا زينه في قلبه، بل جعله في طرفٍ[654] من حال مَنْ أمر ونُهي في سورة الحجرات، مع المساواة في الخلق وتماثل الذوات[655] فقال تعالى : «والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم.... الآيات» (ق : 1 وما بعدها) ثم ذكر سبحانه وضوح الأدلة «أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم... الآيات» (6—11) ثم ذكر حال غيرهم ممن كان على رأيهم «كذبت قبلهم قوم نوح» (آية : 12) ليتذكر مجموع هذا من قدم ذكر[656] حاله وأمره ونهيه في سورة الحجرات وليتأدب المومن بآداب الله ويعلم أن ما أصابه من الخير فإنما هو من فضل ربه وإحسانه، ثم التحمت الآى إلى قوله خاتمة السورة «نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد» (آية : 45).

(654) ب : ظرف.
(655) أ : الاذوات.
(656) ب : ذكره.

ســـــورة الذاريــــات[657]

لما ذكر سبحانه المواعد[658] الأخراوية في سورة «ق» وعظيم تلك الأحوال من لدن قوله : «وجاءت سكرة الموت بالحق إلى آخر السورة» (آية : 19ــ45) ثم اتبع سبحانه ذلك بالقسم على صحة وقوعه وصدقه فقال تعالى : «والذاريات ذروا إلى قوله إنما توعدون لصادق وان الدين لواقع» (الآيات : 1ــ6) والدين الجزاء،أي أنهم سيجازون على ما كان منهم ويوفون قسط أعمالهم «ولا[659] تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون» (إبراهيم : 42) «إنما/ نملي لهم ليزدادوا إثما» (آل عمران : 178)، ولما أقسم تعالى على صدق وعده ووقوع الجزاء أعقب ذلك بتكذيبهم بالجزاء وازدرائهم فقال : «يسألون[660] أيان يوم الدين»(آية : 12) ثم ذكر تعالى حال الفريقين وانتهاء الطريقين إلى قوله : «وفي الأرض آيات للموقنين» (آية : 20) فوبخ تعالى من لم يعمل فكره ولا بسط نظره فيما أودع سبحانه في العالم من العجائب، وأعقب بذكر إشارات إلى أحوال[661] الأمم وما أعقبهم تكذيبهم وكل هذا تنبيه لبسط النظر إلى قوله تعالى : «ومن كل شيء (خلقنا

---

(657) هذه السورة الكريمة مكية في قول جميع الأئمة، ووجه ارتباطها بسالفتها أن سورة «ق» عندما عرضت لعلم الله عز وجل لما تكنه الضمائر وتخفيه السرائر، وان الله عز وجل سيبعثهم ويحاسبهم بعد أن يكونوا قد صاروا رفاتا وترابا، استهجنوا هذا الأمر واستغربوه، وقضية البعث بعد الموت إحدى القضايا التي نفر منها الكفار نفورا شديدا فجاءت هذه السورة عقب تلك لتقيم الدلائل على قدرة الله عز وجل في خلقهم وبعثهم بما يلمسونه ويشاهدونه فابتدأت بقوله تعالى : «والذاريات ذروا» وهي الرياح وهذا قسم «فالحاملات وقرا» وهي السحب، «فالجاريات يسرا» وهي السفن «فالمقسمات أمرا» وهي الملائكة، «إن الدين لواقع» ، أي الحساب والجزاء الذي سيكون قطعا بعد الموت، فمن يسر هذه المخلوقات، ــ وأنتم ترونها تنتهي ثم تنشأ من جديد ــ لقادر على إعادتكم أحياء بعد موتكم.

ثم عرضت السورة لمن هم اعتى منهم قوة كأقوام لوط، وموسى، وعاد، وثمود، ونوح، ولم يستطيعوا أن يردوا عن أنفسهم كلمات الله لما حقت عليهم فدمروا تدميرا، فها هو أنشأهم ثم أفناهم، ثم عادت السورة لتلفتهم من جديد إلى قدرة الله «والسماء بنيناها بايد (الآيات : 47 وما بعدها)، كل ذلك ليومنوا بالحساب بعد الموت الذي مر ذكره في سورة «ق» فكانت هذه السورة برهانا على مضمون تلك وهذا واضح جلي والله أعلم

(658) ب : المواعد.

(659) أ : فلا.

(660) أ : يسألونك.

(661) أ : لأحوال.

زوجين لعلكم تذكرون» (آية : 49) ثم آنس نبيه عليه السلام)(662) بقوله : «كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون» (آية : 52) أي أن هذا دأبهم وعادتهم حتى كأنهم تعاهدوا عليه وألقاه بعضهم إلى بعض فقال تعالى : «أتواصوا به بل هم قوم طاغون» (آية : 53) أي عجبا لهم في جريهم في التكذيب والعناد(663) في مضمار واحد، ثم قال تعالى : «بل هم قوم طاغون» أي أن علة تكذيبهم هي التي اتحدت فاتحد معلولها، والعلة طغيانهم واظلام قلوبهم بماسبق «ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها» (السجدة : 13) ثم زاد نبيه عليه السلام أشياء لما ورد على طريقة تخييره عليه الصلاة والسلام(664) في أمرهم من قوله تعالى : «فتول عنهم فما أنت بملوم» (آية : 54)، ثم أشار تعالى بقوله : «وذكر فإن الذكرى تنفع المومنين» (آية : 55) إلى أن احراز أجره عليه الصلاة والسلام(665) إنما هو في التذكار والدعاء إلى الله تعالى، ثم ينفع الله بذلك من سبقت له السعادة «إنمايستجيب الذين يسمعون» (الأنعام : 36) ثم أخبر نبيه عليه (الصلاة) (666) والسلام بأن (مكذبيه سينالهم قسط ونصيب(667) مما(668) نال غيرهم ممن ارتكب مرتكبهم وسلك مسلكهم فقال تعالى : «فإن(669) للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم إلى آخر السورة (59—60).

---

(662) ساقطة من : ب.

(663) ب : والفساد.

(664) ب : ﷺ.

(665) ب : ﷺ.

(667) ساقطة من : ب.

(667) ب : تكذيبهم ينيلهم قسطا ونصيبا.

(668) أ : ممن.

(669) أ : وان.

سورة الطور[670]

لما توعد تعالى كفار قريش ومن كان على طريقتهم من سائر من كذب رسول الله ﷺ أنه[671] سيصيبهم ما أصاب غيرهم من مكذبي الأمم المنبه على ذكرهم في السورة قبل، ثم أشار سبحانه إلى عظيم ما ينالهم من الخزي وأليم العذاب بقوله : «فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون»/ (الذاريات : 60) أقسم سبحانه على صحة ذلك ووقوعه والعياذ بالله سبحانه من سخطه وأليم عذابه فقال تعالى : «والطور إلى قوله : إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع» (الآيات : 1—7).

ثم أومأ سبحانه إلى مستحقيه ومستوجبه فقال : «فويل يومئذ للمكذبين» (آية : 11) ثم ذكر ما يعنفون به ويوبخون على ما سلف منهم من نسبته عليه السلام إلى السحر وتكذيبه فقال : «هذه النار التي[672] كنتم بها تكذبون، أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون» (الآيتان : 14—15) ثم أعقب بذكره حال المومنين المستجيبين، ثم ذكر إثر إعلامه بحال الفريقين نعمته على نبيه عليه

---

(670) هذه السورة الكريمة مكية في قول جميع العلماء، ووجه ارتباطها بالذاريات قبلها، إن الذاريات أقامت الحجج على قدرة الله عز وجل في بعث الناس بعد الموت، وضربت الأمثال بالأمم السابقة وعجزهم عن دفع مراد الله بهم، ثم جاءت هذه السورة بأقسام جديدة تؤكد نفس المضمون، وتلفتهم إلى عظمة الصانع وقدرة المبدع من خلق الجبال وتعليم الانسان اللغة والكتابة، ورفع السماء فوقهم، وضخامة البحر المحيط بهم، وأن عذاب الله واقع لا محالة بالكافرين، ثم أفاضت السورة في بيان النعيم الذي ينتظر المومنين، وعرضت لأقاويلهم وشبههم فردتها وبينت وهنها — كما أشار إلى ذلك المصنف — بأسلوب مقرع، وتهكم مشين كان له في قلوبهم أبلغ الأثر، حتى أن جبير بن المطعم بن عدي يقول سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية «أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون» كاد يطير قلبي. أنظر صحيح البخاري : 8/ 603. كما أخرجه غيره من الأئمة.

وهكذا نجد أن هذه السورة في مضمونها تتفق مع سابقتها بل هي تفصيل لها في هذا الجانب وتأكيد، يضاف إلى ذلك اشتمالهما معا على الوعيد وتشابههم في المقطع والمطلع.

(671) أ : انهم.

(672) في النسختين أ و ب : «ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون» (السجدة : 20). ولعلها اشتبهت على الناسخ بالآية المناسبة للسياق (12—13 من الطور).

السلام[673]، وعصمته ووقايته مما تقوله المفترون فقال تعالى : «فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون» (آية : 29).

ثم جرت الآي على توبيخهم في مقالاتهم ووهن انتقالاتهم، فمرة يقولون كاهن، ومرة يقولون مجنون، ومرة يقولون شاعر نترقب موته، فوبخهم على ذلك كله وبين كذبهم وأزعامهم وأسقط ما بأيديهم بقوله : «فلياتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين» (آية : 34) وهذا هو المسقط[674] لما تقولوه[675] أولا وآخرا وهو الذي لم يجدوا عنه جوابا، ورضوا بالسيف والجلاء ولم يتعرضوا لتعاطي معارضته[676]، وهذا هو الوارد في قوله تعالى في سورة البقرة : «وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا... الآيات» (23ـ24) فما نطقوا في جوابه ببنت شفة «قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله» (الاسراء : 88) فتبارك من جعله آية باهرة وحجة قاهرة.

سـورة والنجـم[677]

لما قطع سبحانه تعلقهم بقولهم شاعر وساحر ومجنون إلى ما هزؤوا به مما

(673) ب : ﷺ.

(674) أ : السقط.

(675) أ : يقولوه.

(676) أ : معارضته.

(677) هذه السورة مكية كشأن سابقتها، وقد ورد أنها أول سورة أعلنها النبي ﷺ على الناس، وأنها أول سورة نزلت فيها سجدة فلما قرأها سجد وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس الا رجلا أخذ كفا من تراب فسجد عليه، يقول عبد الله بن مسعود راوي الحديث، فرأيته بعد ذلك قتل كافرًا وهو أمية بن خلف. أنظر فتح الباري : 8/ 614، وروح المعاني : 27/ 37.

ووجه ارتباطها بما قبلها إلى جانب ما أبداه المصنف من وجوه ظاهرة أنهما مكيتان، ففي سورة الطور تكررت أم الاستفهامية التي أثارت شبههم حول هذا الرسول الكريم وأبانت عن عجزهم وضعفهم على التصرف في هذا الكون فكانت هذه السورة مبينة لأعظم خصيصة لهذا النبي الكريم الا وهي الوحي وتلقيه من الملأ الأعلى وهم غير قادرين على تحصيله أو دفعه، ثم توجهت آيات السورة إلى بيان متعلقهم بآلهة لا تضر ولا تنفع ثم تسلسلت الآيات بعناية الله بخلقه منذ أن يكون نطفة إلى أن يكون شابا فكهلا ثم يدركه الموت بعد ذلك مع ما يتقلب فيه خلال هذه المدة من أطوار، إن ا لذي تولاه بكل هذا قادر على إعادته نشأة أخرى بعد الموت، وهذه الآيات نذير

علموا أنه لا يقوم على ساق ولكن شأن المنقطع المبهوت أن يستريح[678] إلى كل ما أمكنه وان لم يغن عنه أعقب تعالى (ذلك)[679] بقسمه على تنزيه نبيه وصفيه من خلقه عما تقوله وتوهمه ضعفاؤهم فقال تعالى : «والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى» (الآيتان : 1ـــ2) ثم اتبع سبحانه هذا القسم ببسط الحال في تقريبه عليه السلام وادنائه وتلقيه لما يتلقاه من ربه وعظيم منزلته لديه، وفي أثناء[680] ذلك يحركهم جل وتعالى ويذكرهم ويوبخهم على سوء/ مرتكباتهم بتلطف واستدعاء كريم منعم فقال : «أفرايتم اللات والعزى» (آية : 19) والتحمت الآى على هذه الأغراض إلى الاعلام بانفراده سبحانه بالايجاد والقهر والاعزاز والانتقام لا يشاركه في شيء من ذلك فقال تعالى : «وإن إلى ربك المنتهى وأنه هو أضحك وأبكى» (آية :42) ولما بين كل ذلك[681] قال : «فبأي آلاء ربك تتمارى» (آية : 55) أي في أي نعمة تشكون أم بأية آية تكذبون، ثم قال : «هذا نذير من النذر الأولى» (آية : 56) وإذا كان عليه (الصلاة)[682] والسلام (نذير)[683] فشأن مكذبيه شأن مكذبي غيره.

ســـــورة القمـــــر[684]

لما أعلمهم سبحانه بأن إليه المنتهى وأن عليه النشأة الأخرى وأن ذلك يقع جزاء كل نفس بما أسلفت أعلمهم سبحانه بقرب ذلك وحسابه ليزدجر من وفقه

من نذر الله عز وجل التي قدمها بين يدي حسابه لخلقه، فالأمر أعظم من الضحك واللهو، ومن العجب والغفلة، من تأمله حق التأمل سيؤدي به إلى امتثال قوله تعالى : «فاسجدوا لله واعبدوا».

ومن التناسب بين السورتين أيضا اختتام الطور بقوله تعالى : «وادبار النجوم» وافتتاح هذه بقوله : «والنجم إذا هوى».

(678) ب : يسرع.

(679) أ : ساقطة.

(680) ب : اثنائه.

(681) ب : ذلك كله.

(682) أ : ساقطة.

(683) ب : ساقطة.

(684) وتسمى أيضا «اقتربت»، وعن ابن عباس أنها تدعى في التوراة المبيضة، لأنها تبيض صاحبها يوم تسود الوجوه، وهي مكية في قول الجمهور، أنظر روح المعاني : 27/ 63.

للازدجار فقال تعالى : «اقتربت الساعة وانشق القمر» (آية : 1) ثم أن سورة (ص) تضمنت من عناد المشركين وسوء حالهم، وتوبيخهم في عبادتهم ما لا يضر ولا ينفع ما لا يكاد يوجد في غيرها(685) مما تقدمها.

وبعد الشبه في السور قبلها والتحريك بآيات لا يتوقف عنها إلا من أضله الله وخذله، انبنت(686) السور بعد على تمهيد ما تضمنته سورة ص فلم تخل سورة منها من توبيخهم وتقريعهم كقوله في الزمر «والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى» (آية : 3) وقوله : «لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء» (آية : 4) وقوله : «قل الله اعبد مخلصا له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه» (آية : 15) وقوله مثلا لحالهم : «ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون.... الآية» (آية : 29) إلى ما بعد من التقريع والتوبيخ وقوله في سورة غافر : «ما يجادل في آيا ت الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد» (آية : 4) وقوله : «ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وان يشرك به تومنوا» (آية : 12) وقوله : «أولم يسيروا في الأرض.... الآية»(آية : 21) وقوله : «إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه» (آية : 56) وقوله : «ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون الذين كذبوا بالكتاب وبما/ أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون إلى قوله : فاما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون» (69—77) وقوله

ومن التناسب بين هذه السورة وسابقتها ما أورده السيوطي في تناسق الدرر ص : 133، 134. حيث قال : «لا يخفى ما في توالي هاتين السورتين من حسن التناسق في التسمية لما بين النجم والقمر من الملابسة، ونظيره توالي الشمس، والليل، والضحى. ثم قال : «إن هذه السورة بعد النجم كالأعراف بعد الأنعام، والصافات بعد يس في أنها تفصيل لأحوال الامم المشار إلى إهلاكهم في قوله هناك : «وانه أهلك عادا الأولى وثمودا فما أبقى وقوم نوح من قبل انهم كانوا هم أظلم وأطغى والموتفكة أهوى» (49—52).

إلا أن المؤلف — رحمه الله — قد أبدى من التناسب بين هذه السورة وما قبلها من السور وما بعدها كذلك ما جعل هذا القرآن سورا وآيات، قصصا وتشريعات، عبادات وتوجيهات «آية باهرة وحجة قاطعة إلى يوم الدين فسبحان من أحكمه وهو أحكم الحاكمين.

(685) في النسختين : «ما» واثبتت مما لمناسبتها للسياق.

(686) في ب : وافقت .

تعالى : «أولم يسيروا في الأرض» إلى ما تخلل هذه الآي كقوله في السجدة : «فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون[687] وقالوا قلوبنا في أكنة» (فصلت : 4) «وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن» (آية : 26) «إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا إلى قوله أولئك ينادون من كان بعيد» (الآيات : 40ــ44) وقوله : «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم» الى خاتمة السورة (الآيتان : 53ــ54)، وقوله في الشورى : «والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم، وما أنت عليهم بوكيل» (آية :6) «كبر على المشركين ما تدعوهم إليه» (آية : 13) «والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم... الآية» (آية : 16) «أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله... الآية» (آية : 21) «فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا» (آية : 48) وقوله في الزخرف : «أفنضرب عنكم الذكر صفحا.... الآية» (آية : 5) «وجعلوا له من عباده جزءا» (آية : 15)إلى ما تردد في هذه السورة مما قرعوا به أشد التقريع، وتكرر في آيات كثيرة فتأملها، وقوله في الدخان : «بل هم في شك يلعبون» إلى قوله : «يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون» (الآيات : 9ــ16) وقوله : «إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين» إلى قوله : «إن هذا ما كنتم به تمترون» (الآيات : 40ــ50) وقوله في الشريعة : «فبأي حديث بعد الله وآياته يومنون.... الآيات إلى قوله : والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم» (الآيات : 6ــ11) وقوله : «أفرايت من اتخذ الهه هواه» إلى آخر السورة (الآيات : 23ــ37)، وقوله في الأحقاف : «والذين كفروا عما أنذروا معرضون» (آية : 3) ومعظم آي[688] هذه السورة لم يخرج عن هذا إلى خاتمتها، وكذا سورة القتالّ ولو لم يتضمن إلا الأمر بقتلهم وأسرهم وتعجيل خزيهم «فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب» (آية : 4)، وأما سورة الفتح فما تضمنته من البشارة والفتح أشد على الكفار من كل ما قرعوا به، ولم تخرج[689] عن الغرض

(687) أ : «فهم لا يسمعون» ساقطة.

(688) ب : آيات.

(689) ب : يخرج.

المتقدم وكذا سورة الحجرات لتضمنها من الأمر بتعزيز النبي ﷺ وإجلاله ما يقر عين المومن ويقتل العدو الحاسد، وما فيها أيضا من ائتلاف أمر المومنين وجميع كلمتهم وتآخيهم، وموقع)[690] هذا من العدو بحيث لا يخفى على أحد، وأما سورة «والذاريات»، «والطور»، «والنجم»، فما تضمنته مما ذكرناه قبل أوضح شيء، وبذلك افتتحت كل سورة منها، فتأمل مطالعها، ففي ذلك كفاية في الغرض، فلما انتهى ما قصد من تقريع مكذبي رسول الله ﷺ، وبلغت الآى في هذه السور من ذلك أقصى غاية، وتمحض باطلهم وانقطع دابرهم، ولم يجدوا جوابا، عرض عليهم سبحانه في سورة القمر أحوال الأمم مع أنبيائهم وكان القصد (من ذلك)[691] والله أعلم مجرد التعريف بأنهم ذكروا فكذبوا فأخذوا ليتبين لهؤلاء أن لا فرق بينهم وبين غيرهم، وأن لا يغرهم عظيم حلمه سبحانه عنهم، فهذه السورة (اعذار عند[692] تبكيتهم وانقطاع حجتهم بما تقدم، وبعد أن انتهى الأمر في وعظهم وتنبيههم بكل آية إلى غاية يعجز عنها البشر، لهذا[693] افتتح (سبحانه)[694] هذه السورة بقوله : «ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر حكمة بالغة فما تغن النذر» (الآيتان 4—5) وختمها بقوله : «اكفاركم خير من أولئكم» (آية : 43) وهذا يبين ما قدمناه، وكأن قد قيل أي فرق بينكم وبين من تقدم حتى ترتكبوا مرتكبهم[695] وتظنون[696] أنكم ستفوزون بعظيم جرأتكم، فذكر سبحانه لهم قصة كل أمة وهلاكها عند تكذيبها بأعظم إيجاز وأجزل (إيراد وأفحم)[697] عبارة وألطف إشارة فبدأ بقصة قوم نوح «كذبت قبلهم قوم نوح» إلى قوله : «ولقد تركناها آية فهل من مدكر فكيف كان عذابي ونذر» (الآيات : 9—16)، ثم استمر في ذكر الأمم مع أنبيائهم حسب ما ذكروا في السور الواردة

(690) أ : غير واضحة بسبب الخرم.

(691) أ : ساقطة.

(692) ب : اعتذار عنه.

(693) ب : ولما، أ : ولهذا.

(694) ب : ساقطة.

(695) أ : مركبهم.

(696) ب : وتظنوا.

(697) ب : إيجاه.... وأفحم.

فيها اخبارهم من ذكر أمة بعد أمة، إلا أن الواقع هنا من قصصهم أوقع في الزجر وأبلغ في الوعظ وأعرف في الافصاح بسوء منقلبهم وعاقبة تكذيبهم، ثم ختمت كل قصة بقوله : «فكيف كان عذابي ونذر» وتخلل هذه القصص قوله تعالى : «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر»[698] وهي إشارة إلى ارتفاع عذر من تعلق باستصعاب الوقوف على زواجره وتنبيهاته ومواعظه، ويدعي بعد ذلك/ استغلاقه[699] إنه ميسر قريب المرام[700]، وهذا فيما يحصل منه[701] التنبيه والتذكير لما عنه تكون الاستجابة باذن الله، ووراء ذلك من المشكل والمتشابه ما لا يتوقف عليه ما ذكره، وحسب عموم المومنين الايمان بجمعيه، والعمل بمحكمه، ثم يفتح الله تعالى فَهّم ذلك على من شرفه به وأعلى درجته فيبين له بحسب ما يشرح الله صدره «يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات» (المجادلة : 11).

ومن تيسير المقصود المتقدم تكرار قصص الأنبياء مع أممهم في عدة سور أيٌّ حفظ منها أطلع على ما هو كاف في الاعتبار بهم، ثم إذا ضم ذلك بعضه إلى بعض اجتمع فيه ما لم يكن ليحصل من بعض تلك السور فسبحان من حجة باهرة وبرهانا قاطعا على صدق الآتي به، وصراطا مستقيما ونورا مبينا.

ولما ذكر سبحانه عواقب الأمم في تكذيبهم قال لمشركي العرب : أكفاركم خير من أولئكم» (آية : 43) ومن هذا النمط قول شعيب عليه (الصلاة)[702] والسلام : «ويا قوم لا يجر منكم شقاقي ان يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح.... الآية» (هود : 89) ثم قال تعالى : «أم يقولون نحن جميع منتصر سيهزم الجمع ويولون الدبر» (الآيتان : 44—45) أي انكم إن تعلقتم بتألفكم وجماعتكم فسأفرق ذلك بهزيمتكم يوم بدر، وقتل صناديدكم فما

(698) تكررت هذه الآية في هذه السورة اربع مرات (آية 17، 22، 32، 40).

(699) أ : أو استغلاقه وفي ب : واستغلاقه، ويظهر لي أن كلا من (أو) والواو مقحمتين لا معنى لهما لاتساق الكلام بدونهما.

(700) أ : التزام.

(701) ب : عنه.

(702) أ : ساقطة.

حجتكم بعد هذا (وقد)(703)أنبأ مساق القصص في هذه السور واعتماد التعريف بحال من ذكر في أن كذّبوا وعاندوا فأعقب تكذيبهم أخذهم وهلاكهم. ثم تعقب هذا كله بصرف الكلام إلى مشركي العرب في قوله : «أكفاركم خير من أولئكم» (آية : 43) وليس في شيء من السور المذكور (704) فيها قصص الأمم على هذا الاستيفاء كالأعراف وهود ونظائرهما، ليس في شيء من ذلك تعقيب بذكر مشركي العرب على الصفة الواردة هنا، فأنبأ ذلك بكمال المقصود من الوعظ والتحريك بذكره(705)، وانقضى(706) هذا الغرض، وذلك أنهم ذكروا أولا بعرض أحوال الأمم والتعريف بما آل إليه أمرهم وكان ذلك في صورة عرض من يريد تأديب طائفة ممن إليه نظرهم قبل أن يظهر منهم تمرد وعناد/ فهو يستلطف في دعائهم ولا يكلمهم تكليم الواجد عليهم بل يُفهم من كلامه الاشفاق والاستعطافَ وإرادة الخير بهم، ثم يذكرهم بذلك ويكرره عليهم المرة بعد المرة وان تخلل ذلك ما بين(707) فظاعة التهديد وشدة الوعيد، فلا يصحبه تعيين المخاطب وصرف الكلام بالكلية إليه بل يكون ذلك على طريق التعريض والتوبيخ، ثم لو كان لاغتفر بما قبله وما بعده من التلطف حتى إذا تكررت الموعظة فلم تغن(708)، فهنا يحل(709) الغضب وشدة الوعيد، وعلى هذا وردت السور المذكور فيها حال الأمم(710) كسورة الأعراف وهود والمومنون والظلة والصافات، وما من سورة منها إلا والتي بعدها أشد في التعريف، وأميل إلى الزجر والتعنيف، فتأمل تعقيب القصص في سورة الأعراف بقوله تعالى : «وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون» (174)

---

(703) ساقطة من : ب.

(704) ب : السور المذكور. أ : السورة المذكورة.

(705) أ : بعد بذكره كلمة غير مقروؤة.

(706) ب : وانقضاء.

(707) ب : يبين.

(708) ب : تغن.

(709) أ : على.

(710) أ : الأمر.

وقوله بعد موعظة بالغة بذكر من حرمه بعد إشرافه على الفوز وهو الذي «أخلد الى الأرض واتبع هواه (آية : 176) فقال بعد ذلك «فاقصص القصص لعلهم يتفكرون» (آية : 176) وتذكيره أياه بمحنة الغفلة إلى ما ختمت به السورة وذلك غير خاف في التلطف بالموعظة، وقال تعالى بعد قصص سورة هود «وكذلك أخذ ربك.... الآية» (آية : 102) وقال بعد «فلاتك في مرية مما يعبد هؤلاء» إلى قوله : «وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص» (آية : 109) وتكررت آى إلى آخر السورة تجاري ما ذكر، وكم بين هذه وآى الأعراف في[711] تلطف الاستدعاء. وقال تعالى في آخر قصص سورة المومنين «فذرهم في غمرتهم حتى حين» إلى قوله «لا يشعرون» (الآيات : 54ـــ56)، ثم قال تعالى بعد «ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون» (الآيتان : 63ـــ64) استمرت[712] آى على شدة الوعيد يتلو بعضها بعضا إلى قوله : «أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا» (آية : 115) وقوله تعالى بعد «إنه لا يفلح الكافرون» (آية : 117) وكم بين هذه (و) الآى الواقعة عقب قصص سورة هود «وقال في آخر قصص الظلة «وإنه لتنزيل رب[713] إلى قوله خاتمة السورة «وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون» (الآيات : 192ـــ227) فوبخهم وعنفهم ونزه نبيه عليه الصلاة والسلام عن سوء توهمهم وعظيم افكهم وافترائهم وكل هذا تعنيف وزجر لم يتقدم لهم مثله في السور المذكورة، ثم هو صريح في مشركي العرب معين لهم في غير تلويح ولا تعريض، ثم إنه وقع عقب كل قصة في هذه السورة قوله تعالى : «إن في ذلك لآية» وفيه تهديد ووعيد بين، فقال تعالى في آخر قصص والصافات «فاستفتهم الربك البنات ولهم البنون أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون الا أنهم من افكهم ليقولون ولد الله وانهم لكاذبون» (الآيات : 149ـــ152) وهذا أعظم تقريع وأشد توبيخ، ثم نزه نفسه سبحانه عن بهتان مقالهم وسوء ارتكابهم وقبح فعالهم بقوله سبحانه «سبحان ربك رب العزة عما

(711) ب : من.

(712) ب : واستمرت.

(713) نهاية المخطوط «أ».

يصفون» (الآية : 180)، فلما أخذوا كل مأخذ فما أغنى ذلك عنهم، قال تعالى لنبيه ﷺ «فتول عنهم» وتمامها، حتى حين (الصافات : 174) ولم يقع أمره ﷺ بتركهم والاعراض عنهم والتولي إلا بعد حصول القصص في السور المذكورة وأخذهم بكل طريق، وأول أمره بذلك ﷺ في سورة السجدة «فاعرض عنهم وانتظر انهم منتظرون» (آية : 30) ثم في سورة الذاريات «فتول عنهم فما أنت بملوم» (آية : 54) ثم في قوله هنا فتول عنهم» (آية : 6)، فتأمل ذلك، ثم ذكر تعالى قصص الأمم إثر قوله تعالى هنا «فتول عنهم» بأشد وعيد وأعظم تهديد يعقب كل قصة بقوله تعالى : «ولقد تركناها آية فهل من مدكر» (آية :15) وقوله «فكيف كان عذابي ونذر»، (آية : 16) ثم صرف الكلام إليهم بما تقدم في قوله «أكفارهم خير من أولئكم» (آية : 43)، فبلغ ذلك اعظم مبلغ في البيان والاعذار، ثم قال تعالى : «وكل شيء فعلوه في الزبر... آية 52» فعرف سبحانه بسابق حكمته فيهم إنا كل شيء خلقناه بقدر (آية 49) وانقضى ذكر القصص، فلم يتعرض لها مستوفاة على هذا المساق فيما بعد إلى آخر الكتاب فسبحان من رحم به عباده المتقين وجعله آية باهرة إلى يوم الدين، وقطع به عناد الجاحدين وغائلة المعتدين وجعله بيانا كافيا ونورا هاديا وواعظا شافيا، جعلنا الله ممن اهتدى واعتلق بسببه إنه أهل الاستجابة والعفو والمغفرة.

سورة الرحمن(*)

من المعلوم أن الكتاب العزيز وإن كانت آياته كلها معجزة باهرة وسوره في جليل النظم وبديع التأليف قاطعة بالخصوم قاهرة، فبعضها أوضح من بعض في

(*) هذه السورة مكية على القول الصحيح بل من أوائل القرآن المكي نزولا، قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق فيما أخرجه أحمد وابن مردوديه عنها بسند صحيح سمعت رسول الله ﷺ يقرأ وهو يصلي نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر والمشركون يسمعون «فبأي آلاء ربكما تكذبان» الدر المنثور : 6/ 139.

وقد قرأ النبي ﷺ هذه السورة على أصحابه من أولها إلى آخرها فسكتوا فقال مالي أراكم سكوتا، لقد قرأتها على الجن ليلة فكانوا أحسن مردودا منكم، كنت كلما أتيت على قوله فبأي الآء ربكما تكذبان قالوا ولا بشيء من نعمتك ربنا نكذب فلك الحمد : أخرجه الترمذي والحاكم وصححه وغيرهما بسند صحيح الدر المنثور : 6/ 140.

تبين إعجازها. وتظاهر بلاغتها وإيجازها، ألا ترى تسارع الأفهام إلى الحصول على بلاغة آيات وسور من أول وهلة دون كبير تأمل كقوله تعالى : «وقيل يا أرض ابلعي ماءك» (هود : 44) وقوله : «فاصدع بما تومر واعرض عن المشركين.... الآيات» (الحجر : 94 وما بعدها) لا يتوقف في أمر اعجازها إلا من طبع الله على قلبه، أو صُد عنه باب الفهم جملة، فأنى له بولوجه وقرعه ؟ وسورة القمر من هذا النمط، ألا ترى اختصار القصص فيه مع حصول أطرافها وتوفية أغراضها وما جرى مع كل قصة من الزجر والوعظ والتنبيه والاعذار، ولولا أني لم أقصد التعليق — إلا ما بنيته عليه من ترتيب السور — لأوضحت(714) ما أشرت إليه ولعل الله سبحانه ييسر ذلك فيما باليد من التفسير يفتح الله به وييسر فيه.

فلما انطوت هذه السورة على ما ذكرنا وبأن فيها عظيم الرحمة في ذكر القصص ونفع العظات، وظهرت حجة الله على الخلق وكان ذلك من أعظم ألطافه تعالى لمن يسره لتدبر الكتاب ووفقه لفهمه واعتباره أردف ذلك سبحانه بالتنبيه على هذه النعمة فقال تعالى : «الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان» (الرحمن : 1) وخص من أسمائه الحسنى هذا الاسم إشعارا برحمته بالكتاب وعظيم إحسانه «وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها» (ابراهيم : 34) ثم قد تمهد أن سورة القمر إعذار، ومن أين للعباد بجميل هذا اللطف وعظيم هذا الحلم حتى يزدادوا إلى

= ووجه ارتباطها بالسورة التي قبلها أنها تعداد لنعم الله عز وجل على خلقه في هذه الحياة الدنيا وبيان لما هيأه لهم في السماوات والأرض مما ييسر عيشهم ويمكن أمرهم وذلك بعد أن أراهم في السورة السابقة مصارع السابقين وان قدرته تأخذهم بأسرع من لمح البصر وهذا من باب الترغيب بعد الترهيب ثم توالت السورة ببيان نعم الله عز وجل على أهل الجنة في الجنان وتعداد ما أعد لهم فيها من خيرات لبيان هذه الآلاء المتواصلة.

وللسيوطي وجه آخر في مناسبتها، وهو أنه تعالى لما قال في آخر السورة السابقة «بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر» (46) ثم وصف عز وجل حال المجرمين في سقر وحال المتقين في جنات ونهر، فصل هذا الاجمال في هذه السورة أتم تفصيل على الترتيب الوارد في الاجمال، فبدأ بوصف مرارة الساعة، والاشارة إلى ادهائها، ثم وصف النار وأهلها والجنة وأهلها ولذا قال فيهم : «ولمن خاف مقام ربه جنتان» (45) وذلك هو عين التقوى، ولم يقل لمن آمن وأطاع أو نحوه لتتوافق الألفاظ في التفصيل والمفصل. أنظر تناسق الدرر ص : 134.

(714) ب : ولأوضحت.

بسط الدلالات، وإيضاح البينات إن يعذر إليهم زيادة في الابلاغ فأنبأ تعالى أن هذا رحمة فقال : «الرحمن علم القرآن» (الرحمان : 1) ثم إذا تأملت سورة القمر وجدت خطابها واعذارها خاصا ببني آدم، بمشركي العرب منهم فقط(*) فاتبعت بسورة الرحمن تنبيها للثقلين واعذارا إليهم وتقريرا للجنس على ما أودع الله تعالى في العالم من العجائب والبراهين الساطعة فتكرر فيها التقرير والتنبيه بقوله تعالى : «فبأي آلاء ربكما تكذبان» خطابا للجنسين واعذارا للثقلين فبان اتصالها بسورة القمر أشد البيان.

سـورة الواقعـة(715)

لما تقدم الاعذار في السورتين المتقدمتين والتقرير على عظيم البراهين وأعلم في آخر سورة القمر أن كل واقع في العالم فبقضائه سبحانه وقدره : «إنا كل شيء خلقناه بقدر. (القمر: 45) «وكل شيء فعلوه في الزبر» (القمر: 52) وأعلمهم سبحانه في الواقعة بانقسامهم الأخروي فافتتح بذكر الساعة «إذا وقعت الواقعة إلى قوله وكنتم أزواجا ثلاثة» (الواقعة: 1ـ7) فتجردت هذه السورة للتعريف بأحوالهم

(*) عبارات مضطربة في التركيب.

(715) هذه السورة مكية، وقد ورد في فضلها أحاديث كثيرة منها ما رواه أبو عبيد في فضائله والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الواقعة لم تصبه فاقة أبدا. ولما حضرت ابن مسعود الوفاة قيل له ما تركت لبناتك قال تركت لهن سورة الواقعة، التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي : 87/2، وروح المعاني : 111/27.

ووجه مناسبتها لما قبلها أن سورة الرحمن لما أفاضت في ذكر الجنان وما أعد الله فيها من الخيرات تشوقت النفوس إلى معرفة أهلها الذين يسكنونها كما تشوقت إلى معرفة من يجازون بضدها فجاءت هذه السورة لبيان حال الخلق في الآخرة وكشف درجاتهم التي يستحقونها بعد أن تقع الواقعة وتقوم الساعة فجعلت الخلق ثلاثة أصناف «وكنتم أزواجا ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة والسابقون السابقون» (7 ــ 10)، ثم تتابعت آي السورة لبيان حال كل زوج من الثلاثة أزواج، وانتهت السورة إلى استشارة عقول الجاحدين من بيان نعم الله عز وجل عليهم من خلق الماء والزرع والنار وغيرها مما يستحق شكر المنعم وقد جاؤوا بضده، وان من أعظم نعم الله عز وجل هذا الحديث الذي أنزله عليهم الا وهو القرآن الكريم وختمت السورة بالتأكيد على هذه الأصناف الثلاثة وان ما أعد لهم حق اليقين فنزه ربك أيها المؤمن عما يقوله الجاحدون وينكره المنكرون «فسبح باسم ربك العظيم»، وبهذا يتبين أن هذه السورة الكريمة امتداد لسورة الرحمن في سياق آيها وفي مضمونها.

وانظر أوجها أخرى لتناسب السورتين في روح المعاني : 111/27. وتناسق الدرر ص : 135.

الأخروية وصدرت بذلك عما جرد في السورتين قبل التعريف بحالهم في هذه الدار، وما انجر في السور الثلاث جاريا على غير هذا الأسلوب فبحكم استدعاء الترغيب والترهيب لطفا بالعباد ورحمة، ومطالعها مبنية على ما ذكرته تصريحا لا تلويحا، وعلى الاستيفاء لا بالاشارة والايحاء، ولهذا قال تعالى في آخر قصص افتراق أحوالهم الأخروية في هذه السورة «هذا نزلهم يوم الدين» (الواقعة : 56) فأخبرأن هذا حالهم يوم الجزاء، وقد قدم حالهم الدنيوي في السورتين قبل وتأكد التعريف المتقدم فيما بعد وذلك قوله : «فاما إن كان من المقربين إلى خاتمتها» (الآيات : 88—96).

سـورة الحديـد(*)

لما تقدم قوله تعالى : «نحن خلقناكم فلولا تصدقون» (الواقعة : 57) وفيه من التقريع والتوبيخ لمن قرع به مالاخفاء به، ثم اتبع بقوله تعالى : «أفرأيتم ما تمنون... الآيات إلى قوله : ومتاعا للمقربين» (الواقعة : 73) فنذروا ووبخوا على سوء جهلهم وقبح ضلالهم ثم قال بعد ذلك «أفبهذا الحديث أنتم مدهنون» (الواقعة : 81) واستمر توبيخهم إلى قوله : «إن كنتم صادقين» (الواقعة : 87).

فلما أشارت هذه الآيات إلى قبائح مرتكباتهم أعقب تعالى ذلك بتنزيهه عز وجل من سوء ما انتحلوه وضلالهم فيما جهلوه فقال تعالى : «فسبح باسم ربك العظيم» (الواقعة : 96) أي نزهه عن عظيم ضلالهم وسوء اجترامهم، ثم أعقب

(*) هذه السورة مدنية في قول جميع العلماء وهي أول المسبحات وقد خصهن رسول الله صلى عليه وسلم بالقراءة قبل أن يرقد، ويقول : ان فيهن آية أفضل من ألف آية، وهذه المسبحات هي : الحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن، وكلهن مدنيات. انظر : روح المعاني : 27%142.

ووجه مناسبة هذه السورة لما قبلها — اضافة لما أبداه المصنف من الأمر بالتسبيح في آخر سورة الواقعة، وافتتاح هذه بالتسبيح أيضا، وان كل شيء في هذا الكون يسبح لله — هو أن هذه السورة جاءت آياتها تؤكد على حقيقة واحدة هي أن الذي يسبح له ما في السماوات والأرض هو وحده المتصرف في هذا الكون، فذكرت طائفة من أسماء الله تعالى الحسنى وصفاته العليا التي تبين هذا الجانب من خلق السماوات والأرض وايلاج الليل في النهار، وواسع علمه وقدرته، واحياء الأرض بعد موتها، وأنه ذو الفضل العظيم، وهو الغني الحميد، وختمت السورة بقوله تعالى : «لئلا يعلم أهل الكتاب الا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يوتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم» مما يؤكد ما بينته وهو ظاهر والحمد لله.

ذلك بقوله : «سبح لله ما في السماوات والأرض» (الحديد : 1) ثم أتبع ذلك بقوله له : «له الملك وله الحمد» (التغابن 1). فبين تعالى انفراده بصفة الجلال ونعوت الكمال، وأنه المنفرد بالملك والحمد، وأنه الأول والآخر والظاهر والباطن إلى قوله : «وهو عليم بذات الصدور» (الحديد : 6) فتضمنت هذه الآى إرغام من أشير إلى حاله في الآى المتقدمة في سورة الواقعة وقطع ضلالهم والتعريف بما جهلوه من صفاته العلى وأسمائه الحسنى جل وتعالى، والتحمت آى السورتين واتصلت معانيها ثم صرف الخطاب إلى عباده المومنين فقال تعالى : «آمنوا بالله ورسوله» (الحديد : 7) واستمرت الآى على خطابهم إلى آخر السورة.

سـورة المجادلـة (716)

لما نزه (سبحانه)(717) نفسه عن مقول الملحدين وأعلم أن العالم بأسره ينزهه عن ذلك بألسنة أحوالهم لشهادة العوالم على أنفسها بافتقارها لحكيم أوجدها لا يمكن أن يشبه شيئا منها بل يتنزه عن أوصافها ويتقدس عن سماتها فقال : «سبح لله ما في السماوات والأرض» (الحديد : 1) ومضت آى تعرف بعظيم سلطانه وعلي ملكه، ثم انصرف الخطاب إلى عباده في قوله : «آمنوا بالله ورسوله إلى ما

(716) هذه السورة مدنية في قول الجمهور وآياتها تدل على هذا، ووجه ارتباطها بسالفتها هو أن سورة الحديد افتتحت بالتسبيح وبيان طائفة من الصفات الالهية «هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم»(3) وغيرها من الصفات الالهية، إلا انها تؤكد على صفة العلم فكانت سورة المجادلة معترضة بين المسبحات بيانا شافيا وبرهانا ساطعا على علم الله تبارك وتعالى وشموليته بحدث قائم وواقعة ظهرت للعيان أمامهم الا وهي قصة المجادلة ولهذا كانت السيدة عائشة رضي الله عنها تقول : تبارك الذي وسع سمعه الأصوات : لقد جاءت المجادلة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تكلمه وأنا في ناحية البيت لا أسمع ما تقول فأنزل الله قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها «ففصلت في مسألة الظهار، ثم عرضت السورة إلى علم الله تعالى الواسع المحيط تأكيدا لما في سورة الحديد» يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير»(4)، ثم كشفت عن دخائل المنافقين، وهذا أمر لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى، ثم عرضت لموالاة الكفار، وهو أمر قلبي كذلك، لا يعلمه إلا الله وختمت السورة بالمفاصلة بين المومنين والكافرين، ونظرا لأن محل هذه الأمور القلب جاء قوله تعالى أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه.

فمضمون هذه السورة بيان بالوقائع لمضمون سورة الحديد وتمهيد واضح بين لسورة الحشر.

(717) غير واردة في النص واضفتها لمناسبتها للسياق، ولعلها سقطت منه.

بعد ذلك من الآي، وكان ذلك ضرب من الالتفات الواقع منه هنا أشبه شيء بقوله سبحانه في سورة البقرة «وإذ قال ربك للملائكة (الفقرة 30)، فإنه بعد تفصيل حال المتقين وحال من جعل في طرف منهم، وحال من تشبه بظاهره بالمتقين وهو معدود في شرار الكافرين، فلما تم هذا النمط عدل بعده إلى دعاء الخلق إلى عبادة الله وتوحيده «يا أيها الناس اعبدوا ربكم» (البقرة : 21) ثم عدل بالكلام جملة وصرف الخطاب إلى تعريف نبيه عليه الصلاة والسلام ببدء الخلق «وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة» (البقرة : 30) فجاء ضربا من الالتفات فكذا الواقع هنا بين سبحانه حال مشركي العرب وقبح عنادهم وقرعهم ووبخهم في عدة سور غالب آيها جار على ذلك ومجرد له، أولها سورة (ص)، كما نبه عليه في سورة القمر وإلى الغاية التي ذكرت فيها إلى أن وردت سورة القمر منبئة بقطع دابرهم، وانجر فيها الاعذار المنبه عليه، وكذا في سورة الرحمن بعدها. ثم أعقب ذلك بالتعريف بحال النزول الأخروي في سورة الواقعة مع زيادة تقريع وتوبيخ على مرتكبات استدعت تسبيحه تعالى وتقديسه عن شنيع افترائهم، فاتبعت بسورة الحديد ثم صرف فيها الخطاب إلى المومنين، واستمر ذلك إلى آخر السورة، وجرت سورة المجادلة على هذا القصد مصروفا خطابها إلى نازلة يتشوف المومنون إلى تعرف حكمها وهو الظهار المبين أمره فيها، فلم يعدل بالكلام بعد كما كان قد صرف إليه في قوله : «آمنوا بالله ورسوله» (الحديد : 7) بأكثر من التعرض لبيان حكم يقع منهم.

ثم ان السور الواردة بعد إلى آخر الكتاب استمر معظمها على هذا الغرض لانقضاء ما قصد في التعريف بأخبار القرون السالفة والأمم الماضية، وتقريع من عاند وتوبيخه، وذكر مآل الخلق واستقرارهم الأخروي، وذكر تفاصيل التكاليف والجزاء عليها من الثواب والعقاب، وما به استقامة من استجاب وآمن، وما يجب أن يلتزمه على درجات التكاليف وتأكيدها، فلما كمل ذلك صرف الكلام إلى ما يخص المومنين في أحكامهم وتعريفهم بما فيه خلاصهم ومعظم آي السورة بعد هذا شأنها، وان انجر غيرها فلا ستدعاء وموجب وهو الأقل كما بينا.

ســــورة الحشــــر (718)

لا خفاء باتصال آيها بما تأخر من آى سورة المجادلة، ألا ترى أن قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم» (الممتحنة : 13) إنما يراد به يهود، فذكر سبحانه سوء سريرتهم وعظيم جرأتهم، ثم قال في آخر السورة : «لا تجد قوما يومنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله» (الحشر : 22) فحصل من هذا كله تنفير المومنين منهم وإعلامهم بأن بغضهم من الايمان وودهم من النفاق لقبح ما انطووا عليه وشنيع ما ارتكبوه.

فلما أشارت هذه الآي إلى ما ذكر اتبعت بالاعلام في أول سورة الحشر بما عجل لهم من هوانهم وإخراجهم من ديارهم وأموالهم، وتمكين المسلمين منهم جرى على ما تقدم الايماء إليه من سوء مرتكبهم، والتحمت الآى باتحاد المعنى وتناسبه وتناسخ الكلام، وافتتحت السورة بالتنزيه لبنائها على ما أشار إليه غضبه تعالى عليهم، إذ لا يكون الا على أعظم جريمة وأسوأ مرتكب، وهو اعتداؤهم وعصيانهم المفصل في مواضع من الكتاب، وقد قال تعالى فيهم بعد ذكر غضبه عليهم «أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل» (المائدة : 60) وقال تعالى : «لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا

---

(718) سورة الحشر مدنية، نزلت في بني النظير وهم احدى القبائل الثلاثة اليهودية التي كانت تسكن المدينة وبدأوا يتآمرون على المسلمين ويكيدون لهم حتى وصل بهم الأمر إلى محاولة اغتيال رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخرجهم الله تبارك وتعالى على يد رسوله والمومنين أذلاء صاغرين بعد أن مناهم اخوتهم المنافقون بالنصر والتأييد، ولكن ذلك لم يغن عنهم من قدر الله شيئا، وأخرجوا كما وصف الله تبارك وتعالى حالهم في هذه السورة الكريمة، وكبت المنافقين الذين كانوا يمتون إليهم بصلة الدس والوقيعة بالمسلمين.

ووجه ارتباط هذه السورة بما قبلها ظاهر، ذلك أن سورة المجادلة حكمت بأنه لا موادة بين مؤمن وكافر، وكان بنو النظير حلفاء الخزرج، فلما وقعت غزوة بني النظير تبرأ مؤمنو الخزرج من بني النظير ولم يقف بجانبهم إلا المنافقون، وقد كان بنو النظير، وبنو قينقاع، وبنو قريظة ذوي قوة وسطوة في يثرب، يخشاهم العرب لقوتهم المالية والعددية فكشفت باقي آيات السورة للمومنين ان الله تبارك وتعالى الذي أخرجهم شر اخراج — كما ترون بأم أعينكم — له الصفات العلى، والقدرة المطلقة وافاضت في التعريف بهذه الأسماء وهذه الصفات «هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم، هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس.... الآيات».

يعتدون» (المائدة : 78) فبين تعالى أن لعنته اياهم إنما ترتبت على عصيانهم واعتدائهم، وقد فصل اعتداؤهم أيضا في مواضع، فلما كان الغضب مشيرا إلى ما ذكر من عظيم الشرك أتبعه سبحانه تنزيه نفسه جل وتعالى فقال : «سبح لله ما في السماوات والأرض» (الحديد : 1) وإنما يرد التنزيه في الكتاب إثر جريمة تقع من العباد، وعظيمة يرتكبونها، وتأمل ذلك حيث وقع، ثم عاد الى الإخبار بما فعل تعالى بأهل المتاب مما يتصل بما تقدم ثم تناسخت الآي.

سـورة الممتحنـة[719]

افتتحت هذه السورة بوصية المومنين على ترك موالاة أعدائهم ونهيهم عن ذلك، وأمرهم بالتبري منهم وهو المعنى الوارد في قوله خاتمة المجادلة «لا تجد قوما يومنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم إلى آخر السورة» (آية : 21)، وقد حصل منها أن اسنى أحوال (أهل)[720] الايمان، وأعلى مناصبهم «أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه» (آية : 21) فوصى عباده في افتتاح الممتحنة بالتنزه عن موالاة الأعداء، ووعظهم بقصة إبراهيم عليه السلام والذين معه في تبرئهم من قومهم ومعاداتهم والاتصال في هذا بين، وكأن سورة الحشر وردت مورد الاعتراض المقصود بها تمهيد الكلام وتنبيه السامع على ما به تمام الفائدة لما ذكر أن شأن المومنين أنهم لا يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا أقرب الناس إليها، واعترض بتنزيهه عن مرتكباتهم، ثم اتبع ذلك ما عجله لهم من النقمة[721] والنكال، ثم عاد الأمر إلى النهي عن موالاة الأعداء جملة، ثم لما كان أول سورة الممتحنة إنما نزل في حاطب بن أبي بلتعة[722]

---

(719) هذه السورة مدنية، وتسمى أيضا سورة المودة، وسورة الامتحان، وقد نزلت في شأن حاطب ابن أبي بلتعة وكتابه إلى قريش يطلعهم منه على سر النبي صلى الله عليه وسلم وارادته فتح مكة كما أخرج ذلك البخاري وغيره. انظر فتح الباري : 633/8، وروح المعاني : 57/28، 58 .

(720) اضفتها لاقتضاء السياق ذلك.

(721) ب : النعمة.

(722) صحابي شهد بدرا والحديبية، توفي سنة 30 هـ، في خلافة عثمان رضي الله عنه. الاصابة، 300/1 .

رضي الله عنه وكتابه لكفار قريش بمكة، والقصة مشهورة، وكفار مكة ليسوا من يهود، وطلب المعاداة للجميع واحد، فلهذا فصل بما هو من تمام الإخبار بمآل يهود، وحينئذ عاد الكلام إلى الوصية عن نظائرهم من الكفار المعاندين، والتحمت السور الثلاث، وكثر في سورة الممتحنة ترداد الوصايا والعهود، وطلب الوفاء بذلك كله، ولهذه المناسبة ذكر فيها الحكم في بيعة النساء، وما يشترط عليهن في ذلك، فبنى السورة على طلب الوفاء افتتاحا واختتاما حسبما بين في التفسير لينزه المومن عن حال من قدم ذكره في سورة الحشر وفي خاتمة سورة المجادلة.

سـورة الصـف(723)

افتتحت بالتسبيح لما ختمت به سورة الممتحنة من قوله : «لا تتولوا قوما غضب الله عليهم» «الممتحنة : 113) وهم اليهود، وقد تقدم الايماء ما استوجبوا به هذا، فاتبع بالتنزيه لما تقدم بيانه، فإنه مما يعقب به ذكر جرائم المرتكبات ولا يرد في غير(725) ذلك، ثم أتبع ذلك بأمر العباد بالوفاء، وهو الذي حُدّ لهم في الممتحنة ليتنزهوا عن حال مستوجبي الغضب بنقيض الوفاء والمخالفة بالقلوب والألسنة «يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم» (آل عمران : 167) «ليا

(723) هذه السورة مدنية في قول الجمهور إلا ما جاء في رواية عن ابن عباس انها مكية والصواب أنها مدنية وذلك ظاهر من آياتها، وتسمى أيضا سورة الحواريين، وسورة عيسى عليه السلام.

وقد جاء أن نفرا من الصحابة قعدوا وتذاكروا فيما بينهم فقالوا لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعملناه فأنزل الله تبارك وتعالى على رسوله «يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون، كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون» (2—3).

ووجه تعلق هذه السورة بما قبلها أنها بينت فضل الجهاد وانه التجارة الرابحة في الدنيا والآخرة وحضت المومنين عليه وعلى نصرة الرسول كما نصر الحواريون عيسى عليه السلام وذلك بعد أن تقدم في السورة السالفة قطع الموالاة بينهم وبين الكفار والمنافقين وأهل الكتاب،وقطع الموالاة هذا يقتضي منهم الجهد والتحمل للمشاق في الأنفس والأموال والديار، فجاءت هذه السورة لتحضهم على هذا التحمل وتَعِدهم بالنصر والفتح القريب وتبشرهم بعلو دين الاسلام «يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون» (8—9).

(725) ب : غيره.

بألسنتهم وطعنا في الدين» (النساء : 45) «من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تومن قلوبهم» (المائدة : 43) «ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم» (النور : 45)، وبمجموع هذا استجمعوا اللعنة والغضب فقيل للمومنين «يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون» (الصف : 2) احذروا أن تشبه أحوالكم حال من استحق المقت واللعنة والغضب، ثم اتبع بحسن الجزاء لمن وفى قولا وعقدا لسانا وضميرا، وثبت على ما أمر به فقال : «إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا.... الآية» (الصف : 4) ثم تناسج ما بعد.

ولما كان الوارد من هذا الغرض في سورة الممتحنة قد جاء على طريق الوصية وسبيل النصح والاشفاق، أتبع في سورة الصف بصريح العتب في ذلك والانكار ليكون ذكره بعد ما تمهد في السورة قبل أوقع في الزجر، وتأمل كم بين قوله سبحانه : «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء.... الآيات» (الممتحنة : 9) وما تضمنت من التلطف وبين قوله : «لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون» (الصف : 2).

سـورة الجمعـة(726)

لما ختمت سورة الصف بالثناء على الحواريين في حسن استجابتهم وجميل إيمانهم، وقد أمر المومنين بالتشبه في قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله.... الآية» (الصف :

---

(726)وجه ارتباط هذه السورة بالتي قبلها وهي مدنية مثلها هو أن تكلفة الجهاد وفريضته مع هذا النبي لتبليغ رسالته واظهار دينه تشريف لهذه الأمة وتكريم لها، هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين (2)، فان أعرضوا عن هذا الشرف فسيقيض الله تبارك وتعالى له من غيرهم من يحمله كما جاء عن رسول اله صلى الله عليه وسلم أنه عندما قرأ قوله تعالى «وآخرين منهم» وضع يده على سلمان وقال : «لو كان الايمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء» أخرجه البخاري ومسلم والنسائي. البخاري مع الفتح 641/8، والدرر المنثور : 215/6 . فمن أعرض عن هذا الشرف ولم يتطلع إليه كان كالحمار يحمل أثقالا من أثقال هذه الحياة ولا يدري ما قيمتها، والموت لابد نازل في ساحته سواء أكان في الجهاد أو في غيره «قل ان الموت الذي تفرون منه فانه ملاقيكم»(8).

14) كان ذلك مما يوهم فضل اتباع عيسى عليه السلام على اتباع محمد ﷺ فأتبع ذلك بذكر هذه الأمة والثناء عليها، فافتتحت السورة بالتنزيه كما أشار إليه قوله : «وكفرت طائفة» (الصف : 14) فإنهم ارتكبوا العظيمة وقالوا بالنبوة، فنزه سبحانه نفسه عن ذلك ثم قال : «هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم إلى قوله ذو الفضل العظيم» (الجمعة : 2)، ثم أعلم تعالى بحال طائفة لاح لها نور الهدى ووضح لها سبيل الحق فعميت عن ذلك وارتبكت في ظلمات جهلها، ولم تزدد بما حملت إلا حيرة وضلالة فقال تعالى : «مثل الذين حملوا التوراة.... الآيات» (الجمعة : 5).

وهي في معرض التنبيه لمن تقدم الثناء عليه ورحمة الله إياه لئلا يكونوا فيما يتلو عليهم نبيهم من الآيات، ويعلمهم من الكتاب والحكمة مثل أولئك الممتحَنين فإنهم مُقتوا ولُعنوا بعد حملهم التوراة، وزعموا أنهم التزموا حمله والوفاء به فوعظ هؤلاء بمثالبهم لطفا من الله بهذه الأمة «وما يتذكر إلا أولوا الألباب» (البقرة : 269).

سـورة المنافقـون(727)

لما أعقب حال المومنين فيما خصهم الله به مما انطوت عليه الآيات الثلاث في صدر سورة الجمعة إلى قوله : «والله ذو الفضل العظيم» (الجمعة : 2ـ4) بذكر حال من لم ينتفع بما حُمِّل حسبما تقدم، وكان في ذلك من المواعظ

= وختمت السورة بما يوحد الكلمة ويذكر بالله الا وهو حضور صلاة الجمعة وتفضيل أمر الآخرة على شواغل الدنيا ولهوها. «قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين»(11). وكل هذه الأغراض تأكيد وبسط لما ورد في سورة الصف من الحث على الجهاد في سبيل الله.

وللسيوطي في تناسبها نظرة سديدة إذ قال : «لما ختم تلك السورة (الصف) بالأمر بالجهاد وسماه تجارة ختم هذه بالأمر بالجمعة وأخبر أنها خير من التجارة الدنيوية، وأيضا فتلك سورة الصف، والصفوف تشرع في موضعين القتال والصلاة فناسب تعقيب سورة صف القتال بسورة صلاة تستلزم الصف ضرورة وهي الجمعة لأن الجماعة شرط فيها دون سائر الصلوات». انظر أسرار ترتيب القرآن. ص : 138.

(727) هذه السورة مدنية، وقد جاء ترتيبها بعد سورة الجمعة التي ذكر فيها المومنون وأمرتهم بالعمل على طلب مرضاة الله، وايثار الدار الآخِرة على متاع الدنيا، وحذرتهم من التفريط في فضل صلاة الجمعة بالانشغال بالتجارة واللهو،

والتنبيه مما ينتفع به من سبقت له السعادة اتبع بما هو أوقع في الغرض، وأبلغ في المقصود وهو ذكر طائفة بين أظهر من قدم الثناء عليهم من أقرانهم وأترابهم وأقاربهم تلبست في الظاهر بالايمان وأظهرت الانقياد والاذعان، وتعرضت فأعرضت وتنصلت فما وصلت، بل عافتها الأقدار فعميت البصائر.

ومن المطرد المعلوم أن اتعاظ الانسان بأقرب الناس إليه وبأهل زمانه أغلب من اتعاظه بمن بَعُد عنه زمانا ونسبا، فأتبعت سورة الجمعة بسورة المنافقين وعظا للمومنين بحال أهل النفاق، وبَسَط من قصصهم ما يلائم ما ذكرناه، وكأن قد قيل لهم ليس من أظهر الانقياد والاستجابة في بني إسرائيل، ثم كان فيما حمل كمثل الحمار يحمل أسفارا بأعجب من حال إخوانكم زمانا وقرابة، وأنتم أعرف الناس بهم، وأنهم كانوا في الجاهلية موصوفين بجودة الرأي وحسن النظر «وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم» (المنافقون : 4) «ولكن المنافقين لا يفقهون» (المنافقون : 7).

قلت : «وقد مر في الخطبة ما رويناه في مصنف ابن أبي شيبة من قول أناس من المومنين كان رسول الله ﷺ يقرأ في الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين

= فجاءت هذه السورة لتبين خصائص المنافقين وصفاتهم، وديدنهم تفريق الجماعة، وتشتيت الصفوف وتثبيط العزائم وثني المسلمين عن الجهاد وهو ماض إلى يوم القيامة، وكل ذلك يكون في حالة الامن والاستقرار وفي حالة الاستعداد والنفار، فحتى يحذرهم المسلمون في كل العصور جاءت خصائصهم دون ذكر الأسماء، وختمت السورة بنداء المومنين الا تلهيهم الأموال والأولاد، وحضتهم على الانفاق في سبيل الله، وبين الله لهم أنه لن تموت نفس الا بأجلها سواء كان ذلك في الحرب أو السلم، وفي ذلك من التناسب ما هو بين واضح.

ولقد أبدى السيوطي رحمه الله وجها آخر لارتباط هذه السورة بالتي قبلها، وارتباط المسبحات ببعضها رغم الفصل بينهما فقال : «ان سورة الجمعة ذكر فيها المومنون وهذه ذكر فيها أضدادهم وهم المنافقون. ولهذا جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة يحرض بها المومنين وبسورة المنافقين يقرع بها المنافقين».

ثم قال : «وتمام المناسبة ان السورة التي بعدها (آي التغابن) فيها ذكر المشركين، والسورة التي قبل الجمعة فيها ذكر أهل الكتاب من اليهود والنصارى، والتي قبلها وهي الممتحنة فيها ذكر المعاهدين من المشركين، والتي قبلها وهي الحشر فيها ذكر المعاهدين من أهل الكتاب.... وبذلك اتضحت المناسبة في ترتيب هذه السور الست هكذا لاشتمالها على أصناف الأمم، وفي الفصل بين المسبحات بغيرها، لأن ايلاء سورة المعاهدين من أهل الكتاب بسورة المعاهدين من المشركين أنسب من غيره، وايلاء سورة المومنين بسورة المنافقين أنسب من غيره. فظهر بذلك أن الفصل بين المسبحات التي هي نظائر لحكمة دقيقة من لدن حكيم خبير». انظر تناسق الدرر : 138، 139.

فأما سورة الجمعة فيبشر بها المومنين ويحرضهم وأما سورة المنافقين فيؤيس بها المنافقين ويوبخهم(728) وهذا نحو ما ذكرناه أولا.

ســـــورة التغابــــن(*)

لما بسط في السورتين قبل من حال مَنْ حمل التوراة في بني إسرائيل، ثم لم يحملها، وحال المنافقين المتظاهرين بالاسلام وقلوبهم كبرا وعنادا متكاثفة الاظلام وبين خروج الفرقتين عن سواء السبيل المستقيم، وتنكبهم عن هَديِ الدين القويم، واوهم ذكر اتصافهم بمحتد أوصافهم خصوصهم في الكفر بوسم الانفراد وسما ينبيء عن عظيم ذلك الإبعاد سوى ما تناول غيرهم من أضراب الكفار، فانبأ تعالى عن أن الخلق بجملتهم وان تشعبت الفرق، وافترقت الطرق راجعون بحكم السوابق إلى طريقتين، فقال تعالى : «هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مومن» (التغابن 2) وقد أوضحنا الدلائل أن المومنين على درجات وأهل الكفر ذوو طبقات، وأهل النفاق أدونهم حالا وأسوؤهم كفراً وضلالاً «إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار» (النساء : 145) وافتتحت السورة بالتنزيه لعظيم مرتكب المنافقين في جهلهم، ولو لم تنطو سورة المنافقين من عظيم مرتكبيهم الا على ما حكاه تعالى من قولهم «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الاذل» (المنافقون : 8) وقد أشار قوله تعالى : «ويعلم ما في السماوات والأرض»

(728) أخرجه الطبراني في الأوسط، وسعيد بن منصور في سننه بسند حسن عن أبي هريرة مرفوعا. انظر الدر المنثور 222%6. وأما قراءته صلى الله عليه وسلم بالجمعة والمنافقين في صلاة الجمعة هكذا باطلاق فقد جاءت من حديث عدد من الصحابة منهم أبو هريرة، وابن عباس، وأبو عنب الخولاني وغيرهم وهي عند مسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجة والبغوي في معجمه وآخرين. الدر المنثور : 215.

(*) هذه السورة مدنية في قول الأكثرين، وقال الضحاك هي مكية، وقيل انها نزلت بمكة الا آخرها «يا أيها الذين آمنوا انما أموالكم وأزواجكم» إلى آخر السورة نزل بالمدينة.

ومن وجوه ارتباطها بسابقتها — على ما أبداه الألوسي — هو أنه سبحانه ذكر هناك حال المنافقين وخاطب بعد المومنين، وذكر جلا وعلا هنا تقسيم الناس إلى مؤمن وكافر. وأيضا في آخر تلك «لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم» وفي هذه انما أموالكم وأولادكم فتنة» وهذه الجملة كالتعليل لتلك، وأيضا في ذكر التغابن نوع حثٍّ على الانفاق قبل الموت المأمور به فيما قبل. انظر روح المعاني : 104/28، 105.

(التغابن : 4) ويعلم ما تسرون وما تعلنون» (التغابن : 4) «والله عليم بذات الصدور» (التغابن : 4) إلى ما قبله وما بعده من الآيات إلى سوء جهل المنافقين وعظيم حرمانهم في قولهم بالسنتهم ما لم تنطو عليه قلوبهم «والله يشهد أن المنافقين لكاذبون» (المنافقون : 1) واتخاذهم إيمانهم جُنّة إلى ما وصفهم سبحانه به، فافتتح تعالى سورة التغابن بتنزيهه عما توهموه من مرتكباتهم التي لا تخفى عليه سبحانه «ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم» (التوبة : 78) ثم قال تعالى : «ويعلم ما تسرون وما تعلنون» (التغابن : 4) فقرع ووبخ في عدة آيات، ثم أشار إلى ما منعهم من تأمل الآيات وصدهم عن اعتبار المعجزات وانه الكبر المهلك غيرهم، فقال تعالى مخبرا عن سلفهم في هذا المرتكب ممن أعقبه ذلك أليم العذاب وسوء المنقلب «ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا» (التغابن : 6) ثم تناسج الكلام معرفا بمآلهم الأخروي ومآل غيرهم إلى قوله «وبئس المصير» (التغابن : 10) ومناسبة ما بعد يتبين في التفسير بحول الله.

سـورة الطـلاق(*)

لما تقدم قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله» (المنافقون : 9) وقوله في التغابن : «إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم» (التغابن : 14) وقوله تعالى : «إنما أموالكم وأولادكم فتنة» (التغابن : 15) والمومن قد يعرض له ما يضطره إلى فراق من نبه على فتنته وعظيم محنته، وردت هذه السورة منبهة على كيفية الحكم في هذا الافتراق، وموضحة أحكام الطلاق، وأن هذه العداوة وان استحكمت ونار هذه الفتنة وان اضطرمت، لا توجب التبرء بالجملة وقطع المعروف «لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا» (الطلاق : 1) ووصى سبحانه بالاحسان المجمل في قوله : «أو تسريح بإحسان»
(الطلاق : 1) ووصى سبحانه بالاحسان المجمل في قوله : «أو تسريح باحسان»

(*) هذه السورة مدنية في قول جميع العلماء، وقد تناولت احكام العدة والانفاق وقد ابدى المصنف رحمه الله وجه ارتباطها بسابقتها بما لا يحتاج إلى زيادة بيان.

(البقرة : 229) وبين تفصيل ذلك وما يتعلق به فهذا الرفق المطلوب بإيقاع الطلاق في أول ما تستعده المطلقة في عدتها وتحسبه من مدتها تحذيرا من وقوع الطلاق في الحيض الموجب طول العدة وتلك المدة، وأكد سبحانه هذا بقوله : «واتقوا الله ربكم» (الطلاق : 1) ثم نبه سبحانه على حقهن أيام العدة من الابقاء في مستقرهن حين إيقاع الطلاق إلى إنقضاء العدة فقال : «لا تخرجوهن من بيوتهن» (الطلاق : 1) إلى ما استمرت عليه السورة من بيان الأحكام المتعلقة بالطلاق وتفصيل ذلك كله، ولما كان الأولاد إذا ظهر منهم ما يوجب فراقهم وإبعادهم غير مفترقين إلى ما سوى الرفض والترك بخلاف المرأة لم يحتج إلى ما احتيج إليه في حقهن فقد وضح وجه ورود سورة الطلاق في هذا الموضع والله أعلم.

ســـورة التحريـــم[729]

لاخفاء بشدة اتصال هذه السورة بسورة الطلاق لاتحاد مرماهما وتقارب معناهما : وقد ظن أنه ﷺ طلق نساءه حين اعتزل في المشربة حتى سأله عمر رضي الله عنه، والقصة معروفة[730]، وتخييره ﷺ إياهن أثر ذلك وبعد اعتزالهن شهرا كاملا، وعتب الله تعالى عليهن في قوله : «وان تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه» (التحريم 4) وقوله : عسى ربه أن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن..... الآية» (التحريم 5) فهذه السورة وسورة الطلاق أقرب شيء وأنسبه لسورة الأنفال وبراءة لتقارب المعاني والتحام المقاصد.

---

(729) هذه السورة مدنية في قول جميع العلماء، ويقال لها سورة «المتحرم» وسورة «لم تحرم»، وسورة «النبي» صلى الله عليه وسلم ووجه ارتباطها بما قبلها ظاهر كما قال المصنف رحمه الله، خاصة وأن هذه السورة أبانت عن حكم الايلاء ولم يرد في السورة السابقة، وفي ذلك من المناسبة مالا يخفى، وزادت أيضا حكمين اثنين :
الأول : مسؤولية الراعي عمن يرعاه «يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا»
والثاني : انه لا ينجي الانسان الا ايمانه وعمله. فلا تنفعه قرابته من النبي ان كان عمله غير صالح ولا يضره نسبه من الكافر ان كان عمله صالحا، وهذان الحكمان مرتبطان ارتباطا شديدا في فاتحة السورة، ومضمون السورة كلها مرتبط ارتباطا شديدا بمضمون السورة السابقة وهما مرتبطتان بمضمون سورة التغابن «ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم» فمضمون هاتين السورتين تفصيل لهذه الآية الكريمة.

(730) وهي فيما رواه البخاري عن ابن عباس قال : لم أزل حريصا على ان أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم اللتين قال الله تعالى «ان تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما» حتى حج عمر وحججت معه فلما كان ببعض الطريق عدل إلى الاراك لحاجة له.

سورة الملك(*)

ورود ما افتتحت بهذ السورة من التنزيه وصفات التعالي إنما يكون عقب تفصيل وايراد عجائب من صنعه سبحانه كورود قوله تعالى : «فتبارك الله أحسن

= قال فوقفت له حتى فرغ، ثم سرت معه فقلت له، يا أمير المومنين، من اللتان تظاهرتا على النبي صلى الله عليه وسلم من أزواجه، فقال تلك حفصة وعائشة، قال فقلت : والله ان كنت لأريد ان أسألك عن هذا منذ سنة، فما أستطيع هيبة لك، قال فلا تفعل، ما ظننت أن عندي من علم فاسألني، فان كان لي علم خبرتك به، قال : ثم قال عمر : والله ان كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمرا، حتى أنزل الله فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم، قال فبينما أنا في أمر اتأمره اذ قالت امرأتي، لو صنعت كذا وكذا، قال فقلت لها : مالك ولما هاهنا، فيما تكلفك في أمر أريده ؟ فقالت لي عجبا لك يا ابن الخطاب، ما تريد أن تراجع أنت، وان ابنتك لتراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان فقام عمر فأخذ رداءه مكانه حتى دخل على حفصة فقال لها : يا بنية انك لتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان ؟ فقالت حفصة : والله انا لنراجعه. فقلت تعلمين أني أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله صلى الله عليه وسلم، يا بنية لا يغرنك هذه التي أعجبها حسنها حب رسول الله صلى الله عليه وسلم اياها — يريد عائشة — قال : ثم خرجت حتى دخلت على أم سلمة لقرابتي منها فكلمتها، فقالت أم سلمة، عجبا لك يا ابن الخطاب دخلت في كل شيء حتى تبتغي ان تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه، فأخذتني والله أخذا كسرتني عن بعض ما كنت أجد فخرجت من عندها، وكان لي صاحب من الأنصار إذا غبت أتاني بالخبر، وإذا غاب كنت انا آتية بالخبر، ونحن نتخوف ملكا من ملوك غسان ذكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا، فقد امتلأت صدورنا منه، فإذا صاحبي الأنصاري يدق الباب فقال : افتح افتح، فقلت : جاء الغساني ؟ لنا أنه يريد أن يسير إلينا، فقد امتلأت صدورنا منه، فإذا صاحبي الأنصاري يدق الباب فقال : افتح افتح، فقلت : جاء الغساني ؟ فقال بل أشد من ذلك اعتزل رسول الله صلى الله عليه وسلم أزواجه فقلت رغم أنف حفصة وعائشة، فأخذت ثوبي فخرجت الدرجة فقلت له : قل هذا عمر ابن الخطاب، فأذن لي، قال عمر : فقصصت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، هذاالحديث، فلما بلغت حديث ام سلمة تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وانه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف، وان عند رجليه قرضا مصورا وعند رأسه أهب معلقة، فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيت، فقال ما يبكيك ؟ فقلت يا رسول الله ان كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت رسول الله، فقال : اما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة ؟. أخرجه أحمد والشيخان. وانظره بهذه السياقة في صحيح البخاري ج 8%657. وانظرها أيضا في تفسير ابن كثير وغيرها من كتب التفسير والسنة.

(*) هذه السورة مكية في قول جميع أهل العلم، وهي مخصوصة بمزيد من فضل : فقد ورد في ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال فيما رواه عنه ابن عباس «وددت أنها في قلب كل مؤمن» يعني تبارك الذي بيده الملك وأخرجه عبد بن حميد في مسنده والحاكم وغيرهما باسناد صحيح : وأخرج أصحاب السنن والحاكم وصححه وغيرهم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ان سورة من كتاب الله ما هي إلا ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له : «تبارك الذي بيده الملك»».

وكان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمونها : المانعة، والواقية، والمنجية، لأنها تمنع صاحبها من ولوج النار، وتقيه العذاب، وتنجيه منه وفيها آثار أخرى : انظر الدر المنثور : 246/6، 247. ومستدرك الحاكم : 298/2، وروح المعاني : 2/29.

ووجه مناسبتها لما قبلها مع ما ابداه المصنف هو ما تقدم في سورة التحريم من شأن النبي صلى الله عليه وسلم مع أزواجه، وأن الله تعالى مولاه والملائكة والمومنون، وجاءت الآيات تتلوها بالأمر بالوقاية للنفس والذرية من عذاب الله، والتوبة النصوح، وانه لا يغني أحد عن أحد شيئا يوم القيامة، كان مضمون سورة الملك هو الابتلاء في هذه الحياة الدنيا للمكلفين، وفرضيه القيام بالعمل الصالح، والاستقامة على ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وعددت لهم النعم التي تحيط بهم وبها قوامهم من اسماع وأبصار وأفئدة، وأرض وسماء، وغذاء وماء، كل ذلك ليعلموا أن المالك الحق المنزه عن كل نقص طلب منهم الاستقامة على الطريق، والنأى بالنفس والذرية عن جهنم، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

ووجه التناسب أيضا ما أورده الألوسي وهو قريب مما ذهب إليه المؤلف وهو أنه تعالى لما ضرب مثلا للكفار بتينك المرأتين المحتوم لهما بالشقاوة وان كانتا تحت نبيين عظيمين، ومثلا للمومنين بآسية ومريم وهما محتوم لهما بالسعادة وأن أكثر قومهما كفار، افتتح هذه بما يدل على احاطته عز وجل وقهره وتصرفه في ملكه على ما سبق به قضاؤه، وقيل ان آخر هذه متصل بقوله تعالى آخر الطلاق «الله الذي خلق سبع سماوات» لما فيه من مزيد البسط لما يتعلق بذلك، وفصل بسورة التحريم لأنها كالقطعة من سورة الطلاق والتتمة لها. انظر روح المعاني : 2/29، 3 .

الخالقين» (المومنون 14) عقب تفصيل التقلب الانساني من لدن خلقه من سلالة من طين إلى إنشائه خلقا آخر، وكذا كل ما ورد من هذا ما لم يرد أثناء آى قد جردت للتنزيه والاعلام بصفات التعالي والجلال.

ولما كان أوقع في سورة التحريم ما فيه أعظم عبرة لمن تذكر وأعلى آية لمن استبصر من ذكر امرأتين كانتا تحت عبدين صالحين قد بعثهما الله تعالى رحمة لعباده، واجتهادا في دعاء الخلق، فحرم الاستنارة بنورهما، والعياذ بهداهما من لم يكن أحد من جنسهما أقرب إليهما منه، ولا أكثر مشاهدة لمابدا له من الآيات وعظيم المعجزات، ومع ذلك فلم يغنيا عنهما من الله شيئا، ثم أعقبت هذه العظة بما جعل في طرف منها ونقيض من حالها، وهو ذكر امرأة فرعون الذي لم يضرها مرتكب صاحبها وعظيم جرأته، مع شدة الوصلة واستمرار الألفة لما سبق لها في العلم القديم من السعادة وعظيم الرحمة فقالت : «رب ابن لي عندك بيتا في الجنة» (التحريم : 11) وحصل في هاتين القصتين تقديم سبب رحمة حرم التمسك بها أولى الناس في ظاهر الأمر، وتقديم سبب امتحان عصم منه أقرب الناس إلى التورط فيه، ثم أعقب ذلك بقصة عريت عن مثل هذين السببين، وانفصلت في مقدماتها عن تينك القصتين وهو ذكر مريم ابنة عمران ليعلم العاقل حيث يضع الأسباب، وأن القلوب بيد العزيز الوهاب، أعقب تعالى ذلك بقوله الحق «تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير» وإذا كان الملك بيده سبحانه فهو الذي يوتي الملك والفضل من يشاء، وينزعه عمن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، كما صرحت به الآية الأخرى في آل عمران، فقد اتضح اتصال سورة الملك بما قبلها، ثم بنيت سورة الملك على التنبيه والاعتبار ببسط الدلائل ونصب البراهين حسبما يبسطه التفسير[731].

(731) انظر ملاك التأويل : 2/1091، 1092

ســـــورة ن(*)

لما تضمنت سورة الملك من عظيم البراهين ما تعجز العقول من استيفاء الاعتبار ببعضه كالاعتبار بخلق السماوات في قوله تعالى : «الذي خلق سبع سماوات طباقا»(3) أي يطابق بعضها بعضا، من طابق النعل إذا خصفها طبقا عن طبق، ويشعر هذا بتساويها في مساحة أقطارها ومقادير اجرامها والله أعلم(732)، ووقع الوصف بالمصدر ليشعر باستحكام مطابقة بعضها بعضا من غير زيادة ولا نقص «ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت»(3) أي من اختلاف واضطراب في الخلقة أو تناقض، إنما هي مستوية مستقيمة، وجيء بالظاهر في قوله : «ما ترى في خلق ا لرحمن من تفاوت» ولم يقل ما ترى فيه من تفاوت ليشعر أن جميع المخلوقات جار على هذا، كل شكل يناسب شكله لا تفاوت في شيء من ذلك ولا اضطراب، فأعلى الظاهر من التعميم ما لم يكن يعطيه الاضمار، كما أشعر خصوص اسم الرحمن بما في هذه الأدلة المبسوطة من الرحمة للخلائق لمن رزق الاعتبار، ثم نبه تعالى على ما يدفع الريب ويزيح الاشكال فقال : «فارجع البصر»(3) أي عاود البصر والتأمل،مما تشاهده من المخلوقات

(*) هذه السورة الكريمة مكية في جملتها، بل هي من أوائل ما نزل من القرآن الكريم، ووجه ارتباطها بسورة الملك هو أنه لما تقدم في سورة الملك من بيان قدرة الله في اذهاب الماء، فصلت هذه السورة ما حدث لأصحاب الجنة الذين أعماهم حب المال فذهب الله به، فأصبحوا يضربون كفا بكف أسفا وندما وعجزا، وتتابعت السورة الكريمة في بيان عجز المخلوقين عن التصرف حتى فيما بأيديهم فكأن هذه السورة بجملتها بيان لقوله تبارك وتعالى «تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير».

وقال أبو حيان : «انه ذكر فيما قبل أشياء من أحوال السعداء والأشقياء، وذكر قدرته الباهرة وعلمه تعالى الواسع، وأنه عز وجل لو شاء لخسف بهم الأرض أو لأرسل عليهم حاصبا، وكان ما أخبر به سبحانه هو ما تلقفه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالوحي، وكان الكفار ينسبونه في ذلك مرة إلى الشعر ومرة إلى السحر ومرة إلى الجنون، فبدأ جل شأنه في هذه السورة الكريمة ببراءته صلى الله عليه وسلم مما كانوا ينسبونه إليه من الجنون وتعظيم أجره على صبره على أذاهم وبالثناء على خلقه العظيم» البحر المحيط : 8%307.

(732) حسب معطيات العلم الحديث فان الفضاء الكوني ينقسم إلى سبع سماوات وهي : السماء الأرضية، والسماء القمرية، والسماء الشمسية، وسماء النجوم القريبة، وسماء المجرة، وسماء الكون، وهذه السماوات «طباق» اذ تغلف بعضها بعضا كطبق على طبق، وهي أيضا «طباق» أي متساوية في كيانها. انظر : لله العلم د. بشير التركي ص : 113 — 115).

حتى يصح عندك ما أخبرت به بالمعاينة، ولا يبقى معك في ذلك شبهة «هل ترى من فطور»(3) أي صدوع وشقوق ثم أمر تعالى بتكرير البصر فيهن متصفحا ومتمتعا، هل تجد عيبا أو خللا «ينقلب إليك البصر خاسئا»(4) أي أنك إذا فعلت هذا رفع بصرك بعيدا عن إصابة الملتمس كأنه يطرد عن ذلك طردا بالصغار والإعياء وبالكلال لطول الاجالة والترديد، وأمر برجوع البصر ليكون في ذلك استجمامه(733) واستعداده حتى لا يقع بالرجعة الأولى التي يمكن فيها الغفلة والذهول، إلا أن يحسر بصره من طول المعاودة إذ معنى التنبيه في قوله : «كرتين» التكرير، كقوله (لبيك وسعديك) فيحسر البصر من طول التكرار ولا يعثر على شيء من فطور، فلو لم تنطو السورة على غير ما وقع من أوله إلى هنا لكان ذلك أعظم معتبر وأوضح دليل لمن استبصر، إذ هذا الاعتبار بما ذكر من عمومه جار في كل المخلوقات، ولا يستقل بفهم مجاريه إلا آحاد من العقلاء بعد التحريك والتنبيه، فشهادته بنبوة الآتي به قائمة واضحة، ثم قد تكون في السورة دلالات كقوله : «ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح» (آية : 5) وقوله: «ألا يعلم من خلق»(14) إلى آخر السورة، وأدناها كاف في الاعتبار، فأنى يصدر نقص عن متصف ببعض ما هزؤوا به في قولهم : مجنون وساحر وشاعر،«بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون»(734) (المطففين : 14).

فلعظيم ما انطوت عليه سورة الملك من البراهين، أتبعت بتنويه الآي به، ﷺ مما يقوله المبطلون، مُقّسما على ذلك زيادة في التعظيم وتأكيدا في التعزيز والتكريم فقال تعالى : «ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون» (1—2) وانى يصح تُصُوُّر بعد تلك البراهين وقد انقطعت دونك أنظار العقلاء، فكيف ببسطها وإيضاحها في نسق موجز، ونظم معجز، وتلازم يبهد العقول، وعبارة تفوق كل مقول، تعرف، ولا تدرك، ويستوضح سبيلها فلا تسلك «قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن ياتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله» (الاسراء : 88).فقوله سبحانه «ما أنت بنعمة ربك بمجنون» جواب لقوله تعالى في آخر

(733) ب : استجمامة واسعدادة.

(734) في الاصل : يستهزئون وهو خطأ.

السورة «ويقولون أنه لمجنون»(51)، وتقدم الجواب بنفي قولهم والتنزيه عنه على حكاية قولهم ليكون أبلغ في إجلاله ﷺ، وأخف وقعا عليه وأبسط لحاله في تلقي ذلك منهم، ولهذا قدم مدحه ﷺ بما خص به من الخلق العظيم، فكان هذا أوقع في الاجلال من تقديم قولهم ثم رده، إذ كسر سورة تلك المقالة الشنعاء بتقديم التنزه عنها أتم في الغرض وأكمل، ولا موضع أليق بذكر تنزيهه عليه الصلاة والسلام ووصفه من الخُلق والمنح الكريمة بما وصف مما أعقب به ذلك،إذ بعض ما تضمنته سورة الملك مما تقدم الايماء إليه شاهد قاطع لكل عاقل منصف بصحة نبوته ﷺ وجليل صدقه،«ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا» (النساء : 82) فقد تبين موقع هذه السورة هنا، وتلاؤم ما بعد من آيها يذكر في التفسير(735).

ســـــورة الحـاقـــــة(*)

لما بنيت سورة «ن والقلم» على تقريع مشركي قريش وسائر العرب وتوبيخهم وتنزيه نبي الله ﷺ عن شنيع قولهم وقبيح بهتهم، وبين حسدهم وعداوتهم «وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم» (5/51) اتبعت بسورة الحاقة (وعيدا)(736) لهم وبيانا أن حالهم في سوء ذلك المرتكب قد سبق إليه غيرهم

---

(735) انظر ملاك التأويل : 093/2، 1094.

(*) وهي سورة مكية في قول جميع العلماء، ومناسبتها لما قبلها أنه لما تقدم في سورة القلم والملك عجزهم عن تحصيل ما به قوام حياتهم من الماء والرزق، وعدم قدرتهم على دفع نقم الله بهم جاءت هذه السورة الكريمة التي تسمى الحاقة، وهو اسم من أسماء يوم القيامة، لتؤكد لهم أن عجزهم في اليوم الآخر أكبر، وضعفهم أظهر، وخاصة أولئك الذين يكون مصيرهم إلى النار. هذا من جانب، ومن جانب آخر ردت سورة القلم تهمة الجنون عن النبي صلى الله عليه وسلم وتبعها في هذه السورة رد تهمة قولهم. كاهن، وشاعر، وهذه هي التهم الثلاثة الكبرى التي كانو يرمون بها النبي صلى الله عليه وسلم، وقد جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : خرجت اتعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن أسلم فوجدته قد سبقني إلى المسجد فقمت خلفه فاستفتح سورة الحاقة فجعلت أعجب من تأليف القرآن قال : فقلت هذا والله شاعر كما قالت قريش، قال : فقرأ إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تومنون. قال : فقلت : كاهن، قال : «ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون تنزيل من رب العالمين، ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين» إلى آخر السورة، قال فوقع الاسلام في قلبي كل موقع. انظره في مسند أحمد 17/1 .

(736) في الأصل وعدا والصواب ما أثبته لمناسبته للسياق.

«كذبت ثمود وعاد بالقارعة... فهل ترى لهم من باقية» (4ــ8) «ألم يروا كم أهلكنا (من)[737] قبلهم من قرن» (الأنعام : 6) «فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم» (يونس : 102) «وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا» (مريم : 98).

فسورة الحاقة جارية مجرى هذه الآى المعقب بها ذكر عناد مشركي العرب ليتعظ بها من رزق التوفيق «لنجعلها تذكرة وتعيها أذن واعية»(12) ولما ذكر حال من هلك من الأمم السالفة بسوء تكذيبهم وقبيح عنادهم اتبع ذلك بذكر الوعيد الأخروي «يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية»(18) ثم عاد الكلام إلى ما بنيت عليه سورة «ن والقلم» من تنزيهه ﷺ وتكريمه مقسما على ذلك «إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر ولا بقول كاهن» وانتهى نفي ما يقولونه منصوصا على نزاهته عن كل جملة منها في السورتين «ما أنت بنعمة ربك بمجنون» (القلم : 2) أي ما الذي جئت به بقول شاعر ولا بقول كاهن بل هو تنزيل من رب العالمين. وانه لتذكرة للمتقين»(48) «وإنه لحق اليقين»(51) فنزه ربك وقد سه عن عظيم ما ارتكبوه.

ســــورة المعـــارج(*)

لما انطوت سورة الحاقة على أشد وعيد وأعظمه، اتبعت بجواب من استبطأ ذلك واستبعده، إذ هو مما يلجأ إليه المعاند الممتحن فقال تعالى : «سال سائل بعذاب واقع إلى قوله : «إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا» (1ــ7)، ثم ذكر حالهم إذاك «يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه.... الآية»(11) ثم اتبع بأن ذلك لا يغني عنه ولا يفيده «إنها لظى»(15) ثم ختمت السورة بتأكيد الوعيد وأشد التهديد «فذرهم يخوضوا ويلعبوا إلى قوله ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون» (42ــ44) ذلك يوم الحاقة ويوم القارعة.

---

(737) ب : ساقطة.

(*) هذه السورة مكية بالاتفاق، وتسمى سورة «المواقع» وسورة «سال»، وقد جاء عن ابن عباس أنها نزلت عقب

سـورة نـوح (عليه السلام)(*)

لما أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالصبر في قوله تعالى : «فاصبر صبرا جميلا» (المعارج : 5) وجليل الاغضاء في قوله : «فذرهم يخوضوا ويلعبوا» (المعارج : 42) أتبع ذلك بذكر قصة نوح عليه السلام وتكرر دعاء قومه إلى الايمان وخص من خبره حاله في طول مدة التذكار والدعاء لأنه المقصود في الموضع تسلية لنبيه صلى الله عليه وسلم وليتأسى به في الصبر والرفق في الدعاء كما قيل له صلى الله عليه وسلم في غير هذا الموضع «فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم» (الاحقاف : 35) «فلا تذهب نفسك عليهم حسرات» (فاطر : 8) فقد دام دعاء نوح قومَه أدوم من مدتك ومع ذلك فلم يزدهم إلا فرارا «قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائي إلا فرارا، واني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا» (5—7) ثم مضت آى السورة على هذا المنهج من تجديد الإخبار بطول مكابدته عليه

سورة الحاقة وهذا من وجوه المناسبة كما يقول السيوطي في كتابه : «تناسق الدرر» ص : 142، وانظر روح المعاني : 55/29.

ووجه مناسبة السورة لما قبلها — اضافة إلى ما أبداه المصنف من وجه قوي — هو أن سورة الحاقة قد أبانت عن يوم القيامة وشدته مجملا، وختمت برد دعاوي الكافرين واتهاماتهم للنبي صلى الله عليه وسلم، فجاءت سورة المعارج لتفصل في بيان اليوم الآخر وأهواله وتؤكد على وقوعه وتكشف عن جانب مهم من أحواله، لأنه صعب عليهم تصور هذا اليوم وما يجري فيه، واستبعدوا وقوعه، وسألوا ان كان ذلك حقا ان يروا طرفا منه وان تنزل عليهم حجارة من السماء، فقد أخرج النسائي وعبد بن حميد والحاكم وصححه وغيرهم عن ابن عباس في قوله «سأل سائل» قال : هو النضر بن الحارث قال: «اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء» (الانفال : 32) وفي قوله «بعذاب واقع» قال : كائن للكافرين ليس له دافع من الله ذي المعارج» قال : ذي الدرجات. انظر المستدرك : 502/2، والدر المنثور 263/6.

(*) وهي سورة مكية، ووجه مناسبتها لما قبلها، اضافة إلى ما أبداه المصنف من كونها تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وحث له بالصبر على قومه كما صبر نوح عليه السلام... فقد تقدم في ختام المعارج «فلا أقسم برب المشارق والمغارب انا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين» (40—41)، جاءت هذه السورة لتنبههم على حقيقة هذا الأمر في أمة قوية كبيرة سلفت قبلهم على هذه الأرض، فدعا عليها نبيها صلى الله عليه وسلم أن تبيد كاملة «رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا»...»(28) فاستجاب الله دعاءه، وأغرق من عاند من قومه، ولهذا لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يدعو على قومه بالفناء والدمار عندما يطلب منه ذلك، بل كان يدعو لهم بالهداية (اللهم أهد قومي فانهم لا يعلمون) وهي مناسبة واضحة.

السلام وتكرار دعائه، فلم يزدهم ذلك إلا بعدا وتصميما على كفرهم حتى أخذهم الله وأجاب فيهم دعاء نبيه نوح عليه السلام «رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا» (26) وذلك ليأسه من فلاحهم، وانجر في هذا حض نبينا ﷺ على الصبر على قومه والتحمل منهم كما صرح به في قوله: «خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين» (الأعراف: 199) وكما قيل له «فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت» (القلم: 48) «وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك» (هود: 120).

سـورة الجـن(*)

لما تقدم ذكر حال كفار قريش في تعاميهم عن النظر وجريهم في اللدد والعناد حسبما انطوت عليه سورة «ن والقلم»، ثم اتبعت بوعيدهم في الحاقة

(*) وهي مكية في قول جميع أهل العلم وتسمى أيضا سورة قل أوحي. ومن مناسبتها لما قبلها أنها كشفت عن حقائق تتعلق بالسور السابقة منها ما أبداه المصنف من أن طائفة من المخلوقين المكلفين ومن غير جنس قومك يا محمد قد اهتدت وآمنت بفضل الله ورحمته.... ومنها أن عالم الجن فيه مسلمون مصدقون، وفيه كافرون عتوا عن أمر الله تعالى، فلو كان هذا القرآن الذي ياتي محمدا صلى الله عليه وسلم من تعليم الجن لعلموا غيره من الانس، ولم يسلم منهم أحد لأن مصدق هذا الوحي معروف لديهم ومن عند بعضهم، فلما أعلنت طائفة منهم أن هذا رشد وحق، انقسموا كما انقسم الانس بشأنه «وانا منه المسلمون ومنا القاسطون، فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا، وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا» (14—15).

وبينت هذه السورة ان كافري الجن على انصال بكافري الانس، وأنهم لو كانوا يستطيعون رد هذه الرسالة والطعن فيها لما قصروا، ولهذا فلن يزيدوا كافري الانس الا رهقا، أي اثما وذلا، وهذه كلها حقائق تتعلق بما تقدم من السور المكية قبلها.

ولأبي حيان وجه حسن في مناسبة هذه السورة قريب مما أبداه المصنف وهو أنه تعالى لما حكى تمادى قوم نوح في الكفر والعكوف على عبادة الأصنام وكان أول رسول إلى أهل الأرض، كما أن محمدا صلى الله عليه وسلم آخر رسول إلى أهل الأرض، والعرب الذين هو منهم كانوا عباد أصنام كقوم نوح، حتى انهم عبدوا أصناما مثل أصنام أولئك في الأسماء، وكان ما جاء به عليه الصلاة والسلام هاديا إلى الرشد وقد سمعته العرب وتوقف عن الايمان به أكثرهم أنزل الله تعالى سورة الجن اثر سورة نوح تبكيتا لقريش والعرب في كونهم تباطئوا عن الايمان وكانت الجن خيرا منهم إذ أقبل للايمان من أقبل منهم وهم من غير جنس الرسول عليه والصلاة والسلام حتى كادوا يكونون عليه لبدا، ومع ذلك التباطؤ فهم مكذبون له ولما جاء به حسدا وبغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده» انظر البحر المحيط: 348/8.

بتحقيقه وقرب وقوعه في المعارج، ثم تسليته عليه الصلاة والسلام وتأنيسه بقصة نوح مع قومه أعقب ذلك بما يتعظ به الموفق ويعلم أن القلوب بيد الله، فقد كانت استجابة معاندي قريش والعرب أقرب في ظاهر الأمر لنبيء من جنسهم ومن أنفسهم، فقد تقدمت لهم معرفة صدقه وأمانته، ثم جاءهم بكتاب بلسانهم الذي به يتحاورون ولغتهم التي بها يتكلمون فقد بهرت العقول آياته ووضحت لكل قلب سليم براهينه ومعجزاته، وقد علموا أنهم لا يقدرون على معارضته إلى ما شاهدوه من عظيم البراهين، ومع ذلك عموا وصموا، وسبق إلى الايمان من ليس من جنسهم ولا سبقت له مزية تكريمهم وهم الجن ممن سبقت لهم من الله الحسنى فآمنوا وصدقوا، وأمر ﷺ بالاخبار بذلك فأنزل عليه «قل أوحي إلى أنه استمع نفر من الجن آية : 1» الآيات إلى قوله إخبارا عن تعريف الجن سائر إخوانهم بما شاهدوه من عناد كفار العرب «وإنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا» (19) ثم استمرت الآى ملتحمة المعاني معتضدة المباني إلى آخر السورة.

سـورة المزمـل(738)

لما كان ذكر إسلام الجن قد أحرز غاية إنتهى مرماها، وتم مقصدها ومبناها، وهي الاعلام باستجابة هؤلاء وحرمان من كان أولى بالاستجابة وأقرب في

(738) وهي مكية من أوائل ما نزل، وذلك بعدما فاجأ الوحي محمدا صلى الله عليه وسلم بغار حيراء، ورجع عليه الصلاة والسلام ترجف بوادره وقال لخديجة عليهما السلام زملوني زملوني، والمتزمل المتلفف، المتغطي بالثوب، والقصة معروفة مشهورة. انظر روح المعاني : 101/29.

ومن وجوه مناسبتها لما قبلها، أن هذه السورة الكريمة قد أمرت النبي صلى الله عليه وسلم أن يأخذ أمر الدعوة والاستعداد لها بغاية الجد، والقيام لذلك، فاذا كان الجن قد أثر فيهم القرآن ونفذ إلى طائفة منهم، فما عليك يا محمد الا أن تقوم الليل به أنت وأصحابك وترتله ترتيلا لعلهم يستمعون إليه فينفذ إلى قلوبهم، وتكون قد هيأت أصحابك وعلمتهم الاستعداد لتحمل مسؤولية هذه الدعوة «انا سنلقي عليك قولا ثقيلا»(4) إذ لابد من بذل غاية الجهد، وخاصة في البدايات.

وقد كان بين بداية نزول هذه السورة الكريمة ونزول الآية الأخيرة منها نحوا من سنة كما أخرج ذلك أئمة الحديث، فكانت الأخيرة مبينة للحد الأدنى، وما فوقه ففيه يتنافس المتنافسون.

ومن وجوه المناسبة أيضا أنه سبحانه لما ختم سورة الجن بذكر الرسل عليهم الصلاة والسلام افتتح عز وجل هذه بما يتعلق بخاتمهم عليه وعليهم الصلاة والسلام.

ظاهر الأمر إلى الانابة بعد تقديم وعيدهم وشديد تهديدهم، صرف الكلام إلى أمره صلى الله عليه وصلم بما يلزمه من وظائف عادته وما يلزمه في أذكاره من ليله ونهاره مفتتحا ذلك بأجمل مكاملة وألطف مخاطبة «يا أيها المزمل» (1) تسلية له صلى الله عليه وسلم كما ورد «فلا تذهب نفسك عليهم حسرات» (فاطر : 8) وليحصل منه الاكتراث بعناد من قدم عناده وكثر[739] لججه، واتبع ذلك بما يشهد لهذا الغرض ويعضده وهو قوله تعالى: «واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً، وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا» (10ـــ11) وهذا عين الوارد في قوله : «فلا تذهب نفسك عليهم حسرات» وفي قوله : «نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار» (ق. 45) ثم قال : «إن لدينا أنكالا» (12) فذكر ما أعد لهم، وإذا تأملت هذه الآي وجدتها قاطعة بما قدمناه وبان لك التحام ما ذكره، ثم رجع الكلام إلى التلطف به صلى الله عليه وسلم وبأصحابه رضي الله عنهم وأجزل جزاءهم مع وقوع التقصير ممن يصح منه تعظيم المعبود الحق جل جلاله «علم أن لن تحصوه فتاب عليكم، إلى قوله : «فاقرأوا ما تيسر منه»[740] (18) ثم ختم السورة بالاستغفار من كل ما تقدم من عناد الجاحدين المتقدم ذكرهم فيما قبل من السور إلى ما يفي العباد المستجيبون به مما أشار إليه قوله تعالى : «علم أن لن تحصوه» (18).

سـورة المدثـر(*)

ملاءمتها لسورة المزمل واضحة واستفتاح السورتين من نمط واحد، وما ابتدئت به كل واحدة منهما من جليل خطابه ﷺ وعظيم تكريمه «يا أيها المزمل»

(739) ب : وكثرة.

(740) ب : من القرآن.

(*) وهي سورة مكية وقد كان نزولها عقب نزول المزمل وذلك بعد أن انقطع الوحي، فقد أخرج أحمد والشيخان وغيرهم من حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن أنه سئل عن أول ما نزل من القرآن الكريم فقال «يا أيها المدثر»،

(يا أيها المدثر» والأمر فيهما بما يخصه «قم الليل إلا قليلا نصفه... الآى» (2ـــ9) وفي الاخرى «قم فأنذر وربك فكبر» (2ـــ3) اتبعت في الأولى بقوله: «واصبر على ما يقولون» (10) وفي الثانية بقوله: «ولربك فاصبر» (7) وكل ذلك قصد واحد واتبع أمره بالصبر في المزمل بتهديد الكفار ووعيدهم «وذرني والمكذبين... الآيات» (11) وكذلك في الأخرى «ذرني ومن خلقت وحيدا.... الآيات» (11) فالسورتان واردتان في معرض واحد وقصد متحد.

ســـورة القيامـــة(*)

لما تقدم قوله مخبرا عن أهل الكفر «وكنا نكذب بيوم الدين» (45) ثم تقدم في صدر السورة قوله تعالى: «فإذا نقر في الناقور إلى قوله غير يسير» (8ـــ10) والمراد به يوم القيام، والوعيد به لمن ذكر بعد في قوله: «ذرني ومن

فقلت يقولون «اقرأ باسم ربك الذي خلق»، فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد الله عن ذلك فقال: «لا أحدثك الا ما حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: جاورت بحراء فلما قضيت جوارى فنوديت، فنظرت عن يميني فلم أر شيئا ونظرت عن شمالي فلم أر شيئا، ونظرت خلفي فلم أر شيئا، فرفعت رأسي، فاذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فجئثت منه رعبا فرجعت فقال دثروني، دثروني فنزلت «يا أيها المدثر قم فأنذر». فتح الباري 676/8.

ووجه المناسبة أن سورة المزمل أمرت النبي صلى الله عليه وسلم بالاستعداد والتهيؤ للدعوة، وسورة المدثر أمر باعلان الدعوة وتبليغها الناس، والتنزه عن معبوداتهم وارجاسهم «وثيابك فطهر والرجز فاهجر». (4ـــ5)، وفي كلا السورتين أمر بالتحمل والصبر.

(*) وهي مكية في قول جميع العلماء، وجاء عن عمر بن الخطاب من سأل عن يوم القيامة فليقرأ هذه السورة.

ووجه المناسبة والله أعلم أنه لما تقدم في السورة السابقة «كلا بل لا يخافون الآخرة (52) جاءت هذه السورة لتبين جانبا من أحوالها وأحوال أهلها مؤمنين وعصاة، وتنبههم إلى أن من خلقهم أول مرة قادر على أن يعيدهم إلى ذلك اليوم، وابتدئت هذه السورة بذكر انكارهم وإعادته «أيحسب الانسان ألن نجمع عظامه» (3) وختمت ببيان قدرة الله على ذلك «أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى» (39).

وفي قوله تعالى: «لا تحرك به لسانك لتعجل به» إلى قوله «ثم ان علينا بيانه» (16ـــ18) أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما وغيرهما عن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا نزل جبريل عليه بالوحي، وكان مما يحرك به لسانه وشفتيه فيشتد عليه، وكان يعرف منه، فأنزل الله الآية التي في «لا أقسم بيوم القيامة» لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه» قال: علينا أن نجمعه في صدرك وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه، فاذا أنزلناه فاستمع، ثم ان علينا بيانه علينا أن نبينه بلسانك، قال: فكان اذا أتاه جبريل أطرق، فاذا ذهب قرأه كما وعده. انظر الفتح: 682/8.

خلقت وحيدا.... الآيات» (11) ومن كان على حاله في تكذيب وقوع ذلك اليوم، ثم تكرر ذكره عند جواب من سئل بقوله : «ما سلككم في سقر» (41) فبسط القول في هذه السورة في بيان ذكر ذلك اليوم وأهواله، وأشير إلى حال من كذب به في قوله تعالى : «يسأل أيان يوم القيامة» (6) وفي قوله : «أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه» (3) ثم اتبع ذلك بذكر أحوال الخلائق في ذلك اليوم «ينبؤ الانسان يومئذ بما قدم وأخر»(14).

سورة الانسان(*)

قوله تعالى : «هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا» (1) تعريف للانسان بحاله وابتداء أمره ليعلم أن لا طريق له للكبر واعتقاد السيادة لنفسه وأن لا يغلطه ما اكتنفه من الألطاف الربانية والاعتناء الالهي

= وقيل لما نزل أول السورة إلى قوله تعالى : «ولو ألقى معاذيره (1—15) صادف أنه صلى الله عليه وسلم في تلك الحالة بادر إلى حفظ ما نزل عليه فقيل له «لا تحرك به لسانك» الآيات ثم عاد إلى تكملة ما ابتدىء به. جواهر البيان للشيخ عبد الله بن الصديق. ص : 188.

وقال ابن جزي : فان قيل ما مناسبة قوله «لا تحرك به لسانك» لما قبلها فالجواب أنه لعله نزل معه في حين واحد فجعل على ترتيب النزول. التسهيل 165/4 وانظر أيضا الكشاف : 192/4.

(*) هذه السورة مكية في جملتها، وفيها بعض آيات مدنية، وفي صحيح مسلم وغيره عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة (ألم تنزيل) السجدة، و(هل أتى على الانسان). أنظر الدرر المنثور : 297/6.

ومناسبتها لما قبلها إضافة إلى ما أبداه المصنف من بيان أصل النشأة وانه لم يكن شيئا مذكورا وبرحمة الله وجد وكان، فإنها أفاضت في حال أهل النعيم الذين حظوا بالرضى والقبول من الله تعالى، وتقدم في السورة التي قبلها أن وجوههم ناضرة إلى ربها ناظرة، فكان وصف حالهم في هذه السورة كشف لجوانب أخرى تشويقا وترغيبا وتثبيتا للسالكين، لذلك ختمت بالأمر بالصبر على حكم الله والاعراض عمن تعلق بالعاجل دون الآجل، وتكرر هذا المعنى في السورتين «كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة» القيامة (20—21) وهنا «أن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا»(27).

وهناك وجه آخر وهو أنه لما تحدثت هاتان السورتان عن الخلق، وأن أصل الخلق من التراب كما بينته آيات أخرى عديدة، وان حفنة التراب لها تأثير وجذب للانسان، اقتضى الحال أن يبسط أمامهم حال الآجل، والنعيم الموعود ليتشوفوا إليه، وتشرئب إليه الاعناق وختم بالصبر عن كل ما يلفتهم عنه كما في هذه السورة، وهذا في غاية المناسبة والله أعلم.

والتكرمة، فيعتقد أنه يستوجب ذلك ويستحقه «وما بكم من نعمة فمن الله» (النحل : 53).

ولما تقدم في القيامة أخباره تعالى عن حال منكري البعث عنادا واستكبارا وتعاميا عن النظر والاعتبار «أيحسب الانسان أن ألن نجمع عظامه» (آية : 3) وقوله بعد : «فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى ثم ذهب إلى أهله يتمطى» (30—32) أي يتختر عتوا واستكبار، وفرحا وتجبرا، وتعريفه بحالة التي لو ذكر منها لما كان منه ما وصف، وذلك قوله : «ألم يك نطفة من مني تمنى ثم كان علقة فخلق فسوى» (36—37)، ثم أتبع ذلك بما هو أعرق في التوبيخ وأوغل في التعريف وهو أنه قد كان لا شيء، فلا نطفة ولا علقة، ثم أنعم عليه بنعمة الايجاد ونقله تعالى من طور إلى طور فجعله نطفة من ماء مهين في قرار مكين، ثم كان علقة ثم مضغة إلى إخراجه وتسويته خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين، فمن اعتبر اتصافه بالعدم ثم تقلبه في هذه الأطوار المستنكف حالها، والواضح فناؤها واضمحلالها، وأمده الله بتوفيقه، عرف حرمان من وصف في قوله : «ثم ذهب إلى أهله يتمطى» (32) فسبحان الله ما أعظم حلمه وأكرم رفقه، ثم بين تعالى أن ما جعله للانسان من السمع والبصر ابتلاء له، ومن إدراكه أدركه الغلط وارتكب الشطط.

سـورة المرسـلات(741)

أقسم تعالى بالملائكة المتتابعين في الارسال والرياح المسخرة،وولايته بالمطر والملائكة الفارقة بما بين الحق والباطل،والملقيات الذكر بالوحي إلى الأنبياء اعذارا من الله وانذارا : أقسم تعالى بما ذكره من مخلوقاته على صدق الموعود به في قوله : «إنا اعتدنا للكافرين سلاسلا وأغلالا وسعيرا.... الآيات» (الانسان : 4)

(741) وهي مكية نزلت على رسول الله ﷺ جملة واحدة في غار بمنى وقيل بحراء، فقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : بينما نحن مع رسول الله ﷺ في غار إذ نزلت عليه «والمرسلات» فتلقيناها من فيه، وإن فاه لرطب بها، إذ خرجت حيةٌ : فقال رسول الله ﷺ : عليكم أقتلوها، فابتدرناها فسبقتنا، قال : فقال وقيت شركم كما وقيتم شرها. أنظر الفتح 8/ 686.

وقوله : «إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا» (الانسان : 10) وقوله : «وجزاؤهم بما صبروا جنة وحريرا إلى قوله :(742) «وكان سعيكم مشكورا» (الانسان : 12ـــ22) وقوله «ويذرون وراءهم يوما ثقيلا» (الانسان : 27) وقوله : «يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما» (الانسان : 31)، ولو لم يتقدم إلا هذا الوعد والوعيد المختتم به السورة لطابق افتتاح الأخرى قَسَماً عليه أشد المطابقة، فكيف وسورة «هل أتى على الانسان» برأسها مواعد أخروية واخبارات جزائية، فأقسم سبحانه وتعالى على صحة الوقوع وهو المتعالي الحق وكلامه الصدق.

سورة عم(743)

سورة النبأ أما مطلعها فمرتب على التساؤل واستفهام وقع منهم،وكأنه وارد هنا في معرض العدول والالتفات، وأما قوله : «كلا سيعلمون» (الآية : 4) فمناسب للوعيد المكرر في قوله : «ويل يومئذ للمكذبين»، وكأن قد

= ووجه المناسبة لما تقدم في سورة الانسان الاطناب في حال أهل الجنة، وتعلق المعرضين بالعاجل، جاءت سورة المرسلات لتؤكد وقوع اليوم الآخر، فتتابعت فيها الأقسام بعدد من ظواهر هذا الكون، أبانت حال الكافرين ومصيرهم، بعد أن خلقهم الله وأنعم عليهم في هذه الحياة الدنيا «إنطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون» (29).... وتكرر قوله تعالى : «ويل يومئذ للمكذبين» تهديدا ووعيدا وتخويفا على عكس المومنين وما تقدم من حالهم في سورة الانسان، ولهذا كانت آيات هذه السورة شديدة الوقع ينخلع لها القلب الحي الواعي.

أخرج الشيخان وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنه أن أم الفضل ـــ وهي أمه ـــ سمعته يقرأ «والمرسلات» فقالت : يا بني لقد ذكرتني بقرائتك هذه السورة أنها لآخر ما سمعت رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب. ابن كثير : 7/ 188، الدر المنثور : 8/ 303، والقرطبي مجلد : 10/ 153.

(742) ب : الآيات الى

(743) وهي مكية في قول جميع أهل العلم، وقد تضمنت ما بينه الله تعالى من خلق المخلوقات تمهيدا وتيسرا لحياة الانسان على هذه الأرض، ثم عرضت لليوم الآخر، والجزاء والحساب الذي كان من أشد الأمور بعدا في تصور الكافرين.

ووجه مناسبتها لما قبلها أنها أبانت للكافرين عن قدرة الله الذي بيده الخلق والأمر : وأنه تعالى لما أقسم لهم ـــ في السورة السابقة ـــ بما حولهم من عظيم المخلوقات وبأن ما يوعدون لوقع، أبانت لهم هذه السورة عن مصائر المكذبين بهذا اليوم وما يلحقهم فيه من العذاب والنكال حتى أن أحدهم يتمنى أن يكون ترابا وانى له ذلك ؟!

والملاحظ، أن هذه السور المكية المتتابعة (المدثر، القيامة، الانسان، المرسلات، النبأ) كانت تعالج موضوع اليوم الآخر، وتعرضه بأساليب مختلفة لأهمية هذا اليوم وموقعه في عقيدة المسلم وأثره في حياة الانسان، فالتشابه في المضمون، والتقارب في السياق بين السور يجعلها متصلة ببعض مكملة كل واحدة للأخرى.

قيل سيعلمون عاقبة تكذيبهم، ثم أورد تعالى من جميل صنعه وما إذا اعتبره المعتبر علم أنه لم يخلق شيء منه عبثا بل ليعتبربه، ويستوضح وجه الحكمة فيه فيعلم أنه لابد من وقت ينكشف فيه الغطاء ويجازي الخلائق على نسبة من أحوالهم في الاعتبار والتدبر والخضوع لمن نصب مجموع تلك الدلائل، ويستشعر من تكرار الفصول وتجدد الحالات واحياء الأرض بعد موتها جري ذلك في البعث واطراد الحكم، وإليه الاشارة بقوله : «كذلك نخرج الموتى» (الأعراف : 57) فقال تعالى منبها على ما ذكرناه : «ألم نجعل الأرض مهادا إلى قوله وجنات الفافا» (6—16) فهذه المصنوعات المقصودة الاعتبار كما تقدم، ثم قال تعالى : «إن يوم الفصل كان ميقاتا» (17) أي موعدا لجزائكم لو اعتبرتم بما ذكر لكم لعلمتم منه وقوعه وكونه، ليقع جزاؤكم على ما سلف منكم، فويل يومئذ للمكذبين، ويشهد لهذا القصد مما بعد من الآيات قوله تعالى لما ذكر ما أعد للطاغين «إنهم كانوا لا يرجون حسابا وكذبوا بآياتنا كذابا، وكل شيء أحصيناه كتابا» (27) ثم قال بعد : «إن للمتقين مفازا» (31) وقوله بعد «ذلك اليوم الحق» (39).).

وأما الحياة الدنيا فلعب ولهو «وإن الدار الآخرة لهي الحيوان» (العنكبوت : 64) وقوله بعد : «يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا» (40).

سورة النازعات(*)

لما أوضحت سورة النبأ حال الكافر في قوله : «ياليتني كنت ترابا» (النبأ : 40) عند نظره ما قدمت يداه، ومعاينته من العذاب عظيم مايراه، وبعد ذكر تفصيل أحوال وأهوال، أتبع ذلك بما قد كان حاله عليه في دنياه من استبعاد عودته في أخراه، وذكر قرب ذلك عليه سبحانه كما قال في الموضع الآخر «وهو

(*) وهي مكية بإجماع العلماء، وموضوعها يشبه سابقاتها مع تأكيدها على أمرين هما : أولهما بيان مصير الطاغية الأكبر فرعون «إن في ذلك لعبرة لمن يخشى» (26)، وثانيهما، كثرة سؤالهم عن اليوم الآخر وحين وقوعه، وان الأسلوب الذي جاءت به هذه السورة الكريمة فيما يتعلق باليوم الآخر أشد وقعا، وأقوى تأثيرا «فإذا جاءت الطامة الكبرى» (34) وفي ذلك انتقال في البلاغة والخطاب من حال إلى حال.

أهون عليه» (الروم : 27) وذلك بالنظر إلينا ولما عهدناه، وإلا فليس عنده سبحانه شيء أهون من شيء «إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون» (يس : 82) فقال تعالى : «والنازعات غرقا إلى قوله : «يقولون أئنا لمردودون في الحافرة إذا كنا عظاما نخرة» (1—11) إذ يستعبدون ذلك ويستدفعونه، «فإنما هي زجرة واحدة» (أي صيحة) فإذا هم بالساهرة» (13—14) أي الأرض قياما ينظرون ما قدمت أيديهم، ويتمنون ان لو كانوا ترابا ولا ينفعهم ذلك، ثم ذكر تعالى من قصة فرعون وطغيانه ما يناسب الحال في قصد الاتعاظ والاعتبار، ولهذا أتبع القصة بقوله سبحانه «إن في ذلك لعبرة لمن يخشى» (26).

سـورى عبـس

لما قال سبحانه : «إن في ذلك لعبرة لمن يخشى» الآية : 26) وقال بعد إنما أنت منذر من يخشاها (الآية : 45) افتتحت هذه السورة الأخرى بمثال يكشف عن المقصود من حال أهل التذكر والخشية وجميل الاعتناء الرباني بهم وانهم وان كانوا في دنياهم ذوي خمول لا يؤبه بهم عنده سبحانه في عداد من اختاره لعبادته وأهله لطاعته وإجابة رسوله صلى الله عليهم وسلم، وأعلى منزلته لديه (رب أشعث أغبر لا يؤبه به لو أقسم على الله لأبره»[744] ومنهم ابن أم مكتوم الأعمى رضي الله عنه مؤذن رسول الله ﷺ، وهو الذي بسببه نزلت السورة[745] ووردت بطريق العتب وصاة لنبي الله ﷺ وتنبيها على أن يحمل نفسه الكريمة على مصابرة أمثال ابن أم مكتوم وان لا يحتقره وحاشاه عليه الصلاة والسلام من ذلك، ولكن التحذير من هذا وان لم يكن وقع يشعر بعظيم الاعتناء بمن حذر، ومنه قوله

---

(744) جاء من طريق عدد من الصحابة، أبي هريرة، وابن مسعود، وابن عمر، وغيرهم، وهو من حديث أبي هريرة وعند أحمد ومسلم في صحيحه. أنظر الجامع الصغير مع فيض القدير : 4/ 1544.

(745) أخرجه ،الترمذي وقال حسن غريب، والحاكم وصححه، وابن المنذر وابن حبان وغيرهم عن عائشة قالت : أنزلت «سورة عبس وتولى» في ابن أم مكتوم، أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول : يا رسول الله أرشدني، وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين فجعل رسول الله ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر ويقول : أترى بما أقول بأسا، فيقولا : لا، ففي هذا أنزلت. تحفة الأحوذي مع جامع الترمذي : 4/ 209، وابن كثير : 7/ 212، ومستدرك الحاكم : 2/ 514.

سبحانه : «لئن أشركت ليحبطن عملك» (الزمر : 65) «ولا تدع مع الله إلها آخر» (القصص : 88) ولا تمش في الأرض مرحا» (الاسراء : 37) وهو كثير، وبسط هذا الضرب لا يلائم مقصودنا في هذا التعليق.

لما دخل عليه ﷺ ابن أم مكثوم رضي الله عنه سائلا ومسترشدا وهو ﷺ يكلم رجلا من أشراف قريش وقد طمع في إسلامه ورجا إنقاذه من النار وإنقاذ ذويه وأتباعه فتمادى على تطلبه هذا الرجل لما كان يرجوه، ووكل ابن أم مكثوم إلى إيمانه، فأغفل فورية مجاوبته، وشق عليه الحاجة خوفا من تفلت الآخرين ومضيه على عقبه وهلاكه، عتب سبحانه عليه فقال : «عبس وتولى أن جاءه الاعمى وما يدريك لعله يزكى» (1—3) وهي منه سبحانه واجبة، وقد تقدم في السورة قبل قول موسى عليه الصلاة والسلام : «هل لك إلى أن تزكى» (النازعات : 18) فلم يقدر له بذلك ولا انتفع ببعده وصيته في دنياه ولا أغنى عنه ما نال منها، وبارت مواد تدبيره وعميت عليه الأنباء إلى أن قال : «ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي ياهامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلي أطلع إلى إله موسى واني لأظنه من الكاذبين» (القصص: 38) «وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل» (غافر : 37) فأنى يزكى ولو سبقت له سعادة لأبصر من حال عين اللهو واللعب حين مقالته الشنعاء «أم أنا خير من هذا الذي هو مهين» (الزخرف : 52) ولما سبقت لابن أم مكثوم الحسنى لم يضره الصيت الدنيوي ولا أخل به عماه بل عظم ربه شأنه لما نزل في حقه «وما يدريك(746) لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى» (3—4) فيا له صيتا ما أجله بخلاف من قدم ذكره من طرد فلم يتزك ولم ينتفع بالذكرى حين قصد بها «إنما أنت منذر من يخشاها» (النازعات : 45) كابن أم مكثوم رضي الله عنه، ومن نمط ما نزل في ابن أم مكثوم رضي الله عنه قوله تعالى : «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه» (الكهف : 28) فتبارك ربنا ما أعظم لطفه بعبيده اللهم لا تؤيسنا من رحمتك ولا تقطع بنا عنك بمنك وإحسانك.

---

(746) ب : ما يدريك.

ســـورة التكويـــر(*)

لما قال سبحانه : «فإذا جاءت الصاخة يوم يفر المرء من أخيه.... الآيات إلى آخر السورة» (عبس : 33-42) كان مظنة لاستفهام السائل عن الوقوع ومتى يكون فقال تعالى : «إذا الشمس كورت» (التكوير : 1) ووقوع تكوير الشمس وانكدار النجوم وتسيير الجبال وتعطيل العشار كل ذلك متقدم على فرار المرء من أخيه وأمه وأبيه إلى ما ذكر إلى آخر السورة لاتصال ما ذكر في مطلع سورة التكوير بقيام الساعة فيصح أن يكون أمارة للأول وعلما عليه.

ســـورة الانفطـــار(747)

هذه السورة كأنها من تمام سورة التكوير لاتحاد القصد فاتصالها بها واضح وقد مضى نظير هذا.

ســـورة التطفيـــف(748)

لما قال سبحانه في سورة الانفطار «وان عليكم لحفاظين كراما كاتبين... الآيتين» (10-11) وكان مقتضى ذلك الاشعار بوقوع الجزاء على جزئيات الأعمال وأنه لا يفوت عمل كما قال تعالى : «وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها» (الأنبياء : 47) اتبع الآية المتقدمة بجزاء عمل يتوهم فيه قرب المرتكب وهو من أكبر الجرائم، وذلك التطفيف في المكيال والانحراف عن إقامة القسط في ذلك فقال تعالى : «ويل للمطففين» (1) ثم أردف تهديدهم وتشديد وعيدهم فقال :

(*) وهي مكية في قول الجميع، وقد جاء عن رسول الله ﷺ فيما أخرجه أحمد والترمذي والحاكم وغيرهم من حديث ابن عمر : (من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى العين «فليقرأ«إذا الشمس كورت» و«إذا السماء انفطرت»، و«إذا السماء انشقت» وكفى بذلك مناسبة، أنظر : جامع الترمذي مع تحفة الأحوذي : 4/ 210، ومستدرك الحاكم 2/ 515، وهو حديث جيد الاسناد.

(747) وهي مكية كسابقاتها في قول جميع العلماء.

(748) قال بعضهم هي مكية، وقال آخرون هي مدنية، وقد جاء عن ابن عباس فيما أخرجه ابن الضريس آخر ما أنزل بمكة. وأخرج عن البيهقي في الدلائل، وابن مردويه في تفسيره أنها أول سورة نزلت في المدينة.

«ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم» (4ـ5) ثم التحمت الآي مناسبة لما افتتحت به السورة إلى خاتمتها.

ســـورة الانشقـــاق(*)

لما تقدم في الانفطار التعريف بالحفظة واحصائهم على العباد في كتبهم وعاد الكلام إلى ذكر ما يكتب على البر والفاجر واستقرار ذلك في قوله تعالى: «إن كتاب الأبرار لفي عليين» (18) وقوله: «إن كتاب الفجار لفي سجين» (7) اتبع ذلك بذكر التعريف بأخذ هذه الكتب في القيامة عند العرض، وان أخذها بالأيمان عنوان السعادة، وأخذها وراء الظهر عنوان الشقاء، إذ قد تقدم في السورتين قبل ذكر الكتب واستقرارها بحسب اختلاف مضمناتها فمنها في عليين ومنها في سجين إلى يوم العرض فيوتى كل كتابه، فآخذ بيمينه وهو عنوان سعادته وآخذ وراء ظهره وهو عنوان هلاكه، فتحصل الإخبار بهذه الكتب ابتداء واستقرارا

= تفسيره أنها أول سورة نزلت في المدينة.

قلت، وفي هذه السورة الكريمة ملامح القرآن المكي، وقد يكون مطلعها تأخر نزولا إلى أن وصل النبي ﷺ المدينة، ويؤيد هذا ما أخرجه النسائي وابن ماجة وابن جرير والبيهقي في شعب الايمان بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلا، فأنزل الله «ويل للمطففين» فأحسنوا الكيل بعد ذلك. أنظر فتح البارى: 8/ 695، وتفسير ابن كثير: 7/ 236، والدر المنثور: 6/ 323.

وقد أبدى السيوطي رحمه الله وجوها في مناسبتها مع ما قبلها، وفصلها سورة الانشقاق التي بعدها عن قرينتيها التكوير والانفطار فقال: فغالب ما وقع في التكوير، وجميع ما وقع في الانفطار وقع في صدر يوم القيامة، ثم بعد ذلك يكون الموقف الطويل ومقاساة العرق والأهوال، فذكروا في هذه السورة بقوله «يوم يقوم الناس لرب العالمين» (6) ولهذا ورد في الحديث: (يقوم أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه) أخرجه البخاري وغيره ثم بعد ذلك تحصل الشفاعة العظمى، فتنشر الكتب فآخذ باليمين وآخر بالشمال، وآخذ من وراء ظهره، ثم بعد ذلك يقع الحساب، هكذا وردت بهذا الترتيب الأحاديث، فناسب تأخير سورة الانشقاق التي فيها إتيان الكتب والحساب عن السورة التي قبلها والتي فيها ذكر الموقف عن التي فيها مبادىء يوم القيامة. أنظر تناسق الدرر ص: 148.

وقال الألوسي: «لما ذكر فيما قبل السعداء والاشقياء ويوم الجزاء وعظم شأنه ذكر عز وجل هنا ما أعد جل وعلا لبعض العصاة وذكّر سبحانه بأخس ما يقع من المعصية وهو التطفيف الذي لا يكاد يجدي شيئا في تثمير المال وتنميته مع اشتمال هذه السورة من شرح حال المكذبين المذكورين هناك على زيادة تفصيل «روح المعاني» 30/ 67.

(*) وهي مكية في قول الجميع وهي متصلة بالتكوير والانفطار اتصال النظير بالنظير، والشبيه بالشبيه كما تقدمت الاشارة إلى ذلك.

وتفريقا يوم العرض، وافتتحت السورة بذكر انشقاق السماء، ومد الأرض وإلقائها ما فيها وتخليها، تعريفا بهذا اليوم العظيم بما يتذكر به من سبقت سعادته والمناسبة بينة.

ســــورة البــــروج(749)

وردت هذه السورة في قصة أصحاب الأخدود وقد تقدم هذا الضرب في سورة المجادلة وسورة النبأ وبينا وقوعه في أنفس السور ومتونها وهو أقرب فيما بين السورتين وأوضح.

ســــورة الطــــارق(750)

لما قال تعالى في سورة البروج، والله على كل شيء شهيد» (الآية : 9). «والله من ورائهم محيط» (الآية : 20) وكان في ذلك تعريف العباد بأنه سبحانه

---

(749) وهي مكية بالاتفاق، وقد اشتملت كسابقتها على الافتتاح بذكر السماء ووعد المومنين ووعيد الكافرين، وجزاء كل منهما. ولما ذكر سبحانه وتعالى في الآية 23 من الانشقاق بأنه أعلم بما يجمعون لرسول الله ﷺ من المكر والخداع، وإيذاء من أسلم بأنواع من الأذى وأصناف من العذاب، عقب هنا بذكر قصة أصحاب الأخدود للتأكيد على أن الاضطهاد والتعذيب لا يزيد المومنين إلا إيمانا وثباتا سواء وقع ذلك في الأمم السابقة أو حصل بالنسبة لمن عذب من المومنين بالرسالة المحمدية من كفار قريش وطغاة الجاهلية، وفي ذلك تسلية لرسول الله ﷺ ولمن معه من أصحابه الكرام عن إيذاء الكفار لهم ووقوفهم في وجه الدعوة وصرفهم عن سبيل الله، وأن ذلك سنة، ولن نجد لسنة الله تبديلا، وهذا أمر مثبت في اللوح المحفوظ وهو ممتنع التغيير «بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ» (21—22).

وفي البحر المحيط : 453/8 قريب مما أبديته من وجه المناسبة.

(750) وهي مكية بالاتفاق، بل أنها من أوائل القرآن نزولا كما يدل عليه حديث خالد العدواني أنه أبصر النبي ﷺ بسوق ثقيف وهو قائم على عصا أو قوس فسمعه يقرأ والسماء والطارق حتى ختمها. الدر المنثور : 6/ 335، وابن كثير : 7/ 264.

واتصالها بالبروج واضح، وأبدى المصنف فيه وجها قويا، يضاف إليه تآخي السورتين في البدايات بالقسم بالسماء، وتأكيدهما على صدق القرآن وما جاء به، ففي الأولى «بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ» (21—22)، وفي الثانية «إنه لقول فصل وما هو بالهزل» (13—14).

وقد أخرج الامام أحمد في مسنده : 2/ 326-327 من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء يعني ذات البروج، والسماء والطارق، وفي رواية أخرى أنه ﷺ أمر أن يقرأ بالسماوات في العشاء.

لا يغيب عنه شيء، ولا يفوته هارب أردف ذلك بتفصيل يزيد إيضاح ذلك التعريف الجملي من شهادته سبحانه على كل شيء وإحاطته به فقال : «إن كل نفس لما عليها حافظ» (الآية : 4) فأعلم سبحانه بخصوص كل نفس ممن يحفظ أنفاسها» ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد» (ق : 18) ليعلم العبد أنه ليس بمهمل ولا مضيع، وهو سبحانه الغني عن كتب الحفظة وإحصائهم ولكن هي سنة حتى لا يبقى لأحد حجة ولا تعلق، وأقسم تعالى على ذلك تحقيقا وتأكيدا يناسب القصد المذكور.

ســـورة الأعلـــى(751)

لما قال سبحان مخبرا عن عَمَه الكفار في ظلام حيرتهم أنهم يكيدون كيدا، وكان وقوع ذلك من العبيد المحاط بأعمالهم ودقائق أنفساهم وأحوالهم من أقبح مرتكب وأبعده عن المعرفة بشيء من عظيم أمر الخالق جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه، اتبع سبحانه ذلك بأمر نبيه عليه الصلاة والسلام بتنزيه ربه الأعلى عن بشيع اعتدائهم وإفك افترائهم فقال : «سبح اسم ربك الأعلى» (1) أي نزهه عن قبيح مقالهم، وقدم التنبيه على التنزيه في أمثال هذا ونظائره، ووقع ذلك أثناء السـور وفيما(752) بين سورة وأخرى، وأتبع سبحانه من التعريف بعظيم قدرته وعلي حكمته بما يبين ضلالهم فقال : «الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى» (2ـــ3) فتبارك الله أحسن الخالقين وتنزه عما يتقوله المفترون.

---

(751) هذه السورة مكية، فقد أخرج أحمد والبزار وابن مردويه عن علي قال : كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة ويسميها : أفضل المسبحات، وفي فضلها وردت آثار وأحاديث كثيرة. أنظر الدر المنثور : 6/ 337، وروح المعاني : 30/ 102.

ومناسبتها لما قبلها أن سورة الطارق لفتت النظر إلى خلق الانسان «فلينظر الانسان مم خلق» (3) فجاءت هذه السورة لبيان نعم الله على هذا الانسان وما يحتاج إليه ويقوم به، فاقتضى ذلك تنزيهه وتقديسه تعالى خاصة بعد استكمال الخلق بتعليمه من الله تعالى : «سنقرئك فلا تنسى» (6).

(752) ب : فيا.

ســـورة الغاشيـــة[753]

لما تقدم تنزيهه سبحانه عما توهمه الظالمون، واستمرت آي السورة على ما يوضح (تنزيه)[754] الخالق جل جلاله عن عظيم مقالهم، أتبع ذلك بذكر الغاشية بعد افتتاح السورة بصورة الاستفهام تعظيما لأمرها فقال لنبيه ﷺ : «هل أتاك حديث الغاشية» (1) وهي القيامة فكأنه سبحانه يقول : في ذلك اليوم يشاهدون جزاءهم ويشتد تحسرهم حين لا يغني عنهم، ثم عرّف بعظيم امتحانهم في قوله : «ليس لهم طعام إلا من ضريع» (6) مع ما بعد ذلك وما قبله، ثم عرف بذكر حال من كان في نقيض حالهم إذ ذاك أزيد في القرع وأدهى[755] ثم أردف بذكر ما نصب من الدلائل وكيف لم تغن فقال : «أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت..... الآيات» (17) أي أفلا يعتبرون بكل ذلك ويستدلون على الصنائع ثم أمره بالتذكار.

ســـورة الفجـــر[756]

أبدى سبحانه لمن تقدم ذكره وجها آخر من الاعتبار، وهو أن يتذكروا حال من تقدمهم من الأمم وما أعقب تكذيبهم واجترائهم فقال : «ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد إلى قوله : إن ربك لبالمرصاد» (6—14) أي لا يخفى عليه شيء من مرتكبات الخلائق، ولا يغيب عنه ما أكنوه «سواء منكم من أسر

---

(753) هذه السورة مكية بالاتفاق، ووجه مناسبتها لما قبلها أنه لما تقدم قوله في الأعلى «بل توثرون الحياة الدنيا وللآخرة خير وأبقى» (16—17) جاءت هذه السورة لتبين مقام كل واحد من الفريقين : أهل الجنة وأهل النار لتثني المغرورين عما هم فيه، وترغب المومنين الى ما هم صائرون إليه مع إقامة الدليل على القدرة الألهية، من خلال إلفات النظر إلى بعض مخلوقات الله، وفي ذلك تذكير وعبرة لمن اعتبر.

(754) أضفتها لاقتضاء السياق ذلك.

(755) اي في اللحوم والتوبيخ.

(756) وهي مكية بالاتفاق وما أوضحه المؤلف من ارتباطها ومناسبتها مع ما قبلها واضح جلي : وقد أبدى السيوطي وجها حسنا قال فيه : إن أولها كالإقسام على صحة ما ختم به السورة التي قبلها من قوله جل وعلا : «إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم» (25—26) وعلى ما تضمنه من الوعد والوعيد، كما أن أول الذاريات قسم على تحقيق ما في «ق» وأول المرسلات قسم على تحقيق ما في «عم». أنظر تناسق الدرر ص : 150.

القول ومن جهر به» (الرعد : 10) فهلا اعتبر هؤلاء بما يعانونه ويشاهدونه من خلق الابل ورفع السماء ونصب الجبال وسطح الأرض وكل ذلك لمصالحهم ومنافعهم، فالابل لأثقالهم وانتقالهم، والسماء لسقيهم وإظلالهم، والجبال لاختزان مياههم واقلالهم، والأرض لحلولهم، وارتحالهم، فلا بهذه استبصروا، ولا بمن خلا من القرون اعتبروا «ألم تر كيف فعل ربك بعاد» (الآية : 6) على عظيم طغيانها وصميم بهتانها «إن ربك لبالمرصاد» (آية : 14) سيتذكرون حين لا ينفع التذكر «إذا دكت الأرض دكا دكا وجاء ربك والملك صفا صفا وجيء يومئذ بجنهم يومئذ يتذكر الانسان وانى له الذكر» (21ــ23).

ســــورة البلـــد(*)

لما أوضح سبحانه حال من تقدم ذكره في السورتين في عظيم حيرتهم وسوء غفلتهم وما أعقبهم ذلك من التذكر تحسرا حين لا ينفع الندم ولات حين مطمع، أتبع ذلك بتعريف نبيه علي الصلاة والسلام بأن وقوع ذلك منهم إنا جرى على حكم السابقة التي شاءها والحكمة التي قدرها كما جاء في الموضع الآخر «ولو شئنا لآتينا كل نفس هدها» (السجدة : 13) فأشار تعالى إلى هذا بقوله : «لقد خلقنا الانسا في كبد» (آية : 4) أي إنا خلقناه كذلك ابتلاء ليكون ذلك قاطعاً لمن سبق له الشقاء عن التفكر والاعتبار، «وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا» (الكهف : 57) فأعماهم بما خلقهم فيه من الكبد، وأعقل قلوبهم

(*) وهي مكية، ومناسبتها أنه لما تقدم في الفجر ذكر تدمير عاد ذات العماد، وفرعون بسبب فجورهم وفسادهم في البلاد «فأكثروا فيها الفساد» (12) زادت هذه السورة القضية إيضاحا بأن الكافر يطغى ويتجبر ويظن أنه لن يقدر عليه أحد، ولا يصرف المال في وجوهه من إطعام للقريب والمسكين، وإنفاقه في المعروف، فكان مصيره مصير عاد وثمود وقوم فرعون «أولئك أصحاب المشأمة عليهم نار موصدة» (20).

وأيضا فإنه تعالى ذكر في الغاشية صفة النار والجنة مفصلة على ترتيب ما في سورة الأعلى ثم زاد الأمر تفصيلا في سورة الفجر بذكر أسباب عذاب أهل النار فضرب لذلك مثلا بقوم عاد، وقوم فرعون في قوله : «ألم تر كيف فعل ربك بعاد» إلى «إن ربك لبالمرصاد»(14/6) ثم ذكر عناصر ظغيانهم في قوله «كلا بل لا تكرمون اليتيم» (17 وما بعدها)، فكانت هذه السورة بعد ذلك بمثابة إقامة الحجة عليهم» . أنظر تناسق الدرر للسيوطي تعليق : (1) ص. 150.

فحسبوا أنهم لا يقدر عليهم أحد، وقد بين سبحانه فعله هذا بهم في قوله لنبيه عليه الصلاة والسلام «ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه» (الكهف : 28) «ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم» (يونس : 99) فأنت تشاهدهم يا محمد ذوي أبصار وآلات يعتبر بها النظار، «ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين» (8ـ9) فلا أخذ في خلاص نفسه واعتبر بحاله وأمسه «فلا اقتحم العقبة»(11) ولكن «إذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له» (الرعد : 11).

سـورة الشمـس[757]

لما تقدم في سورة البلد تعريفه تعالى بما خلق فيه الانسان من الكبد مع ما جعل له سبحانه من آلات النظر وبسط له من الدلائل والعبر، أظهره في صورة من مَلك قياده وميز رشده وعناده وهذا بيان النجدين «إنا هديناه السبيل» (الانسان : 3) وذلك بما جعل له من القدرة الكسبية التي حقيقتها اهتمام أو كد ألم وأتى بالاستبداد والاستقلال ( )[758] ثم "والله خلقكم وما تعملون" أقسم سبحانه في هذه السورة على فلاح من اختار رشده واستعمل جهده، وأنفق وجده «قد أفلح من زكاها» (آية : 9) وخيبة من عـاب هداه فاتبع هواه، «وقد خاب من دساها» (آية : 10) فبين حال الفريقين وسلوك الطريقين.

سـورة الليـل[759]

لما بين قبلُ حالَهم في الافتراق، وأقسم سبحانه على ذلك الشأن في الخلائق بحسب تقديره أزلا «لنبلوهم أيهم أحسن عملا» الكهف : 7) فقال تعالى : «إن

(757) وهي مكية بالاتفاق، وما أبداه المصنف من مناسبتها لما قبلها، من حيث هي تفصيل لسورة البلد، وبيان لأصحاب الميمنة وهم الذين يزكون أنفسهم، وأصحاب المشأمة وهم الذين يدسون أنفسهم في الرذائل والمعاصي، واضح جلي.

(758) هكذا في الأصل وكتب فوقها : «بياض في بعض النسخ»، وهذه العبارات مضطربة المعنى والمبنى لم أتبين وجهها.

(759) وهي مكية، وان كان عليها طابع السور المكية فقد قال بعضهم بأنها مدنية كما ذكر ذلك القرطبي في تفسيره ج : 20/ 80.

سعيكم لشتى» (آية : 4) فاتصل بقوله تعالى : «قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها» (الشمس : 9ـــ10) ثم ان قوله تعالى : «فأما من أعطى واتقى ـــ الى ـــ العسرى» (5ـــ10) يلائمه تفسيرا وتذكيرا ـــ بما الأمر عليه من كون الخير والشر بإرادته وإلهامه وبحسب السوابق ـــ قوله : «فألهمها فجورها وتقواها» (الشمس : 8) فهو سبحانه أهلهم للاعطاء وللاتقاء والتصدق، والمقدر للبخل والاستغناء والتكذيب، «والله خلقكم وما تعملون» (الصافات : 96) «لا يسأل عما يفعل» (الأنبياء : 23) ثم زاد ذلك إيضاحا بقوله تعالى : «إن علينا للهدى وإن لنا للآخرة والأولى» (12ـــ13) فتبا للقدرية والمعتزلة(760) «وكآي من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون» (يوسف : 105).

ســـورة الضحـــى(761)

لما قال تعالى : «فألهمها فجورها وتقواها» (الشمس : 8) ثم اتبعه بقوله : «فسنيسره» (الليل : 7) وبقوله : «إن علينا للهدى وإن لنا للآخرة والأولى»

= وقوله تعالى : «وسيجنبها الأتقى إلى آخر السورة (17ـــ21) نزلت في أبي بكر الصديق، فقد أخرج الحاكم في المستدرك 2/ 525 وقال صحيح على شرط مسلم من حديث عبد الله بن الزبير قال : قال أبو قحافة لأبي بكر : أراك تعتق رقابا ضعافا، فلو أنك فعلت ما فعلت اعتقت رجالا جلدا يمنعونك ويقومون دونك، قال أبو بكر : يا أبت إني أريد ما أريد فنزلت الآيات. قال ابن كثير وكاد أن يجمع المفسرون على هذا.

واتصالها بالشمس واضح فهي تفصيل للتزكية بالاعطاء والتقوى، والتصديق بالحسنى وهي لا إله إلا الله وما يستتبعها، وتفصيل للتدسية وهي : البخل بنعم الله والكبر والجحود والتكذيب بلا إله إلا الله وما ستتبعها.

(760) القدرية فرقة خاضت في مسألة القضاء والقدر في عصر الأمويين قالوا إن كل فعل للانسان هو إرادته المستقلة عن إرادة الله سبحانه وتعالى، فنفوا بذلك «القدر» بمعنى العلم والتقدير عن الله تعالى وقالوا في ذلك «الأمر أنف» وقد تصدى لهذه الدعوة : معبد بن خالد الجهني بالعراق، وغيلان الدمشقي بالشام:

وتعتبر هذه المسألة أيضا إحدى مسائل المعتزلة بل أصلا من أصولهم الخمسة وهي : التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين والامر بالمعروف والنهي عن المنكر، انظر الاقتصاد في الاعتقاد للامام الغزالي ص : 181، والملل والنحل للشهرستاني ج : 1/ 47، وتاريخ المذاهب الاسلامية للشيخ أبو زهرة ج : 1/ 31 و 151.

(761) هذه السورة مكية، وقد جاء في عديد من الروايات أن الوحي أبطأ عن النبي ﷺ فقيل إن محمدا قد قلاه ربه، وأصح شيء في ذلك أنه ﷺ اشتكى فلم يقم ليلة أو ليلتين فقالت امرأة : يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فأنزل الله عز وجل «والضحى» إلى قوله «ما ودعك ربك وما قلى» (2) أخرجه أحمد والشيخان وغيرهم. أنظر فتح الباري : 8/ 711، وابن كثير : 7/ 313.
=

(الليل : 12ـــ13) فلزم الخوف، واشتد الفزع وتعين على الموحد الاذعان بالتسليم(762) والتضرع في التخلص، والتجاؤه إلى السميع العليم، آنس تعالى أحب عباده إليه وأعظم منزلة لديه، وذكر له ما منحه من تقدريبه واجتبائه وجمع خير الدارين له فقال : «والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى وللآخرة خير لك من الأولى» (1ـــ4) ثم عدد تعالى عليه نعمه بعد وعده الكريم له بقوله : «ولسوف يعطيك ربك فترضى» (آية :5) وأعقب ذلك بقوله : «فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر» (9ـــ10) فقد أوتيتك(763) قبل تعرضك وأعطيتك قبل سؤالك، فلا تقابله بقهر من تعرض ونهر من سأل وقد حاشاه سبحانه عما نهاه عنه، ولكنه تذكير بالنعم، وليستوضح الطريق من وفق من أمته ﷺ، أما هو ﷺ فحسبك من تعرف رحمته ورفعه قوله : «وكان بالمومنين رحيما» (الأحزاب : 43) «عزيز عليه ما عنتم ـــ الى ـــ رحيم» (التوبة : 128).

ثم تأمل استفتاح هذه السورة ومناسبة ذلك المقصود، وكذلك السورة قبلها برفع القسم في الأولى بقوله : «والليل إذا يغشى» (الليل : 1) تنبيها على إبهام الأمر في السلوك على المكلفين وغيبة حكم العواقب، وليناسب هذا حال المتذكر بالآيات وما يلحقه من الخوف مما أمره غائب عنه من تيسيره ومصيره واستعصاء ما به يحصل اليقين واستصغار درجة المتقين، ثم لما لم يكن هذا غائب بالجملة عن آحاد المكلفين أعني ما يثمر العلم اليقين ويعلي من أهِّل للترقي في درجات المتقين، بل قد يطلع سبحانه خواص عباده بملازمة التقوى والاعتبار على واضحة السبيل ويريهم مشاهدة وعيانا ما قد انتهجوا قبل سبيله بمشقة النظر في الدليل، قال ﷺ

= قال السيوطي : لما كانت سورة الضحى نازلة في شأنه ﷺ، افتتحت بالضحى الذي هو نور، ولما كانت سورة الليل في أبي بكر يعني : ما عدا قصة البخيل، وكانت سورة الضحى سورة محمد، عقب بها ولم يجعل بينهما واسطة ليعلم إلا واسطة بين محمد وأبي بكر. أنظر تناسق الدرر ص : 152.

(762) في الأصل : للتسليم.

(763) ب : أوتيك.

لحارثة : (عرفت فالزم)[764] وقال مثله للصديق،[765] وقال تعالى : «لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة» (يونس : 64) إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة» (فصلت : 30—31) فلم يبق في حق هؤلاء ذلك الابهام ولا كدر خواطرهم بتكاثف ذلك الاظلام بما منحهم سبحانه من نعمة الاحسان بما وعدهم في قوله : «يجعل لكم فرقانا» (الأنفال : 29 «ويجعل لكم نورا تمشون به» (الحديد : 28) أو من كان ميتا فأحييناه وجلعنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها» (الأنعام : 122) فعمل هؤلاء على بصيرة، واستدلوا اجتهادا بتوفيق ربهم على أعمال جليلة خطيرة فقطعوا عن الدنيا الآمال وتأهبوا لآخرتهم بأوضح الأعمال «تتجافى جنوبهم عن المضاجع» (السجدة : 16) «فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين» (السجدة : 17)، فلابتداء الأمر وشدة الابهام والاظلام ما أشار إليه قوله سبحانه وتعالى : «والليل إذا يغشى» (والليل : 1) ولما تؤول إليه الحال في حق من كتب في حقه الايمان وأيده بروح منه أشار قوله سبحانه : «والنهار إذا تجلى» (الليل : 2) ولانحصار السبيل وإن تشعبت في طريقين: «فمنكم كافر ومنكم مومن» (التغابن : 2) «فريق في الجنة وفريق في السعير» (الشورى : 7) أشار قوله تعالى : «وما خلق الذكر والأنثى» الليل : 3) «ومن كل شيء خلقنا زوجين» (الذاريات : 49)، ففروا إلى الله الواحد مطلقا، فقد وضح لك إن شاء الله بعض ما ليس من تخصيص هذا القسم والله أعلم.

أما سورة الضحى فلا إشكال في مناسبة استفتاح القسم بالضحى بما يسره له سبحانه لا سيما إذا اعتبرت ما ذكر من سبب نزول السورة، وأنه ﷺ قد فتر عنه الوحي حتى قال بعض الكفار : قلا محمدا ربُّه، فنزلت السورة مسفرة عن هذه النعمة والبشارة.

(764) أخرجه الطبراني في الكبير والبزار في مسنده من حديث أنس بن مالك، قال في مجمع الزوائد : 1/ 57 فيها ابن لهيعة، وفيها من يحتاج إلى الكشف عنه، ورواية البزار فيها يوسف بن عطية لا يحتج به» أنظر المعجم الكبير للطبراني : 3/ 302 وجمع الفوائد : 1/ 24.

(765) لم أعثر عليه.

ســـورة الشـــرح[766]

معنى هذه السورة من معنى السورة التي قبلها، وحاصل السورتين تعداد نعمه عليه سبحانه، فإن قلت فلم فصلت سورة «ألم نشرح» ولم ينسق ذكر هذه النعم في سورة واحدة قلت : من المعهود في البشر فيمن عدد على ولده أو عبده نعماً أن يذكر له أولا ما شاهد الحصول عليه منها بكسبه مما يمكن أن يتعلق في بعضها بأن ذلك وقع جزاء إبتداء، فإذا استوفى له ما قصده من هذا، أتبعه بذكر نعم ابتدائية قد كان ابتداؤه بها قبل وجوده كقول الأب مثلا لابنه : ألم أختر لأجلك الأم والنفقة، حيث استولدتك وأعددت من مصالحك كذا وكذا، ونظير ما أشرنا إليه قوله سبحانه لزكرياء عليه الصلاة والسلام «ولم تك شيئا» (مريم : 9) وقد قدم له : «إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى»[767] (مريم : 7) وتوهم استبداد الكسبية في وجود الولد غير خافية في حق من قَصُر نظره ولم يوفّق، فابتدأ بذكرها، ثم أعقب ما لا يمكن أن يتوهم فيه ذلك وهو قوله : «وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا» (مريم : 9) وله نظائر من الكتاب وعليه جاء ما ورد في هاتين السورتين والله أعلم.

---

(766) وتسمى أيضا «ألم نشرح» وهي مكية خلافا للبقاعي الذي زعم أنها مدنية، وهي كما يقول الألوسي : «شديدة الاتصال بسورة الضحى حتى أنه روى عن طاوس وعمر بن عبد العزيز أنهما كانا يقولان هما سورة واحدة ركانا يقرآنهما في الركعة الواحدة وما كانا يفصلان بينهما ببسم الله ا لرحمن الرحيم وعلى ذلك الشيعة كما حكاه الطبرسي منهم. قال الامام : والذي دعا إلى ذلك هو أن قوله تعالى : «ألم نشرح» كالعطف على قوله تعالى : «ألم يجدك يتيما» وليس كذلك لأن الأول كان عند اغتمام الرسول ﷺ من إيذاء الكفرة، وكانت الحالة حالة محنة، وضيق صدر، والثاني يقتضي أن يكون حال النزول منشرح الصدر طيب القلب فأنى يجتمعان، وفيه نظر : والحق مدار مثل ذلك الرواية لا الدراية، والمتواتر كونهما سورتين والفصل بينهما بالبسملة، نعم هما متصلتان معنى جدا، ويدل عليه ما في حديث الاسراء الذي أخرجه ابن أبي حاتم أن الله تعالى قال له عليه الصلاة والسلام : يا محمد ألم أجدك يتيما فآويت وضالا فهديت، وعائلا فأغنيت، وشرحت لك صدرك وحططت عنك وزرك ورفعت لك ذكرك... الحديث». أنظر روح المعاني : 30/ 165.

ثم إن هذه السورة شرح لسابقتها، فشرح الصدر هناك مفصل هنا ببيان عناصره وأسبابه التي هي الايواء بعد اليتم، والهداية بعد الضلال، والغنى بعد العيلة، فتلك كلها عوامل انشراح الصدر بعد الايمان لا سيما وقد جاءت بعد وعد بإعطاء حتى يرضى الرسول ﷺ. أنظر تعليق 3 من تناسق الدرر ص : 152.

(767) ب : «إنا نبشرك بيحيى».

سورة التين(768)

هذه سورة موضحة ومتممة للمقصود في السورتين قبلها، فبان لك أن الصور الانسانية بظاهر الأمر مما هي عليه من الترتيب والاتقان، قد كانت تقتضي الاتفاق بظاهر ارتباط الكمال بها من حيث إنها في أحسن تقويم والافتراق يبعد في الظاهر، فكيف افترق الحكم واختلف السلوك، فمن صاعد بالاستيضاح والامتثال، ونازل أسفل سافلين فضلا عن ترقي درجات الكمال، فإذن ليس يرقى من خُصَّ بمزيه التقرب إلا أنه نودي من قريب فأسرع في إجابة مناديه وأصاخ، وما اعتل بحاديه فسلك من واضحات السبيل ما رسم له وبنى على ما كتب له من ذلك عمله، «ولو شئنا لآيتنا كل نفس هداها» (السجدة : 13) فعلى العاقل المنصف في نفسه أن يعلم أن كلا ميسر لما خلق له(769)، فيضرع إلى خالقه في طلب الخلاص، من وجد خيرا فليحمد الله.

فأوضحت هذه السورة أن ما أعطى الله نبيه ﷺ وخصه به من ضروب الكرامات وابتدأه به من عظيم الآلاء مما تضمنت السورتان إلى ما منحه من خير الدارين، وما تضمن قَسَمه سبحانه أنه ما ودعه ولا قلاه من الملاطفة والتأنيس ودلائل الحب والتقريب، كل ذلك فضل منه تعالى وإحسان لا لعمل تقدم

---

(768) مكية النزول، ونقل القرطبي عن ابن عباس وقتادة أنها مدنية وهو بعيد لأن البلد المقسم به هو مكة.
ومن مناسبة هذه السورة لما قبلها أنه تعالى لما ذكر في السورة السابقة حال أكمل النوع الانساني بالاتفاق بل أكمل خلق الله عز وجل على الاطلاق ﷺ ذكر تعالى في هذه السورة شرف بلده الأمين، وحال النوع وما ينتهي إليه أمره، وما أعد سبحانه لمن آمن منه به عليه السلام.

(769) إشارة إلى الحديث الذي رواه (الشيخان وأبو داود والترمذي) عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : «قيل يا رسول الله أعُلمَ أهل الجنة من أهل النار ؟ قال : نعم، قيل : ففيم يعمل العاملون ؟ قال : كل ميسر لما خلق له.
أنظر التاج الجامع للأصول : 1/ 38.

يستوجب ذلك أو بعضه، ولو تقدم عمل لم يقع إلا بمشيئته وتوفيقه وإرادته ولا يستوجب أحد عليه شيئاً وإنما هو فضله يوتيه من يشاء، فقال سبحانه منبها على ما وقع الايماء إلى بعضه «لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم» (الآية : 4) ومع ذلك لا ينفعه وقوع صورته الظاهرة في عالم الشهادة على أكمل خلق وأتم وضع، بل إذا لم يصحبه توفيق وسبقية سعادة من خالقه ولم يجعل له نورا يمشي به لم ير غير نفسه، ولا عرف إلا أبناء جنسه فقصُر نظره على أول ما شاهد، ووقف عندما عاين من غير اعتبار بجده إلى تحقيق مآله وتبيين حاله أنه لم يكن شيئا مذكورا، فلما قصر وما أبصر اعتقد لنفسه الكمال وعمي عن المبتدأ والمآل، فصار أسفل سافلين حيث لم ينتفع بآلات نظره ولا تعرف حقيقة خبره، أو لم ير الانسان انا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسي خلقه» (يس : 77—78) ثم قال تعالى : «إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات» (6) فهم الذين هداهم ربهم بإيمانهم فجزوا بسببه من خلقه في أحسن تقويم، واستوضحوا الصراط المستقيم، واستبصروا، فأبصروا ونظروا فاعتبروا، وقالوا ربنا الله ثم استقاموا، «فلهم أجر غير ممنون»(6).

سـورة العلـق(*)

لما قال سبحانه لنبيه ﷺ «فما يكذبك بعد بالدين أليس الله بأحكم الحاكمين» (التين : 7—8) وكان معنى ذلك على هذا بعد وضوح الأمر لك وبيانه، وقد نزهه تعالى عن التكذيب بالحساب وأعلى قدره عن ذلك، ولكن سبيل

(*) هذه السورة مكية، وقد اختلف في أنها أول السور نزولا. قال ابن حجر في الفتح : قال صاحب الكشاف ذهب ابن عباس ومجاهد إلى أنها أول سورة نزلت، وأكثر المفسرين إلى أن أول سورة نزلت فاتحة الكتاب. ثم قال : والذي ذهب أكثر الأئمة إليه هو الأول وأما الذي نسبه (أي الزمخشري) إلى الأكثر فلم يقل به إلا عدد أقل من القليل بالنسبة إلى من قال بالأول. الفتح 8/ 548.

ومن أوجه اتصالها بما قبلها والله أعلم أنها بيان لمن رد إلى أسفل سافلين من البشر وهو من ينهى الناس عن الخير والعبادة والصلاة، وكذب بالقرآن وتولى متكبرا، وأيضا لما تقدم في سورة التين بيان خلق الانسان في أحسن تقويم بين هنا أنه تعالى : «خلق الانسان من علق» (2) وذلك ظاهر الاتصال، فالأول بيان العلة الصورية، والثاني بيان العلة المادية. أنظر تناسق الدرر : 154.

هذا إذا ورد كسبيل قوله تعالى : «لئن أشركت ليحبطن عملك» (الزمر : 65) وبابه، وحكم هذا القبيل واضح في حق من تعدى إليه الخطاب وقصد بالحقيقة به من أمته ﷺ من حيث عدم عصمتهم وإمكان تطرق الشكوك والشبهة إليهم فتقدير الكلام أي شيء يمكن فيه أن يحملكم على التوقف والتكذيب بأمر الحساب، وقد وضح لكم ما يرفع الريب ويزيل الاشكال، فلم تعلموا أن ربكم أحكم الحاكمين، أفيليق به وهو العليم الخبير أن يجعل اختلاف أحوالكم في الشكوك بعد خلقكم في أحسن تقويم، أفيحسن أن يفعل ذلك عبثا وقد قال تعالى : «وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا» (ص : 27) فلما قرر سبحانه للعبيد على أنه أحكم الحاكمين مع ما تقدم من موجب نفي الاسترابة في وقوع الجزاء إذا اعتبر ونظر، وقعت في الترتيب سورة العلق مشيرة إلى ما به يقع الشقاء، ومنه يعلم الابتداء والانتهاء، وهو كتابه المبين الذي جعله تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمحسنين، فأمر بقراءته ليتدبروا آياته فقال : «اقرأ باسم ربك» (1) أي مستعينا به فسوف يتضح سبيلك وينتهج دليلك، «تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا» (الفرقان : 1) وأيضا فإنه تعالى أعلم عباده بخلقه الانسان «في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين» (التين : 5) وحصل منه على ما قدم بيانه افتراق الطرفين وتباين المتقابلين، كل ذلك بسابق حكمته وإرادته «ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها» (السجدة : 13).

وقد بين سبحانه أقصر غاية ينالها أكرم خلقه وأجل عباده لديه من الصنف الانساني وذلك فيما أوضحت السورتان قبل من حال نبينا المصطفى ﷺ وجليل وعده الكريم له في قوله : «ولسوف يعطيك ربك فترضى» (الضحى : 5) وفضل حال ابتداء «ألم نشرح» على ما تقدم سؤال «رب اشرح لي صدري» (طه : 25) إلى ما أشارت إليه آي السورتين من خصائصه الجليلة وذلك أعلى مقام يناله أحد ممن ذكر، فوقع تعقيب ذلك بسورة تضمنت الاشارة إلى حال من جعل في الطرف الآخر من الجنس الانساني، وذلك حال من أشير من لدن قوله تعالى : «أرايت الذي ينهى عبدا إذا صلى — إلى قوله — : كلا لا تطعه»

(9ـ19) ليظهر تفاوت المنزلتين وتباين ما بين الحالتين وهي العادة المطردة في الكتب، ولم يقع صريح التعريف هنا كما وقع في الطرف الآخر ليطابق المقصود، ولعل بعض من لم يتفطن يعترض هنا بأن هذه السورة من أول ما أنزل فكيف يستقيم مرادك من ادعاء ترتيبها على ما تأخر عنها نزولا، فيقال له وأين غاب اعتراضك في عدة سور مما تقدم بل في معظم ذلك وإلا فليست سورة البقرة من المدني ومقتضى تأليفنا هذا بناء ما بعدها من السور على الترتيب الحاصل في مصحف الجماعة إنما هو عليها وفيما بعد من المكي ما لا يحصى، فإنما غاب عنك نسيان ما قدمناه في الخطبة من أن ترتيب السور على ما هي عليه راجع إلى فعله عليه الصلاة والسلام كان ذلك بتوقيف منه أو باجتهاد الصحابة رضي الله عنهم على ما قدمناه، فارجع بصرك وأعد في الخطبة نظرك والله يوفقنا إلى اعتبار بيناته وتدبر آياته ويحملنا في ذلك ما يقربنا إليه بمنه وفضله.

سورة القــدر[770]

وردت تعريفا بانزال ما تقدم الأمر بقراءته لما قدمت الاشارة الى عظيم أمر الكتاب وأن السلوك اليه سبحانه انما هو من ذلك الباب، أعلم سبحانه بليلة انزاله وعرفنا بقدرها لنعتمدها في مظان دعائنا وتعلق رجائنا ونبحث على الاجتهاد في العمل لعلنا نوافقها وهي كالساعة في يوم الجمعة في ابهام أمرها مع جليل قدرها، ومن قبيل الصلاة الوسطى، ولله سبحانه في اخفاء ذلك رحمة وكأن في التعريف بعظيم قدر هذه الليلة التعريف بجلالة المنزل فيها، فصارت سورة القدر من تمام ما تقدم ووضح اتصالها.

(770) قال الألوسي : «ووجه مناسبتها لما قبلها أنها كالتعليل للأمر بقراءة القرآن المتقدم فيه كأنه قيل اقرأ القرآن لأن قدره عظيم وشأنه فخيم، وقال الخطابي : المراد بهاء الكناية في قوله تعالى : «إنا أنزلناه في ليلة القدر» الاشارة إلى قوله تعالى «اقرأ»، وارتضاه القاضي أبو بكر بن العربي وقال وهذا بديع جدا». روح المعاني : 30/ 189، وتناسق الدرر : 154.

سورة البينة(771)

هي من تمام ما تقدمها لأنه لما أمره عليه الصلاة والسلام بأن هذا الكتاب هو الذي كانت يهود تستفتح به على مشركي العرب وتعظم أمره وأمر الآتي به حتى اذا حصل ذلك مشاهدا لهم كانوا أول كافر به فقال تعالى : «لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة الى قوله وذلك دين القيمة (1—5) وفي التعريف بهذا تأكيد ما تقدم بيانه مما يثمر الخوف وينهج باذن الله التسليم والتبرء من ادعاء حول أو قوة، فإن هؤلاء كانوا قد قدم إليهم في أمر الكتاب والآتي به ما يجدونه مكتوبا عندهم في التوارة والانجيل، وقد كانوا يؤملون الانتصار به عليه الصلاة والسلام من أعدائهم ويستفتحون بكتابه، فرحم الله من لم يكن عنده علم منه كأبي بكر وعمر وانظارهما رضي الله عنهم، وحرم هؤلاء الذين قد كانوا على بصيرة من أمره وجعلهم بكفرهم شر البرية ورضي عن الآخرين ورضوا عنه، وأسكنهم في جواره ومنحهم الفوز الاكبر والحياة الأبدية، وان كانوا قبل بعثه عليه الصلاة والسلام على جهالة وعمى فلم يضرهم اذ قد سبق لهم في الأزل «أولئك هم خير البريئة» (آية : 7).

سورة الزلزلة(772)

وردت عقب سورة البرية ليبين بها حصول جزاء الفريقين ومآل الصنفين المذكورين في قوله : «ان الذين كفروا من أهل الكتاب الى قوله : شر البريئة»

(771) قال الجمهور أنها مدنية، وأخرج ابن مردويه عن عائشة أنها نزلت بمكة وبمثلها قال يحيى بن سلام. أنظر : الاتقان36/1 والدر المنثور 377/6.

ومن وجوه مناسبتها أنه لما تقدم بيان عظيم فضل القرآن ودرجته، كشفت هذه السورة أن المشركين الذين كانوا ينتظرون الوحي من السماء قد اختلفوا بشأنه وأنهم شر البريئة وأن من سلك نهجه أولئك هم خير البريئة، الفائزين في الآخرة.

وقال السيوطي : «هذه السورة واقعة موقع العلة لما قبلها، كأنه لما قال سبحانه : «إنا أنزلناه» قيل : لمَ أنزل ؟ فقيل : لأنه لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى تأتيهم البنية وهو رسول من الله يتلو صحفا مطهرة، وذلك هو المنزل» تناسق الدرر : 155.

(772) هذه السورة مدنية في قول ابن عباس وقتادة، ومكية في قول ابن مسعود وجابر وعطاء، وقد ورد في فضلها ما أخرجه الترمذي عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ من قرأ «إذا زلزلت» عدت له بنصف القرآن، وفي رواية

(البينة : 6) وقوله : «ان الذين آمنوا الى خاتمة السورة (7ـــ8)، ولما كان حاصل ذلك افتراقهم على صنفين ولم يقع تعريف بتباين أحوالهم، أعقب ذلك بمآل الصنفين واستيفاء جزاء الفريقين المجمل ذكرهم فقال تعالى : «يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم...» (6ـــ7)

سورة العاديات[773]

أقسم سبحانه على حال الانسان بما هو فقال : «ان الانسان لربه لكنود»(6) أى لكفور يبخل بما لديه من المال كأنه لا يجازى ولا يحاسب على قليل ذلك وكثيره من أين اكتسبه وفيما أنفقه،وكأنه ما سمع بقوله : «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره» (الزلزلة : 7) «وانه لحب الخير» أي المال «لشديد» (آية : 8) لبخيل «وانه على ذلك لشهيد» (آية : 7) وان الله على ذلك لمطلع فلا نظر في أمره وعاقبة مآله اذا بعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور، أي ميز ما فيها من الخير والشر ليقع الجزاء عليه «ان ربهم بهم يومئذ لخبير» (11) لا يخفى عليه شيء من أمرهم «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره». (الزلزلة : 7ـــ8)

سورة القارعة[774]

لما قال تعالى : «أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور» (العاديات : 9ـــ10) وكان ذلك مظنة لأن يسأل متى ذلك، فقيل يوم القيامة الهائل الأمر، الفظيع الحال، الشديد البأس والقيامة هي القارعة، وكررت تعظيما

أخرى عنه أنها تعدل ربع القرآن. أنظر تفسير ابن كثير : 7/ 347 ـــ 348، والدر المنثور : 6/ 379، والقرطبي : 20/ 146.

(773) هذه السورة مكية، ونقل القرطبي في تفسيره أنها مدنية، ولكن المتأمل لها يجد طابعها طابع السور المكية. وقد أبدى المصنف في مناسبتها وجها قويا ظاهرا، ويمكن أن يضاف إليه، أنه بعد تشوف السامع والقارىء إلى معرفة جزاء العامل بالذرة خيرا أو شرا، جاءه الجواب في هذه السورة الكريمة أن ذلك يكون إذا بعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور إن ربهم بهم يومئذ لخبير.

(774) وهي مكية بالاتفاق، وقد تضمنت زيادة تخويف من اليوم الآخر، وبيان لعواقب تحصيل ما في الصدور، وجزاء العاملين الذين تقدم ذكرهم في سورتي الزلزلة والعاديات.

لأمرها كما ورد في قوله تعالى : «الحاقة ما الحاقة» (الحاقة : 1ـــ2) وقوله تعالى : «فغشيهم من اليم ما غشيهم» (طه : 78) ثم زاد عظيم هولها ايضاحا بقوله تعالى : «يوم يكون الناس كالفراش المبثوث» (4) والفراش ما تهافت في النار من البعوض، والمبثوث المنتشر «وتكون الجبال كالعهن المنفوش»(5) والعهن الصوف المصبوغ وخص لاعداده للغزل، اذ لا يصبغ بخلاف الأبيض فانه لا يلزم فيه ذلك، ثم ذكر حال الخلق في وزن الأعمال وصيرورة كل فريق ما كتب له وقدر.

سورة التكاثر(775)

لما تقدم ذكر القارعة وعظيم أهوالها أعقب بذكر ما شغل وصد عن الاستعداد لها وألهى عن ذكرها وهو التكاثر بالعدد والقربات والاهلين فقال : ألهاكم التكاثر» (آية : 1) وهو في معرض التهديد والتقريع، وقد أعقب بما يعضد ذلك وهو قوله : «كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون» ثم قال : «كلا لو تعلمون علم اليقين» (3ـــ5) وحذف جواب لو، والتقدير لو تعلمون علم اليقين لما ألهاكم التكاثر، قال ﷺ : (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا... الحديث)(776) وقوله تعالى : «لترون الجحيم» (آية : 6) جواب لقسم مقدر أى والله لترون الجحيم وتأكد بها التهديد وكذا ما بعد الى آخر السورة.

---

(775) وهي مكية وتسمى «المقبرة» عند جميع المفسرين كما قال أبو حيان، وقال الألوسي هي مدنية نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار في بني حارثة، ثم قال : ولقوة الأدلة على مدنيتها قال بعض الأجلة أنه الحق. روح المعاني : 30/ 232.

وأخرج الحاكم والبيهقي في الشعب عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ ألف آية كل يوم ؟ قالوا : ومن يستطيع أن يقرأ ألف آية ؟ قال : أما يستطيع أحدكم أن يقرأ ألهاكم التكاثر ؟. أنظر الدر المنثور : 6/ 386.

(776) أخرجه من حديث أنس بن مالك أحمد والشيخان والترمذي والنسائي، وكان ذلك في خطبة الكسوف. أنظر فيض القدير على الجامع الصغير : 5/ 316.

سورة العصر(777)

لما قال تعالى : «ألهاكم التكاثر» (آية : 1ـ2) وتضمن ذلك الاشارة الى قصور نظر الانسان وحصر ادراكه في العاجل دون الآجل الذي فيه فوزه وفلاحه وذلك لبعده عن العلم بموجب الطبع أنه كان ظلوما جهولا، أخبر سبحانه أن ذلك شأن الانسان بما هو انسان فقال : «والعصر ان الانسان لفي خسر» (آية : 1) فالقصور شأنه والظلم طبعه والجهل جبلته فيحق أن يلهيه التكاثر ولا يدخل الله عليه روح الايمان «الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات الى آخرها» (3) فهؤلاء الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله.

سورة الهمزة(778)

لما قال سبحانه «ان الانسان لفي خسر» (العصر : 2) أتبعه بمثال من ذكر نقصه وقصوره واغتراره وظنه الكمال لنفسه حتى يعيب غيره، واعتماده على ما جمعه من المال ظنا أنه يخلده وينجيه، وهذا كله عين النقص الذي هو شأن الانسان وهو المذكور في السورة قبل فقال تعالى : «ويل لكل همزة لمزة» (آية : 1) فافتتحت السورة بذكر ما أعد له من العذاب جزاء له على همزه ولمزه الذي أتم حسده، والهمزة : العياب الطعان، واللمزة مثله، ثم ذكر تعالى مآله ومستقره بقوله : «لينبذن في الحطمة»(4) أي ليطرحن في النار جزاء على اغتراره وطعنه.

---

(777) وهي مكية، وقد قيل فيها أنها مدنية كما ذكر ذلك القرطبي في تفسيره. وقال السيوطي في مناسبة هذه السورة لما قبلها وما بعدها : ان سورة التكاثر بعد القارعة واقعة موقع العلة لخاتمة ما قبلها، كأنه قيل : لما قال هناك : «فأمه هاوية» (القارعة : 8) قيل : لم ذلك ؟ فقال : لأنكم «ألهاكم التكاثر» (1) فاشتغلتم بدنياكم وملأتم موازينكم بالحطام، فخفت موازينكم بالآثام، ولهذا أعقبها بسورة العصر المشتملة على أن الانسان في خسر، بيان لخسارة تجارة الدنيا، وربح تجارة الآخرة، ولهذا أعقبها بسورة الهمزة المتوعد فيها من جمع مالا وعدده يحسب أن ماله أخلده، فانظر إلى تلاؤم هذه السور الأربع وحسن اتساقها. أنظر تناسق الدرر. ص : 157.

(778) وهي مكية بالاتفاق.

سورة الفيل(779)

لما تضمنت سورة الهمزة ذكر اغترار من فتن بماله حتى ظن أنه يخلده، وما أعقبه ذلك أتبع هذا بأصحاب الفيل الذين غرهم تكاثرهم وخدعهم امتدادهم في البلاد واستيلاؤهم حتى هموا بهدم البيت المكرم فتعجلوا النقمة وجعل الله كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيرا أبابيل أي جماعات متفرقة ترميهم بحجارة من سجيل حتى استأصلتهم وقطعت دابرهم فجعلهم كعصف ماكول، وأثر لهم ذلك، اغترارهم بتوفر حظهم من الخسر المتقدم.

سورة قريش(780)

لاخفاء باتصالهما أى أنه تعالى فعل ذلك بأصحاب الفيل ومنعهم عن بيته وحرمه لانتظام شمل قريش وهم سكان الحرم وقطان بيت الله وليؤلفهم بهاتين الرحلتين فيقيموا بمكة وتأمن ساحتهم.

---

(779) هذه السورة مكية بالاجماع : وقد أبدى الألوسي مناسبة وجيهة لما قبلها حيث قال «لما تضمن الهمز واللمز من الكفرة نوع كيد له عليه الصلاة والسلام، عقب ذلك بقصة أصحاب الفيل للاشارة إلى أن عقبى كيدهم في الدنيا تدميرهم، فإن عناية الله عز وجل برسوله ﷺ أقوى، وأتم من عنايته سبحانه بالبيت، فالسورة مشيرة إلى بيان مآلهم في الدنيا إثر بيان مآلهم في الآخرة». روح المعاني : 30/ 232.

(780) وهي مكية في قول الجمهور وهو الظاهر، وصلتها بالتي قبلها واضحة كما قال المؤلف، منة الله على أهل الحرم الذي صان مستقرهم، وأهلك من أراد بهم شرا، وكان من مقاصد صاحب الفيل «أبرهة» حرمان أهل مكة مما ألفوه من تجارتهم.

وذهبت طائفة إلى أن هذه السورة و«الفيل» سورة واحدة واحتجوا عليه بأن أبي بن كعب لم يفصل بينهما بالبسملة في مصحفه بما روى عن عمرو بن ميمون الأزدى قال صليت المغرب خلف عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقرأ في الركعة الأولى و«التين» وفى الثانية «ألم تر» و«لايلاف قريش» من غير أن يفصل بالبسملة، وأجيب بأن جمعا أثبتوا الفصل في مصحف أبي والمثبت مقدم على النافي، وبأن خبر ميمون ان سلمت صحته محتمل لعدم سماعه ولعله قرأها سرا، ويؤيد استقلالها أيضا كون آيها ليست على نمط آي ما قبلها، وانه بعد ثبوت تواتر الفصل لا يحتاج إلى دليل. أنظر روح المعاني : 30/ 233.

سورة الماعون[781]

لما تضمنت السورة المتقدمة من الوعيد لمن انطوى على ما ذكر فيها مما هو جار على حكم الجهل والظلم الكائنين في جبلة الانسان ما تضمنت كقوله تعالى: «ان الانسان لربه لكنود» (العاديات : 6) «ان الانسان لفي خسر» (العصر : 2) «يحسب ان ماله أخلده» (الهمزة : 3) وانجر أثناء ذلك مما تثيره هذه الصفات الأولية الى ما ذكر أيضا فيها كالشغل بالتكاثر والطعن على الناس ولمزهم والاغترار المهلك أصحاب الفيل أتبع ذلك بذكر صفات قد توجد في المنتمين الى الاسلام أو يوجد بعضها، وأعمال ممن يتصف بها وان لم يكن من أهلها كدع اليتيم وهو دفعه عن حقه وعدم الرفق به وعدم الحض على اطعام المسكين والتغافل عن الصلاة والسهو عنها والرياء بالأعمال ومنع الزكاة والحاجات التي يضطر فيها الناس بعضهم الى بعض، ويمكن أن يتضمن ابهام الماعون هذا كله. ولا شك أن هذه الصفات توجد في المنتمين الى الاسلام[782] فأخبر سبحانه أنها من صفات من يكذب بيوم الدين ولا ينتظر الجزاء والحساب، اشارة الى أن هؤلاء هم أهلها ومن هذا القبيل قوله ﷺ : (أربع من كن فيه كان منافقا خالصا)[783] وقوله عليه الصلاة والسلام (لا يزني الزاني حين يزني وهو مومن)[784]، وهذا الباب كثير في الكتاب والسنة، وقد بسطته في كتاب : «ايضاح السبيل من حديث سؤال جبريل»، فمن هذا القبيل والله أعلم قوله : «أرايت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم» (1—2) أى ان هذه الصفات من دفع اليتيم،

(781) وتسمى سورة أرايت، والدين، والتكذيب، وهي مكية في قول الجمهور. وقال قتادة وآخرون أنها مدنية.

(782) ب : بالاسلام.

(783) أخرجه أحمد والشيخان من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وتمامه «ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها. إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».
وأخرجه الشيخان كذلك من طريق عبد الله بن عمر بن الخطاب وفيه «إذا ائتمن خان». أنظر الفتح : 1/ 171.

(784) أخرجه أحمد والشيخان والنسائي وابن ماجة عن أبي هريرة مرفوعا وتمامه : «ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن.
وجاء أيضا من طريق ابن عباس مرفوعا عند أحمد والبخاري والنسائي. أنظر الفتح : 3/ 363.

وبعد الشفقة عليه، وعدم الحض على اطعامه والسهو عن الصلاة والمراءاة بالأعمال، ومنع الحاجات كلها من شأن المكذب بالحساب والجزاء، لأن نفع البعد عنها انما يكون إذ ذاك، فمن صدق به جرى في هذه الخصال على السنن المشكور والسعي المبرور، ومن كذب به لم يبال بها وتأبط جميعها، فتنزهوا أيها المومنون عنها فليست من صفاتكم في أصل ايمانكم الذي بايعتم عليه، فمن تشبه بقوم فهو منهم(785) فاحذروا هذه الرذائل فان دع اليتيم من الكبر الذي أهلك أصحاب الفيل وعدم الحض على اطعامه فإنما هو فعل البخيل الذي يحسب أن ماله أخلده، والسهو عن الصلاة من ثمرات ألهاكم التكاثر والشغل بالأموال والأولاد فنهى عباده عن هذه الرذائل التي يثمرها ما تقدم والتحمت السور.

ســـورة الكوثـــر(786)

لما نهى عباده عما يلتذ به من أراد الدنيا وزينتها من الاكثار والكبر والتغرر بالمال والجاه وطلب الدنيا، أتبع ذلك بما منح نبيه مما هو خير مما يجمعون وهو الكوثر وهو الخير الكثير، ومنه الحوض الذي ترده أمته في القيامة، لا يظمأ من شرب منه، ومنه مقامه المحمود الذي يحمده فيه الأولون والآخرون عند شفاعته العامة للخلق واراحتهم من هول الموقف، ومن هذا الخير قدم له في دنياه كتحليل الغنائم والنصر بالرعب والخلق العظيم، إلى ما لا يحصى من خير الدنيا والآخرة مما بعض ذلك خير من الدنيا وما فيها. واحدة من هذه العطايا «قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون» (يونس : 58) ومن الكوثر والخير الذي آعطاه الله كتابه المبين الجامع لعلم الأولين والآخرين، والشفاء لما في الصدور، ولما كمل له

(785) «من تشبه بقوم فهو منهم» أخرجه أبو داود من حديث ابن عمر بسند ضعيف. أنظر الدرر المنثورة : 164.

(786) قال ابن عباس وطائفة مكية، وقال الحسن وطائفة مدنية.

قال الامام فخر الدين الرازي هي ــ أي سورة الكوثر ــ كالمقابلة للتي قبلها، لأن السابقة وصف الله سبحانه فيها المنافقين بأربعة أمور : البخل، وترك الصلاة، والرياء فيها، ومنع الزكاة، وذكر في هذه السورة في مقابلة البخل «إنا أعطيناك الكوثر» (1) أي الخير الكثير. وفي مقابلة ترك الصلاة «فَصَلِّ» (2) أي دم عليها، وفي مقابلة الرياء «لربك» (2) أي لرضاه لا للناس، وفي مقابلة منع الماعون «وانحر» (2) واراد به التصدق بلحوم الأضاحي، قال : فاعتبر هذه المناسبة العجيبة. أنظرتناسق الدرر : ص : 158.

سبحانه من النعم مالا يأتي عليه حصر مما لا يناسب أدناه نعيم الدنيا بجملتها قال له منبها على عظيم ما أعطاه «ولا تمدن عينيك... إلى قوله ورزق ربك خير وأبقى» (طه : 131) فقد اضمحل في جانب نعمة الكوثر الذي أوتي كل ما ذكره تعالى في كتابه من نعيم أهل الدنيا، وتمكن من تمكن منهم وهذا أحد موجبات تأخير هذه السورة، فلم يقع بعدها ذكر شيء من نعيم الدنيا ولا ذكر أحد المتنعمين بها لانقضاء هذا الغرض وتمامه، وسورة الدين(787) آخر ما تضمن الاشارة إلى شيء من ذلك كما تقدم من إشارتها وتبين بهذا وجه تعقيبها والله أعلم.

ســورة الكافــرون(788)

لما انقضى ذكر الفريقين المتردد ذكرهما في الكتاب العزيز من أوله إلى آخره على اختلاف أحوال كل فريق وشتى درجاتهم وأعني بالفريقين من أشير إليه في قوله سبحانه «اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم» (الفاتحة : 6 ـ 7)، فهذا طريق أحد الفريقين، وفي قوله : «غير المغضوب عليهم ولا الضالين» (الفاتحة : 7) اشارة إلى طريق من كان في الطرف الآخر من حال أولئك الفريق، إذ ليس الا طريق السلامة أو طريق الهلاك، «فريق في الجنة وفريق في السعير» (الشورى : 7) «فمنكم كافر ومنكم مومن» (التغابن : 2) والسالكون طريق السلامة على درجات، فأعلى درجاتهم مقامات الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ثم يليهم أتباعهم من صالحي العباد وعلمائهم العاملين وعبادهم وأهل

(787) هي سورة الماعون.

(788) وتسمى أيضا «المقشقشة» من قشقش المريض إذا صح وبرأ، وتسمى ـ كما في جمال القراء ـ سورة العبادة، وتسمى أيضا «الاخلاص» قال ابن مسعود والحسن وعكرمة وابن عباس في أحد قوليه مكية، وقال ابن الزبير وقتادة وآخرون مدنية، ويظهر لي والله أعلم أنها مكية. وأما فضلها فقد أخرج الامام أحمد والنسائي في اليوم والليلة الحديث رقم 801 وأبو داود 5055 وغيرهم عن فروة بن نوفل عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال له : «إذا أخذت مضجعك فاقرأ : (قل يا أيها الكافرون» ثم نم على خاتمتها فإنها براءة من الشرك». وانظر أحاديث أخرى في فضلها في عمل اليوم والليلة ص : 468.

الخصوص منهم والقر،، ثم أحوال من تمسك بهم ورتبهم مختلفة، وإن جمعهم جامع وهو قوله: «فريق في الجنة»، وأما أهل التنكب عن هذه الطريق وهم الهالكون فعلى طبقات أيضاً، ويضم جميعهم طريق واحد، فكيف ما تشعبت الطرق فإلى ما ذكر من الطريقين مرجعهما وباختلاف سبل الجميع عرفت آي الكتاب وفصلت ذكره والقرب من أحوال من تمسك منهم ورتبهم مختلفة، وان جمعهم جامع وهو قوله : «فريق في الجنة»، وأما أهل التنكب عن هذه الطريق وهم الهالكون فعلى طبقات أيضا، ويضم جميعهم طريق واحد، فكيف ما تشعبت الطرق فالى ما ذكر من الطريقين مرجعهما وباختلاف سبل الجميع عرفت آي الكتاب وفصلت ذكره كله تفصيلا لا يبقى معه ارتياب لمن وفق،فلما انتهى ذلك كله بما يتعلق به، وتداولت بيانه الآي من لدن قوله بعد أم القرآن «هدى للمتقين» (البقرة : 2) إلى قوله : «ان شانئك هو الأبتر» (الكوثر : 3) أتبع ذلك بالتفاصيل والتسجيل فقال تعالى : «قل يل أيها الكافرون» (آية : 1) فبين سبحانه أن من قضى عليه بالكفر والموافاة عليه لا سبيل إلى خروجه عن ذلك، ولا يقع منه الايمان أبدا «ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليومنوا إلا ان يشاء الله» (الانعام : 111).

= أما سبب تأخيرها إلى هذا الموضع فقد أبدى فيه المصنف رحمه الله نظرا عجيبا.

ومما ظهر لي من مناسبتها أنه لما تقدم ما أعطاه الله تعالى لنبيه من الخير الكثير، ومن المخالفة للمنافقين والكافرين، في السورة السابقة جاءت هذه السورة لتعلن للكافرين أنه لا مساومة، ولا مداهنة، فلكم طريقكم ولي طريقي، وقد تقدمت بعض معالمه في «الكوثر» وأبرزها الصلاة، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام «بين الرجل والكفر ترك الصلاة».

وأيضا لما قال تعالى في السورة السابقة «إن شانئك هو الابتر» كان ذلك إذعانا لهم وحكما عليهم بأنهم سيموتون على الكفر، فكأن شانئك الذي قال هذه الكلمة مكتوب عليه أنه سيظل أبتر ولن يهتدي إلى الاسلام، شأن الأسود بن عبد المطلب، أمية بن خلف، العاصي بن وائل، الوليد بن المغيرة، فهذا فريق يقابله فريق آخر الفريق الموصول بالله، والفرقان لا يمكن أن يتخذ منهجهما في الحياة : لا في تصور العقيدة، ولا في الشريعة، ولا في طريقة التعبد ولا في منهج التفكير ولا في المبادىء، لذلك قال تعالى بعد سورة الكوثر «قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون.... إلى آخر السورة» فجاءت تعبيرا عن المعنى الذي نعبر عنه حديثا في العرف الديبلوماسي بقطع العلاقات،خاصة وقد أعقبت بسورة النصر، إيذانا بأن العاقبة لمحمد وأنصاره والدائرة ستكون حتما على مبغضي الرسول والكائدين له.

ولو أنهم بعد عذاب الآخرة، ومعاينة البعث وعظيم تلك الأهوال، وسؤالهم الرجوع إلى الدنيا وقولهم «ربنا أخرجنا(789) نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل» (فاطر : 3) فلو أجيبوا إلى هذا وارجعوا لعادوا إلى حالهم الأول، «ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه» (الأنعام : 28) تصديقا لكلمة الله واحكاما لسابق قدره «أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار» (الزمر : 19) فقال لهم «لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد إلى آخرها» (الكافرون : 2 — 6) فبان أمر الفريقين وارتفع الاشكال واستمر كل على طريقه «فلا تذهب نفسك عليهم حسرات» (فاطر : 3) «ان عليك إلا البلاغ» (الشورى : 48) فتأمل موقع هذه السورة وانها الخاتمة لما فصل في الكتاب يلح لك وجه تأخيرها والله أعلم.

ســـورة النصـــر(*)

لما كمل دينه واتضحت شريعته واستقر أمره ﷺ، وأدى أمانة رسالته حق أدائها عرف عليه السلام نفاذ عمره وانقضاء أجله، وجعلت على ذلك علامة دخول الناس في دين الله جماعات بعد التوقف والتثبط حكمة بالغة «ولو شاء الله لجمعهم على الهدى» (الأنعام : 35)، وأُمِر بالاكثار من الاستغفار المشروع في أعقاب المجالس وفي أطراف النهار وخواتم المأخذ مما عسى أن يتخلل من لغو أو فتور، فشرع سبحانه الاستغفار ليحرز لعباده من حِفظ أحوالهم ورَعي أوقاتهم ما

---

(789) في الأصل : فارجعنا.

(*) وهي مدنية بالاجماع، وقد جاء عن ابن عمر أنها نزلت وسط أيام التشريق من حجة الوداع في العام العاشر للهجرة، وتسمى سورة التوديع.

ومن مناسبتها ما أبداه الامام فخر الدين الرازي بقوله : كأنه تعالى يقول : لما أمرتك في السورة المتقدمة بمجاهدة الكفار بالتبري منهم وإبطال دينهم جزيتك عن ذلك بالنصر والفتح وتكثير الاتباع. وقال: ووجه آخر وهو أنه لما أعطاه الكوثر وهو الخير الكثير ناسب تحميله مشقاته وتكاليفه فعقبها بمجاهدة الكفار والتبري منهم، وإبطال دينهم عن ذلك بالنصر والفتح وتكثير الاتباع. وقال : ووجه آخر وهو أنه لما أعطاه الكوثر وهو الخير الكثير ناسب تحميله مشقاته وتكاليفه فعقبها بمجاهدة الكفار والتبري منهم فلما امتثل ذلك أعقبه بالبشارة بالنصر والفتح، وإقبال الناس أفواجا إلى دينه، وأشار إلى دنو أجله، فإنه ليس بعد الكمال إلا الزوال، أنظر تناسق الدرر : ص 159.

يكفي بعلي أجورهم كما وعدهم «وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته» (الأنعام : 115) وقد بسطت ما أشارت إليه هذه السورة العظيمة، وكل كلام ربنا عظيم فيما قيدته في غير هذا(790)، وأن أبا بكر رضي الله عنه عرف منها أن رسول الله ﷺ نعيت إليه نفسه الكريمة على ربه، وعرف بدنو أجله، وقد أشار إليه هذا الغرض أيضا بأبعد من الواقع في هذه السورة قوله تعالى : «اليوم أكملت لكم دينكم»... الآية (المائدة : 3) وسورة براءة، وأفعاله عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع، لكن لم يبلغنا استشعار أحد من الصحابة رضي الله عنهم يقين الأمر إلا من هذه السورة، وهي عَرَّفت بإشارة براءة وآية المائدة تعريفا شافيا واستشعر الناس عام حجة الوداع وعند نزول براءة ذلك لكن لم يستيقنوه، وغلّبوا رجاءهم في حياته ﷺ، ومنهم من توقف، فلما نزلت (إذا جاء نصر الله والفتح) استيقن أبو بكر رضي الله عنه ذلك استيقانا حمله على البكاء لما قرأها رسول الله ﷺ.

سورة المسد(791)

هذه السورة وان نزلت على سبب خاص وفي قصة معلومة فهي مع ما تقدمها واتصل بها في قوة أن لو قيل قد انقضى عمرك يا محمد وانتهى مما قلدته من عظيم أمانة الرسالة أمرك، وتأدية ما تحملته وحان أجلك، وامارة ذلك دخول الناس في دين الله أفواجا واستجابتهم بعد تلكؤهم، والويل لمن عاندك وعدل عن متابعتك، وان كان أقرب الناس إليك، فقد فصلت سورة «قل يا أيها الكافرون» بين أوليائك وأعدائك، وبان بها حكم من اتبعك ومن عاداك ولهذا سماها عليه

(790) لعله يقصد كتابه «ملاك التأويل» الذي بسط فيه أوجه تشابه الآي.

(791) وهي مكية بإجماع، وما أبداه المصنف وجه قوي، ويمكن أن يلاحظ من التناسب مع ما قبلها، أنه لما تقدم الاعلان بالنصر للنبي ﷺ من الله تعالى ناسب أن يأتي إعلان بإهلاك أعدائه ومناوئيه وحساده وشانئيه ولو كانوا من أقرب الناس إليه.

الصلاة والسلام المبرئة من النفاق(792)، ليعلم كفار قريش وغيرهم أنه لا اعتصام لأحد من النار إلا بالايمان وأن القرابات غير نافعة ولا تجديه شيئا إلا مع الايمان «لكم دينكم ولي دين» (الكافرون : 6) «أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون» (يونس : 41) «والمومنون والمومنات بعضهم أولياء بعض» (التوبة : 71) وها هنا انتهى أمر الكتاب بجملته.

ســـورة الاخـــلاص(*)

لما انقضى مقصود الكتاب العزيز بجملته عاد الأمر إلى ما كان وأشعر العالم بحالهم من ترددهم بين عدمين ثم الله ينشيء النشأة الآخرة، فوجودهم منه سبحانه وبقاؤهم به وهم وجميع ما يصدر عنهم من أفعالهم وأقوالهم، كل ذلك خلقه واختراعه، وقد كان سبحانه ولا عالم ولا زمان ولا مكان، وهو الآن على ما عليه كان لا يفتقر إلى أحد ولا يحتاج إلى معين، ولا يتقيد بالزمان ولا يتحيز بالمكان، فالحمد لله رب العالمين أهل الحمد ومستحقه مطلقا، له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم «قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد» (1ـ4) الموجود الحق وكلامه الصدق، وما هذه الحياة الدنيا إلا لعب ولهو، وللدار الآخرة للذين يتقون، فطوبى لمن استوضح آي كتاب الله وأتى الأمر

(792) وأخرج ابن أبي حاتم عن رراية بن أوفى قال : كانت هذه السورة تسمى المقشقشة. أنظر الدر المنثور : 6/ 404.

قال السيوطي : قال الامام (أي الفخر الرازي) وجه اتصالها بما قبلها أنه لما قال : «لكم دينكم ولي دين» (6) فكأنه قيل : إلهي، وما جزائي ؟ فقال الله له : النصر والفتح فقال : وما جزاء عمي الذي دعاني إلى عبادة الأصنام ؟ فقال : «تبت يدا أبي لهب» (1) الآيات.

قال : فتأمل هذه المجانسة الحافلة بين هذه السور مع سورة النصر من أواخر ما نزل بالمدنية والكافرون وتبت من أوائل ما نزل بمكة ليعلم أن ترتيب هذه السور من الله، وبأمره. أنظر تناسق الدرر : 160.

(*) تسمى هذه السورة بالاخلاص لما فيها من التوحيد، وسميت أيضا «الأساس» لأن التوحيد أساس وأصل لسائر أصول الدين.

قيل أنها مكية، وقيل مدنية، وفي فضلها وردت أحاديث كثيرة وأنها تعدل ثلث القرآن، أنظر الدر المنثور : 6/ 410 وما بعدها، وفضائل القرآن للنسائي ص : 82.

من بابه وعرف نفسه ودنياه وأجاب داعي الله ولم ير فاعلا في الوجود حقيقة إلا هو سبحانه، ولما كمل مقصود الكتاب واتضح عظيم رحمة الله به لمن تدبر واعتبر وأناب كان مظنة الاستعاذة واللجأ من شر الحاسد وكيد الأعداء، فختم بالمعوذتين من شر ما خلق وذرأ، وشر الثقلين.

سـورة الفلـق(*)

قد أشير، اى في الكلام على ارتباط الاخلاص إلى وجه ارتباطها آنفا وذلك أوضح ان شاء الله.

سـورة النـاس(*)

وجه تأخيرها عن شقيقتها عموم الأولى وخصوص الثانية، الا ترى عموم قوله «من شر ما خلق» (الفلق : 2) وابهام (ما) وتنكير غاسق وحاسد، والعهد فيما استعيذ من شره في سورة الناس، وتعريفه ونعته، فبدأ بالعموم، ثم أتبع

(*) سورة الفلق، وسورة الناس تسميان بالمعوذتين لافتتاحهما بقل أعوذ، وقد نزلتا معا بالمدينة في قول قتادة وأحد قولي ابن عباس، وهو الراجح وفي قول الحسن وعكرمة وآخرون أنهما مكيتان، وقد أمر النبي ﷺ أصحابه أن يكثروا من قراءتهما.

(*) أما مناسبة ختم القرآن بالمعوذتين فقد نقل السيوطي عن ابن جرير عن شيخه ابن الزبير في ذلك ثلاثة أمور :

الأول : لما كان القرآن العظيم من أعظم نعم الله على عباده، والنعم مظنة الحسد، فختم بما يطفىء الحسد من الاستعاذة بالله.

الثاني : إنما ختم بهما لأن رسول الله ﷺ قال فيهما : أنزلت على آيات لم أر مثلهن قط، كما قال في فاتحة الكتاب : لم ينزل في التوراة ولا في الانجيل ولا في القرآن مثلها : فافتتح القرآن بسورة لم ينزل مثلها، واختتم بسورتين لم ير مثلهما، ليجمع حسن الافتتاح والاختتام....

الثالث :إنه لما أمر القارىء أن يفتتح قراءته بالتعوذ من الشيطان الرجيم ختم القرآن بالمعوذين لتحصل الاستعاذة بالله عند أول القراءة وعند آخر ما يقرأ من القرآن، فتكون الاستعاذة اشتملت على طرفي الابتداء والانتهاء، ليكون القارىء محفوظا بحفظ الله الذي استعاذ به من أول الأمر إلى آخره. أنظر معترك الأقران : 1/ 77، 78.

بالخصوص ليكون أبلغ في تحصيل ما قصدت الاستعاذة منه وأوفى بالمقصود، ونظير هذا في تقديم المعنى الأعم ثم إتباعه بالأخص ليتناول الدقائق والجلائل قوله سبحانه : بسم الله الرحمن الرحيم فمعنى الرحمن ومعنى الرحيم واحد الا في عموم الصفة الأولى وكونها في المبالغة وقد تعرض لبيان ذلك المفسرون ولذلك نظائر.

الفهارس

1 — فهرس الموضوعات

الجزء الأول : الدراسة

الموضوع الصفحة

الموضوع — الصحفة

الموضوع	الصفحة
	175

الجزء الثاني : تحقيق النص

الموضوع	الصفحة

2 ــ فهرس الآيات القرآنية

الواردة في الدراسة مرتبة حسب الحرف الأول من الآية

3 — فهرس الأحاديث النبوية

4 — فهرس الأبيات الشعرية

5 ـــ فهرس الكتب

6 — فهرس الأعلام

مرتبة حسب حروف المعجم مع مراعاة اسقاط «أبو» و«ابن» و«ال»

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

ـ ف ـ

ـ ق ـ

ـ ك ـ

ـ ل ـ

ـ م ـ

الصفحة

— هـ —

— و —

— ي —

الصفحة

7 — فهرس البلدان

فهـــرس بأهم المصـادر والمراجـــع

الدراســـة والتحقيـــق

* الاتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي ت 911 هـ. ط المكتبة الثقافية بيروت 1937 م. والطبعة الأولى لسنة 1967 م مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني بمصر تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم.
* الإحاطة في اخبار غرناطة للسان الدين ابن الخطيب ت 776 هـ تحقيق محمد عبد الله عنان، ط 2 الشركة المصرية للطباعة والنشر 1973 م.
* أسباب النزول لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري وبهامشه الناسخ والمنسوخ لهبة الله بن سلامة ط عالم الكتب بيروت (دون تاريخ).
* الاصابة في تمييز اسماء الصحابة نسخة مصورة عن الطبعة الأولى 1328 هـ. للحافظ ابن حجرت : 852
* اصول الدين لعبد القاهر البغدادي
* الإعجاز البياني للقرآن الكريم ومسائل بن الأزرق لعائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ).
* إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق الرافعي، ط 9 سنة 1973 م نشر دار الكتاب العربي بيروت.
* الأعلام لخير الدين الزركلي ط 2 دار العلم للملايين بيروت وطبعة المطبعة العربية بمصر 1927 م.
* البحر المحيط لابي حيان الاندلسي ت 745 هـ، ط 1 سنة 1328 هـ مطبعة السعادة بمصر.
* البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع لمحمد بن علي الشوكاني ت 1250 ه، ط 1 سنة 1348 هـ مطبعة السعادة.
* برنامج الوادي آشي محمد بن جابرت 749 تحقيق محمد محفوظ ط 1 سنة 1980 دار الغرب الاسلامي بيروت.
* البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ت 794 هـ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ط 1 سنة 1957 دار احياء الكتب العربية.
* بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة لجلال الدين السيوطي تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم. ط القاهرة 1964 م.
* البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب لابي عبد الله محمد المراكشي ابن عذاري القسم الثالث، ط تطوان 1960.

* التاج الجامع للأصول في احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم لمنصور علي ناصف ط 2 للبابي الحلبي.
* تاج العروس للزبيدي ط 1 المطبعة الخيرية بجمالية مصر 1306 هـ.
* تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ت 1945 ترجمة عبد الحليم النجار والملحق رقم 2 من طبعة ليدن 1338 (الطبعة الألمانية).
* التاريخ الاندلسي من الفتح الاسلامي حتى سقوط غرناطة د. عبد الرحمن على الحجي ط 1 : دار القلم 1976.
* تاريخ توثيق نص القرآن الكريم لخالد عبد الرحمن العك توزيع دار القلم، دمشق بدون تاريخ.
* تاريخ الرسل والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ت 310 هـ تحقيق ابو الفضل ابراهيم، ط ذخائر العرب 1960 م.
* تاريخ القرآن لابراهيم الابياري ط. دار الشروق.
* تاريخ قضاة الأندلس المعروف بالمرقبة العليا لأبي الحسن النباهي ولد سنة 713 هـ. نشر المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ببيروت.
* تاريخ المذاهب الاسلامية لأبي زهرة ط دار الثقافة العربية للطباعة.
* تجريد أسماء الصحابة للذهبي ت. 748 هـ دار المعرفة بيروت نسخة مصورة.
* تحفة الاحوذي بشرح جامع الترمدي للمباركفوري ابن العلي محمد عبد الرحمن ت 1353 هـ. نسخة مصورة عن الطبعة الهندية.
* تذكرة الحفاظ للامام الذهبي نسخة مصورة ببروت.
* ترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض ت 544 هـ ط وزارة الأوقاف المغربية.
* التسهيل لعلوم التنزيل لأبن الجزى الكلبي ت 693هـ ط 2 سنة 1973 دار الكتاب العربي بيروت.
* التصوير الفني في القرآن للشهيد سيد قطب ط — 7 سنة 1971 م دار احياء التراث العربي بيروت.
* التفسير البياني للقرآن الكريم د : عائشة الرحمن دار المعارف مصر.
* التفسير الحديث لمحمد عزة دروزة : ط 1 بدار احياء الكتب العربية لعيسى البابي الحلبي مصر 1962.
* تفسير الطبري نسخة مصورة بدار الفكر بيروت 1968 م.
* تفسير القرآن الكريم منهج للميسر التربوي د. اسعد أحمد علي طبع بدار السؤال للطباعة والنشر بدمشق 1979م.
* تفسير القرطبي الجامع لاحكام القرآن نسخة مصورة بدار احياء التراث العربي بيروت.
* تفسير ابن كثير ط 2 : 1970 بدار الفكر بيروت. والعزوالها
* التفسير الكبير للفخر الرازي ت 606 هـ طبع سنة 1934، المطبعة البهية المصرية الأزهر.

* تفسير المراغي نشر مكتبة ز مطبعة البابي الحلبي بمصر ط 3.
* تفسير المنار للشيخ محمد عبده، ت 1923 ط، 4 سنة 1373 هـ مكتبة القاهرة.
التكملة لكتاب الصلة لأبي عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي المعروف بابن الأبارت 659 هـ ط القاهرة 1963.
* تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير للحافظ ابن حجر العسقلاني ت 852 هـ. نشر السيد عبد الله هاشم اليماني 1384 هـ.
* تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على السنة الناس من الحديث لعبد الرحمن بن علي بن محمد بن عمر الشيباني ط 1، المطبعة العامرة الشرفية 1321 هـ بمصر.
* تناسق الدرر في تناسب السور (أسرار ترتيب السور) للسيوطي تحقيق عبد القادر أحمد عطا. ط 2 : سنة 1978 دار الاعتصام.
* تهذيب الأسماء واللغات ليحيى بن شرف النووي ت 676 هـ ط 1 المنيرية.
* تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ت 852 هـ ط مصورة عن الطبعة الهندية.
* ثبت البلوي أبي جعفر الوادي آشي ت 938 هـ تحقيق عبد الله العمراني ط 1 سنة 1983م دار الغرب الاسلامي بيروت.
* جامع الترمذي مع تحفة الاحوذي للمباركفوري نسخة مصورة بدار الكتاب العربي بيروت.
* الجامع الصحيح للامام مسلم ت 261 هـ. ضبط محمد فؤاد الباقي.
* الجامع الصغير للسيوطي مع فيض القدير للمناوي نشر دار المعرفة بيروت 1972 هـ
* الجمع الصوتي للقرآن الكريم د. لبيب السعيد ط 2 سنة 1978 دار المعارف بيروت.
* جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد، لمحمد بن سليمان الروداني ت 1094 هـ ط عبد الله هاشم اليماني.
* جواهر البيان في تناسب سور القرآن للنسخ عبد الله بن الصديق الغماري الحسني، مطبعة محمد عاطف وسيد طه بمصر (دون تاريخ).
* جواهر القرآن للامام الغزالي ط ت 505 هـ ط 5 دار الآفاق الجديدة بيروت 1981.
* حق التلاوة لحسن شيخ عثمان ط 2 سنة 1977 م مؤسسة الرسالة المكتبة السلفية.
* حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم ت 430 هـ طبع المكتبة السلفية.
* الحلية السيراء لابن الابار تحقيق حسين مؤنس القاهرة 1967 هـ.
* الخصائص الكبرى للسيوطي ط دار الكتب العلمية بيروت توزيع دار الباز مكة المكرمة.
* درة الحجال في اسماء الرجال لأبي العباس أحمد بن محمد المكناسي (ابن القاضي). ت 1025 هـ تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، 1970 م.
* الدرر المنثور في التفسير بالمأثور للحافظ جلال الدين السيوطي ت 911 نسخة مصورة عن طبعة طهران.

* الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني ط دار الجيل.
* الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة للسيوطي تحقيق الشيخ خليل محيى الدين الميس ط 1 دار العربية 1984 م.
* الديباج المذهب لابن فرحون اليعمري ت 799 هـ تحقيق د محمد الأحمدي أبو النور، ط مكتبة دار التراث، القاهرة.
* الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة لابن عبد الملك المراكشي ت 703هـ تحقيق د. محمد بن شريفة، واحسان عباس. ط دار الثقافة بيروت.
* الرسول صلى الله عليه وسلم للشيخ سعيد حوى ط 3 سنة 1973.
* الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة لمكي بن أبي طالب القيسي ت 437هـ، د أحمد حسن فرحات، ط دار المعارف للطباعة دمشق 1973 م.
* روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لأبي الفضل محمد الألوسي ت 1270 هـ ط إدارة الطباعة المنيرية بمصر.
* سنن أبي داود سليمان بن الاشعث السجستاني ت 275 هـ ضبط وتعليق محيي الدين عبد الحميد نشر دار احياء السنة النبوية.
* سنن ابن ماجة القزويني ت 275 هـ ط دار احياء الكتب العربية 1372 هـ ضبط محمد فؤاد عبد الباقي.
* سنن الدارمي ــ عبد الله بن عبد الرحمن ت 252 هـ نشر عبد الله هاشم اليماني.
* سيرة ابن هشام ت 218 هـ ضبط وتعليق محمد يحيى الدين عبد الحميد ط: دار الفكر.
* شجرة النور الزكية لمحمد بن محمد بن مخلوق ط مصورة عن الطبعة الأولى المطبعة السلفية بمصر 1349 هـ.
* شذرات الذهب في خبر من ذهب لابن العماد الحنبلي ت 1089 هـ ط 1 بدون تاريخ نسخة مصورة بالمكتب التجاري بيروت.
* الشعر والشعراء لابن قتيبة تحقيق أحمد محمد شاكر ط دار التراث العربي بيروت.
* الشفا للقاضي عياض ت 544 هـ نشر المكتبة التجارية الكبرى وتوزيع دار الفكر.
* صحيح ابن حبان دار الكتب العلمية بيروت تحقيق محمد عبد الرزاق حمزة.
* الصلة لابن بشكوال ط الدار المصرية للتأليف والترجمة 1966.
* صلة الصلة لابن الزبير ت 708 هـ القسم الأخير من الكتاب تصحيح وتعليق أ، ليفي بروفنسال المطبعة الاقتصادية بالرباط 1938 م.
* طبقات ابن سعد : نسخة مصورة، ط دار صادر بيروت.
* طبقات الحفاظ للسيوطي، تحقيق علي محمد عمر ط 1 سنة 1973 مطبعة الاستقلال الكبرى، نشر مكتبة وهبة.

* طبقات المالكية (مجهول المؤلف) مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 3928 د.
* طبقات المفسرين لشمس الدين محمد بن علي الداودي ت 945 تحقيق علي محمد عمر ط 1 مطبعة الاستقلال الكبرى، نشر مكتبة وهبة.
* العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العجم والعرب والبربر ومن ذوي الشأن الأكبر، لعبد الرحمن بن خلدون، ط بيروت 1958 — 1959.
* عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس لمحمد عبد الله عنان ط القاهرة 1964.
* عمل اليوم والليلة للامام النسائي ت 303 تحقيق د. فاروق حمادة، ط 1 مطبعة النجاح بالدار البيضاء.
* عيون الأثر في فنون المغازي والسير لابن سيد الناس ت 747 هـ نشر دار المعرفة بيروت.
* غاية النهاية في طبقات القراء لابن الأثير الجزري ت 833 هـ عني بنشره ج برجستراسر، ط دار الكتب العلمية — بيروت، 1980.
* فتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ أحمد بن حجر العسقلاني ت 852 ط المطبعة السلفية.
* الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ت 456 هـ ط 1 بمصر.
* فضائل القرآن لابن كثير ت 774 هـ ط 4 سنة 1979 دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
* فضائل القرآن للنسائي ت 303 هـ تحقيق د. فاروق حمادة ط سنة 1980 نشر دار الثقافة بالدار البيضاء.
* الفهرست لابن النديم ت 385 هـ ط المطبعة الرحمانية بمصر (بدون تاريخ).
* فهرسة الشيخ عبد الرحمن بن ادريس المنجرة المسماة «الاسناد الشفيع يوم التناد» مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 2285.
* فهرس الفهارس والاثبات لعبد الحي الكتاني، ط المطبعة الجديدة بالطالعة 1946 هـ فاس.
* في ظلال القرآن لسيد قطب، ط 7 سنة 1971، دار احياء التراث العربي، بيروت.
* القرآن نزوله تدوينه ترجمته تأثيره لبلاشير ترجمة رضا سعادة ط 1 سنة 1974، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
* الكشاف للزمخشري
* كشف الاستار عن زوائد البزار لنور الدين الهيثمي ط 1 تحقيق الشيخ الأعظمي.
* كشف الظنون لحاجي خليفة مصورة عن ط 1 منشورات مكتبة المثنى بغداد.
* لسان العرب لابن منظور، اعداد وتصنيف يوسف خياط ونديم مرعشلي ط.
* العلم د. بشير التركي ط 1 سنة 1979 مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل.
* مباحث في علوم القرآن، د صبحي الصالح ط 10 سنة 1977 دار العلم للملايين، بيروت.
* مجلة الأمة عدد 32 شعبان 1403 هـ.

- المحرر الوجيز لابن عطية ت 599 هـ ط. وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، المغرب.
- مدخل إلى القرآن الكريم عرض تاريخي وتحليل مقارن، د محمد عبد الله دراز ط، دار القلم، دار القرآن الكريم، الكويت.
- مدخل إلى علوم القرآن والتفسير د. فاروق حمادة ط 1 سنة 1979 مكتبة المعارف، الرباط.
- المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا (تاريخ قضاة الأندلس) لأبي الحسن النباهي ولد سنة 713 هـ نشر المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
- المستدرك على الصحيحين لابي عبد الله الحاكم ت 405 هـ نسخة مصورة بدار المعرفة، بيروت.
- مسند الامام أحمد بن حنبل الشيباني ت 241 هـ ط 1 بمصر نسخة مصورة عنها، نشر المكتب الاسلامي ودار صادر بيروت.
- المصاحف لابن ابي داود السجستاني ت 316 هـ، المطبعة الرحمانية القاهرة 1355هـ
- مصادر السيرة النبوية د. فاروق حمادة، ط 1 دار الثقافة، الدار البيضاء.
- المصباح المنير لشهاب الدين الفيومي ط، مصطفى بابي الحلبي — مصر.
- مصنف ابن أبي شيبة ت 235 هـ تحقيق عبد الخالق الأفغاني ط 2 سنة 1979، الهند.
- مصنف عبد الرزاق بن همام الصنعاني ت 211 هـ ط 1 سنة 1970 تحقيق الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي.
- معترك الاقران في اعجاز القرآن للامام السيوطي تحقيق محمد علي البجاوى ط دار الفكر العربي.
- مع الرعيل الأول لمحب الدين ابن الخطيب ط 1، مصر.
- المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي ت 647 هـ تحقيق محمد سعيد العريان، ط القاهرة 1960.
- المعجم في اصحاب الصدفي لابن الابار القضاعي ت 658 ط دار الكتاب العربي، القاهرة 1967.
- معجم البلدان لياقوت الحموي ط، دار صادر بيروت 1957.
- المعجم الكبير للطبراني ت 360 هـ ط 1 تحقيق الشيخ حمدي السلفي.
- معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة، ط دار احياء التراث العربي — بيروت.
- معرفة القراء الكبار للذهبي ط 1 تحقيق محمد سيد جاد الحق.
- المغرب في حلي المغرب لابن سعيد الاندلسي ت 685 تحقيق شوقي ضيف ط القاهرة 1964.
- المغني في الضعفاء للامام الذهبي ت 748 تحقيق د. نور الدين عتر ط 1.
- المقاصد الحسنة للسخاوى شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت 902 هـ نشر مكتبة الخانجي 1375 هـ.
- مكتبة جلال الدين السيوطي، احمد الشرقاوي اقبال ط دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1977.
- ملاك التأويل القاطع بذوي الالحاد والتعطيل لابن الزبير ت 708 ه ط 1 سنة 1988 دار الغرب الاسلامي، بيروت.

* الملل والنحل للشهر ستاني ت 548 هـ ط 1 المطبعة الادبية 1317 هـ.
* مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، ط دار الفكر (دون تاريخ).
* من روائع القرآن تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل، د. محمد سعيد رمضان البوطي ط 5 سنة 1977، مكتبة الفارابي.
* الموسوعة المغربية للاعلام البشرية والحضارية للاستاذ عبد العزيز بن عبد الله ط، وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، المغرب 1975.
* الموطأ للامام مالك ت 179 هـ ط دار احياء الكتب العربية، مصر.
* النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم د. محمد عبد الله دراز ط 2 سنة 1970 دار القلم، الكويت.
* نبوة محمد في الكتاب المقدس د أحمد حجازي السقا ط 1 سنة 1978 دار الفكر العربي.
* نظم الدرر في تناسب الآي والسورة للبقاعي ابراهيم بن عمر بن حسن الرباط ت 885 هـ، مخطوط الخزانة العامة رقم 181 ق ونسخة الخزانة الملكية رقم 2695 ــ الرباط.
* النشر في القراءات العشر لابن الجزري ت 833 هـ ط المكتبة التجارية الكبرى تصحيح محمد علي الضباع.
* نظم المتناثر في الحديث المتواتر للسيوطي تحقيق الشيخ خليل محيي الدين الميس ط 1 سنة 1984 ط دار العربية.
* نظم المتناثر في الحديث المتواتر للسيد محمد بن جعفر الكتاني نشر دار الكتب العلمية بيروت 1980 مصورا عن ط فاس 1328 هـ.
* نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب لابي العباس احمد المقري ت 1041 هـ تحقيق د. احسان عباس، بيروت 1968.
* نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين لمحمد عبد الله عنان ط القاهرة 1966.
* النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ت 606 هـ تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، نشر المكتبة الاسلامية.
* نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار للامام محمد بن علي الشوكاني ت 1250 هـ، ط مصطفى البابي الحلبي بمصر (دون تاريخ).
* هدية العارفين لاسماعيل باشا البغدادي، نسخة مصورة عن طبعة اسطانبول 1951 م منشورات مكتبة المثنى، بغداد.
* الوافي بالوفيات لصلاح الدين بن أبيك الصفدي ت 764 هـ.
* وفيات الاعيان لابن خلكان احمد القاضي ت 681 ه ط 1 بدون تاريخ.

رقم الإيداع القانوني 1990/251

مطبعة فضالة
زنقة ابن زيدون ـ المحمدية (المغرب)
الهاتف: 32.46.45 (03) الفاكس: 32.46.43 (03)